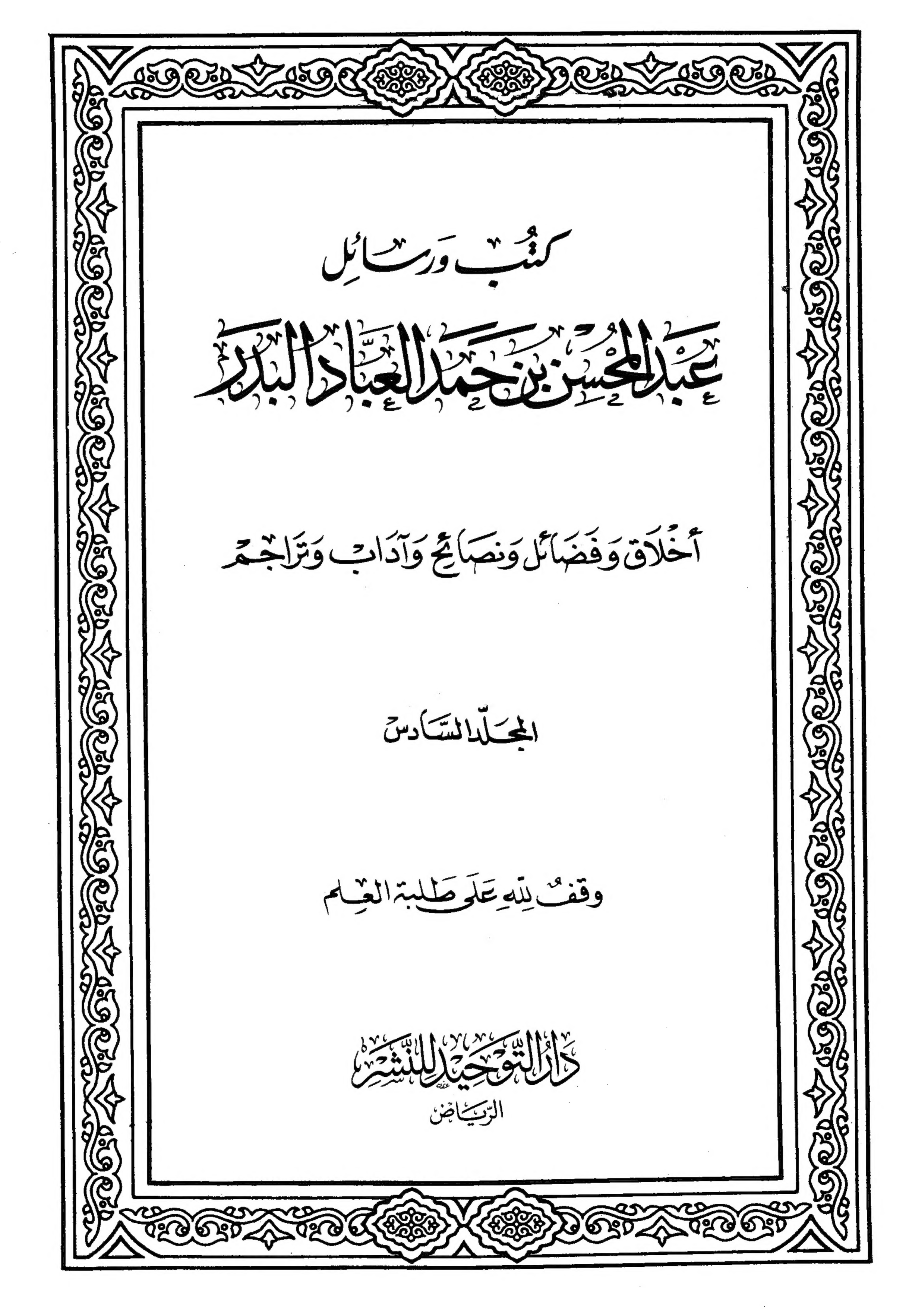


كتب ورسائل

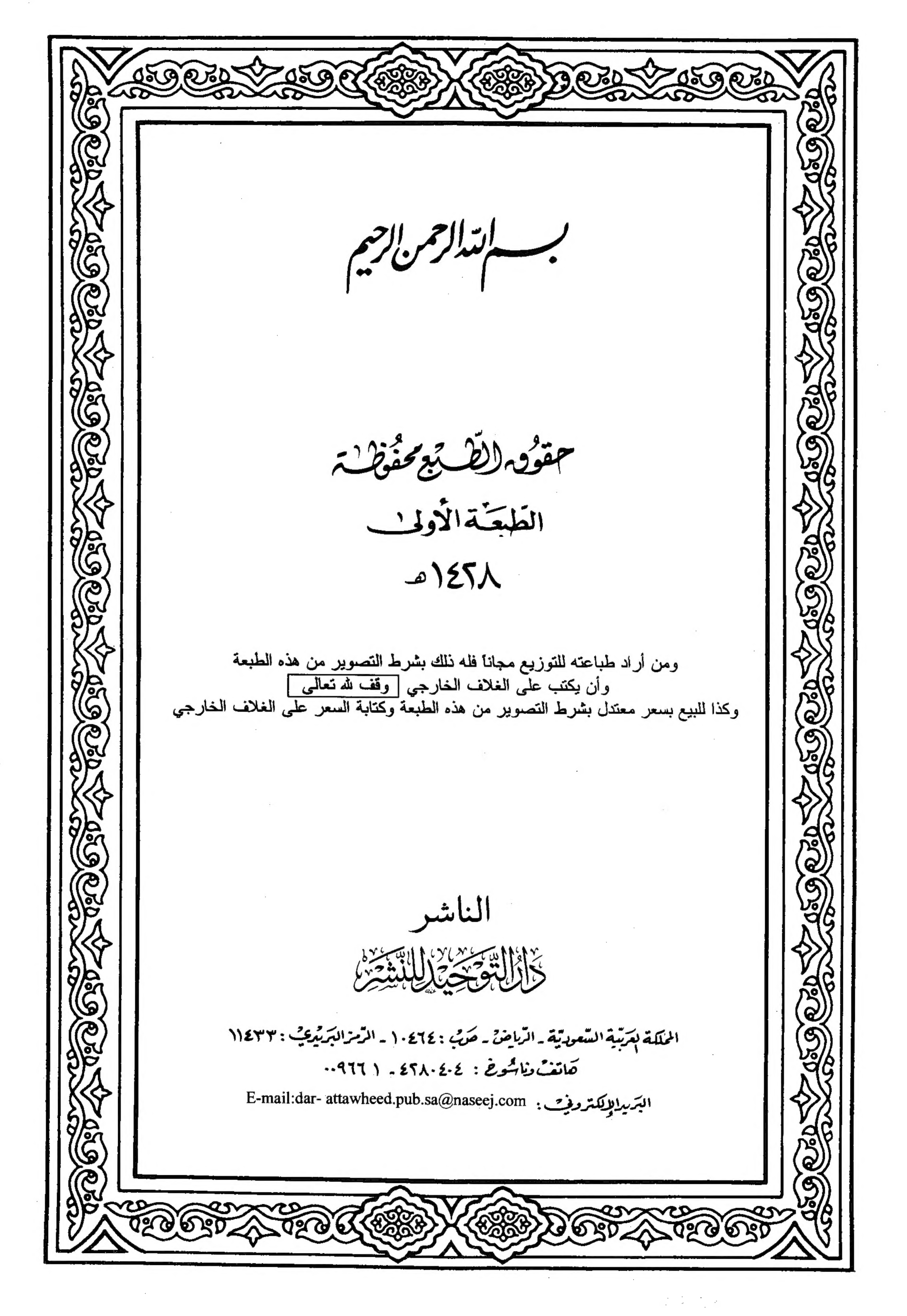
عبد المحسن بن حمد العباد البدر

أخلاق وفضائل ونصائح وآداب وتراجم

المجلد السادس

وقف لله على طلبة العلم

دار التوحيد للنشر
الرياض



بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

١٤٢٨ هـ

الناشر

دار التوحيد للنشر

المملكة العربية السعودية - الرياض - ص ب : ١٠٤٦٤ - الرمز البريدي : ١١٤٣٣

هاتف وناسوخ : ٤٢٨٠٤٠٤ - ١ ٠٠٩٦٦

البريد الإلكتروني : E-mail:dar- attawheed.pub.sa@naseej.com

كتب ورسائل

عبد المحسن بن حمد العباد البدر

القرآن الكريم:

١ ـ آياتٌ متشابهات الألفاظ في القرآن الكريم وكيف التمييز بينها.

٢ ـ من كنوز القرآن الكريم.

الحديث (القسم الأول):

٣ ـ عشرون حديثاً من صحيح البخاري، دراسة أسانيدها وشرح متونها.

٤ ـ عشرون حديثاً من صحيح مسلم، دراسة أسانيدها وشرح متونها.

الحديث (القسم الثاني):

٥ ـ شرح حديث جبريل في تعليم الدِّين.

٦ ـ فتح القوي المتين في شرح الأربعين وتتمَّة الخمسين، للنووي وابن رجب رحمهما الله.

٧ ـ كيف نستفيد من الكتب الحديثية الستة.

٨ ـ اجتناء الثَّمَر في مصطلح أهل الأثر.

٩ ـ دراسة حديث: «نضَّر الله امرءاً سمع مقالتي» رواية ودراية.

العقيدة:

١٠ ـ قطف الجنى الداني شرح مقدمة رسالة ابن أبي زيد القيرواني.

١١ ـ عقيدة أهل السنة والجماعة في الصحابة الكرام رضي الله عنهم وأرضاهم.

١٢ ـ التحذير من تعظيم الآثار غير المشروعة.

١٣ ـ الحث على اتباع السنة والتحذير من البدع وبيان خطرها.

١٤ ـ عقيدة أهل السنة والأثر في المهدي المنتظر.

١٥ ـ مقدمة وتعليقات على تطهير الاعتقاد وشرح الصدور للصنعاني والشوكاني.

الفقه:

١٦ ـ أهمية العناية بالتفسير والحديث والفقه.

١٧ ـ منهج شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب في التأليف.

١٨ ـ شرح شروط الصلاة وأركانها وواجباتها، لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله.

١٩ ـ شرح كتاب آداب المشي إلى الصلاة، المشتمل على أحكام الصلاة والزكاة والصيام، لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله.

أخلاق وفضائل ونصائح وآداب وتراجم:

٢٠ ـ من أخلاق الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم.

٢١ ـ فضل الصلاة على النبيِّ صلى الله عليه وسلم وبيان معناها وكيفيتها وشيء مما أُلِّف فيها.

٢٢ ـ فضل أهل البيت وعلو مكانتهم عند أهل السنة والجماعة.

٢٣ ـ فضل المدينة وآداب سكناها وزيارتها.

٢٤ ـ ثلاث كلمات في الإخلاص والإحسان والالتزام بالشريعة.

٢٥ ـ أثر العبادات في حياة المسلم.

٢٦ ـ العبرة في شهر الصوم.

٢٧ ـ من فضائل الحج وفوائده.

٢٨ ـ بأيِّ عقل ودين يكون التفجير والتدمير جهاداً؟!

٢٩ ـ بذل النصح والتذكير لبقايا المفتونين بالتكفير والتفجير.

٣٠ ـ رفقاً أهل السنة بأهل السنة.

٣١ ـ العدل في شريعة الإسلام وليس في الديمقراطية المزعومة.

٣٢ ـ كيف يؤدِّي الموظف الأمانة؟

٣٣ ـ من أقوال المنصفين في الصحابي الخليفة معاوية رضي الله عنه.

٣٤ ـ عالم جهبذ ومَلِكٌ فذ (الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ، والملك فيصل رحمهما الله).

٣٥ ـ الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله نموذج من الرعيل الأول.

٣٦ ـ الشيخ محمد بن عثيمين رحمه الله من العلماء الربانيين.

٣٧ ـ الشيخ عمر بن محمد فلاته رحمه الله وكيف عرفته.

الردود:

٣٨ ـ أغلوٌّ في بعض القرابة وجفاء في الأنبياء والصحابة؟!

٣٩ ـ الانتصار للصحابة الأخيار في ردِّ أباطيل حسن المالكي.

٤٠ ـ الانتصار لأهل السنَّة والحديث في ردِّ أباطيل حسن المالكي.

٤١ ـ الدفاع عن الصحابي أبي بكرة رضي الله عنه ومروياته، والاستدلال لمنع ولاية النساء على الرجال.

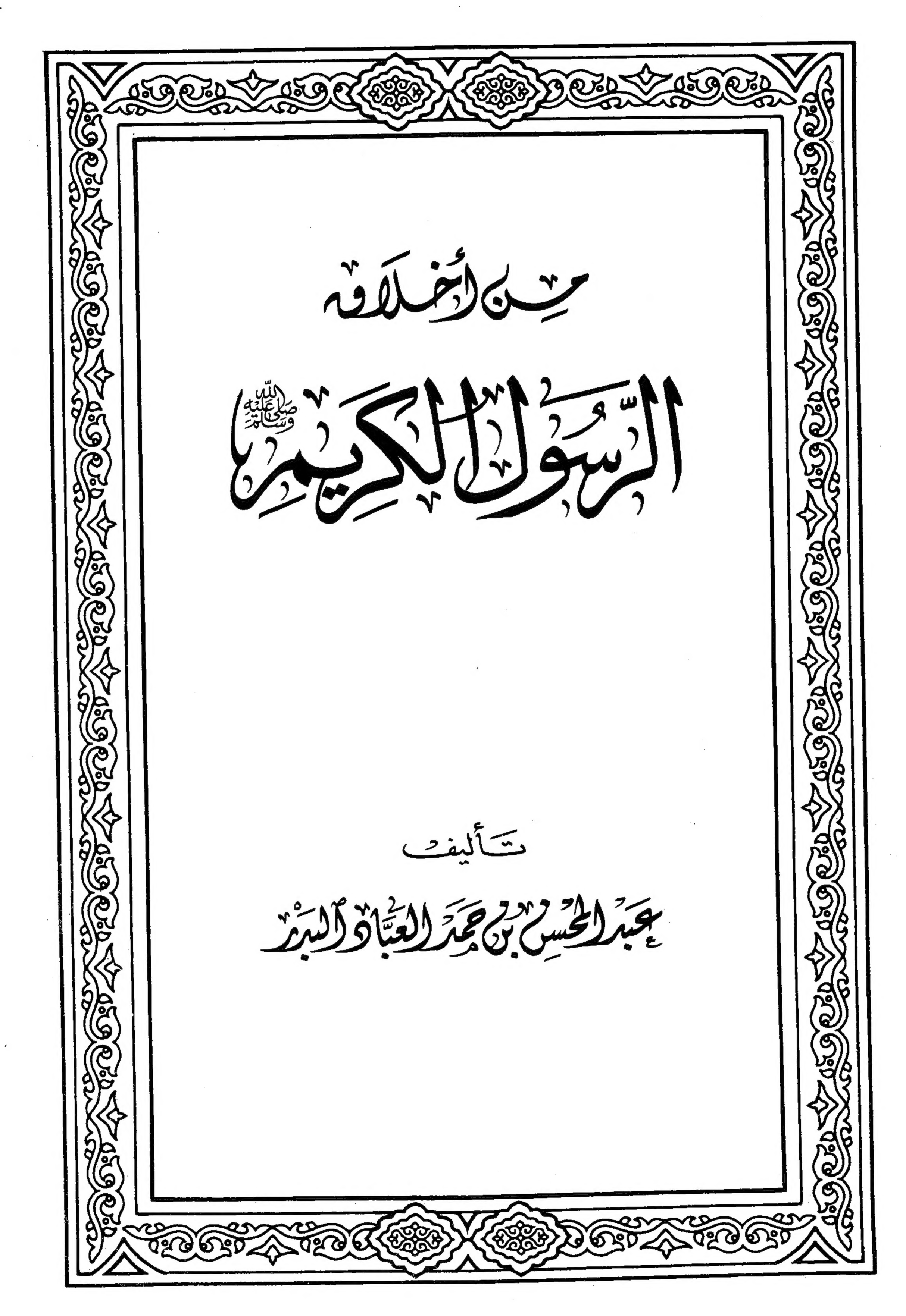
٤٢ ـ الرد على الرفاعي والبوطي في كذبهما على أهل السنة ودعوتهما إلى البدع والضلال.

٤٣ ـ الرد على من كذب بالأحاديث الصحيحة الواردة في المهدي.

٤٤ ـ الفوائد المنتقاة من فتح الباري وكتب أخرى.







من أخلاق الرسول الكريم ﷺ

تأليف

عبد المحسن بن حمد العباد البدر



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، نحمده سبحانه ولا نحصي ثناء عليه، أرسل نبيه محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق؛ ليظهره على الدين كله، فارتضى له الإسلام ديناً، وجعل القرآن له خلقاً، امتن عليه بالصفات الفاضلة ثم أثنى عليه قائلاً: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾، وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، له الخلق والأمر وبيده الخير وهو على كل شيء قدير، يعطي من يشاء بفضله، ويمنع من يشاء بعدله، قسم بين الناس أخلاقهم كما قسم بينهم أرزاقهم، فجعل نصيب المصطفى ﷺ من الرزق كفافاً، ومن الأخلاق أكملها وأحسنها وأوفاها، ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وخليله وخيرته من خلقه، بعثه الله إلى أهل المعمورة؛ ليجدد به صلة السماء بالأرض، فأنزل عليه الكتاب مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه، ختم به الرسل، وختم بكتابه الكتب، وجعله معجزته الخالدة، فهدى الناس به إلى الصراط المستقيم، وحذرهم السبل التي تنتهي بهم إلى الجحيم، وأخرجهم به من الظلمات إلى النور، ومن وحشة القلوب وتقلباتها في أنواع المعبودات إلى أنسها وثباتها على عبادة فاطر السموات والأرض، قد أعظم الله عليه المنة وأتم به وعليه النعمة، إذ بعثه ليتم مكارم الأخلاق.

اللهم صل وبارك على عبدك ورسولك نبينا محمد وعلى آله وأصحابه الذين اختارهم الله لصحبته ونشر سنته، فجعلهم طليعة الأخيار وصفوة الأبرار، وعلى من سلك سبيلهم وسار على منوالهم مترسماً خطاهم، مقتفياً

آثارهم، عامر القلب بحبهم، رطب اللسان بذكرهم بالجميل اللائق بهم، والثناء عليهم بما هم أهله، والدعاء لهم بما علمنا الله في قوله: ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾.

أما بعد: فموضوع هذه المحاضرة[١] موضوع حبيب إلى النفوس المؤمنة هو: **من أخلاق الرسول الكريم** ﷺ وكيف لا يكون حبيباً إلى النفوس الحديثُ عن أخلاق نبي بعثه الله رحمة للعالمين، نبي لا نكون مؤمنين حتى يكون أحبَّ إلينا من أنفسنا ووالدينا والناس أجمعين، نبي لا يؤمن أحدنا حتى يكون هواه تبعاً لما جاء به ﷺ، نبي رغم أنفُ ثم رغم أنف ثم رغم أنف من ذكر عنده فلم يصل عليه، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين.

وهذا الموضوع العظيم الذي اخترته وآثرت الحديث فيه أعتذر مقدما عن تقصيري في توفيته حقه، وأعتقد أن توفيته حقه على الحقيقة نادر إن لم يكن متعذراً لكنه جهد مقل وكما يقولون: ما لا يدرك كثيره لا يترك قليله.

وأسأل الله العظيم رب كل شيء ومليكه أن يوفقنا جميعاً للتأدب بآداب هذا النبي الكريم صلوات الله ـ وسلامه عليه ـ وأن يحيينا على دين الإسلام الذي ارتضاه لنا دينا حتى يتوفانا عليه إنه ولي ذلك والقادر عليه ولا حول ولا قوة إلَّا به.

وقبل الشروع في الموضوع أرى أن أتحدث بين يديه إجمالاً عن شدة الحاجة

---

(١) ألقيت هذه المحاضرة في الجامعة الإسلامية عام ١٣٨٣هـ.

إلى بعثته ﷺ، واختيار الله له، واعتراض المشركين على ذلك، والامتنان على الناس ببعثته، وضرب أمثلة للأمور والخصال التي حصلت بين يدي بعثته توطئة وتمهيداً لها.

شدة الحاجة إلى بعثته ﷺ

ما أكثر نعم الله على عباده، وما أحوجهم دائماً وأبداً إلى شكره سبحانه على هذه النعم التي امتن عليهم بها في قوله: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ ﴾، وقوله: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾.

وأعظم نعمة أنعم الله بها على هذه الأمة أن بعث فيها رسوله الكريم محمداً ﷺ ليرشد إلى كل نافع في الحاضر والمستقبل ويحذر من كل ضار في العاجل والآجل، أرسله على حين فترة من الرسل واندراس من الكتب، في وقت انتشرت فيه الضلالة وعمّت فيه الجهالة وبلغت البشرية منتهى الانحطاط في العقائد والعادات والأخلاق، فأخرجهم به من هوة الضلالة ورفعهم إلى صرح العلم والهداية، فأزاح به عن النفوس تعلقها بغير خالقها وفاطرها سبحانه وتعالى، ووجهها إليه بقلبها وقالبها حتى لا يكون فيها محل لغيره سبحانه.

بل تكون معمورة بحبه، وخوفه، ورجائه، والتوكل عليه، والإنابة إليه، تستسلم لأوامره، وترعوي عن زواجره ونواهيه.

شيء من أمراض القلوب التي انتشرت قبيل بعثته ﷺ وكيف عالجها صلوات الله وسلامه عليه

خلق الله الإنسان مركباً من شيئين: بدنٍ وروح، وجعل لكل منهما ما يغذيه وينميه، وأرشد إلى طرق العلاج التي يعالج بها كل منهما عندما يطرأ عليه مرض أو سقم، فقد أغدق نعمه على عباده وقال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ

لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾.

أما الروح فقد استحكمت أمراضها قبل بعثته ﷺ حتى كانت من قبيل الأموات، فأحياها الله بما بعث به نبيه ﷺ من الهدى والنور ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾، وأرشد سبحانه إلى أن شفاء أمراضها وجلاء أسقامها إنما هو بما أنزل الله على محمد ﷺ فقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾، وقال: ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ﴾.

نعم لقد بعث الله نبيه ﷺ في مجتمع انتشرت فيه الأمراض القلبية على اختلافها وتنوعها، وأعظم هذه الأمراض على الإطلاق تعلق القلوب بغير الله، وصرف خالص حقه سبحانه إلى غيره من مخلوقاته، فعالج ﷺ هذا المرض الخطير والداء العضال باستئصاله وتطهير القلوب من أدرانه أولاً، ثم شغلها وعمارتها بحب الله وخوفه ورجائه وإفراده بالعبادة وحده لا شريك له؛ لكونه سبحانه المتفرد بالخلق والإيجاد، فهو بحق المستحق لأن يعبد وحده لا يعبد معه غيره كائنا ما كان.

وقد لقي ﷺ من المشركين في هذا السبيل ألواناً مختلفة من الإيذاء، فصبر حتى ظفر بنصر الله وتأييده، وكانت العاقبة له ﷺ وأنصاره ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾، ﴿ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾.

ولقي أيضاً منهم ألواناً من المعارضة والتعنت أوضحها الله في كتابه العزيز في سورة الحجر والإسراء وغيرهما من سور القرآن، ومن ذلك ما ذكره الله عنهم في سورة (ص) حيث قال عزَّ وجلَّ: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ

إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ۝٧ أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا ﴾.

وقد حملهم على هذه المقالة الكبر والحسد، ومثل هذه المقالة التي حكاها الله عن كفار قريش ما ذكره الله سبحانه في سورة القمر عن قوم صالح بقوله: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ۝٢٣ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ۝٢٤ أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴾.

وأبرز الطرق التي عالج بها ﷺ ذلك الداء الذي هو أعظم الأدواء على الإطلاق إلزام الكفار بأن يفردوا الله بالعبادة لما كانوا معترفين بانفراده سبحانه بالربوبية، وأكتفي بالتمثيل بآيات أوضحت تلك الطريقة غاية الإيضاح، وذلك قوله سبحانه: ﴿ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٥٩ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ۝٦٠ أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦١ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٦٢ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٦٣ أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾.

وبما ذكره الله سبحانه في سورة الحج من التصوير العجيب والتمثيل البليغ لعجز المعبودات التي أشركوها مع الله حيث قال سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ

ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾.

ومن الأمراض التي عالجها ﷺ بحكمته الظلم، والجور، وازدراء المساكين، والتفاخر بالأحساب، والأنساب، فنشر فيهم العدل، وعمّهم الاطمئنان والاستقرار، وصار مقياس الفضل بينهم تقوى الله بدلاً من اعتبار ذلك بالحسب والنسب، وقد أعلنها ﷺ صريحة في حجة الوداع في أعظم جمع شهده ﷺ حيث قال: « ألا لا فضل لعربي على عجمي ولا لأسود على أحمر إلّا بالتقوى، خيركم عند الله أتقاكم ».

ولما بلغه ﷺ شأن المخزومية التي سرقت أمر بقطع يدها، فراجعه أسامة ابن زيد فأنكر ﷺ عليه ذلك وقال ﷺ المقالة التي برهن بها عن مدى تحقيق العدالة: « وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها ».

وقد أشار ﷺ في جوابه لأسامة بن زيد إلى أن العدول عن العدل سبب هلاك الأمم المتقدمة حيث قال: « إنما هلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ».

ولما قسم ﷺ غنائم حنين وأكثر العطاء للمؤلفة قلوبهم وجد الأنصار رضي الله عنهم في أنفسهم شيئاً؛ إذ لم يصبهم ما أصاب الناس فأتى إليهم ﷺ وقال: « ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله بي؟ وكنتم متفرقين فألفكم بي؟ وعالة فأغناكم الله بي؟ ».

وقد ذكّرهم الله سبحانه في كتابه العزيز بهذه النعمة وأنها من أعظم النعم عليهم فقال: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ وَٱذْكُرُوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ

عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ﴾، وقال سبحانه: ﴿ وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾.

هذه بعض الأمراض التي انتشرت قبل بعثته ﷺ، فمنّ الله سبحانه وتعالى على البشرية بإرسال رسوله الكريم محمدٍ ﷺ لينقلها من ذل عبادة المخلوق إلى عز طاعة الخالق جلّ وعلا، ومن الظلم والجور وسفك الدماء إلى ساحة العدل والأمن والاطمئنان، ومن الفرقة والاختلاف إلى الاجتماع والائتلاف، ومن التعاون على الإثم والعدوان إلى التعاون على البر والتقوى، ومن الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن الغش والخيانة إلى النصح والأمانة، ومن الجزع والهلع والاعتراض على قضاء الله إلى الصبر والثبات والرضى بما قدره الله وقضاه، وفي الجملة: من كل ضار عاجلاً وآجلاً إلى كل نافع في الحال والمآل.

وقد أرشد الله سبحانه إلى شكره على ذلك بعبادته وحده لا شريك له في قوله سبحانه: ﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝ ﴾.

اختيار الله نبيه ﷺ

يقول الله سبحانه: ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ﴾ هذه الآية الكريمة تدل على أن الله سبحانه وتعالى منفرد بالخلق يقول للشيء الذي أراده: كن فيكون، وتدل أيضاً على أن تلك المخلوقات التي أوجدها من العدم لم يُسَوِّ

بينها، بل اختار منها ما شاء، وله الحكمة البالغة، فخصّه بالتفضيل، فقد اختار من أرضه مكة حرسها الله فجعلها مقر بيته الحرام من دخله كان آمناً، وصرف قلوب الناس إليه، وأوجب على المستطيع منهم حجه، وحرم صيده وقطع شجره، وضاعف أجر الصلاة فيه، وحذّر من الخروج عن طاعته سبحانه وأشار إلى عقوبة إرادة السوء في الحرم بقوله سبحانه ﴿ **وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ** ﴾.

ويلي ذلك مهاجر رسول الله ﷺ هذه المدينة المباركة، حرّم رسول الله ﷺ قطع شجرها واصطياد صيدها، وأخبر بمضاعفة الصلاة في مسجده بقوله: «صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلّا المسجد الحرام».

واختار سبحانه من الشهور رمضان، ففضله على سائر الشهور، واختار منه ليلة القدر، ففضلها على سائر الليالي، واختار من الأيام يوم عرفة فجعله أفضل الأيام، واختار من أيام الأسبوع يوم الجمعة فجعله أفضلها، واختار من الملائكة جبريل وإسرافيل وميكائيل فوكلهم بأسباب الحياة، واختار من البشر أنبياءه ورسله ـ صلوات الله عليهم أجمعين ـ ففضلهم على غيرهم، وجعل أفضلهم أولي العزم منهم، واختار الخليلين إبراهيم ومحمداً ـ صلوات الله وسلامه عليهما ـ فجعلهما أفضلهم، وجعل محمداً ﷺ أفضل الخليلين، وجعل أمته خير الأمم، فهو ﷺ إمام المتقين، وسيد المرسلين، وخليل رب العالمين، وخاتم النبيين، أقام الله به الحجة على الثقلين الجن والإنس، وأول قبر ينشق عند النفخ في الصور قبره، ولا يدخل الجنة أحد قبله، واختصه سبحانه بالمقام المحمود الذي يحمده فيه الأولون والآخرون، وهو الشفاعة العظمى في فصل القضاء التي يتخلى عنها آدم وأولو العزم من الرسل، كل واحد يقول: نفسي

نفسي اذهبوا إلى غيري، حتى تنتهي إليه ﷺ فيقول: أنا لها، ثم يشفع فيشفعه الله، وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾.

وقد أشار سبحانه في كتابه العزيز إلى اختياره من يشاء بقوله سبحانه: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾.

وقد ثبت في صحيح مسلم وغيره أن رسول الله ﷺ قال: « إن الله اصطفى قريشاً من كنانة واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم ».

فهو ﷺ بنص هذا الحديث الشريف خلاصة خلاصة خلاصة باعتبار شرف النسب، كما كان خلاصة خلاصة باعتبار الفضل وعلو المنزلة عند الله.

اعتراض المشركين على اختيار الله له ﷺ

ولما بعث الله رسوله ﷺ إلى الناس كافة؛ ليهديهم به إلى الصراط المستقيم قابله المشركون بما يستطيعونه من الأذى، والمناوأة، وتأليب الناس عليه، وتحذيرهم منه، فوصفوه بأشنع الأوصاف فقالوا: إنه كاهن، وقالوا: مجنون.

هذا وهم أعلم الناس بماضيه المشرق الوضاء، ولكن الذي حملهم على ذلك الكبر والحسد؛ فقد أخبر الله عنهم في كتابه العزيز أنهم ﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ ﴾.

وقال سبحانه وتعالى مخبراً عنهم: ﴿ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ

﴿ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾، إلى أن قال مشيراً إلى حسدهم له ﷺ ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ﴾، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَـٰفِرُونَ﴾.

ثم قال مخبراً عن اعتراضهم على الله في اختياره لهذا النبي الكريم ﷺ: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾، فأنكر عليهم ذلك وبيّن أن الأمر أمره، والخلق خلقه، والفضل فضله يؤتيه من يشاء، فهو أعلم حيث يجعل رسالته فقال سبحانه: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَـٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ﴾.

ونظير هذا قوله سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَـٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّـٰكِرِينَ﴾، وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ﴾، إلى أن قال: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ﴾، وقال: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾.

وقد روى الحاكم بسند على شرط الشيخين أن أبا جهل قال للنبي ﷺ: إنا لا نكذبك ولكن نكذب ما جئت به، فأنزل الله ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.

وروي أن الأخنس بن شريق دخل على أبي جهل فقال: « يا أبا الحكم أخبرني عن محمد أصادق هو أم كاذب فإنه ليس ههنا من قريش غيري وغيرك

يسمع كلامنا؟ فقال أبو جهل: ويحك والله إن محمداً لصادق، وما كذب محمد قط، ولكن إذا ذهبت بنو قصي بالسقاية، والحجابة، والنبوة، فماذا يكون لسائر قريش؟.

وقال: تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الركب، وكنا كفرسي رهانٍ قالوا: منا نبي ينزل عليه الوحي من السماء، فمتى ندرك هذه، والله لا نؤمن به ولا نصدقه)).

وهكذا يبلغ الكبر والحسد بهؤلاء القوم الذين دعاهم رسول الله ﷺ إلى ما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة، حملهم ذلك على تجاهل الحقيقة، وإبداء خلاف المستقر في القلوب، يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم، متبعين في ذلك إمامهم في الضلال والحسد إبليس اللعين حيث فسق عن أمر ربه له بالسجود لآدم؛ كبراً، وحسداً، استناداً منه إلى أنه أفضل منه على زعمه؛ لكونه خُلق من نار وآدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ خلق من طين.

امتنان الله سبحانه على الثقلين برسالته ﷺ

من رحمة الله سبحانه بعباده أن أرسل فيهم رسله يبشرون وينذرون كلما ذهب نبي خلفه نبي، حتى ختمهم بنبي الرحمة محمد ﷺ، وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ﴾.

ولقد اختار منهم سيدهم وإمامهم فجعله خاتم النبيين، واختصه بخصائص ومزايا لم يشركه فيها أحد منهم، كما اختص أمته بخصائص ليست لغيرها من الأمم السالفة.

ومن تلك المزايا التي امتاز بها على غيره من المرسلين صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين أن بعثه إلى الأسود والأحمر بل إلى الجن والإنس جميعاً، كما قال سبحانه عن الجن الذين استمعوا لقراءته ﷺ ثم ولوا إلى قومهم منذرين: ﴿ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾.

وقال ﷺ في الحديث المتفق على صحته: « أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي » فذكر من بينها: « وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة »، وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾، ويقول: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾.

وقد أوضح ذلك ﷺ في الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه حيث قال: « والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلَّا كان من أصحاب النار ». قال سعيد بن جبير رحمه الله: « مصداق ذلك في كتاب الله عز وجل قال الله سبحانه: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ ﴾.

ولا شك أن أعظم نعمة أنعم الله بها على أهل الأرض هي إرسال هذا النبي الكريم الذي أكمل به الدين، وجعله حجة على الناس أجمعين.

وقد أخبر الله في كتابه العزيز عن إبراهيم وابنه إسماعيل أنهما دعوا الله لأهل الحرم وهما يبنيان البيت بأدعية من بينها ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾.

وقد أجاب الله دعاءهما فبعث في الأميين وفي غيرهم محمداً ﷺ أرسله بالهدى ودين الحق؛ ليظهره على الدين كله، وتلك النعمة العظمى والمنة الجسيمة نوه الله بها في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣ ذَ‌ٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

ومنها قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

ومنها قوله: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ۝١٥١ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾.

ومنها قوله سبحانه: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

وإنما كان إرساله ﷺ إلى الناس أعظم منّة امتنّ بها على عباده؛ لأنَّ في ذلك تخليص مَن وفقه الله وهداه منهم من العذاب السرمدي بسبب الإيمان بالله ورسوله ﷺ والابتعاد عن الشرك الذي لا يغفره الله كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَ‌ٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ﴾، وقال: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾.

التمهيد لبعثته ﷺ

ومن حكمة الله وفضله أن هيأ لنبيه ﷺ قبل أن يبعثه جميع أسباب الشرف والرفعة وعلو المنزلة، ووفر فيه جميع الخصال التي تؤهله للقيام بأعباء الرسالة العظمى، التي اصطفاه واختاره لها ﷺ، وفيما يلي أذكر على سبيل المثال بعض تلك الأسباب والخصال، وأبين كيف كانت توطئة وتقدمة لبعثته ﷺ.

أولاً: أن الله سبحانه جعله عريق النسب، كريم المنبت، اصطفاه من أشرف قبائل العرب، قبيلة قريش التي شهد لها غيرها بالسيادة والقيادة.

وهذه سنة الله في رسله كما جاء في سؤال هرقل ملك الروم لأبي سفيان عن رسول الله ﷺ: كيف نسبه فيكم؟ قال أبو سفيان: هو فينا ذو نسب. ثم قال هرقل عند ذلك: وكذلك الرسل تبعث في نسب قومها.

وإنما كانت هذه سنة الله في رسله؛ ليسد على أعدائهم باب القدح فيهم والتنقيص لهم، فلا يجد أعداؤهم سبيلاً إلى إلصاق العيوب بهم.

ثانياً: أنه ﷺ نشأ فقيراً يتيماً في كفالة جدّه عبد المطلب ثم عمه أبي طالب.

وذلك من أسباب التواضع والتحلي بالصفات الحميدة والبعد عن الصفات الذميمة كالكبر والظلم وغير ذلك.

وقد ذكر الله ذلك منوهاً بتفضله على نبيه ﷺ بإيوائه وإغنائه وهدايته حيث قال سبحانه: ﴿ **أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ** ﴾.

ثم أرشده إلى شكر هذه النعمة بأن يعطف على اليتامى والمساكين ويتحدث بنعمة الله عليه، قال: ﴿ **فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ** ﴾.

وهذه تربية إلهية لنبي الرحمة ﷺ ذكرها الله في كتابه العزيز، تنبيهاً لعباده المؤمنين بأن يحملوا أنفسهم على تلك الصفات الحميدة وغيرها، شكراً لله سبحانه على توفيقه لهم بالهداية بعد الضلالة، والغنى بعد الفقر، وغير ذلك من نعمه عليهم.

والمعنى لا تقهر اليتيم؛ فقد كنت يتيماً تكره أن تقهر، ولا تنهر الفقير؛ فقد كنت فقيراً تكره أن تنهر.

ولا شك أن تذكير الإنسان بنعمة الله عليه من أقوى الأسباب في الإقدام على الخير، والإحجام عن الشر لمن وفقه الله.

ثالثاً: أن الله سبحانه وتعالى أنشأه نشأة صالحة، وأنبته نباتاً حسناً، متحلياً بكل خلق كريم، بعيداً عن كل وصف ذميم، شهد له بذلك موالوه ومعادوه، ولكن من لم يشأ الله هدايته تعامى عن هذا كله، وأظهر خلاف ما يبطنه؛ كبراً وحسداً.

وفي توفيق الله لنبيه ﷺ للاتصاف بالصفات النبيلة، والسلامة من الأخلاق الرذيلة قطع لألسنة أعدائه، وإسكات لهم عن أن يعيروه بأدنى عيب، أو يصفوه بشيء من النقص.

ولهذا لما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان عن رسول الله ﷺ: هل يغدر؟ قال: لا. ولم يستطع مع شدة عداوته لرسول الله ﷺ في ذلك الوقت أن يقول أكثر من قوله بعد نفي الغدر عنه: « ونحن منه في مدّة لا ندري ما هو فاعل فيها ».

قال: « ولم تمكني كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة ».

وقد تحرز من الكذب؛ خوفاً من ملك الروم، فأعداؤه ﷺ لا يستطيعون وصفه حقيقة بوصف معيب، أما الكذب والافتراء عليه ﷺ فقد قالوا عنه:

إنه ساحر، وقالوا عنه: شاعر، وقالوا عنه: كاهن وغير ذلك.

وقد صانه الله سبحانه من ذلك الذي ألصقوه به ومن كل عيب، وأنكر على المشركين افتراءهم وكذبهم عليه، وأخبر بأنه من ذلك براء فقال سبحانه: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ (٣٨) وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ (٣٩) إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ (٤١) وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ (٤٢) تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

وقال: ﴿وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ (٦٩) لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّٗا وَيَحِقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا﴾.

رابعاً: أنه ﷺ نشأ أمياً بين أميين لا يقرأ ولا يكتب، ثم جاء من الله بهذا القرآن الذي قال الله فيه: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا﴾.

وفي نشأته ﷺ على هذه الصفة قطع للطريق التي ينفذ منها الكفار إلى تكذيب الرسول ﷺ فيما جاء به عن الله، وأنه من أساطير الأولين قرأها أو كتبها لو كان كذلك، وقد أوضح الله ذلك بقوله: ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ﴾. ثم أشار إلى حصول الريبة من أعدائه لو كان قارئاً كاتباً بقوله: ﴿إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾.

وتلك الطريق التي قطعت عليهم بجعله ﷺ أُمِّياً لا يقرأ ولا يكتب سلكوها كذباً وافتراءً على رسول الله ﷺ مع علمهم التام ببعده ﷺ عن ذلك، فقد أخبر الله عنهم أنهم قالوا: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞ﴾.

ويأبى الله إلَّا أن يتم نوره، ويظهر دينه، فيجيبهم بأن لسان الذي يلحدون إليه أعجمي، وهذا الذي جاءهم به لسان عربي مبين. ولهذا نجد الله سبحانه وتعالى عند إنكاره على قومه ﷺ ما يقومون به من المعارضة والمناوأة له ﷺ يلفت أنظارهم إلى ماضيه المشرق الوضاء، ويُذكِّرهم بعلمهم ومعرفتهم التامة لحركاته وسكناته ومدخله ومخرجه فيقول سبحانه: ﴿ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴾، ويقول: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ۖ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾.

ثم إنه أمر نبيه ﷺ أن يخبرهم بأنه ليس له إلَّا التبليغ عن الله، وأنه لو شاء الله ما حصلت منه ﷺ تلاوة، ولا حصل لهم علم بذلك، فقال: ﴿ قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ ﴾، ثم ذكرهم بماضيه قبل إنزال القرآن عليه وما اتصف به من جميل الصفات، وأنه قد بقي فيهم قبل أن يبعثه الله أربعين سنة ملازماً لأسباب الرفعة، بعيداً عن أسباب الضعة والهوان فقال: ﴿ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ ﴾، ثم أنكر عليهم وصفهم له بالكذب والافتراء مع أنهم أعلم الناس به، وأن ذلك مخالف للفطر والعقول السليمة، فقال: ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾.

ثم أخبر بأنه لا أحد أشد ظلماً وأكبر جريمة من اثنين: المفتري على الله، والمكذب بما جاء عن الله، فقال تعالى: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴾.

خامساً: ومن الأمور التي حصلت بين يدي بعثته ﷺ توطئة وتمهيداً لها

الرؤيا الصالحة في النوم، فكان ﷺ لا يرى رؤيا إلَّا جاءت مثل فلق الصبح كما ثبت في صحيح البخاري وغيره.

سادساً: أنه ﷺ رعى الغنم بمكة، وفي ذلك تمهيد وتهيئة لإرساله إلى الناس كافة ليرشدهم إلى ما ينفعهم في دنياهم وأخراهم، ويحذرهم مما يعود عليهم بالأضرار العاجلة والآجلة.

وإنما كان رعيه الغنم بمكة توطئة وتقدمة لبعثته ﷺ لأن هذا العمل مدعاة إلى التحلي بجميل الصفات كالتواضع والسكينة والوقار، مع ما فيه من اشتغال الراعي بالرعية، وبذله الأسباب التي تؤدي إلى سلامتها وقوتها فيعتني بها، ويرتاد لها المراعي الخصبة، ويبتعد بها عن الأراضي المجدبة ويحميها من الذئاب، ويسلك بها الطرق السهلة ويحيد بها عن السبل ذات الشدة والوعورة. وهذه سنة الله في رسله كما أخبر بذلك الصادق المصدوق ﷺ.

ولله الحكمة البالغة في ذلك؛ فمزاولة مثل هذا العمل فيه ترويض للنفس، وتهيئة لها للقيام بأعباء الرسالة، فهو بلا شك درس عملي لرسل الله ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ يكسبهم مرونة وخبرة؛ لينتقلوا من تربية الحيوان إلى تربية بني الإنسان.

* * *

أخلاقه ﷺ

تعريف الخلق:

الخُلق بضم اللام وسكونها: الدين، والطبع، والسَّجية، قاله ابن الأثير في (غريب الحديث).

وفي الاصطلاح يطلق إطلاقين: أحدهما أعم من الثاني، فيطلق على الصفة التي تقوم بالنفس على سبيل الرسوخ، ويستحق الموصوف بها المدح أو الذم، ويطلق على التمسك بأحكام الشرع وآدابه فعلاً وتركاً.

ومن الأول قوله ﷺ لأشجِّ عبد القيس: « إن فيك لخلقين يحبهما الله: الحلم والأناة »، قال: يا رسول الله أخلقين تخلقت بهما أم جبلت عليهما؟ قال: « بل جبلت عليهما »، قال: الحمد لله الذي جبلني على خلقين يحبهما الله.

ومن الثاني قوله ﷺ: « البر حسن الخلق »، وقول عائشة رضي الله عنها في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾: « كان خلقه القرآن »، هذا تعريف الخلق في اللغة والاصطلاح.

ننتقل بعده إلى الحديث عن أخلاقه الفاضلة، وسجاياه الحميدة في جميع مراحل حياته ﷺ، فقد كان ﷺ أحسن الناس خلقاً، اجتمع فيه من أوصاف المدح والثناء ما تفرق في غيره، قد صانه الله سبحانه وحفظه من أدنى وصف يعاب صاحبه، كل ذلك حصل له من ربه فضلاً ومنّة قطعاً لألسنة أعدائه الذين يتربصون به، ويقفون في طريق دعوته، مؤذين له، محذرين منه، أحب شيء إليهم تحصيل شيء يعيبونه به وأنى لهم ذلك.

فقد نشأ ﷺ من أول أمره إلى آخر لحظة من لحظاته متحلياً بكل خلق

كريم، مبتعداً عن كل وصف ذميم، فهو أعلم الناس، وأنصحهم، وأفصحهم لساناً، وأقواهم بياناً، وأكثرهم حياءً، يضرب به المثل في الأمانة والصدق والعفاف، أدبه الله فأحسن تأديبه، فكان أرجح الناس عقلاً، وأكثرهم أدباً، وأوفرهم حلماً، وأكملهم قوة وشجاعة، وأصدقهم حديثاً، وأوسعهم رحمة وشفقة، وأكرمهم نفساً، وأعلاهم منزلة.

وبالجملة فكل خلق محمود يليق بالإنسان فله ﷺ منه القسط الأكبر، والحظ الأوفر، وكل وصف مذموم فهو أسلم الناس منه، وأبعدهم عنه، شهد له بذلك العدو والصديق.

وفيما يلي أورد بعض الشهادات التي شهد له بها الموالون والمعادون، الدالة دلالة بينة على تمسكه بالأخلاق الحسنة قبل أن يبعثه الله تعالى وذلك معلوم من الدين بالضرورة:

١ ـ **شهادة خديجة** رضي الله عنها: لما أوحى الله إلى نبيه ﷺ في غار حراء لأول مرّة ورجع إلى خديجة رضي الله عنها أخبرها الخبر وقال: «لقد خشيت على نفسي».

فقالت له رضي الله عنها: «كلاّ والله ما يخزيك الله أبداً؛ إنك لتصل الرحم، وتحمل الكلَّ، وتكسب المعدوم وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق». رواه البخاري.

٢ ـ **شهادة كفار قريش عند بنائهم الكعبة**: ولما قامت قريش ببناء الكعبة قبل بعثة محمد ﷺ تنازعوا في رفع الحجر الأسود إلى مكانه، واتفقوا على تحكيم أول من يدخل عليهم الباب، فكان أول داخل رسول الله ﷺ ففرحوا جميعاً، وقالوا: جاء الأمين، جاء محمد، وقد كانوا يلقبونه بلقب الأمين؛ لما يعلمونه من أمانته ﷺ.

٣ ـ شهادة كفار قريش بصدقه ﷺ: ثبت في صحيح البخاري أنه ﷺ لما نزل عليه ﴿ **وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ** ﴾ صعد إلى الصفا، فجعل ينادي يا بني فهر، يا بني عدي ـ لبطون قريش ـ حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش فقال: «أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقيَّ؟». قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلَّا صدقاً. قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد». فقال أبو لهب: تبّاً لك ألهذا جمعتنا؟.

٤ ـ شهادة أبي جهل بصدقه ﷺ: تقدم الحديث الذي رواه الحاكم بسند على شرط الشيخين أن أبا جهل قال للنبي ﷺ: إنا لا نكذبك لكن نكذب ما جئت به، فأنزل الله: ﴿ **قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ** ﴾.

ولما قال له الأخنس بن شريق: يا أبا الحكم أخبرني عن محمد أصادق هو أم كاذب؟ فقال: ويحك والله إن محمداً صادق وما كذب محمد قط إلخ.

٥ ـ شهادة أبي سفيان بين يدي هرقل ملك الروم بصدق رسول الله ﷺ ووفائه: فقد روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما أن أبا سفيان ابن حرب أخبره أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش، وكانوا ذهبوا إلى الشام، لأجل التجارة في المدّة التي كان رسول الله ﷺ مادّ فيها أبا سفيان وكفار قريش، فأتوه بإيليا فدعاهم في مجلسه وحوله عظماء الروم، ثم دعاهم ودعا بترجمانه فقال: أيكم أقرب نسباً بهذا الذي يزعم أنه نبي؟ فقال أبو سفيان: فقلت: أنا أقربهم نسباً. فقال: أدنوه مني وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره، ثم قال لترجمانه: قل لهم إني سائل عن هذا الرجل فإن كذبني فكذبوه،

فوالله لولا الحياء من أن يأثروا عليَّ كذباً لكذبت عليه، ثم كان أول ما سألني عنه أنه قال: كيف نسبه فيكم؟ قلت: هو فينا ذو نسب، قال: فهل قال هذا القول أحد منكم قط قبله؟ قلت: لا، قال: فهل كان من آبائه من ملك؟ قلت: لا، قال: فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ قلت: بل ضعفاؤهم، قال: أيزيدون أم ينقصون؟ قلت: بل يزيدون، قال: فهل يرتد أحد منهم؛ سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قلت: لا، قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا، قال: فهل يغدر؟ قلت: لا، ونحن منه في مدّة لا ندري ما هو فاعل فيها، قال: ولم تمكني كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة، قال: فهل قاتلتموه؟ قلت: نعم، قال: فكيف كان قتالكم إياه؟ قلت الحرب بيننا وبينه سجال، ينال منّا وننال منه، قال: بماذا يأمركم؟ قلت: يقول اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة، والصدق، والعفاف، والصلة. فقال للترجمان: قل له: سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب؟ فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها، وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول قبله قط؟ فذكرت أنْ لا، قلت: فلو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يأتسي بقول قيل قبله، وسألتك هل كان في آبائه من ملك؟ فذكرت أنْ لا، قلت: فلو كان من آبائه من ملك لقلت رجل يطلب ملك أبيه، وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فذكرت أنْ لا، قلت: لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله، وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه وهم أتباع الرسل، وسألتك أيزيدون أم ينقصون؟ فذكرت أنهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم، وسألتك أيرتدّ أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل

فيه؟ فذكرت أن لا، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب، وسألتك هل يغدر؟ فذكرت أن لا، وكذلك الرسل لا تغدر، وسألتك بماذا يأمركم؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف، فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين، وقد كنت أعلم أنّه خارج ولم أكن أظنّ أنّه منكم، فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه. ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ الذي بعث به إليه مع دحية بن خليفة الكلبي فقرأه، قال أبو سفيان: فلما قال ما قال، وفرغ من قراءة الكتاب كثر عنده الصخب، وارتفعت الأصوات فأخرجنا، فقلت لأصحابي حين أخرجنا: لقد أمر أمر ابن أبي كبشة؛ أنه ليخافه ملك بني الأصفر، فما زلت موقناً أنه سيظهر حتى أدخل الله عليَّ الإسلام».

ففي هذه القصة آيات بينات، ودلالات واضحات على نبوته ﷺ، وأنه ﷺ صادق فيما جاء به، ومحل الشاهد من القصة شهادة أبي سفيان بن حرب وهو من أشد أعدائه في ذلك الوقت على اتصاف الرسول ﷺ قبل أن يبعثه الله بالصدق وأنهم لا يتهمونه بالكذب، وبالوفاء وأنه لا يغدر.

٦ ـ شهادة السائب المخزومي له ﷺ بحسن المعاملة والرفق قبل النبوة:
روى أبو داود وغيره أن السائب المخزومي كان شريك النبي ﷺ قبل البعثة فجاء يوم الفتح فقال: «مرحباً بأخي وشريكي لا تداري ولا تماري».

وفي لفظ أنه قال للنبي ﷺ: «كنت شريكي في الجاهلية فكنت خير شريك لا تداريني ولا تماريني».

وفي لفظ: «كنت شريكي ونعم الشريك، كنت لا تداري ولا تماري».

٧ ـ شهادة عبد الله بن سلام رضي الله عنه بصدقه ﷺ: روى أحمد وأصحاب السنن عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال: « لما قدم النبي ﷺ المدينة كنت ممن انجفل، فلما تبيَّنْتُ وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذّاب، فسمعته يقول: « أفشوا السلام وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنّة بسلام ».

٨ ـ شهادة مكرز بن حفص بن الأحنف له ﷺ بالوفاء في جميع مراحل حياته: كان رسول الله ﷺ عام الحديبية قد أبرم صلحاً بينه وبين قريش على أن يرجع ويعتمر من العام المقبل، ومن الشروط التي اشترطتها قريش على رسول الله ﷺ أن يدخل مكة بسلاح الراكب فقط (السيوف مغمدة)، فلما قدم ﷺ في عمرة القضاء استعدّ بالخيل والسلاح لا ليدخل بها الحرم، وإنما لتكون في متناول يده لو نكثت قريش، وعندما قرب ﷺ من الحرم بعث بها إلى يأجج وكان خبر ذلك السلاح قد بلغ قريشاً، فبعثت مكرز بن حفص بن الأحنف في نفر من قريش إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد، ما عرفت صغيراً ولا كبيراً بالغدر تدخل بالسلاح في الحرم على قومك، وقد شرطت لهم أن لا تدخل إلَّا بسلاح المسافر، فقال ﷺ: « إني لا أدخل عليهم بالسلاح وقد بعثنا به إلى يأجج ». فقال مكرز: بهذا عرفناك بالبر والوفاء.

أخلاقه ﷺ في القرآن

تفضل الله تعالى على خليله محمد ﷺ بتوفيقه للاتصاف بمكارم الأخلاق، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم، ثم أثنى عليه ونوّه بذكر ما يتحلى به من جميل الصفات في آيات كثيرة من كتاب الله العزيز، أقتصر على إيراد بعضها فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾.

فقد أخبر سبحانه في هذه الآية الكريمة عما كان عليه المصطفى من أخلاق فاضلة، ووصف خلقه ﷺ بأنه عظيم، وأكد ذلك بثلاثة أشياء: بالإقسام عليه بالقلم وما يسطرون، وتصديره بإن وإدخال اللام على الخبر، وكلها من أدوات تأكيد الكلام.

وذلك الخلق العظيم الذي كان عليه ﷺ ورد تفسيره عن السلف الصالح بعبارات متقاربة، ففسره ابن عباس رضي الله عنه بأنه الدين العظيم وهو دين الإسلام، وبهذا التفسير فسره ـ أيضا ـ مجاهد، والسدي، والربيع بن أنس، والضحاك، وغيرهم.

وفسره الحسن بأنه آداب القرآن.

وفي الصحيحين وغيرهما عن عائشة رضي الله عنها أنها سئلت عن خلقه ﷺ فقالت: «كان خلقه القرآن».

ومعنى ذلك أن امتثال ما أمره الله به واجتناب ما نهاه عنه في القرآن صار له خلقا وسجية.

وقد أشارت عائشة رضي الله عنها إلى ما يوضح هذا المعنى في حديث آخر متفق على صحته وهو أنها قالت: «كان رسول الله ﷺ يقول في ركوعه: سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر لي» يتأول القرآن.

أي كان يدعو بهذا الدعاء امتثالا لما أمره الله به في سورة النصر في قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾.

وقد نوّه سبحانه بما جبل نبيه ﷺ عليه من الرحمة والرأفة بالمؤمنين، والحرص على ما ينفعهم في دنياهم وأخراهم، والتألم من كل ما يشق عليهم بقوله سبحانه ممتنا على المؤمنين بإرساله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ

أنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

وقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾.

وقال: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾.

وأشار سبحانه إلى ما اتصف به ﷺ من اللطف والرفق بأمته بقوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾.

أما ما اتصف به ﷺ من النصح والأمانة والقيام بأداء الرسالة على الوجه الذي أراده الله فقد ذكره سبحانه بقوله: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾.

ويقول تعالى ـ يعني محمدا ﷺ ـ: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾.

وفيها قراءتان بالظاء والمراد به المتهم، وبالضاد والمراد به البخيل، وكلا هذين منفي عنه ﷺ فليس هو بمتهم بكتمان ما أرسله الله به، وليس ببخيل بما أنزل الله عليه بل يبذله لكل أحد.

أخلاقه ﷺ في سنته وأقوال صحابته رضي الله عنهم

كان رسول الله ﷺ قبل أن يبعثه الله بالرسالة العظمى في الذروة العليا من الأخلاق الحسنة صدقا، وأمانة، وكرما، وحلما، وشجاعة، وعفة، وقناعة، وغير ذلك من الصفات التي يحظى بالإجلال والإكبار مَنْ حصل على واحدة منها فضلا عمن جمعت له، وتوفرت فيه.

ولما بعثه الله سبحانه بالنور والهدى إلى الثقلين الجن والإنس زاده الله قوة في هذه الخصال الحميدة إلى قوته حتى بلغ الحد الأعلى الذي يمكن أن يصل إليه إنسان.

وصدق رسول الله ﷺ حيث قال: «إنما بعثت لأتم صالح الأخلاق».

وقد نوه الله سبحانه بتفضله وامتنانه على نبيه وخليله محمد ﷺ في آيات كثيرة كقوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾.

وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾.

وقوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾.

وقد اختار سبحانه لنبيه ﷺ أصحاباً هم خير هذه الأمة المحمدية التي هي خير الأمم، وقفوا حياتهم في سبيل تبليغ دعوته، وحفظ سنته تحقيقا لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾.

ورثوا عن نبيهم ﷺ ما جاء به من الحق وَوَرَّثوه لمن جاء بعدهم، حتى هيأ الله له رجالا قاموا بتدوينه، منهم بل على رأسهم الإمامان الجليلان البخاري

ومسلم وغيرهما من المحدثين، فقد أفنوا أعمارهم ـ جزاهم الله خير الجزاء ـ في تقييد تلك الدرر الثمينة التي ورثوها عن نبيهم محمد ﷺ بواسطة السلاسل الذهبية المتصلة بأمثال مالك، ونافع، وشعبة، وأحمد، وعلي بن المديني، وغيرهم من خيار هذه الأمة.

وهذه الدرر الثمينة التي توارثوها ـ ونعم الإرث هي ـ تشمل أقواله ﷺ وأفعاله وتقريراته، وبيان خلقه، وأخلاقه.

ولهذا يعرِّف المحدثون الحديث: بأنه ما أضيف إلى النبي ﷺ من قول، أو فعل، أو تقرير، أو وصف خَلْقي أو خُلُقي.

ولقد اعتنى هؤلاء الورثة الكرام بتدوين ما جاءهم عن نبيهم ﷺ على سبيل العموم، وبما يتعلق بأخلاقه ومزاياه على سبيل الخصوص، فمنهم من أفرد ذلك بالتأليف، ومنهم من عقد له أبوابا خاصة ضمن المؤلفات العامة أورد فيها ما يتصل بخوفه ﷺ ورجائه، وخشيته لربه، وجوده وإيثاره، وحيائه، ووفائه وصدقه، وأمانته، وإخلاصه، وشكره، وصبره، وحلمه، وكثرة احتماله، ورفقه بأمته، وحرصه على التيسير عليها، وعفوه، وشجاعته، وتواضعه، وعدله، وزهده، وقناعته، وصلته لرحمه، وكثرة تبسمه، وعفته، وغيرته، إلى غير ذلك من آحاد حسن خلقه ﷺ.

تفصيل القول في بعض أخلاقه ﷺ

وهذه الأخلاق التي أشرت إلى بعض آحادها يحتاج تفصيلها وبسط القول فيها إلى عدة محاضرات.

أما المحاضرة الواحدة فلا تكفي إلَّا للإشارة إلى بعض تلك الأخلاق والمزايا الحميدة التي أوتيها ﷺ.

١ ـ جوده وكرمه ﷺ:

وقد بلغ ﷺ في خلق الجود والكرم مبلغا لم يبلغه غيره، وصل فيه إلى الغاية التي ينتهي عندها الكمال الإنساني.

ومن توفيق الله له ﷺ أن جعل جوده يتضاعف في الأزمنة الفاضلة، يقول ابن عباس رضي الله عنه في الحديث الصحيح: « كان رسول الله ﷺ أجود الناس، وكان أجود ما يكون في شهر رمضان حين يلقاه جبريل وكان يلقاه في كلّ ليلة من رمضان فيدارسه القرآن فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة ».

جاد بنفسه في سبيل الله، فكسرت رباعيته، وشجّ وجهه، وسال الدم منه ﷺ والجود بالنفس أقصى غاية الجود، وجاد بجاهه، ومن أمثلة ذلك شفاعته ﷺ لمغيث زوج بريرة رضي الله عنها، لما عتقت واختارت فراقه أشار عليها أن تبقى في عصمته؛ رحمة منه ﷺ بزوجها مغيث.

وأخص الأمثلة في ذلك ما أخبر به ﷺ من شفاعته في أهل الموقف التي يتخلى عنها أولو العزم من الرسل، فتنتهي إليه فيقول أنا لها ﷺ.

وقد صح عنه ﷺ أنه قال: « لكلِّ نبي دعوة مستجابة قد دعا بها فاستجيب له فجعلت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة ».

وجاد ﷺ بما أعطاه الله من المال، فما سئل ﷺ شيئاً من الدنيا قط فقال لا.

ولقد جاءت إليه ﷺ امرأة ببردة منسوجة فقالت: نسجتها بيدي؛ لأكسوكها فأخذها ﷺ محتاجا إليها ولبسها.

فقال له رجل من الصحابة أكسنيها يا رسول الله، فقال ﷺ: نعم، فدخل منزله فطواها، وبعث بها إليه، فقال له بعض الصحابة: ما أحسنت؛ لبسها رسول الله ﷺ محتاجاً إليها ثم سألته وعلمت أنه لا يرد سائلاً.

فقال: إني والله ما سألته لألبسها إنما سألته لتكون كفني.

قال سهل بن سعد رضي الله عنه: فكانت كفنه.

هذا مثل من أمثال اتصافه ﷺ بهذا الخلق الكريم، فهل بعد هذا كرم يصدر من مخلوق؟ وهل وراء هذا الإيثار إيثار؟.

ولقد وصف الله الأنصار في كتابه العزيز بصفة الإيثار في قوله: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾.

وهذه الصفة الكريمة التي اتصفوا بها؛ أسوتهم فيها وفي غيرها من مكارم الأخلاق سيد ولد آدم ﷺ، يقول سبحانه: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾.

ولما رجع من حنين التف حوله الأعراب يسألونه حتى اضطروه إلى سمرة فخطفت رداءه فوقف النبي ﷺ وقال: « أعطوني ردائي فلو كان لي عدد هذه العضاه نعما لقسمتها بينكم ثم لا تجدوني بخيلاً ولا كذاباً ولا جباناً ».

وجوده ﷺ في العطاء لبعض الناس إنما هو لتأليفهم على الإسلام، فكثيرا ما كان يخص حديثيّ العهد بالإسلام بوافر العطاء دون من تمكّن الإيمانُ في نفوسهم، ففي غزوة حنين أعطى أكابر قريشٍ المئاتِ من الإبل، ومنهم صفوان ابن أمية، فقد روى مسلم في صحيحه أنه قال: لقد أعطاني رسول الله ﷺ ما أعطاني، وإنه لأبغض الناس إليَّ، فما برح يعطيني حتى إنه مِنْ أحب الناس إليَّ.

وروى ـ أيضاً ـ عن أنس رضي الله عنه قال: « ما سئل رسول الله ﷺ على الإسلام شيئاً إلَّا أعطاه، ولقد جاءه رجل فأعطاه غنماً بين جبلين، فرجع إلى قومه فقال: يا قوم أسلموا فإن محمدًا يعطي عطاء من لا يخشى الفقر.

وإن كان الرجل ليسلم ما يريد إلَّا الدنيا فما يلبث إلَّا يسيراً حتى يكون

الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها ».

أعطى رسول الله ﷺ ذلك الرجل تلك الغنم الكثيرة التي لكثرتها ملأت ما بين جبلين، وماذا كانت نتيجة هذا الإعطاء من رسول الله ﷺ؟.

لقد كانت حصول الغرض الذي من أجله أعطاه، وهي أنه أصبح داعية لرسول الله ﷺ لقد كان بدافع من نفسه رسولاً لرسول الله ﷺ إلى قومه يدعوهم إلى الإسلام ويبين لهم كرم رسول الله ﷺ وأنه يعطي عطاء من لا يخشى الفقر.

وهكذا كان رسول الله ﷺ يبذل المال في سبيل نصرة الإسلام، والدعوة إليه، والترغيب فيه ينفق مال الله الذي آتاه في سبيل الله حتى توفاه الله، ودِرْعُه مرهونة في دين عليه ﷺ.

٢ ـ تواضعه ﷺ وقربه من الناس:

ولم يحصل لأحد من البشر ما حصل لرسول الله ﷺ من توفر صفات الكمال وبلوغ الحد الأعلى والغاية القصوى التي يمكن أن يبلغها إنسان، فكان ﷺ مضربَ المثل في الكمال الإنساني، والسمو الخلقي قبل البعثة وبعدها.

وقد خصه الله بخصائص، وميّزه بميزات امتاز بها عن البشر في الدنيا والآخرة، فجعله أفضل المرسلين الذين هم خير البشر، وجعله خاتمهم، وسيدهم، وإمامهم، وأولهم خروجاً من القبر، وأولهم تقدماً للشفاعة، وأولهم مشفعا.

وقال ﷺ متحدثا بنعمة الله عليه، ومبينا للأمة منزلته عند الله، ليعتقدوا ذلك، ولينزلوه المنزلة اللائقة به ﷺ من الإجلال، والتعظيم، والمحبة، والمتابعة، قال: « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع، وأول مشفع » رواه مسلم وأبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه.

ومع هذه الخصائص والميزات التي سَمَا بها إلى منزلة لا يساويه فيها غيره من أولي العزم من الرسل ـ فضلا عمن سواهم ـ كان ﷺ أشدَّ الناس تواضعاً، وأقربهم إلى الضعيف والمسكين، وأبعدهم عن الكبر والترفع.

ولما بيّن ﷺ لأمته بعض ما خصه الله به بقوله: «أنا سيد ولد آدم» أضاف إلى ذلك ما يبرئ ساحته من الفخر ـ وحاشاه من كل نقص ـ فقال: «ولا فخر» أخرجه الترمذي وابن ماجه والإمام أحمد من حديث أبي سعيد ؓ، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

وإنما أخبر ﷺ بمنزلته عند الله، لأنه لا سبيل للأمة إلى معرفة ذلك إلَّا بواسطته، والتلقي عنه ﷺ إذ لا نبي بعده يخبر عن عظم منزلته عند الله كما أخبر هو أمته بفضائل الأنبياء قبله، صلوات الله وسلامه وبركاته عليهم أجمعين.

ولما خُيِّرَ ﷺ بين أن يكون عبداً رسولاً أو نبيا ملكاً اختار مقام العبودية والرسالة على مقام النبوة والملك، أخرجه الإمام أحمد في المسند.

وروى البيهقي عن أنس ؓ قال: «دخل رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح وذقنه على راحلته متخشعاً».

وروى ابن إسحاق في السيرة: «أن رسول الله ﷺ ليضع رأسه؛ تواضعاً حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح حتى أن عثنونه ليكاد يمس واسطة الرحل».

قال ابن كثير: «وهذا التواضع في هذا الموطن عند دخوله ﷺ مكة في مثل الجيش العرمرم بخلاف ما اعتمده سفهاء بني إسرائيل حين أمروا أن يدخلوا باب بيت المقدس وهم سجود ـ أي رُكَّع ـ يقولون: حطة، فدخلوا يزحفون على أستاههم وهم يقولون: حنطة في شعرة».

وروى البخاري في صحيحه عن أنس رضي الله عنه قال: «كانت الأَمَةُ من إماء أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ فتنطلق به حيث شاءت».

وروى مسلم في صحيحه عن أنس رضي الله عنه أن امرأة كان في عقلها شيء فقالت: يا رسول الله، إنَّ لي إليك حاجة.

فقال: «يا أم فلان انظري أي السكك شئت حتى أقضي لك حاجتك، فخلا معها في بعض الطرق حتى فرغت عن حاجتها».

وفي صحيح البخاري عن الأسود قال: «سألت عائشة ما كان النبي ﷺ يصنع في أهله؟ قالت: كان في مهنة أهله فإذا حضرت الصلاة قام إلى الصلاة».

وروى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لو دعيت إلى ذراع أو كراع لأجبت، ولو أهدي إليَّ ذراع أو كراع لقبلت».

وكان ﷺ إذا مرَّ بالصبيان سلم عليهم، روى مسلم في صحيحه عن شعبة عن سيار قال: «كنت أمشي مع ثابت البناني؛ فمر بصبيان فسلم عليهم. وحدث ثابت أنه كان يمشي مع أنس فمر بصبيان فسلم عليهم. وحدث أنس أنه كان يمشي مع رسول الله ﷺ فمر بصبيان فسلم عليهم».

وكان ﷺ يخالط أصحابه، ويداعب الصبي الصغير، يقول أنس رضي الله عنه فيما رواه عنه البخاري في الصحيح: إن كان النبي ﷺ ليخالطنا حتى يقول لأخ لي صغير: «يا أبا عمير ما فعل النغير؟».

وفي رواية أخرى عنه قال: «كان النبي ﷺ أحسن الناس خلقاً وكان لي أخ يقال له أبو عمير، قال أحسبه فطيماً، وكان إذا جاء قال: يا أبا عمير ما فعل النغير، نغير كان يلعب به».

وفي الصحيحين عن أنس رضي الله عنه قال: «خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين

فما قال لي: أف، ولا لم صنعت؟ ولا ألا صنعت؟)).

وكان ﷺ يركب الدواب، ويردف بعض أصحابه وراءه عليها، وكان ﷺ يرشد أمته إلى التحلي بصفة التواضع، ويرغبهم في التخلق بها.

ومما قاله ﷺ في ذلك: ((وما تواضع أحد لله إلّا رفعه الله)) رواه مسلم.

وهو ﷺ سيد المتواضعين وأسوتهم، وقد رفعه الله إلى أعلى الدرجات، رفع قدره، وأعلى منزلته، وخلد ذكره.

ومع هذا التواضع والخلق العظيم الذي تفضل الله به على عبده ورسوله وخليله محمد ﷺ كان أصحابه ﷺ لا يملؤون أعينهم بالنظر إليه ﷺ؛ إجلالا واحتراما له ﷺ.

يقول عمرو بن العاص ﷺ في حديث له أخرجه مسلم في صحيحه : ((وما كان أحد أحب إليَّ من رسول الله ﷺ ولا أجل في عيني منه ؛ وما كنت أطيق أن أملأ عيني منه، إجلالا له، ولو سئلت أن أصفه ما أطقت؛ لأني لم أكن أملأ عيني منه)).

٣ ـ رحمته ﷺ بأمته ورفقه بها وشفقته عليها:

وبفضل الله ورحمته عليه ﷺ كان رحيما رفيقا كما قال الله تعالى مخاطبا إياه: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾.

فلم يحصل لأحد من البشر ما حصل لرسول الله ﷺ من الاتصاف بالرحمة والرفق، لا يقاربه في ذلك أحد ولا يدانيه.

فعن أبي هريرة ﷺ أن أعرابيا بال في طائفة المسجد، فثار إليه الناس؛

ليقعوا فيه، فقال لهم رسول الله ﷺ: «دعوه واهريقوا على بوله ذنوبا من ماء أو سجلا من ماء؛ فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين» أخرجه البخاري وغيره.

وفي صحيح البخاري عن أبي مسعود رضي الله عنه قال: أتى رجل النبي ﷺ فقال: إني لأتأخر عن صلاة الغداة من أجل فلان مما يطيل بنا، قال فما رأيت النبي ﷺ قط أشد غضبا في موعظة منه يومئذ.

قال: فقال: «يا أيها الناس إن فيكم منفرين، فأيكم ما صلى بالناس فَلْيَتَجَوَّزْ؛ فإن فيهم الكبير والمريض وذا الحاجة».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا صلى أحدكم فليخفف؛ فإن فيهم الضعيف، والسقيم، والكبير، وإذا صلى أحدكم لنفسه فَلْيُطَوِّل ما شاء».

وعن أبي قتادة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إني لأقوم في الصلاة أريد أن أطوِّل فيها، فأسمع بكاء الصبي، فأَتَجَوَّزْ في صلاتي؛ كراهية أن أشق على أمه».

وعن أنس رضي الله عنه قال: ما صليت وراء إمام قط أخف صلاة ولا أتم من النبي ﷺ وإن كان ليسمع بكاء الصبي فيخفف؛ مخافة أن تفتن أمه.

وعن أبي قتادة رضي الله عنه قال: «خرج علينا النبي ﷺ وأمامة بنتُ أبي العاص على عاتقه، فصلى فإذا ركع وضعها وإذا رفع رفعها».

وقال ﷺ: «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة».

وهذه الأحاديث كلها في صحيح البخاري.

ولما قام ﷺ بأصحابه ليلا يصلي بهم في رمضان خشي أن يفرض عليهم فترك الصلاة بهم.

ففي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ صلى في المسجد، فصلى بصلاته ناس ثم صلى الثانية فكثر الناس، ثم اجتمعوا من الليلة الثالثة أو الرابعة فلم يخرج إليهم رسول الله ﷺ فلما أصبح قال: « رأيت الذي صنعتم فلم يمنعني من الخروج إليكم إلَّا أني خشيت أن تفترض عليكم وذلك في رمضان ».

وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت: « إن كان النبي ﷺ لَيَدَعُ العمل وهو يحب أن يعمل به؛ خشية أن يعمل به الناس، فيفرض عليهم، ولما واصل ﷺ في صيامه وعلم الصحابة رضوان الله عليهم ذلك واصلوا معه، فنهاهم عن الوصال؛ إشفاقا عليهم، قالوا: فإنك تواصل، قال: « إني لست كهيئتكم ».

في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: نهى رسول الله ﷺ عن الوصال في الصوم فقال له رجل من المسلمين: إنك تواصل يا رسول الله قال: « وأيكم مثلي، إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني ».

فلما أبوا أن ينتهوا عن الوصال واصل بهم يوما، ثم رأوا الهلال فقال: « لو تأخر لزدتكم » كالتنكيل لهم حين أبوا أن ينتهوا.

فإنه ﷺ نهاهم عن الوصال؛ رحمة بهم وشفقة عليهم فلما راجعوه في ذلك؛ رغبة منهم في موافقته واصل بهم وكان آخر الشهر يوما، ثم يوما، ثم رأوا الهلال وقال: لو تأخر لزدتكم كالتنكيل لهم حين أبوا أن ينتهوا.

وهذا منه ﷺ إرشاد عملي وتأديب نبوي للصحابة الكرام رضي الله عنهم ليوقفهم على ضعفهم، وأن الوصال يشق عليهم، فيبتعدوا عنه من تلقاء أنفسهم.

وهذا تأديب النبوي يشبهه ما لو رأى والد وَلَدَه يحاول العبث بالنار فيعمل على تجنيبه ضررها بأن يأخذ بيده، ويضع أصبعه برفق على طرف جمرة

منها ليدرك مدى ضررها، فيكون حَذِرا منها؛ ويبتعد عن الوقوع فيها، لأن والده قد أوقفه على مدى ضررها.

وفي صحيح مسلم من حديث معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه لما شمَّت وهو في الصلاة رجلا عطس ووجد من الصحابة إنكارا عليه قال: « فلما صلى رسول الله ﷺ بأبي هو وأمي ما رأيت معلما قبله ولا بعده أحسن تعليما منه؛ فوالله ما كهرني، ولا ضربني، ولا شتمني.

قال: « إن الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن ».

وكان ﷺ إذا بلغه عن أحد من أصحابه ما يحتاج إلى تنبيه عليه قال في خطبته: « ما بال قوم يفعلون كذا، وما بال رجال من أمتي يقولون : كذا ».

وما أشبه ذلك، وذلك؛ ليعدل عنه من صدر منه، وليحذر الوقوع فيه من لم يباشره.

٤ ـ عفوه وحلمه ﷺ:

وكما كان ﷺ غاية في الرحمة والشفقة فهو غاية في العفو، والحلم، والصفح، والصبر، والتحمل.

وسيرته العطرة حافلة بالوقائع الدالة على ذلك، ففي الصحيحين عن جابر رضي الله عنه قال: « غزونا مع رسول الله ﷺ غزوة قبل نجد، فأدركنا رسول الله ﷺ في واد كثير العضاه، فنزل رسول الله ﷺ تحت شجرة فعلق سيفه بغصن من أغصانها.

قال: وتفرق الناس في الوادي يستظلون بالشجر، قال: فقال رسول الله ﷺ: « إن رجلا أتاني وأنا نائم، فأخذ السيف، فاستيقظت وهو قائم على

رأسي، فلم أشعر إلَّا والسيف صلتا في يده، فقال لي: من يمنعك مني؟ قال: قلت: الله، ثم قال في الثانية: من يمنعك مني؟ قال: قلت: الله، فشام السيف فها هو ذا جالس لم يعرض له رسول الله ﷺ».

وهذا لفظ مسلم، وعند البخاري «ولم يعاقبه وجلس».

وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت: «دخل رهط من اليهود على رسول الله ﷺ فقالوا: السام عليكم، قالت عائشة ففهمتها فقلت: وعليكم السام واللعنة. قالت: فقال رسول الله ﷺ: «مهلاً يا عائشة؛ إنَّ الله يحب الرفق في الأمر كله». فقلت: يا رسول الله ألم تسمع ما قالوه؟ قال رسول الله ﷺ: «قد قلت: وعليكم».

وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما خيّر رسول الله ﷺ بين أمرين إلَّا أخذ أيسرهما، ما لم يكن إثما، فإن كان إثما كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه إلَّا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله بها».

وروى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أنس رضي الله عنه قال: «كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه برد نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي فجبذه بردائه جبذة شديدة، قال أنس: فنظرت إلى صفحة عنق النبي ﷺ وقد أثَّرت بها حاشية الرداء من شدة جبذته، ثم قال: يا محمد مر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه فضحك ثم أمر له بعطاء».

٥ ـ نصحه ﷺ في الدعوة إلى دين الله:

لما بعث الله رسوله محمداً ﷺ بالدين القويم قام بأعباء هذه المهمة على الوجه الأكمل، وصبر على ما اعترضه في هذا السبيل من أذى.

أخرج البخاري ومسلم في صحيحيهما عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت لرسول الله

ﷺ: « يا رسول الله هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد، فقال: « لقد لقيت من قومك وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم أستفق إلَّا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي فإذا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني فقال: إن الله عز وجل قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، قال: فناداني ملك الجبال وسلم عليَّ ثم قال: يا محمد إن الله قد سمع قول قومك لك وأنا ملك الجبال، وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك فما شئت؟ إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين ».

فقال له رسول الله ﷺ: « بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا ».

إن هذا لهو الخلق العظيم يناله ﷺ مثل هذا الأذى، وتحف به المصائب، فينطلق على وجهه مهموما، ثم تعرض عليه ملائكة الله القضاء على أعدائه بأن يطبقوا عليهم الأخشبين ـ وهما جبلا مكة ـ فلا يستجيب لهذا العرض، ويجيب بالإجابة التي تبرهن على تمام نصحه ومحبته لأن يُعْبَد الله وحده فيقول: « بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئا ».

وقد ترك ﷺ الناس على محجة بيضاء واضحة كفيلة لمن سلكها بعز الدنيا وسعادة الآخرة، جاء ذلك نتيجة لاتصاف الرسول ﷺ بكمال النصح، وقوة البيان، ونهاية الأمانة، فما من شيء يقرب إلى الله إلَّا دل عليه أمته ورغبها فيه، كما حذرها مما يخالف ذلك، فلم يُقَصِّر ﷺ في إبلاغه شرع الله، ولم يقصر في بيانه عند الإبلاغ.

أخرج مسلم في صحيحه عن سلمان الفارسي رضي الله عنه أنه قيل له: « قد علمكم نبيكم كل شيء حتى الخراءة.

قال: فقال: أجل؛ لقد نهانا أن نستقبل القبلة لغائط، أو بول، أو أن نستنجي باليمين، أو أن نستنجي بأقل من ثلاثة أحجار، أو أن نستنجي برجيع أو عظم ».

وقد أعلن ﷺ قيامه بواجب التبليغ في أعظم جمع لقيه، وذلك في حجة الوداع، واستشهد الناس على أنفسهم، فشهدوا الشهادة الحق بإبلاغه رسالة ربه، وتأديته ما أمر به على أكمل وجه، ونصحه في ذلك، وذلك في حديث جابر رضي الله عنه الطويل في صفة حج النبي ﷺ الذي أخرجه مسلم في صحيحه، وفيه قوله ﷺ وهو يخطب الناس يوم عرفة : « وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به؛ كتاب الله، وأنتم تسألون عني فماذا أنتم قائلون ؟ ».

قالوا نشهد أنك قد بلغت، وأديت، ونصحت.

فقال بأصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس: « اللهم اشهد اللهم اشهد ثلاث مرات ».

ولم يَدَعْ ﷺ وسيلة فيها إيضاح، وإفهام للناس، وحفز للهمم إلى القيام بطاعة الله، والبعد عن معصيته إلّا سلكها في سبيل دعوته إلى الله وتحذير أمته من النكوب عن الشرع القويم الذي جاء به ﷺ فكان يضرب الأمثلة التي تجعل الشيء المبين في صورة المحسوس المشاهد.

ففي صحيح مسلم عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: « إن مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قومه فقال: يا قوم إني رأيت الجيش بعيني وأنا النذير العريان، فالنجاء، فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا، فانطلقوا

على مهلتهم، وكذبت طائفة منهم، فأصبحوا مكانهم، وصبحهم الجيش، فأهلكهم، واجتاحهم، فذلك مثل من أطاعني واتبع ما جئت به، ومثل من عصاني وكذب ما جئت به من الحق ».

وفي صحيحه ـ أيضاً ـ عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « مثلي ومثلكم كمثل رجل أوقد نارا، فجعل الجنادب والفراش يقعن فيها وهو يذبهن عنها، وأنا آخذ بِحُجُزِكُم عن النار، وأنتم تفلتون من يدي ».

واتفق البخاري ومسلم على إخراج هذا الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وكان ﷺ إذا سئل عن شيء وكانت الأهمية لغير المسؤول عنه لفت نظر السائل برفقه وحكمته ﷺ إلى ذلك الأهم، ففي الصحيحين عن أنس رضي الله عنه أن رجلا سأل النبي ﷺ عن الساعة فقال: متى الساعة؟ قال: « وماذا أعددت لها؟ »، قال: لا شيء إلَّا أني أحب الله ورسوله ﷺ، فقال ﷺ: « أنت مع من أحببت ».

إلى غير ذلك من الوسائل التي اتبعها ﷺ في هدايته وإرشاده.

٦ ـ قوته وشجاعته ﷺ:

المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير كما قال ﷺ في الحديث الذي أخرجه مسلم في صحيحه.

وقد جمع الله أنواع القوة في عبده ورسوله محمد ﷺ جمع له إلى القوة الإيمانية الكاملة القوة البدنية، فاستعمل هذه القوة في عبادة الله، وطاعته، والسعي الحثيث إلى كل ما يقربه إليه، وهو الأسوة والقدوة لأمته في كل خير.

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن عائشة رضي الله عنها قالت: « كان رسول الله ﷺ إذا صلى قام حتى تفطر رجلاه ».

قالت عائشة: يا رسول الله أتصنع هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فقال: «يا عائشة أفلا أحب أن أكون عبدا شكورا؟».

وفي الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان رسول الله ﷺ أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن، فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة».

وفي الصحيحين أيضا عن أنس رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ أحسَنَ الناس، وأجودَ الناس، وأشجع الناس، ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة فانطلق الناس قبل الصوت فاستقبلهم النبي ﷺ قد سبق الناس إلى الصوت وهو يقول: لم تراعوا، لم تراعوا، وهو على فرس لأبي طلحة عري ما عليه سرج، وفي عنقه سيف فقال: لقد وجدته بحرا أو إنه لبحر».

وكان رسول الله ﷺ يتقدم أصحابه في الجهاد في سبيل الله وقد شج وجهه وكُسِرَت رَبَاعِيَتُه ﷺ يوم أحد.

وفي غزوة حنين ثبت رسول الله ﷺ حين انهزم الكثير ممن معه، ففي الصحيحين عن البراء بن عازب رضي الله عنه أن رجلا قال له: «يا أبا عمارة أفررتم عن رسول الله ﷺ يوم حنين؟ فقال: لكن رسول الله ﷺ لم يفر، إن هوازن كانوا قوما رماة، فلما لقيناهم وحملنا عليهم انهزموا فأقبل الناس على الغنائم، فاستقبلونا بالسهام فانهزم الناس فلقد رأيت رسول الله ﷺ وأبو سفيان بن الحارث آخذ في لجام بغلته البيضاء وهو يقول: أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب».

قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره بعد سياق هذا الحديث: «قلت وهذا في غاية

ما يكون من الشجاعة التامة أنه في مثل هذا اليوم في حومة الوغى، وقد انكشف عنه جيشه، وهو مع هذا على بغلة، وليست سريعة الجري، ولا تصلح لفر ولا كر ولا هرب، وهو مع هذا يركضها على وجوههم وينوه باسمه؛ ليعرفه من لم يعرفه ﷺ دائما إلى يوم الدين ـ وما هذا كله إلَّا ثقة بالله، وتوكلا عليه، وعلما منه بأنه سينصره، ويتم ما أرسله به، ويظهر دينه على سائر الأديان ».

حقه ﷺ على أمته وحق أمته عليه

ولعل من المناسب أن أختم هذه المحاضرة المشتملة على نماذج من أخلاقه ﷺ بالإشارة إلى مجمل حقه على أمته، وحق أمته عليه ﷺ فأقول:

من حقه على أمته ـ وقيامهم بهذا الحق عنوان سعادتهم ـ أن يشهدوا بأنه رسول الله حقا إلى جميع الثقلين الجن والإنس، وأن شريعته باقية إلى قيام الساعة، وأنها عامة لكل أحد، فلا يسع أحدا الخروج عنها.

روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: « والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحدٌ من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلَّا كان من أصحاب النار ».

وأن شريعته صالحة لكل زمان ومكان، وأنه لا سعادة في الدنيا ولا نجاة في الآخرة إلَّا لمن سلك سبيله، وسار على نهجه، وأنه هو الأسوة والقدوة لأمته، وأنه الصادق المصدوق في أخباره غائبها وماضيها ومستقبلها، وأن تكون القلوب عامرة بحبه محبةً أعظم من محبة النفس والوالد والولد والناس أجمعين.

ومن محبته ﷺ محبة شريعته، وتعظيمها، وتحكيمها، والتحاكم إليها كما قال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾.

وأن تكون العبادة لله خالصةً، وعلى وفق الخطة التي رسمها رسول الله ﷺ فلا يعبد الله إلَّا بما شرع، كما قال ﷺ في الحديث الصحيح: « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد ».

وما أحسن قول أبي عثمان النيسابوري إذ يقول: « من أمّر السنة على نفسه قولا وفعلا نطق بالحكمة، ومن أمّر الهوى على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالبدعة ».

وقد جمع هذه الأمور في عبارة وجيزة شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله حيث قال في بيان المراد بشهادة أن محمداً رسول الله ﷺ قال: « طاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وألا يعبد الله إلَّا بما شرع ».

ومن حقه على أمته ﷺ أن تكون الألسنة رطبة بالثناء عليه بكل ما يليق به، مع الحذر من الغلو الذي لا يرضاه الله ولا رسوله، وبالثناء على سنته، وإيضاح محاسنها، وبيان ضرورة الناس إلى التمسك بها، وأن تكون الألسنة رطبة بالصلاة والسلام عليه ﷺ وبارك عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه بإحسان، والبخيل حقًّا من ذكر عنده النبي ﷺ فلم يصل عليه، وأرغم الله أنف مَن ذكر عنده النبي ﷺ فلم يصل عليه، وأبخل ممن يبخل بالدرهم والدينار من يبخل بالصلاة والسلام على النبي ﷺ عند ذكره صلوات الله وسلامه الأتمان الأكملان عليه وعلى آله وأصحابه وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما حق الأمة عليه فهو إبلاغهم رسالة ربهم وإرشادهم إلى ما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة.

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾،وقال تعالى: ﴿ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾.

روى البخاري في صحيحه عن ابن شهاب الزهري رحمه الله أنه قال: «من الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التسليم» انتهى.

وقد منّ الله على المؤمنين بإرسال رسوله الكريم ـ عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم ـ وقام رسول الله ﷺ بإبلاغ الرسالة على أكمل الأحوال وأتمها.

وأنزل الله تعالى عليه في أواخر حياته في حجة الوداع: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾.

وقال ﷺ في خطبته في حجة الوداع: «وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به؛ كتاب الله، وأنتم تسألون عني فماذا أنتم قائلون؟».

قالوا نشهد أنك قد بلغت، وأديت، ونصحت.

فقال بأصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس: «اللهم اشهد اللهم اشهد ثلاث مرات» رواه مسلم.

فالذي من الله وهو الرسالة، والذي على الرسول وهو البلاغ، كل منهما قد حصل على التمام والكمال.

أما الذي على الأمة وهو التسليم، فالسعيد من يوفق للقيام بذلك قولا وفعلا واعتقادا، والشقي الطريد المخذول من كان بخلاف ذلك.

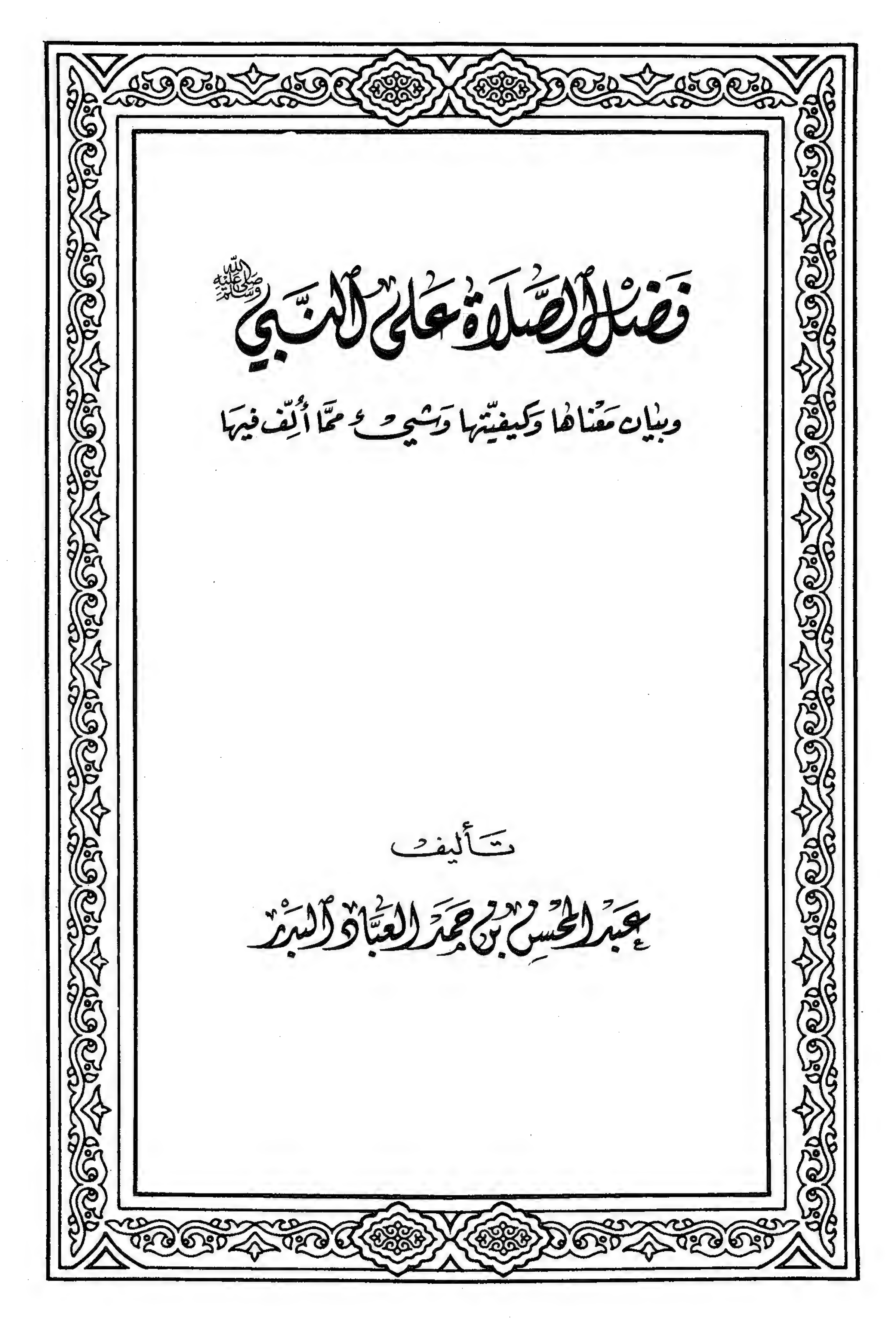
وأسأل الله الكريم ربّ العرش العظيم أن يوفقنا جميعا للتأدب بآداب هذا النبي الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، وأن يمن علينا بالتوفيق لاقتفاء آثاره، والسير على نهجه، وأن يميتنا على سنته، ويحشرنا في زمرته، ويجعلنا من الفائزين بشفاعته، إنه ولي ذلك والقادر عليه، ولا حول ولا قوة إلَّا به.

ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد.



الفهرس

***



فضل الصلاة على النبي ﷺ

وبيان معناها وكيفيتها وشيء مما أُلِّف فيها

تأليف

عبد المحسن بن حمد العباد البدر



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم ارض عن الصحابة الكرام، ومن تبعهم بإحسان، أما بعد:

فإنَّ نعم الله تعالى على عباده كثيرة لا تحصى، وأعظم نعمة أنعم الله بها على الثقلين ـ الجن والإنس ـ أن بعث فيهم عبدَه ورسوله، وخليله، وحبيبه، وخيرته من خلقه، محمداً ﷺ ليخرجهم به من الظلمات إلى النور، وينقلهم من ذل العبودية للمخلوق إلى عزِّ العبودية للخالق ـ سبحانه وتعالى ـ ويرشدهم إلى سبيل النجاة والسعادة، ويحذرهم من سبل الهلاك والشقاوة.

وقد نوه الله بهذه النعمة العظيمة، والمنة الجسيمة في كتابه العزيز فقال: **﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ ﴾** [آل عمران:١٦٤]، وقال سبحانه وتعالى: **﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ ﴾** [الفتح:٢٨].

وقد قام عليه أفضل الصلاة والسلام بإبلاغ الرسالة، وأداء الأمانة، والنصح للأمة على التمام والكمال، فبشر وأنذر، ودل على كل خير وحذّر من كل شرّ، وأنزل الله تعالى عليه وهو واقف بعرفة قبل وفاته ﷺ بمدّة يسيرة

قوله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة:٣].

وكان رسول الله ﷺ حريصاً على سعادة الأمة غاية الحرص كما قال تعالى منوّهاً بما حباه الله به من صفات جليلة: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [التوبة:١٢٨].

وهذا الذي قام به ﷺ من إبلاغ الرسالة وأداء الأمانة والنصح للأمة، هو حق الأمة عليه كما قال تعالى: ﴿ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [النور:٥٤]، وقال: ﴿ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [النحل:٣٥].

وروى البخاري في صحيحه عن الزهري أنه قال: « من الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التسليم » انتهى.

وإن علامة سعادة المسلم أن يستسلم وينقاد لما جاء به رسول الله ﷺ كما قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [النساء:٦٥]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الأحزاب:٣٦]، وقال تعالى: ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ [النور:٦٣].

متى تكون العبادة مقبولة:

وعبادة الله تكون مقبولة عند الله ونافعة لديه إذا اشتملت على أمرين أساسيين:

أولهما: أن تكون العبادة لله خالصة لا شركة لغيره فيها، وكما أنه تعالى ليس له شريك في الملك فليس له كذلك شريك في العبادة كما قال تعالى: ﴿ **وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا** ﴾ [الجن:١٨]، وقال تعالى: ﴿ **قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ** ﴾ [الأنعام:١٦٢-١٦٣].

الثاني: أن تكون العبادة على وفق الشريعة التي جاء بها رسوله محمد ﷺ كما قال الله تعالى: ﴿ **وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ** ﴾ [الحشر:٧]، وقال تعالى: ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ** ﴾ [آل عمران:٣١].

وقال ﷺ في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها: « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردّ »، وفي رواية لمسلم: « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردّ ».

وقال ﷺ: « عليكم بسنّتي وسنّة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضّوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كلَّ محدثةٍ بدعة وكل بدعة ضلالة ».

ولما كانت نعمة اللهِ تعالى على المؤمنين بإرسال رسوله ﷺ إليهم عظيمة، أمرهم الله تعالى في كتابه العزيز أن يصلوا عليه ويسلموا تسليما بعد أن أخبرهم أنه وملائكتَه يصلون عليه فقال تعالى: ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَـٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا** ﴾ [الأحزاب:٥٦].

وبيّن النبي ﷺ في السنة المطهرة فضلَ الصلاة عليه ﷺ وكيفيتَها وغيرَ ذلك من الأحكام المتعلقة بها.

وسأتحدث عن معنى الصلاة على النبي ﷺ وفضلِها وبيان كيفيتها، ثم أشير إلى نماذجَ من الكتب المؤلفة في هذه العبادة، وأسأل الله تعالى التوفيق والسداد.

معنى الصلاة على النبي ﷺ:

صلاة الله على نبيه ﷺ فسِّرت بثنائه عليه عند الملائكة، وصلاة الملائكة عليه فسِّرت بدعائهم له، فسَّرها بذلك أبو العالية، كما ذكره عنه البخاري في صحيحه، في مطلع باب: ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا** ﴾.

وقال البخاري في تفسير صلاة الملائكة عليه بعد ذكر تفسير أبي العالية قال ابن عباس: يصلون: يُبرِّكون، أي يدعون له بالبركة.

وفسرت صلاة الله عليه بالمغفرة، وبالرحمة كما نقله الحافظ ابن حجر في الفتح عن جماعة، وتعقب تفسيرها بذلك ثم قال: « وأولى الأقوال ما تقدم عن أبي العالية أن معنى صلاة الله على نبيه ثناؤه عليه وتعظيمه، وصلاة الملائكة وغيرهم عليه طلب ذلك له من الله تعالى والمراد: طلب الزيادة لا طلب أصل الصلاة ».

وقال الحافظ: « وقال الحليمي في الشعب: معنى الصلاة على النبي ﷺ تعظيمه، فمعنى قولنا: اللهم صل على محمد: عظم محمداً، والمراد: تعظيمه في الدنيا بإعلاء ذكره، وإظهار دينه، وإبقاء شريعته، وفي الآخرة بإجزال مثوبته، وتشفيعه في أمته، وإبداء فضيلته بالمقام المحمود، وعلى هذا فالمراد بقوله تعالى: ﴿ **صَلُّواْ عَلَيْهِ** ﴾: ادعوا ربكم بالصلاة عليه » انتهى.

وقال العلامة ابن القيم في كتابه (جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام) في معرض الكلام على صلاة الله وملائكته على رسوله ﷺ وأمر

عباده المؤمنين بأن يصلوا عليه بعد أن رد أن يكون المعنى: الرحمة والاستغفار قال: « بل الصلاة المأمور بها فيها ـ يعني آية الأحزاب ـ هي الطلب من الله ما أخبر به عن صلاته، وصلاة ملائكته، وهي: ثناء عليه، وإظهار لفضله وشرفه، وإرادة تكريمه وتقريبه؛ فهي تتضمن الخبر والطلب، وسمى هذا السؤال والدعاء منا نحن صلاة عليه لوجهين:

أحدهما: أنه يتضمن ثناء المصلي عليه، والإشادة بذكر شرفه وفضله، والإرادة والمحبة لذلك من الله، فقد تضمنت الخبر والطلب.

والوجه الثاني: أن ذلك سمي صلاة منا لسؤالنا من الله أن يصلي عليه، فصلاة الله عليه: ثناؤه لرفع ذكره وتقريبه، وصلاتنا نحن عليه: سؤالنا الله تعالى أن يفعل ذلك به » انتهى.

معنى التسليم على النبي ﷺ:

وأما معنى التسليم على النبي ﷺ فقد قال فيه المجد الفيروز أبادي في كتابه (الصلات والبُشَر في الصلاة على خير البشر): « ومعناه: السلام الذي هو اسم من أسماء الله تعالى عليك وتأويله: لا خلوت من الخيرات والبركات، وسلمت من المكاره والآفات؛ إذ كان اسم الله تعالى إنما يذكر على الأمور توقعاً لاجتماع معاني الخير والبركة فيها، وانتفاء عوارض الخلل والفساد عنها.

ويحتمل أن يكون السلام بمعنى السلامة أي: ليكن قضاء الله تعالى عليك السلامة، أي سلمت من الملام والنقائص.

فإذا قلت: اللهم سلم على محمد، فإنما تريد منه: اللهم اكتب لمحمد في دعوته وأمته وذكره السلامة من كل نقص، فتزداد دعوته على ممر الأيام علواً، وأمته تكاثراً، وذكره ارتفاعاً ».

كيفية الصلاة على النبي ﷺ:

أما كيفية الصلاة على النبي ﷺ فقد بيّنها رسول الله ﷺ لأصحابه حين سألوه عن ذلك، وقد وردت هذه الكيفية من طرق كثيرة عن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم، أذكر منها هنا ما كان في الصحيحين أو في أحدهما.

روى البخاري في كتاب الأنبياء من صحيحه عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: « لقيني كعب بنُ عُجْرَةَ فقال: ألا أهدي لك هدية سمعتها من النبي ﷺ، فقلت: بلى فاهدها لي، فقال: سألت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، كيف الصلاة عليكم أهل البيت؟ فإن الله قد علمنا كيف نسلم، قال: قولوا: « اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد ».

وأخرج أيضاً حديث كعب بن عجرة في كتاب التفسير من صحيحه في تفسير سورة الأحزاب ولفظه: « قيل يا رسول الله، أمّا السلام عليك فقد عرفناه، فكيف الصلاة عليك؟ قال: « قولوا: اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد ».

وأخرجه أيضاً في كتاب الدعوات من صحيحه، وقد أخرج هذا الحديث مسلم عن كعب بن عجرة رضي الله عنه من طرق متعددة عنه.

وأخرج البخاري في كتاب الدعوات من صحيحه عن أبي سعيد الخدري قال: « قلنا: يا رسول الله هذا السلام عليك فكيف نصلي؟ قال: قولوا: اللهم صلِّ على محمد عبدك ورسولك كما صليت على إبراهيم، وبارك على محمد وآل

محمد كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم ».

وأخرجه عنه أيضاً في تفسير سورة الأحزاب.

وأخرج البخاري في كتاب الأنبياء من صحيحه عن أبي حميد الساعدي رضي الله عنه أنهم قالوا: يا رسول الله كيف نصلي عليك؟ فقال رسول الله ﷺ: قولوا: اللهم صلِّ على محمد وأزواجه وذريته، كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد وأزواجه وذريته كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد ».

وأخرج عنه أيضاً في كتاب الدعوات بمثل هذا اللفظ، وأخرج هذا الحديث عن أبي حميد رضي الله عنه مسلم في صحيحه.

وأخرج مسلم في صحيحه عن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه قال: « أتانا رسول الله ﷺ ونحن في مجلس سعد بن عبادة فقال له بشير بن سعد: أمرنا الله تعالى أن نصلي عليك فكيف نصلي عليك؟ قال: فسكت رسول الله ﷺ حتى تمنينا أنه لم يسأله، ثم قال رسول الله ﷺ: قولوا: اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد، والسلام كما علمتم ».

هذه هي المواضع التي خُرِّج فيها هذا الحديث في الصحيحين أو أحدهما، وهي عن أربعة من الصحابة: كعب بن عجرة، وأبي سعيد الخدري، وأبي حميد الساعدي، وأبي مسعود الأنصاري، وقد اتفق البخاري ومسلم على إخراجه من حديث (كعب وأبي حميد) وانفرد البخاري بإخراجه من حديث أبي سعيد وانفرد مسلم بإخراجه من حديث أبي مسعود الأنصاري.

وقد أخرجه عن هؤلاء الأربعة غير الشيخين، فرواه عن كعب بن عجرة أبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، والإمام أحمد، والدارمي.

ورواه عن أبي سعيد الخدري: النسائي، وابن ماجه.

ورواه عن أبي حميد: أبو داود، والنسائي، وابن ماجه.

ورواه عن أبي مسعود الأنصاري: أبو داود، والنسائي، والدارمي.

وروى حديث كيفية الصلاة على النبي ﷺ جماعة من الصحابة غير هؤلاء الأربعة منهم: طلحة بن عبيد الله، وأبو هريرة، وبريدة بن الحصيب، وابن مسعود، رضي الله عنهم أجمعين.

أفضل كيفيات الصلاة على النبي ﷺ وأكملها:

وهذه (الكيفية) التي علم ﷺ أصحابه إياها عندما سألوه عن كيفية الصلاة عليه ﷺ هي أفضل كيفيات الصلاة عليه ﷺ، وأكملها الصيغة التي فيها الجمع بين الصلاة على النبي ﷺ وآله، والصلاة على إبراهيم ﷺ وآله.

ومِمَّن استدل بتفضيل الكيفية التي أجاب النبي ﷺ أصحابه بها، الحافظ ابن حجر في فتح الباري، فقد قال فيه (١١/ ١٦٦) قلت: « واستدل بتعليمه ﷺ لأصحابه الكيفية بعد سؤالهم عنها بأنها أفضل كيفيات الصلاة عليه؛ لأنه لا يختار لنفسه إلّا الأشرف الأفضل، ويترتب على ذلك، لو حلف أن يصلي عليه أفضل الصلاة، فطريق البر أن يأتي بذلك ».

ثم ذكر أن النووي صوب ذلك في الروضة، وذكر كيفيات أخرى يحصل بها بر الحلف، ثم قال: « والذي يرشد إليه الدليل أن البر يحصل بما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه؛ لقوله: (من سره أن يكتال بالمكيال الأوفى إذا صلى علينا فليقل: اللهم صلِّ على محمد النبي وأزواجه أمهات المؤمنين وذريته وأهل بيته كما صليت على إبراهيم.... الحديث والله أعلم) » انتهى.

صيغتان مختصرتان للصلاة والسلام عليه ﷺ:

وقد درج السلف الصالح، ومنهم المحدِّثون بذكر الصلاة والسلام عليه ﷺ عند ذكره بصيغتين مختصرتين: **إحداهما:** « صلى الله عليه وسلم »، **والثانية:** « عليه الصلاة والسلام ».

وهاتان الصيغتان قد امتلأت بهما ـ ولله الحمد ـ كتب الحديث، بل إنهم يدوِّنون في مؤلفاتهم الوصايا بالمحافظة على ذلك على الوجه الأكمل من الجمع بين الصلاة والتسليم عليه ﷺ. يقول الإمام ابن الصلاح في كتابه علوم الحديث: « ينبغي له ـ يعني كاتب الحديث ـ أن يحافظ على كَتْبِهِ الصلاة والتسليم على رسول الله ﷺ عند ذكره، ولا يسأم من تكرير ذلك عند تكريره؛ فإن ذلك من أكبر الفوائد التي يتعجلها طلبة الحديث وكتبته، ومن أغفل ذلك حرم حظاً عظيماً ».

إلى أن قال: « وليتجنب في إثباتها نقصين: أحدهما: أن يكتبها منقوصة، صورة رامزاً إليها بحرفين أو نحو ذلك، والثاني: أن يكتبها منقوصة معنى، بأن لا يكتب وسلم وإن وجد ذلك في خط بعض المتقدمين ». انتهى محل الغرض منه.

وقال النووي في كتاب الأذكار: « إذا صلى أحدكم على النبي ﷺ فليجمع بين الصلاة والتسليم، ولا يقتصر على أحدهما، فلا يقل: (صلى الله عليه) فقط، ولا (عليه السلام) فقط » انتهى.

وقد نقل هذا عنه ابن كثير في ختام تفسيره آية الأحزاب من كتاب التفسير، ثم قال ابن كثير: « وهذا الذي قاله منتزع من هذه الآية وهي قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾، فالأولى أن يُقال: صلى الله

عليه وسلم تسليماً » انتهى.

وقال الفيروز آبادي في كتابه (الصلات والبشر): « ولا ينبغي أن ترمز للصلاة كما يفعله بعض الكسالى، والجهلة، وعوام الطلبة، فيكتبون صورة (صلعم) بدلاً من ﷺ ».

فضل الصلاة على النبي ﷺ:

وقد ورد في فضل الصلاة على النبي ﷺ أحاديثُ كثيرةٌ جمعها الحافظ إسماعيل بن إسحاق القاضي في كتاب أفرده لها، وقد أشار الحافظ ابن حجر في فتح الباري عند شرحه حديث كيفية الصلاة على النبي ﷺ الذي أورده البخاري في (كتاب الدعوات) من صحيحه إلى الجيد من أحاديث فضل الصلاة على النبي ﷺ.

والحافظ ابن حجر من أهل الاستقراء التام، والاطلاع الواسع على دواوين السنة النبوية، فأنا أورد هنا ما ذكره في هذا الموضوع، قال رحمه الله (١١/ ١٦٧): « واستدل به على فضيلة الصلاة على النبي ﷺ من جهة ورود الأمر بها واعتناء الصحابة بالسؤال عن كيفيتها، وقد ورد في التصريح بفضلها أحاديث قوية لم يخرج البخاري منها شيئاً.

منها: ما أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة رفعه: « من صلّى عليَّ واحدةً صلّى الله عليه عشراً ».

وله شاهد عن أنس عند أحمد والنسائي، وصححه ابن حبان، وعن أبي بردة بن نيار وأبي طلحة كلاهما عند النسائي ورواتهما ثقات، ولفظ أبي بردة: « من صلّى عليَّ من أمتي صلاة مخلصاً من قلبه صلى الله عليه بها عشر صلوات،

ورفعه بها عشر درجات، وكتب له بها عشر حسنات، ومحا عنه عشر سيئات ».

ولفظ أبي طلحة عنده نحوه وصححه ابن حبان.

ومنها حديث ابن مسعود رفعه: « إن أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم عليَّ صلاة ». وحسنه الترمذي وصححه ابن حبان.

وله شاهد عند البيهقي عن أبي أمامة بلفظ: « صلاة أمتي تعرض عليَّ في كل يوم جمعة فمن كان أكثرهم عليَّ صلاة كان أقربهم منّي منزلة ». ولابأس بسنده.

وورد الأمر بإكثار الصلاة عليه يوم الجمعة من حديث أوس بن أوس وهو عند أحمد وأبي داود وصححه ابن حبان والحاكم.

ومنها حديث: « البخيل من ذكرت عنده فلم يصلِّ عليَّ » أخرجه الترمذي، والنسائي، وابن حبان، والحاكم وإسماعيل القاضي، وأطنب في تخريج طرقه وبيان الاختلاف فيه من حديث عليّ ومن حديث ابنه الحسين، ولا يقصر عن درجة الحسن.

ومنها « من نسي الصلاة عليَّ خطىء طريق الجنّة » أخرجه ابن ماجه عن ابن عباس، والبيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة، وابن أبي حاتم من حديث جابر، والطبراني من حديث حسين بن عليّ، وهذه الطرق يشد بعضها بعضاً.

وحديث « رَغِمَ أنفُ رجل ذكرت عنده فلم يصل عليَّ » أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة بلفظ: « من ذكرت عنده فلم يصلِّ عليَّ فمات فدخل النار فأبعده الله ». وله شاهد عنده، وصحّحه الحاكم، وله شاهد من حديث أبي ذر في الطبراني، وآخر عن أنس عند ابن أبي شيبة، وآخر مرسل عن الحسن

عند سعيد بن منصور، وأخرجه ابن حبان من حديث أبي هريرة، ومن حديث مالك بن الحويرث، ومن حديث عبد الله بن عباس عند الطبراني، ومن حديث عبد الله بن جعفر عند الفريابي، وعند الحاكم من حديث كعب بن عجرة بلفظ: «بَعُدَ من ذكرت عنده فلم يصلِّ عليَّ».

وعند الطبراني من حديث جابر رفعه «شَقِيَ عبد ذكرت عنده فلم يصلِّ عليَّ».

وعند عبد الرزاق من مرسل قتادة «من الجفاء أن أذكر عند رجل فلا يصلي عليَّ».

ومنها حديث أُبَي بن كعب «أن رجلاً قال: يا رسول الله؛ إني أكثر الصلاة، فما أجعل لك من صلاتي؟ قال: «ما شئت»، قال: الثلث، قال: «ما شئت وإن زدت فهو خير»، إلى أن قال: أجعل لك كل صلاتي. قال: «إذاً تُكفى همك» الحديث أخرجه أحمد وغيره بسند حسن.

هذا الجيد من الأحاديث الواردة في ذلك وفي الباب أحاديث كثيرة ضعيفة وواهية. وأما ما وضعه القصاص في ذلك فلا يحصى كثرة، وفي الأحاديث القوية غنية عن ذلك» انتهى كلام الحافظ ابن حجر رحمه الله.

والمراد من الصلاة في حديث أبي بن كعب «فما أجعل لك من صلاتي»: الدعاء.

مِمَّا ألف في الصلاة على النبي ﷺ:

قد اعتنى العلماء بهذه العبادة العظيمة، فأفردوها بالتأليف، وأول من علمته ألف في ذلك: الإمام إسماعيل بن إسحاق القاضي المتوفى سنة (٢٨٢هـ) واسم كتابه: **فضل الصلاة على النبي ﷺ**، وقد طبع بتحقيق الشيخ محمد ناصر

الدين الألباني، وهو يشتمل على مائة وسبعة أحاديث كلها مسندة.

ومن الكتب المطبوعة المتداولة في هذا الباب كتاب **جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام**، للعلامة ابن القيم، وكتاب **الصلات والبشر في الصلاة على خير البشر**، للفيروز أبادي صاحب القاموس، وكتاب **القول البديع في الصلاة على الحبيب الشفيع**، للسخاوي المتوفى سنة (٩٠٢هـ)، وقد ختم كتابه هذا ببيان الكتب المصنفة في الصلاة على النبي ﷺ، وذكر جملة كبيرة من هذه الكتب مرتبة، وخامسها بالترتيب كتاب (جلاء الأفهام) لابن القيم وقد أشار إلى قيمة كل منها ثم قال: « وفي الجملة فأحسنها وأكثرها فوائد خامسها، يعني كتاب ابن القيم ».

أقول: وهو في الحقيقة كتاب قيِّمٌ جمع مؤلفه فيه بين ذكر الأحاديث عن النبي ﷺ في هذه العبادة العظيمة، والكلام عليها صحّة وضعفاً، فقهاً واستنباطاً، وقد قال عنه في مقدمته: « وهو كتاب فرد في معناه، لم يسبق إلى مثله في كثرة فوائده وغزارتها، بَيَّنّا فيه الأحاديث الواردة في الصلاة والسلام عليه ﷺ وصحيحها من حسنها ومعلولها، وبيَّنّا ما في معلولها من العلل بياناً شافياً، ثم أسرار هذا الدعاء وشرفه، وما اشتمل عليه من الحكم والفوائد، ثم مواطن الصلاة عليه ﷺ ومحالّها، ثم الكلام في مقدار الواجب منها، واختلاف أهل العلم فيه، وترجيح الراجح، وتزييف الزائف، ومخبر الكتاب فوق وصفه والحمد لله رب العالمين » انتهى.

ومما ألف في الصلاة على النبي ﷺ مبنياً على غير علم، ومشتملاً على فضائل وكيفيات الصلاة على النبي ﷺ ما أُنزل بها من سلطان كتابُ **دلائل الخيرات**، للجزولي المتوفى سنة (٨٥٤هـ).

وقد شاع وانتشر في كثير من أقطار الأرض، قال عنه صاحب كشف الظنون (١/ ٤٩٥): « دلائل الخيرات وشوارق الأنوار في ذكر الصلاة على النبي المختار ـ عليه الصلاة والسلام ـ أوله الحمد لله الذي هدانا للإيمان... إلخ للشيخ أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الجزولي السملالي الشريف الحسني المتوفى سنة (٨٥٤هـ).

وهذا الكتاب آية من آيات الله في الصلاة على النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ يواظب بقراءته في المشارق والمغارب لاسيما في بلاد الروم ». ثم أشار إلى بعض شروح هذا الكتاب.

أقول: ولم يكن إقبال الكثير من الناس على تلاوته مبنياً على أساس يعتمد عليه، وإنما كان تقليداً عن جهل من بعضهم لبعض، والأمر في ذلك كما قال الشيخ محمد الخضر بن مايابى الشنقيطي في كتابه **مشتهى الخارف الجاني في رد زلقات التجاني الجاني**، قال في أثناء ردّه على التجاني: « فإن الناس مولعةٌ بحب الطارئ، ولذلك تراهم يرغبون دائماً في الصلوات المروية في دلائل الخيرات ونحوه، وكثير منها لم يثبت له سند صحيح ويرغبون عن الصلوات الواردة عن النبي ﷺ في صحيح البخاري، فقل أن تجد أحداً من المشايخ أهل الفضل له ورد منها، وما ذلك إلّا للولوع بالطارىء، وأما لو كان الفضل منظوراً إليه لما عدل عاقل ـ فضلاً عن شيخ فاضل ـ عن صلاة واردة عن النبي ﷺ بعد سؤاله فكيف نصلي عليك يا رسول الله؟ فقال: قولوا كذا، وهو لا ينطق عن الهوى، إن هو إلّا وحي يوحى، أقول: لما عدل إلى صلاة لم يرد فيها حديث صحيح، بل ربما كانت منامية من رجل صالح في الظاهر » انتهى.

ولا شك أن ما جاءت به السّنّة، وفعَلَه الصحابةُ الكرام والتابعون لهم بإحسان هو الطريق المستقيم، والمنهج القويم، والفائدة للآخذ به محققة

والمضرة عنه منتفية، وقد قال عليه الصلاة والسلام في الحديث المتفق على صحّته عن عائشة رضي الله عنها: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ». وفي رواية لمسلم «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ».

وقال ﷺ: «عليكم بسنّتي وسنّة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضّوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور؛ فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة».

وقد حذّر عليه الصلاة والسلام أمته من الغلو فيه، فقال في الحديث الصحيح: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله».

ولما قال له رجل: (ما شاء الله وشئت) قال عليه الصلاة والسلام: «أجعلتني لله ندّاً؟ ما شاء الله وحده».

وكتاب (دلائل الخيرات) قد اشتمل على الغث والسمين، وشيب فيه الجائز بالممنوع، وفيه أحاديث موضوعة، وأحاديث ضعيفة، وفيه مجاوزة للحد، ووقوع في المحذور الذي لا يرضاه الله ولا رسوله ﷺ وهو طارئ لم يكن من نهج السابقين بإحسان.

كيفيات مبتدعة في كتاب (دلائل الخيرات):

وحسبي هنا أن أشير إلى بعض الأمثلة مما فيه من الكيفيات المبتدعة في الصلاة والتسليم على النبي الكريم صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعهم بإحسان إلى يوم الدين، ثم أتبع ذلك بنماذج مما فيه من الأحاديث الموضوعة في فضل الصلاة عليه ﷺ والتي يتنزه لسانه الشريف عن النطق بها، فمن الكيفيات الواردة فيه:

« اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد حتى لا يبقى من الصلاة شيء، وارحم محمداً وآل محمد حتى لا يبقى من الرحمة شيء، وبارك على محمد وعلى آل محمد حتى لا يبقى من البركة شيء، وسلم على محمد وعلى آل محمد حتى لا يبقى من السلام شيء ».

فإن قوله: حتى لا يبقى من الصلاة والرحمة والبركة والسلام شيء، من أسوأ الكلام، وأبطل الباطل؛ لأن هذه الأفعال لا تنتهي.

وكيف يقول الجزولي: حتى لا يبقى من الرحمة شيء، والله تعالى يقول: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [الأعراف:١٥٦].

وقال في (ص:٧١): « اللهم صل على سيدنا محمد بحر أنوارك، ومعدن أسرارك، ولسان حجتك، وعروس مملكتك، وإمام حضرتك، وطراز ملكك وخزائن رحمتك... إنسان عين الوجود والسبب في كل موجود... ».

وقال في (ص:٦٤): « اللهم صلى على من تفتقت من نوره الأزهار... اللهم صل على من أخضرت من بقية وضوئه الأشجار، اللهم صل على من فاضت من نوره جميع الأنوار ».

فإن هذه الكيفيات فيها تكلف وغلو لا يرضاه المصطفى ﷺ وهو الذي قال: « لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله » أخرجه البخاري في صحيحه.

وقال الجزولي في (ص:١٤٤و ١٤٥): « اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد ما سجعت الحمائم، وحمت الحوائم، وسرحت البهائم ونفعت التمائم، وشدت العمائم، ونمت النوائم ».

فإن في قوله: (ونفعت التمائم) إشادة بالتمائم وحث عليها وقد حرمها صلى

الله عليه وسلم فقال: « من تعلّق تميمة فلا أتم الله له ».

نماذج مما في كتاب (دلائل الخيرات) من الأحاديث الموضوعة:

وأذكر فيما يلي أمثلة لما فيه من أحاديثَ موضوعةٍ أو ضعيفة جداً، مع الإشارة إلى بعض ما قاله أهل العلم فيها وذلك على سبيل التمثيل لا الحصر.

قال في (ص:١٥): « وروي عنه ﷺ أنه قال: « من صلى عليّ صلاة تعظيماً لحقي خلق الله عزَّ وجلَّ من ذلك القول ملكاً له جناح بالمشرق والآخر بالمغرب، ورجلاه مقرورتان في الأرض السابعة السفلى، وعنقه ملتوية تحت العرش يقول الله عزَّ وجلَّ له: صل على عبدي كما صلى على نبيي فهو يصلي عليه إلى يوم القيامة ».

وقال في (ص:١٦): « وقال النبي ﷺ: « ما من عبد صلى عليّ إلَّا خرجت الصلاة مسرعة من فيه، فلا يبقى بر ولا بحر ولا شرق ولا غرب إلَّا وتمر به وتقول: أنا صلاة فلان ابن فلان، صلى على محمد المختار، خير خلق الله، فلا يبقى شيء إلَّا وصلى عليه، ويخلق من تلك الصلاة طائر له سبعون ألف جناح، في كل جناح سبعون ألف ريشة، في كل ريشة سبعون ألف وجه، في كل وجه سبعون ألف فم، في كل فم سبعون ألف لسان يسبح الله تعالى بسبعين ألف لغة، ويكتب الله له ثواب ذلك كله ».

هذان حديثان من أحاديث دلائل الخيرات يصدق عليهما قول العلامة ابن القيم رحمه الله في كتاب المنار المنيف: « والأحاديث الموضوعة عليها ظلمة وركاكة، ومجازفات باردة تنادي على وضعها واختلاقها »، ثم ضرب لذلك بعض الأمثلة ثم قال: « فصل: ونحن ننبه على أمور كلية يعرف بها كون الحديث موضوعاً، فمنها: اشتماله على أمثال هذه المجازفات التي لا يقول

مثلها رسول الله ﷺ، وهي كثيرة جداً، كقوله في الحديث المكذوب: « من قال لا إله إلّا الله خلق الله من تلك الكلمة طائراً له سبعون ألف لسان، لكل لسان سبعون ألف لغة يستغفرون الله له، ومن فعل كذا وكذا أعطي في الجنة سبعين ألف مدينة، في كل مدينة سبعون ألف قصر، في كل قصر سبعون ألف حوراء.

وأمثال هذه المجازفات الباردة التي لا تخلو حالُ واضعها من أحد أمرين: إما أن يكون في غاية (الجهل والحمق) وإما أن يكون (زنديقاً) قصد التنقيص بالرسول ﷺ بإضافة مثل هذه الكلمات إليه » انتهى.

وممن حكم بالبطلان على أمثال هذه الأحاديث من المعاصرين أبو الفضل عبد الله الصديق الغماري قال في تعليقه على كتاب (بشارة المحبوب بتكفير الذنوب) للأذرعي (ص:١٢٥): « تنبيه: جاء في كثير من الأحاديث: من عمل كذا خلق الله من ذلك العمل ملكاً يسبح، أو يحمد الله، وكلها أحاديث باطلة ». قال ذلك هنا، ومع هذا أثنى على كتاب (دلائل الخيرات) ثناءً عظيماً في كتابه (خواطر دينية) ووصفه بأنّه سار مسير الشمس.

عظم شأن السنّة في نفوس السلف بيان سر انتصارهم على أعدائهم بخلاف حال المسلمين اليوم:

ويطيب لي أن أختم هذه المحاضرة بإثبات قطعة مما كتبته في شرح حديث كعب بن عجرة رضي الله عنه في كيفية الصلاة على النبي ﷺ وهو الحديث التاسع عشر من الأحاديث العشرين التي اخترتها من صحيح مسلم والتي طبعت تحت عنوان: (**عشرون حديثاً من صحيح مسلم دراسة أسانيدها وشرح متونها**) وهذه القطعة هي:

قول كعب بن عجرة رضي الله عنه لابن أبي ليلى: ألا أهدي لك هدية ... يدل على أن أحاديث رسول الله ﷺ ومعرفة سنّته ﷺ وتطبيقها أنفس الأشياء عندهم وأحبها إلى نفوسهم.

ولهذا قال كعب ما قال منبهاً إلى أهمية ما سيلقيه على ابن أبي ليلى؛ ليستعدّ لفهمه، ويهيىء نفسه لتلقيه والإحاطة به.

ولما كان السلف معنيين بسنّة نبيهم ﷺ حريصين عليها وهي أنفس هداياهم، لما قام في قلوبهم من محبتها والحرص على تطبيقها، كانوا سادةَ الأمم، ومحطَّ أنظار العالم، وكان النصر على الأعداء حليفهم، وكانت الشوكة والغلبة للإسلام وأهله كما قال الله تعالى: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [محمد:٧].

وعلى العكس من ذلك ما نشاهده اليوم من واقع المسلمين المؤلم من التخاذل، والتفكّك، والزهد في تعاليم الشريعة، والبعد عنها إلّا من رحم الله وقليل ما هم، لما كانوا كذلك لم يحسب أعداؤهم لهم أي حساب، ولم يقيموا لهم أدنى وزن، وكانوا هائبين بعد أن كان أسلافهم مهيبين، وغُزوا في عقر دارهم من عدوهم وممن تربى على أيديه من أبنائهم.

وإذا تأمل العاقل ما تضمنه هذا الحديث الشريف من بيان قيمة السّنّة النبوية في نفوس السلف الصالح، وعظيم منزلتها في نفوسهم، وأنها أنفس هداياهم، ثم نظر إلى حالة الكثير من المنتسبين إلى الإسلام اليوم، وما ابتلوا به من الزهد في الشريعة، والتحاكم إلى غيرها.

أقول: إذا تأمل العاقل أحوال أولئك وأحوال هؤلاء، عرف السر الذي من أجله كان أولئك ينتصرون على أعدائهم مع قلّة عددهم وعَدَدِهم

وعُدَدِهم، وكان هؤلاء ينهزمون وهم كثيرون أمام الأعداء.

ولن يقوم للمسلمين قائمة إلَّا إذا رجعوا إلى الكتاب العزيز والسّنّة المطهرة، ولفظوا القوانين الوضعية الوضيعة، وغيرها من البضائع الرديئة المستوردة مما وراء البحار، ونظفوا نفوسهم وأوطانهم منها.

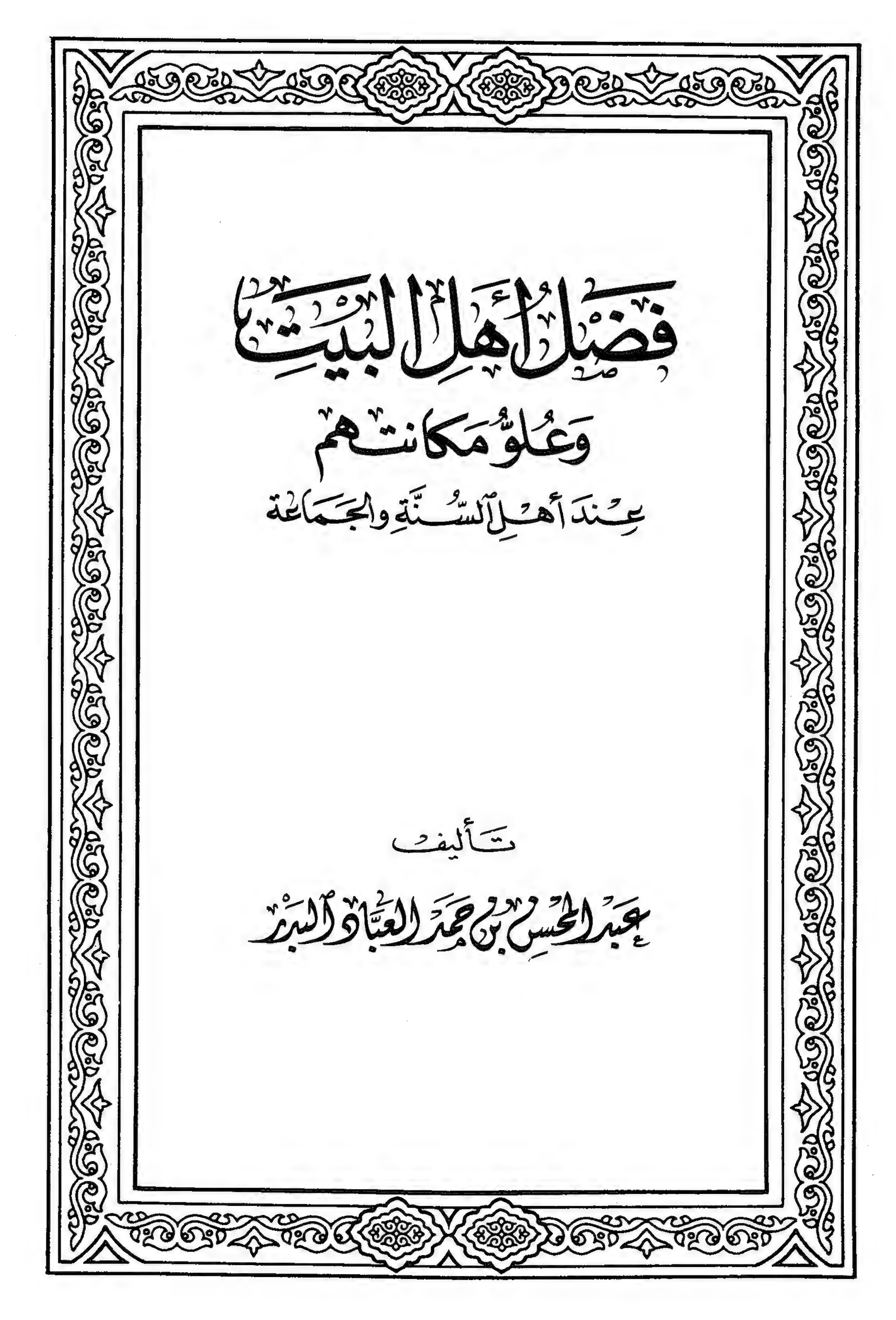
وأسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن يوفق المسلمين جميعاً حاكمين ومحكومين إلى الرجوع إلى كتاب ربهم، وسنّة نبيهم محمد ﷺ ليظفروا بالأسباب الحقيقية لحصول النصر والغلبة على الأعداء، إنه سميع مجيب والحمد لله رب العالمين، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد.



الفهرس

❋ ❋ ❋





فضل أهل البيت

وعلو مكانتهم

عند أهل السنة والجماعة

تأليف

عبد المحسن بن حمد العباد البدر

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله، صلَّى اللهُ وسلَّم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه، ومَن سلك سبيلَه، واهتدى بهديه إلى يوم الدِّين، أمَّا بعد:

فلأهميَّةِ بيان مكانة آل بيت النَّبِيِّ ﷺ عند الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ألقيتُ في الموضوع محاضرةً في قاعة المحاضرات بالجامعة الإسلامية بالمدينة قبل ستة عشر عاماً، وقد رأيتُ لعمومِ الفائدةِ كتابةَ رسالةٍ مختصرةٍ في هذا الموضوعِ، سَمَّيتُها:

فضلُ أهل البيت وعلوُّ مكانتِهم عند أهل السُّنَّة والجماعة

وهي تشتمل على عشرة فصول:

الفصل الأول: مَن هم أهل البيت؟

الفصل الثاني: مُجمل عقيدة أهل السُّنَّة والجماعة في أهل البيت.

الفصل الثالث: فضائل أهل البيت في القرآن الكريم.

الفصل الرابع: فضائل أهل البيت في السنَّة المطهَّرة.

الفصل الخامس: علوُّ مكانة أهل البيت عند الصحابة وتابعيهم بإحسان.

الفصل السادس: ثناء بعض أهل العلم على جماعة من الصحابة من أهل البيت.

الفصل السابع: ثناء بعض أهل العلم على جماعة من الصحابيات من أهل البيت.

الفصل الثامن: ثناء بعض أهل العلم على جماعة من التابعين وغيرهم من أهل البيت.

الفصل التاسع: مقارنة بين عقيدة أهل السُّنَّة وعقيدة غيرهم في أهل البيت.

الفصل العاشر: تحريم الانتساب بغير حق إلى أهل البيت.

المؤلف

١ ـ ربيع الثاني ـ ١٤٢٢

الفصل الأول:

مَن هم أهل البيت؟

القولُ الصحيحُ في المرادِ بآل بيت النَّبِيِّ ﷺ هم مَن تَحرُم عليهم الصَّدقةُ، وهم أزواجُه وذريَّتُه، وكلُّ مسلمٍ ومسلمةٍ من نَسْل عبد المطلب، وهم بنُو هاشِم بن عبد مَناف؛ قال ابن حزم في جمهرة أنساب العرب (ص:١٤): «وُلِد لهاشم بن عبد مناف: شيبةُ، وهو عبد المطلب، وفيه العمود والشَّرف، ولَم يبْقَ لهاشم عَقِبٌ إلَّا مِن عبد المطلب فقط».

وانظر عَقِبَ عبد المطلب في: جمهرة أنساب العرب لابن حزم (ص:١٤ ـ ١٥)، والتبيين في أنساب القرشيِّين لابن قدامة (ص:٧٦)، ومنهاج السنة لابن تيمية (٧/ ٣٠٤ ـ ٣٠٥)، وفتح الباري لابن حجر (٧/ ٧٨ ـ ٧٩).

ويدلُّ لدخول بنِي أعمامه في أهل بيته ما أخرجه مسلم في صحيحه (١٠٧٢) عن عبد المطلب بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب أنَّه ذهب هو والفضل بن عباس إلى رسول الله ﷺ يطلبان منه أن يُولِّيهما على الصَّدقةِ ليُصيبَا مِن المال ما يتزوَّجان به، فقال لهما ﷺ: «إنَّ الصَّدقة لا تنبغي لآل محمد؛ إنَّما هي أوساخُ الناس»، ثمَّ أمر بتزويجهما وإصداقهما من الخمس.

وقد أَلْحَق بعضُ أهل العلم منهم الشافعي وأحمد بنِي المطلب بن عبد مَناف ببَنِي هاشم في تحريم الصَّدقة عليهم؛ لمشاركتِهم إيَّاهم في إعطائهم من خمس الخُمس؛ وذلك للحديث الذي رواه البخاري في صحيحه (٣١٤٠) عن جُبير ابن مُطعم، الذي فيه أنَّ إعطاءَ النَّبِيِّ ﷺ لبَنِي هاشم وبني المطلب دون إخوانِهم من بنِي عبد شمس ونوفل؛ لكون بنِي هاشم وبَنِي المطلب شيئاً واحداً.

فأمَّا دخول أزواجه رضي الله عنهنَّ في آلِه ﷺ، فيدلُّ لذلك قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾.

فإنَّ هذه الآيةَ تدلُّ على دخولِهنَّ حتماً؛ لأنَّ سياقَ الآيات قبلها وبعدها خطابٌ لهنَّ، ولا يُنافي ذلك ما جاء في صحيح مسلم (٢٤٢٤) عن عائشة رضي الله عنها أنَّها قالت: «خرج النَّبِيُّ ﷺ غداةً وعليه مِرْطٌ مُرَحَّل من شَعر أسود، فجاء الحسن بن علي فأدخله، ثمَّ جاء الحُسين فدخل معه، ثم جاءت فاطمةُ فأدخلها، ثمَّ جاء عليٌّ فأدخله، ثمَّ قال: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾»؛ لأنَّ الآيةَ دالَّةٌ على دخولِهنَّ؛ لكون الخطابِ في الآيات لهنَّ، ودخولُ عليٍّ وفاطمة والحسن والحسين رضي الله عنهم في الآيةِ دلَّت عليه السُّنَّةُ في هذا الحديث، وتخصيصُ النَّبِيِّ ﷺ لهؤلاء الأربعة رضي الله عنهم في هذا الحديث لا يدلُّ على قَصْرِ أهل بيته عليهم دون القرابات الأخرى، وإنَّما يدلُّ على أنَّهم مِن أخصِّ أقاربه.

ونظيرُ دلالة هذه الآية على دخول أزواج النَّبِيِّ ﷺ في آله ودلالة حديث عائشة رضي الله عنها المتقدِّم على دخول عليٍّ وفاطمة والحسن والحُسين رضي الله عنهم في آله، نظيرُ ذلك دلالةُ قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ ﴾ على أنَّ المرادَ به مسجد قباء، ودلالة السُّنَّة في الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه (١٣٩٨) على أنَّ المرادَ بالمسجد الذي أُسِّس على التقوى مسجدُه ﷺ، وقد ذكر هذا التنظيرَ شيخُ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في رسالة «فضلُ أهل البيت وحقوقُهم» (ص: ٢٠ ـ ٢١).

وزوجاتُه ﷺ داخلاتٌ تحت لفظ « الآل »؛ لقوله ﷺ: « إنَّ الصَّدقةَ لا تَحلُّ لمحمَّدٍ ولا لآل محمَّد »، ويدلُّ لذلك أنَّهنَّ يُعطَيْن من الخُمس، وأيضاً ما رواه ابن أبي شيبة في مصنَّفه (٣/ ٢١٤) بإسنادٍ صحيح عن ابن أبي مُلَيكة: « أنَّ خالد بنَ سعيد بعث إلى عائشةَ ببقرةٍ من الصَّدقةِ فردَّتْها، وقالت: إنَّا آلَ محمَّدٍ ﷺ لا تَحلُّ لنا الصَّدقة ».

وممَّا ذكره ابن القيِّم في كتابه « جلاء الأفهام » (ص:٣٣١ ـ ٣٣٣) للاحتجاج للقائلِين بدخول أزواجه ﷺ في آل بيته قوله: « قال هؤلاء: وإنَّما دخل الأزواجُ في الآل وخصوصاً أزواجُ النَّبِيِّ ﷺ تشبيهاً لذلك بالنَّسَب؛ لأنَّ اتِّصالَهُنَّ بالنَّبِيِّ ﷺ غيرُ مرتفع، وهنَّ محرَّماتٌ على غيرِه في حياتِه وبعد مماتِه، وهنَّ زوجاتُه في الدنيا والآخرة، فالسَّببُ الذي لهنَّ بالنَّبِيِّ ﷺ قائمٌ مقامَ النَّسَب، وقد نصَّ النَّبِيُّ ﷺ على الصلاةِ عليهنَّ، ولهذا كان القولُ الصحيح ـ وهو منصوص الإمام أحمد رحمه الله ـ أنَّ الصَّدقةَ تحرُمُ عليهنَّ؛ لأنَّها أوساخُ الناسِ، وقد صان اللهُ سبحانه ذلك الجَنابَ الرَّفيع، وآلَه مِن كلِّ أوساخِ بَني آدَم.

ويا لله العجب! كيف يدخلُ أزواجُه في قوله ﷺ: (اللَّهمَّ اجعل رزقَ آل محمَّد قوتاً)، وقوله في الأضحية: (اللَّهمَّ هذا عن محمد وآل محمد)، وفي قول عائشة رضي الله عنها: (ما شبع آلُ رسول الله ﷺ من خُبز بُرٍّ)، وفي قول المصلِّي: (اللَّهمَّ صلِّ على محمد وعلى آل محمد)، ولا يَدخُلْنَ في قوله: (إنَّ الصَّدقة لا تَحلُّ لمحمَّد ولا لآل محمَّد)، مع كونِها من أوساخِ الناس، فأزواجُ رسولِ الله ﷺ أولى بالصِّيانةِ عنها والبُعدِ منها؟!

فإن قيل: لو كانت الصَّدقةُ حراماً عليهنَّ لَحَرُمت على مواليهنَّ، كما أنَّها لَمَّا حرُمت على بَني هاشِم حرُمَت على مواليهم، وقد ثبت في الصحيح أنَّ بريرة

تُصُدِّق عليها بلَحمٍ فأكلته، ولَم يُحرِّمه النَّبِيُّ ﷺ، وهي مولاةٌ لعائشة رضي الله عنها.

قيل: هذا هو شبهةُ مَن أباحَها لأزواج النَّبِيِّ ﷺ.

وجوابُ هذه الشُّبهةِ أنَّ تحريمَ الصَّدقةِ على أزواجِ النَّبِيِّ ﷺ ليس بطريق الأصالةِ، وإنَّما هو تبَعٌ لتَحريمها عليه ﷺ، وإلاَّ فالصَّدقةُ حلالٌ لهنَّ قبل اتِّصالِهنَّ به، فهنَّ فرعٌ في هذا التحريمِ، والتحريمُ على المولَى فرعُ التَّحريم على سيِّدِه، فلمَّا كان التَّحريمُ على بَنِي هاشِم أصلاً استتبَع ذلك مواليهم، ولَمَّا كان التَّحريمُ على أزواجِ النَّبِيِّ ﷺ تبَعاً لَم يَقْوَ ذلك على استِتْبَاعِ مواليهنَّ؛ لأنَّه فرعٌ عن فرعٍ.

قالوا: وقد قال الله تعالى: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ﴾ وساق الآيات إلى قوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ﴾، ثم قال: فدخَلْنَ في أهل البيت؛ لأنَّ هذا الخطابَ كلَّه في سياق ذِكرهنَّ، فلا يجوز إخراجُهنَّ مِن شيءٍ منه، والله أعلم».

ويدلُّ على تحريم الصَّدقة على موالِي بَنِي هاشِم ما رواه أبو داود في سننه (١٦٥٠)، والترمذي (٦٥٧)، والنسائي (٢٦١١) بإسنادٍ صحيح ـ واللفظ لأبي داود ـ عن أبي رافع: «أنَّ النَّبِيَّ ﷺ بعث رجلاً على الصَّدقة مِن بَنِي مخزوم، فقال لأبي رافع: اصْحَبنِي فإنَّك تُصيبُ منها، قال: حتى آتِي رسولَ الله ﷺ فأسأله، فأتاه فسأله، فقال: مولَى القوم مِن أنفسِهم، وإنَّا لا تَحِلُّ لنا الصَّدقة».

***

الفصل الثاني:

مُجملُ عقيدة أهل السُّنَّة والجماعة في أهل البيت

عقيدةُ أهل السُّنَّة والجماعة وسَطٌ بين الإفراطِ والتَّفريط، والغلُوِّ والجَفاء في جميع مسائل الاعتقاد، ومِن ذلك عقيدتهم في آل بيت الرَّسول ﷺ، فإنَّهم يَتوَلَّونَ كلَّ مسلمٍ ومسلمةٍ من نَسْل عبد المطلِّب، وكذلك زوجات النَّبِيِّ ﷺ جميعاً، فيُحبُّون الجميعَ، ويُثنون عليهم، ويُنْزلونَهم منازلَهم التي يَستحقُّونَها بالعدلِ والإنصافِ، لا بالهوى والتعسُّف، ويَعرِفون الفضلَ لِمَن جَمع اللهُ له بين شرَف الإيمانِ وشرَف النَّسَب، فمَن كان من أهل البيت من أصحاب رسول الله ﷺ، فإنَّهم يُحبُّونَه لإيمانِه وتقواه، ولصُحبتِه إيَّاه، ولقرابتِه منه ﷺ.

ومَن لَم يكن منهم صحابيًّا، فإنَّهم يُحبُّونَه لإيمانِه وتقواه، ولقربه من رسول الله ﷺ، ويَرَون أنَّ شرَفَ النَّسَب تابعٌ لشرَف الإيمان، ومَن جمع اللهُ له بينهما فقد جمع له بين الحُسْنيَيْن، ومَن لَم يُوَفَّق للإيمان، فإنَّ شرَفَ النَّسَب لا يُفيدُه شيئاً، وقد قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾، وقال ﷺ في آخر حديث طويلٍ رواه مسلم في صحيحه (٢٦٩٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه: «ومَن بطَّأ به عملُه لَم يُسرِع به نسبُه».

وقد قال الحافظ ابن رجب رحمه الله في شرح هذا الحديث في كتابه جامع العلوم والحكم (ص:٣٠٨): «معناه أنَّ العملَ هو الذي يَبلُغُ بالعبدِ درجات الآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾، فمَن أبطأ به عملُه أن يبلُغَ به المنازلَ العاليةَ عند الله تعالى لَم يُسرِع به نسبُه، فيبلغه تلك الدَّرجات؛ فإنَّ اللهَ رتَّب الجزاءَ على الأعمال لا على الأنساب، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى

ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾، وقد أمر الله تعالى بالمسارعةِ إلى مغفرتِه ورحمتِه بالأعمال، كما قال: ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ ﴾ الآيتين، وقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾ »).

ثمَّ ذكَرَ نصوصاً في الحثِّ على الأعمالِ الصالِحَة، وأنَّ ولايةَ الرَّسول ﷺ إنَّما تُنالُ بالتقوى والعمل الصَّالِح، ثمَّ ختَمها بحديث عمرو بن العاص رضي الله عنه في صحيح البخاري (٥٩٩٠) وصحيح مسلم (٢١٥)، فقال: « ويشهد لهذا كلِّه ما في الصحيحين عن عمرو بن العاص أنَّه سمع النَّبِيَّ ﷺ يقول: « إنَّ آل أبي فلان ليسوا لي بأولياء، وإنَّما وليِّيَ اللهُ وصالِحُ المؤمنين »، يشير إلى أنَّ ولايته لا تُنال بالنَّسَب وإن قَرُب، وإنَّما تُنال بالإيمان والعمل الصالح، فمن كان أكملَ إيماناً وعملاً فهو أعظم ولايةً له، سواء كان له منه نسبٌ قريبٌ أو لم يكن، وفي هذا المعنى يقول بعضُهم:

لعمرُك ما الإنسانُ إلَّا بدينـــه فلا تترك التقوى اتِّكالاً على النَّسب

لقد رفع الإسلامُ سلمانَ فارسٍ وقد وضع الشركُ النَّسِيبَ أبا لهب ».

* * *

الفصل الثالث:

فضائلُ أهل البيت في القرآن الكريم

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ٢٨ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا ٢٩ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ٣٠ ۞ وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ وَأَعۡتَدۡنَا لَهَا رِزۡقٗا كَرِيمٗا ٣١ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِۚ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٣٢ وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ٣٣ وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾.

فقولُه: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ﴾ دالٌّ على فضل قرابةِ رسول الله ﷺ، وهم الذين تحرم عليهم الصَّدقة، ومِن أخَصِّهم أزواجه وذريّته، كما مرَّ بيانُه.

والآياتُ دالَّةٌ على فضائل أخرى لزوجات الرسول ﷺ، أوّلها: كونهنَّ خُيِّرْن بين إرادة الدنيا وزينتها، وبين إرادة الله ورسوله والدار الآخرة، فاخترنَ اللهَ ورسولَه والدارَ الآخرة، رضي الله عنهنَّ وأرضاهنَّ.

ويدل على فضلهنَّ أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمْ ﴾؛ فقد وصفهنَّ بأنَّهنَّ أمّهات المؤمنين.

وأمَّا قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾، فالصحيحُ في معناها أنَّ المرادَ بذلك بطونُ قريشٍ، كما جاء بيانُ ذلك في صحيح البخاري (٤٨١٨) عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ فقد قال البخاري: حدَّثني محمد بن بشار، حدَّثنا محمد بن جعفر، حدَّثنا شعبة، عن عبد الملك بن مَيسرة قال: سمعتُ طاوساً، عن ابن عباس: «أنَّه سُئل عن قوله ﴿ إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾، فقال سعيد بن جبير: قربى آل محمد صلى الله عليه وسلم، فقال ابن عباس: عجلتَ؛ إنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم لم يكن بطنٌ من قريش إلَّا كان له فيهم قرابة، فقال: إلَّا أن تَصِلُوا ما بيني وبينكم من قرابة».

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: «أي قل يا محمد! لهؤلاء المشركين من كفار قريش: لا أسألكم على هذا البلاغ والنصح لكم مالاً تُعطُونِيه، وإنَّما أَطلبُ منكم أن تكفُّوا شرَّكم عنِّي وتَذَرُونِي أبلِّغ رسالات ربِّي، إن لَم تَنصرونِي فلا تؤذوني بِما بينِي وبينكم من القرابةِ»، ثم أورد أثَرَ ابن عباس المذكور.

وأمَّا تخصيصُ بعض أهل الأهواءِ ﴿ ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ في الآية بفاطمة وعلي رضي الله عنهما وذريَّتهما فهو غيرُ صحيح؛ لأنَّ الآيةَ مكيَّةٌ، وزواجُ عليٍّ بفاطمةَ رضي الله عنها إنَّما كان بالمدينة، قال ابن كثير رحمه الله: «وذِكرُ نزول الآية بالمدينة بعيدٌ؛ فإنَّها مكيَّةٌ، ولم يكن إذ ذاك لفاطمة رضي الله عنها أولادٌ بالكليَّة؛ فإنَّها لَم تتزوَّج بعليٍّ رضي الله عنه إلَّا بعد بدر من السنة الثانية مِن الهجرة، والحقُّ تفسيرُ هذه الآية بما فسَّرها به حَبْرُ الأمَّة وتُرجمان القرآن عبدُ الله بنُ عباس رضي الله عنهما، كما رواه البخاري».

ثم ذكر ما يدلُّ على فضل أهل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم من السُّنَّة ومن الآثار عن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

الفصل الرابع:

فضائل أهل البيت في السُّنَّة المطَهَّرة

ـ روى مسلمٌ في صحيحه (٢٢٧٦) عن واثلةَ بنِ الأسْقَع رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: « إنَّ اللهَ اصطفى كِنانَةَ مِن ولدِ إسماعيل، واصطفى قريشاً من كِنَانَة، واصطفى مِن قريشٍ بَنِي هاشِم، واصطفانِي مِن بَنِي هاشِم ».

ـ وروى مسلمٌ في صحيحه (٢٤٢٤) عن عائشةَ رضي الله عنها قالت: « خرج النَّبيُّ ﷺ غداةً وعليه مِرْطٌ مُرَحَّل مِن شَعر أسود، فجاء الحسن بن علي فأدخله، ثمَّ جاء الحُسين فدخل معه، ثمَّ جاءت فاطمةُ فأدخلَها، ثمَّ جاء عليٌّ فأدخله، ثمَّ قال: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ ».

ـ وروى مسلم (٢٤٠٤) من حديث سَعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه قال: « لَمَّا نزلت هذه الآيةُ ﴿ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ ﴾ دعا رسولُ الله ﷺ عليًّا وفاطمةَ وحَسناً وحُسيناً، فقال: اللَّهمَّ هؤلاء أهل بيتي ».

ـ وروى مسلم في صحيحه (٢٤٠٨) بإسناده عن يزيد بن حيَّان قال: « انطلقتُ أنا وحُصين بن سَبْرة وعمر بنُ مسلم إلى زيد بنِ أرقم، فلمَّا جلسنا إليه، قال له حُصين: لقد لقيتَ ـ يا زيد! ـ خيراً كثيراً؛ رأيتَ رسولَ الله ﷺ، وسمعتَ حديثَه، وغزوتَ معه، وصلَّيتَ خلفه، لقد لقيتَ ـ يا زيد! ـ خيراً كثيراً، حدِّثْنا ـ يا زيد! ـ ما سَمعتَ من رسولِ الله ﷺ، قال: يا ابنَ أخي! والله! لقد كَبِرَتْ سِنِّي، وقَدُم عهدِي، ونسيتُ بعضَ الذي كنتُ أعِي من رسول الله

ﷺ، فما حدَّثتُكم فاقبلوا، وما لا فلا تُكَلِّفونيه، ثمَّ قال: قام رسولُ الله ﷺ يوماً فينا خطيباً بماءٍ يُدعى خُمًّا، بين مكة والمدينة، فحمِد اللهَ وأثنى عليه، ووعظ وذكَّر، ثم قال: أمَّا بعد، ألا أيُّها الناس! فإنَّما أنا بشرٌ يوشك أن يأتي رسولُ ربِّي فأُجيب، وأنا تاركٌ فيكم ثَقَلَيْن؛ أوَّلُهما كتاب الله، فيه الهُدى والنُّور، فخذوا بكتاب الله، واستمسكوا به، فحثَّ على كتاب الله ورغَّب فيه، ثم قال: وأهلُ بَيتِي، أُذكِّرُكم اللهَ في أهل بيتِي، أُذكِّرُكم اللهَ في أهل بيتِي، أُذكِّرُكم اللهَ في أهل بيتِي، فقال له حُصين: ومَن أهلُ بيتِه يا زيد؟ أليس نساؤه من أهل بيتِه؟ قال: نساؤه مِن أهل بيتِه، ولكن أهلُ بيتِه مَن حُرِم الصَّدقةُ بعده، قال: ومَن هم؟ قال: هم آلُ عليٍّ، وآلُ عَقيل، وآلُ جعفر، وآلُ عبَّاس، قال: كلُّ هؤلاء حُرِم الصَّدقة؟ قال: نعم!».

وفي لفظ: «فقلنا: مَن أهلُ بيتِه؟ نساؤه؟ قال: لا، وايمُ الله! إنَّ المرأةَ تكون مع الرَّجل العصرَ من الدَّهر، ثم يُطلِّقها، فترجع إلى أبيها وقومها، أهل بيتِه أصلُه وعَصَبتُه الذين حُرِموا الصَّدقة بعده».

وهنا أنبِّه على أمور:

الأول: أنَّ ذِكرَ عليٍّ وفاطمةَ وابنيهِما رضي الله عنهم في حديث الكِساء وحديث المباهلة المتقدِّمَين لا يدلُّ على قَصْر أهل البيت عليهم، وإنَّما يدلُّ على أنَّهم من أخصِّ أهل بيته، وأنَّهم مِن أَوْلَى مَن يدخل تحت لفظ (أهل البيت)، وتقدَّمت الإشارةُ إلى ذلك.

الثاني: أنَّ ذِكرَ زيد رضي الله عنه آلَ عَقيل وآلَ عليٍّ وآلَ جعفر وآلَ العبَّاس لا يدلُّ على أنَّهم هم الذين تحرُم عليهم الصَّدقةُ دون سواهم، بل هي تحرُم على كلِّ مسلمٍ ومسلمةٍ من نسل عبد المطلب، وقد مرَّ حديثُ عبد المطلب بن ربيعة بن

الحارث بن عبد المطلب في صحيح مسلم، وفيه شمول ذلك لأولاد ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب.

الثالث: تقدَّم الاستدلالُ من الكتاب والسُّنَّة على كون زوجات النَّبِيِّ ﷺ من آل بيته، وبيان أنَّهنَّ مِمَّن تحرُم عليه الصَّدقة، وأمَّا ما جاء في كلامِ زَيدٍ المتقدِّم من دخولِهنَّ في الآل في الرواية الأولى، وعدم دخولهنَّ في الرواية الثانية، فالمعتبَرُ الروايةُ الأولى، وما ذكره من عدم الدخول إنَّما ينطبِق على سائر الزوجات سوى زوجاتِه ﷺ.

أمَّا زوجاتُه رضي الله عنهنَّ، فاتِّصالُهُنَّ به شبيهٌ بالنَّسَب؛ لأنَّ اتِّصالَهُنَّ به غيرُ مرتفع، وهنَّ زوجاتُه في الدنيا والآخرة، كما مرَّ توضيحُ ذلك في كلام ابن القيم رحمه الله.

الرابع: أنَّ أهلَ السُّنَّة والجماعة هم أسعَدُ الناس بتنفيذ وصيَّة النَّبِيِّ ﷺ في أهل بيتِه التي جاءت في هذا الحديث؛ لأنَّهم يُحبُّونَهم جميعاً ويتولَّونَهم، ويُنزلونَهم منازِلَهم التي يستحقُّونَها بالعدلِ والإنصافِ، وأمَّا غيرُهم فقد قال ابن تيمية في مجموع فتاواه (٤/ ٤١٩): « وأبعدُ الناسِ عن هذه الوصيَّة الرافضةُ؛ فإنَّهم يُعادُون العبَّاس وذُرِّيَّتَه، بل يُعادون جمهور أهل البيت ويُعينون الكفَّارَ عليهم ».

ـ وحديث: « كلُّ سببٍ ونسبٍ منقطعٌ يوم القيامةِ إلَّا سبَبِي ونسبِي »، أورده الشيخ الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة (٢٠٣٦) وعزاه إلى ابن عباس وعمر وابن عمر والمِسور بن مخرمة رضي الله عنهم، وذكر مَن خرَّجه عنهم، وقال: « وجملةُ القول أنَّ الحديثَ بمجموع هذه الطرق صحيحٌ، والله أعلم ».

وفي بعض الطرق أنَّ هذا الحديث هو الذي جعل عمر رضي الله عنه يرغبُ في الزواج من أمِّ كلثوم بنت عليٍّ من فاطمة رضي الله عن الجميع.

ـ وروى الإمام أحمد في مسنده (٥/ ٣٧٤) عن عبد الرزاق، عن مَعمر، عن ابن طاوس، عن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، عن رجل من أصحاب النَّبِيِّ ﷺ، عن النَّبِيِّ ﷺ أنَّه كان يقول: « اللَّهمَّ صلِّ على محمَّدٍ وعلى أهل بيته وعلى أزواجِه وذريَّتِه، كما صلَّيتَ على آل إبراهيم إنَّك حميدٌ مجيدٌ، وبارِكْ على محمَّدٍ وعلى أهل بيته وعلى أزواجِه وذريَّتِه، كما بارَكتَ على آل إبراهيم إنَّك حميدٌ مجيدٌ »، قال ابن طاوس: وكان أبي يقول مثلَ ذلك.

ورجال الإسناد دون الصحابيِّ خرَّج لهم البخاري ومسلمٌ وأصحابُ السنن الأربعة، وقال الألبانيُّ في صفة صلاة النَّبِيِّ ﷺ: « رواه أحمد والطحاوي بسندٍ صحيح ».

وأمَّا ذِكرُ الصلاة على الأزواج والذريَّة، فهو ثابتٌ في الصحيحين أيضاً من حديث أبي حُميد الساعدي رضي الله عنه.

لكن ذلك لا يدلُّ على اختصاص آل البيت بالأزواج والذريَّة، وإنَّما يدلُّ على تأكُّد دخولِهم وعدم خروجهم، وعطفُ الأزواجِ والذريَّة على أهل بيته في الحديث المتقدِّم من عطف الخاصِّ على العام.

قال ابن القيم بعد حديث فيه ذكر أهل البيت والأزواج والذريَّة ـ وإسناده فيه مقال ـ: « فجمع بين الأزواج والذريَّة والأهل، وإنَّما نصَّ عليهم بتعيينهم؛ ليُبيِّن أنَّهم حقيقون بالدخول في الآل، وأنَّهم ليسوا بخارجين منه، بل هم أحقُّ مَن دخل فيه، وهذا كنظائره من عطف الخاصِّ على العام وعكسه؛ تنبيهاً على شرفه، وتخصيصاً له بالذِّكر من بين النوع؛ لأنَّه أحقُّ أفراد النوع بالدخول فيه ». جلاء الأفهام (ص:٣٣٨).

ـ وقال ﷺ: « إنَّ الصَّدقةَ لا تنبغي لآل محمد، إنَّما هي أوساخ الناس »، أخرجه مسلمٌ في صحيحه من حديث عبد المطلب بن ربيعة (١٠٧٢)، وقد تقدَّم.

الفصل الخامس:

علوُّ مكانة أهل البيت عند الصحابة وتابعيهم بإحسان

أبو بكر الصديق رضي الله عنه:

روى البخاري في صحيحه (٣٧١٢) أنَّ أبا بكر رضي الله عنه قال لعليٍّ رضي الله عنه: « والذي نفسي بيدِه لَقرابةُ رسول الله ﷺ أحبُّ إليَّ أنْ أَصِلَ من قرابَتِي ».

وروى البخاريُّ في صحيحه أيضاً (٣٧١٣) عن ابن عمر، عن أبي بكر رضي الله عنه قال: « ارقُبُوا محمداً ﷺ في أهل بيته ».

قال الحافظ ابن حجر في شرحه: « يخاطِبُ بذلك الناسَ ويوصيهم به، والمراقبةُ للشيء: المحافظةُ عليه، يقول: احفظوه فيهم، فلا تؤذوهم ولا تُسيئوا إليهم ».

وفي صحيح البخاري (٣٥٤٢) عن عُقبة بن الحارث رضي الله عنه قال: « صلَّى أبو بكر رضي الله عنه العصرَ، ثم خرج يَمشي، فرأى الحسنَ يلعبُ مع الصِّبيان، فحمله على عاتقه، وقال:

بأبي شبيهٌ بالنبي لا شبيـهٌ بعلـي

وعليٌّ يضحك ».

قال الحافظ في شرحه: « قوله: (بأبي): فيه حذفٌ تقديره أفديه بأبي »، وقال أيضاً: « وفي الحديث فضلُ أبي بكر ومحبَّتُه لقرابةِ النَّبِيِّ ﷺ ».

عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان رضي الله عنهما:

روى البخاري في صحيحه (١٠١٠)، و(٣٧١٠) عن أنس رضي الله عنه: « أنَّ عمر بن الخطاب كان إذا قُحِطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب، فقال:

اللَّهمَّ إنَّا كنَّا نتوسَّل إليك بنبيِّنا ﷺ فتسقينا، وإنَّا نتوسَّلُ إليك بعمِّ نبيِّنا فاسقِنا، قال: فيُسقَوْن ».

والمرادُ بتوسُّل عمر رضي الله عنه بالعباس رضي الله عنه التوسُّلُ بدعائه كما جاء مبيَّناً في بعض الروايات، وقد ذكرها الحافظ في شرح الحديث في كتاب الاستسقاء من فتح الباري.

واختيار عمر رضي الله عنه للعباس رضي الله عنه للتوسُّل بدعائه إنَّما هو لقرابتِه مِن رسول الله ﷺ، ولهذا قال رضي الله عنه في توسُّله: « وإنَّا نتوسَّل إليك بعمِّ نبيِّنا »، ولم يقل: بالعباس. ومن المعلوم أنَّ عليًّا رضي الله عنه أفضلُ من العباس، وهو من قرابة الرسول ﷺ، لكن العباس أقربُ، ولو كان النَّبِيُّ ﷺ يُورَث عنه المال لكان العباس هو المقدَّم في ذلك؛ لقوله ﷺ: « أَلحِقوا الفرائض بأهلها، فما أبقتِ الفرائضُ فلأولَى رجل ذَكر »، أخرجه البخاري ومسلم، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قولُ النَّبِيِّ ﷺ لعمر عن عمِّه العباس: « أمَا عَلِمتَ أنَّ عمَّ الرَّجلِ صِنْوُ أبيه ».

وفي تفسير ابن كثير لآيات الشورى: قال عمر بن الخطاب للعباس رضي الله تعالى عنهما: « والله لإِسلامُك يوم أسلمتَ كان أحبَّ إليَّ من إسلامِ الخطاب لو أسلَمَ؛ لأنَّ إسلامَك كان أحبَّ إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب »، وهو عند ابن سعد في الطبقات (٤/ ٢٢، ٣٠).

وفي كتاب اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم (١/ ٤٤٦) لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: « أنَّ عمر بنَ الخطاب رضي الله عنه لَمَّا وضع ديوان العَطاءِ كتب الناسَ على قَدْرِ أنسابِهم، فبدأ بأقربِهم فأقربِهم نسباً إلى رسول الله ﷺ، فلمَّا انقضت العربُ ذكر العَجَم، هكذا كان الديوان على عهد الخلفاء

الراشدين، وسائر الخلفاء من بَنِي أُميَّة ووَلَدِ العباس إلى أن تغيَّر الأمرُ بعد ذلك ».

وقال أيضاً (١/ ٤٥٣): « وانظر إلى عمر بن الخطاب ﵁ حين وضع الديوان، وقالوا له: يبدأ أميرُ المؤمنين بنفسِه، فقال: لا! ولكن ضَعُوا عمر حيث وضعه الله، فبدأ بأهل بيت رسول الله ﷺ ثمَّ مَن يليهِم، حتى جاءت نوْبَتُه في بَنِي عديٍّ، وهم متأخِّرون عن أكثر بطون قريش ».

وتقدَّم في فضائل أهل البيت من السُّنَّة حديث: « كلُّ سبب ونَسبٍ منقطعٌ يوم القيامة إلَّا سبَبِي ونسبِي »، وأنَّ هذا هو الذي دفع عمر ﵁ إلى خِطبَة أمِّ كلثوم بنت عليٍّ، وقد ذكر الألباني في السلسلة الصحيحة تحت (رقم:٢٠٣٦) طرقَ هذا الحديث عن عمر ﵁.

ومن المعلوم أنَّ الخلفاء الراشدين الأربعة ﵃ هم أصهارٌ لرسول الله ﷺ، فأبو بكر وعمر ﵄ حصل لهما زيادة الشَّرَف بزواج النَّبِيِّ ﷺ من بنتيهِما: عائشة وحفصة، وعثمان وعلي ﵄ حصل لهما زيادة الشَّرَف بزواجهما من بنات رسول الله ﷺ، فتزوَّج عثمان ﵁ رُقيَّة، وبعد موتها تزوَّج أختَها أمَّ كلثوم، ولهذا يُقال له: ذو النُّورَين، وتزوَّج عليٌّ ﵁ فاطمةَ ﵂.

وفي سير أعلام النبلاء للذهبي وتهذيب التهذيب لابن حجر في ترجمة العبَّاس: « كان العبَّاسُ إذا مرَّ بعمر أو بعثمان، وهما راكبان، نزلاَ حتى يُجاوِزهما إجلالاً لعمِّ رسول الله ﷺ ».

عمر بن عبد العزيز ﵀:

في طبقات ابن سعد (٥/ ٣٣٣)، و(٥/ ٣٨٧ ـ ٣٨٨) بإسناده إلى فاطمة بنت علي بن أبي طالب أنَّ عمر بن عبد العزيز قال لها: « يا ابنة علي! والله ما

على ظهر الأرض أهلُ بيت أحبُّ إليَّ منكم، ولأَنتم أحبُّ إليَّ مِن أهل بيتِي ».

أبو بكر بن أبي شيبة رحمه الله:

في تهذيب الكمال للمزي في ترجمة علي بن الحسين، قال أبو بكر بن أبي شيبة رحمه الله: « أصحُّ الأسانيد كلِّها: الزهري، عن علي بن الحسين، عن أبيه، عن علي ».

شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

قال ابنُ تيمية رحمه الله في العقيدة الواسطية: « ويُحِبُّون (يعني أهل السُّنَّة والجماعة) أهلَ بيت رسول الله ﷺ ويتوَلَّوْنَهم، ويحفظون فيهم وصيَّة رسول الله ﷺ حيث قال يوم غدير خُمّ: (أُذكِّرُكم اللهَ في أهل بيتِي)، وقال أيضاً للعباس عمّه ـ وقد اشتكى إليه أنَّ بعضَ قريش يجفو بَنِي هاشم ـ فقال: (والذي نفسي بيده، لا يؤمنون حتَّى يُحِبُّوكم لله ولقرابَتِي)، وقال: (إنَّ اللهَ اصطفى مِن بَنِي إسماعيل كِنانَةَ، واصطفى من كنانَة قريشاً، واصطفى مِن قريشٍ بَنِي هاشِم، واصطفانِي مِن بَنِي هاشِم)، ويتوَلَّون أزواجَ رسول الله ﷺ أمَّهات المؤمنين، ويؤمنون بأنَّهنَّ أزواجُه في الآخرة، خصوصاً خديجة رضي الله عنها، أمُّ أكثر أولاده، وأوَّل مَن آمن به وعاضده على أمره، وكان لها منه المنزلة العالية، والصدِّيقة بنت الصدِّيق رضي الله عنها، التي قال فيها النَّبِيُّ ﷺ: (فضلُ عائشة على النساء كفضل الثَّريد على سائر الطعام)، ويتبرَّؤون من طريقة الروافض الذين يُبغضون الصحابةَ ويَسبُّونَهم، وطريقةِ النَّواصب الذين يُؤذون أهلَ البيت بقول أو عمل ».

وقال أيضاً في الوصيَّة الكبرى كما في مجموع فتاواه (٣/ ٤٠٧ ـ ٤٠٨): « وكذلك آل بيت رسول الله ﷺ لهم من الحقوق ما يجب رعايتُها؛ فإنَّ الله جعل لهم حقًّا في الخمس والفيء، وأمر بالصلاةِ عليهم مع الصلاةِ على رسول

الله ﷺ، فقال لنا: (قولوا: اللَّهمَّ صلِّ على محمد وعلى آل محمد، كما صلَّيتَ على آل إبراهيم، إنَّك حميدٌ مجيدٌ، وبارِكْ على محمد وعلى آل محمد كما باركتَ على آل إبراهيم، إنَّك حميدٌ مجيدٌ).

وآلُ محمَّدٍ هم الذين حرُمت عليهم الصَّدقة، هكذا قال الشافعيُّ وأحمد بنُ حنبل وغيرُهما من العلماء رحمهم الله؛ فإنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: (إنَّ الصَّدقةَ لا تَحِلُّ لمحمَّدٍ ولا لآلِ محمَّد)، وقد قال الله تعالى في كتابه: ﴿ **إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا** ﴾، وحرَّم الله عليهم الصَّدقة؛ لأنَّها أوساخُ الناس».

وقال أيضاً كما في مجموع فتاواه (٢٨/ ٤٩١): «وكذلك أهل بيت رسول الله ﷺ تجبُ محبَّتُهم وموالاتُهم ورعايةُ حقِّهم».

الإمام ابن القيِّم رحمه الله:

قال ابن القيم في بيان أسباب قبول التأويل الفاسد: «السبب الثالث: أن يَعْزُو المتأوِّلُ تأويلَه إلى جليلِ القَدْر، نبيلِ الذِّكر، مِن العقلاء، أو مِن آل بيت النَّبيِّ ﷺ، أو مَن حصل له في الأمَّة ثناءٌ جميل ولسانُ صِدق؛ ليُحلِّيه بذلك في قلوب الجُهَّال، فإنَّه من شأن الناسِ تعظيمُ كلامِ مَن يَعظُمُ قدْرُه في نفوسهم، حتى إنَّهم لَيُقدِّمون كلامَه على كلام الله ورسوله، ويقولون: هو أعلمُ بالله منَّا!

وبهذا الطريق توصَّل الرافضةُ والباطنيَّةُ والإسماعليَّةُ والنُّصيريَّة إلى تنفيقِ باطلهم وتأويلاتِهم حين أضافوها إلى أهل بيت رسول الله ﷺ؛ لِمَا علموا أنَّ المسلمين متَّفقون على مَحبَّتِهم وتعظيمِهم، فانتمَوا إليهم وأظهروا مِن محبَّتِهم وإجلالهم وذِكر مناقبهم ما خُيِّل إلى السَّامع أنَّهم أولياؤهم، ثم نفقوا باطلَهم بنسبتِه إليهم.

فلا إله إلَّا الله! كم مِن زندقَةٍ وإلحادٍ وبدعةٍ قد نفقت في الوجود بسبب ذلك، وهم بُرآءُ منها.

وإذا تأمَّلتَ هذا السَّببَ رأيتَه هو الغالب على أكثر النفوس، فليس معهم سوى إحسان الظنِّ بالقائل، بلا بُرهان من الله قادَهم إلى ذلك، وهذا ميراثٌ بالتعصيب من الذين عارضوا دين الرُّسل بما كان عليه الآباء والأسلاف، وهذا شأنُ كلِّ مقلِّدٍ لِمَن يعظمه فيما خالف فيه الحقَّ إلى يوم القيامة ». مختصر الصواعق المرسلة (١/ ٩٠).

الحافظ ابن كثير رحمه الله:

قال ابن كثير في تفسيره لآية الشورى بعد أن بيَّن أنَّ الصحيحَ تفسيرُها بأنَّ المرادَ بـ﴿ ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ بطونُ قريش، كما جاء ذلك في تفسير ابن عباس للآية في صحيح البخاري، قال رحمه الله: « ولا نُنكرُ الوُصاةَ بأهل البيت والأمرَ بالإحسان إليهم واحترامِهم وإكرامِهم؛ فإنَّهم من ذرِّيَّةٍ طاهرَةٍ، مِن أشرف بيتٍ وُجِد على وجه الأرض، فخراً وحسَباً ونَسَباً، ولا سيما إذا كانوا متَّبعين للسُّنَّة النَّبويَّة الصحيحة الواضحة الجليَّة، كما كان سلفُهم، كالعباس وبنيه، وعليٍّ وأهل بيته وذريَّتِه، رضي الله عنهم أجمعين ».

وبعد أن أورد أثَرين عن أبي بكر رضي الله عنه، وأثراً عن عمر رضي الله عنه في توقير أهل البيت وبيان علوِّ مكانتِهم، قال: « فحالُ الشيخين رضي الله عنهما هو الواجبُ على كلِّ أحدٍ أن يكون كذلك، ولهذا كانا أفضلَ المؤمنين بعد النَّبيِّين والمرسَلين، رضي الله عنهما وعن سائر الصحابة أجمعين ».

الحافظ ابن حجر رحمه الله:

قال ابن حجر في فتح الباري (٣/ ١١) في حديث في إسنادِه علي بن حسين، عن حسين بن علي، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، قال: « وهذا من

أصحِّ الأسانيد، ومن أشرف التراجم الواردةِ فيمَن روى عن أبيه، عن جدِّه».

شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله:

وأمَّا شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله فله ستَّةُ بنين وبنت واحدة، وهم عبد الله وعلي وحسن وحسين وإبراهيم وعبد العزيز وفاطمة، وكلُّهم بأسماء أهل البيت ما عدا عبد العزيز، فعبد الله وإبراهيم ابنا النَّبِيِّ ﷺ، والباقون علي وفاطمة وحسن وحسين: صهره وبنته ﷺ وسبطاه.

واختياره تسمية أولاده بأسماء هؤلاء يدلُّ على محبَّته لأهل بيت النَّبِيِّ ﷺ وتقديره لهم، وقد تكرَّرت هذه الأسماء في أحفادِه.

وفي ختام هذا الفصل أقول: لقد رزقني الله بنين وبنات، سميت باسم علي والحسن والحسين وفاطمة، وبأسماء سَبْعٍ من أمهات المؤمنين، والمسمَّى بأسمائهم جمعوا بين كونهم صحابة وقرابة.

والحمد لله الذي أنعم عليَّ بمَحبَّة صحابة رسول الله ﷺ وأهل بيته، وأسأل اللهَ أن يُديم عليَّ هذه النِّعمةَ، وأن يحفظَ قلبِي من الغِلِّ على أحدٍ منهم، ولساني من ذِكرهم بما لا ينبغي، ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

❊ ❊ ❊

الفصل السادس:

ثناءُ بعض أهل العلم على جماعة من الصحابة من أهل البيت

عمُّ رسول الله ﷺ العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه:

قال الذهبيُّ في سير أعلام النبلاء (٢/ ٧٩ـ٨٠): «كان مِن أطولِ الرِّجال، وأحسنِهم صورة، وأبهاهم، وأجهرِهم صوتاً، مع الحِلْمِ الوافر والسُّؤْدد ...

قال الزبير بن بكَّار: كان للعباس ثوبٌ لعاري بنِي هاشم، وجفنةٌ لجائعهم، ومِنظرة لجاهلهم، وكان يمنع الجارَ، ويَبذُل المالَ، ويُعطي في النوائب».

وقوله: «مِنظرة»: في تهذيب تاريخ ابن عساكر: مِقطرة، وهي ما يُربَط به مَن يحصل منه اعتداءٌ وظلم. (انظر: حاشية السير).

عمُّ رسول الله ﷺ حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه:

قال ابن عبد البر في الاستيعاب (١/ ٢٧٠ حاشية الإصابة): «حمزة بن عبد المطلب بن هاشم عمُّ النَّبِيِّ عليه الصلاة والسلام، كان يُقال له: أسد الله وأسد رسوله، يكنى أبا عمارة وأبا يعلى أيضاً».

وقال فيه الذهبي: «الإمام البَطل الضِّرغام أسد الله أبو عُمارة وأبو يعلى القرشي الهاشمي المكي ثم المدني البدري الشهيد، عمُّ رسول الله ﷺ، وأخوه من الرَّضاعة». السير (١/ ١٧٢).

أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

روى مسلمٌ في صحيحه (٢٧٦) بإسناده إلى شُريح بن هانئ قال: «أتيتُ عائشةَ أسألها عن المسح على الخفين، فقالت: عليك بابن أبي طالب فَسَلْه؛ فإنَّه كان يُسافر مع رسول الله ﷺ، فسألناه، فقال: جعل رسول الله ﷺ ثلاثةَ أيامٍ

ولياليَهنَّ للمسافر، ويوماً وليلةً للمقيم ».

وفي رواية له قالت: « ائتِ عليًّا؛ فإنَّه أعلمُ بذلك منِّي، فأتيتُ عليًّا، فذكر عن النَّبِيِّ ﷺ بمثلِه ».

وقال ابن عبد البر رحمه الله في الاستيعاب (٣/ ٥١ حاشية الإصابة): « وقال أحمد بن حنبل وإسماعيل بن إسحاق القاضي: لَم يُرْوَ في فضائل أحدٍ من الصحابةِ بالأسانيد الحسان ما رُوي في فضائل عليِّ بن أبي طالب، وكذلك أحمد بن شعيب بن علي النسائي رحمه الله ».

وقال أيضاً (٣/ ٤٧): « وسُئل الحسن بن أبي الحسن البصري عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه؟ فقال: كان عليٌّ والله! سَهماً صائباً من مرامي الله على عدوِّه، وربَّانيَّ هذه الأمَّة، وذا فضلها وذا سابقتها وذا قرابتِها من رسول الله ﷺ، لَم يكن بالنومة عن أمر الله، و لا بالملومة في دين الله، ولا بالسروقة لمال الله، أعطى القرآن عزائمَه، ففاز منه برياضٍ مونِقة، ذلك عليُّ بن أبي طالب يا لُكَع! ».

وقال أيضاً (٣/ ٥٢): « روى الأصمُّ، عن عباس الدوري، عن يحيى بن معين أنَّه قال: خيرُ هذه الأمَّة بعد نبيِّنا: أبو بكر وعمر ثم عثمان ثم علي، هذا مذهبُنا وقولُ أئمَّتِنا ».

وقال أيضاً (٣/ ٦٥): « وروى أبو أحمد الزبيري وغيرُه عن مالك بن مِغوَل، عن أُكَيْل، عن الشَّعبي قال: قال لي علقمة: تدري ما مَثَلُ عليٍّ في هذه الأمَّة؟ قلت: وما مثله؟ قال: مَثَلُ عيسى بن مريم؛ أحبَّه قومٌ حتى هلكوا في حبِّه، وأبغضه قومٌ حتى هلكوا في بغضه ».

ومرادُ علقمة بالمشبَّه به اليهود والنصارى، وفي المشبَّه الخوارج والرافضة.

وقال أيضاً (٣/ ٣٣): « وأجمعوا على أنَّه صلَّى القبلتين وهاجر، وشهد

بدراً والحديبية وسائر المشاهد، وأنَّه أبلى ببدرٍ وبأُحدٍ وبالخندق وبخيبر بلاءً عظيماً، وأنَّه أغنى في تلك المشاهد، وقام فيها المقامَ الكريم، وكان لواءُ رسول الله ﷺ بيده في مواطن كثيرة، وكان يوم بدر بيده على اختلاف في ذلك، ولمَّا قُتل مصعب بن عُمير يوم أُحُد وكان اللِّواءُ بيده دفعه رسولُ الله ﷺ إلى عليٍّ رضي الله عنه ».

وقال ابن تيمية رحمه الله في منهاج السنة (٦/ ١٧٨): « وعليٌّ رضي الله عنه ما زالاَ ـ أي أبو بكر وعمر ـ مُكرِمَين له غايةَ الإكرام بكلِّ طريق، مُقدِّمَيْن له بل ولسائر بَنِي هاشِم على غيرهم في العَطاءِ، مُقدِّمَيْن له في المرتبةِ والحرمةِ والمَحبَّةِ والموالاة والثناءِ والتعظيمِ، كما يفعلان بنُظرائه، ويُفضِّلانه بما فضَّله الله عزَّ وجلَّ به على مَن ليس مثله، ولَم يُعرَف عنهما كلمةُ سوءٍ في عليٍّ قطُّ، بل ولا في أحد من بَنِي هاشِم » إلى أن قال: « وكذلك عليٌّ رضي الله عنه قد تواتر عنه مِن مَحبَّتِهما وموالاتِهما وتعظيمِهما وتقديمِهما على سائر الأمَّة ما يُعلم به حالُه في ذلك، ولَم يُعرف عنه قطُّ كلمةُ سوءٍ في حقِّهما، ولا أنَّه كان أحقَّ بالأمر منهما، وهذا معروفٌ عند مَن عرف الأخبارَ الثابتةَ المتواترةَ عند الخاصَّة والعامة، والمنقولة بأخبار الثقات ».

وقال أيضاً (٦/ ١٨): « وأمَّا عليٌّ رضي الله عنه، فأهل السُّنَّة يُحبُّونه ويتولَّونه، ويشهدون بأنَّه من الخلفاء الراشدين والأئمة المهديِّين ».

وقال ابن حجر رحمه الله في التقريب: « عليُّ بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم الهاشمي، حَيْدَرَة، أبو تُراب، وأبو الحَسنَيْن، ابنُ عمِّ رسول الله ﷺ وزوجُ ابنته، من السابقين الأوَّلين، ورجَّح جمعٌ أنَّه أوَّلُ مَن أَسلَم، فهو سابقُ العرب، وهو أحدُ العشرة، مات في رمضان سنة أربعين، وهو يومئذٍ أفضلُ الأحياء مِن بَنِي آدم بالأرض، بإجماع أهل السُّنَّة، وله ثلاثٌ وستون سنة على الأرجح ».

ولعليٍّ بن أبي طالب ﷺ مِن الولد خمسة عشر من الذُّكور، وثمان عشرة من الإناث، ذكر ذلك العامريُّ في « الرياض المستطابة في جملة مَن رَوَى في الصحيحين من الصحابة » (ص:١٨٠)، ثم ذكرهم وذكر أمَّهاتهم، ثم قال: « والعَقِبُ من ولَد عليٍّ كان في الحسن والحسين ومحمد وعمر والعباس ».

سِبطُ رسول الله ﷺ الحسنُ بنُ علي بن أبي طالب ﷺ:

قال ابن عبد البر ﷺ في الاستيعاب (١/ ٣٦٩ حاشية الإصابة): « وتواترت الآثارُ الصحاحُ عن النَّبِيِّ عليه الصلاة والسلام أنَّه قال في الحسن بن علي: (إنَّ ابنِي هذا سيِّدٌ، وعسى الله أن يُبقيه حتى يُصلِح به بين فئتَين عظيمتَين من المسلمين)، رواه جماعةٌ من الصحابة، وفي حديث أبي بكرة في ذلك: (وأنَّه رَيحانَتِي من الدنيا).

ولا أَسْوَد مِمَّن سَمَّاه رسولُ الله ﷺ سيِّداً، وكان رحمة الله عليه حليماً ورِعاً فاضلاً، دعاه ورعُه وفضلُه إلى أن تَرَكَ المُلْكَ والدنيا رغبةً فيما عند الله، وقال: (والله! ما أحببتُ ـ منذُ علمتُ ما ينفعُنِي ويضُرُّنِي ـ أن أَلِيَ أمرَ أمَّة محمدٍ ﷺ على أن يُهراق في ذلك محجمة دم)، وكان من المبادرين إلى نصر عثمان ﷺ والذَّابِّين عنه ».

وقال فيه الذهبيُّ في السير (٣/ ٢٤٥ ـ ٢٤٦): « الإمامُ السيِّد، رَيحانةُ رسول الله ﷺ وسِبطُه، وسيِّد شباب أهل الجنَّة، أبو محمد القرشي الهاشمي المدني الشهيد ».

وقال أيضاً (٣/ ٢٥٣): « وقد كان هذا الإمامُ سيِّداً، وَسيماً، جميلاً، عاقِلاً، رَزيناً، جَوَاداً، مُمَدَّحاً، خيِّراً، دَيِّناً، وَرِعاً، مُحتشِماً، كبيرَ الشأنِ ».

وقال فيه ابنُ كثير في البداية والنهاية (١١/ ١٩٢ ـ ١٩٣): « وقد كان

الصِّدِّيقُ يُجِلُّه ويُعظِّمُه ويُكرمُه ويتفدَّاه، وكذلك عمر بنُ الخطاب » إلى أن قال: « وكذلك كان عثمان بن عفان يُكرِمُ الحسن والحُسين ويُحبُّهما، وقد كان الحسن بن علي يوم الدار ـ وعثمان بن عفان محصورٌ ـ عنده ومعه السيف متقلِّداً به يُجاحف عن عثمان، فخشي عثمان عليه، فأقسم عليه ليَرجِعنَّ إلى منزلهم؛ تطييباً لقلب عليٍّ وخوفاً عليه، رضي الله عنهم ».

سِبطُ رسول الله ﷺ الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما:

قال ابنُ عبد البر رحمه الله في الاستيعاب (١/ ٣٧٧ حاشية الإصابة): « وكان الحسين فاضلاً ديِّناً كثيرَ الصَّومِ والصلاةِ والحجِّ ».

وقال ابن تيمية كما في مجموع فتاواه (٤/ ٥١١): « والحسين رضي الله عنه أكرمه اللهُ تعالى بالشهادةِ في هذا اليوم (أي يوم عاشوراء)، وأهان بذلك مَن قتله أو أعان على قتلِه أو رضيَ بقتلِه، وله أسوةٌ حسنةٌ بِمَن سبقه من الشهداء؛ فإنَّه (هو) وأخوه سيِّدَا شباب أهل الجنَّة، وكانا قد تربَّيَا في عزِّ الإسلامِ، لَم ينالاَ من الهجرة والجهاد والصَّبر على الأذى في الله ما ناله أهلُ بيتِه، فأكرمهما اللهُ تعالى بالشَّهادةِ تكميلاً لكرامتِهما، ورَفعاً لدرجاتِهما.

وقتلُه مصيبةٌ عظيمةٌ، والله سبحانه قد شرع الاسترجاعَ عند المصيبة بقوله: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴾ ».

وقال فيه الذهبيُّ رحمه الله في السير (٣/ ٢٨٠): « الإمام الشريفُ الكاملُ، سِبطُ رسول الله ﷺ ورَيْحانتُه من الدنيا ومَحبوبُه، أبو عبد الله الحسين بن أمير المؤمنين أبي الحسن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مَناف ابن قُصَي القرشي الهاشمي ».

وقال ابنُ كثير رحمه الله في البداية والنهاية (١١/ ٤٧٦): « والمقصودُ أنَّ الحسين عاصَر رسولَ الله ﷺ وصَحِبَه إلى أن توفي وهو عنه راضٍ، ولكنَّه كان صغيراً، ثم كان الصِّدِّيقُ يُكرمُه ويُعظِّمه، وكذلك عمر وعثمان، وصحب أباه وروى عنه، وكان معه في مغازيه كلِّها، في الجَمَل وصِفِّين، وكان معظَّماً مُوَقَّراً ».

ابنُ عمِّ رسول الله ﷺ عبد الله بن عبَّاس رضي الله عنهما:

روى البخاريُّ في صحيحه (٤٩٧٠) عن ابن عباس قال: « كان عمرُ يُدخِلُني مع أشياخ بَدر، فكأنَّ بعضَهم وَجَد في نفسه، فقال: لِمَ تُدخلُ هذا معنا ولنا أبناء مثلُه؟ فقال عمرُ: إنَّه مِن حيث علِمتُم، فدعا ذات يومٍ فأدخله معهم، فما رُئيتُ أنَّه دعاني إلَّا ليُريهم، قال: ما تقولون في قول الله تعالى: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ﴾؟ فقال بعضُهم: أُمِرنا نَحمدُ الله ونستغفرُه إذا نُصِرنا وفُتِح علينا، وسكت بعضُهم فلَم يَقُل شيئاً، فقال لي: أكذاك تقول يا ابنَ عبَّاس؟ فقلتُ: لا، قال: فما تقول؟ قلت: هو أَجَلُ رسولِ الله ﷺ أَعْلَمَه له، قال: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ﴾، وذلك علامةُ أَجَلِكَ، ﴿ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ﴾، فقال عمر: ما أعلمُ منها إلَّا ما تقول ».

وفي الطبقات لابن سعد (٢/ ٣٦٩) عن سَعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه أنَّه قال: « ما رأيتُ أحضَرَ فهْماً ولا أَلَبَّ لُبًّا ولا أكثرَ علماً ولا أوسَعَ حِلْماً من ابن عباس، ولقد رأيتُ عمر بنَ الخطاب يدعوه للمعضلات ».

وفيها أيضاً (٢/ ٣٧٠) عن طلحة بن عُبيد الله أنَّه قال: « لقد أُعطِي ابنُ عباس فهماً ولقناً وعلماً، ما كنتُ أرى عمرَ بنَ الخطاب يُقدِّم عليه أحداً ».

وفيها أيضاً (٢/ ٣٧٠) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنَّه قال حين بلغه موتُ ابنِ عباس ـ وصفَّق بإحدى يديه على الأخرى ـ: « مات أعلمُ الناس، وأحلَمُ

الناس، ولقد أُصيبَتْ به هذه الأمَّة مُصيبة لا تُرتق ».

وفيها أيضاً عن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم قال: « لَمَّا مات ابنُ عباس قال رافع بن خديج: مات اليوم مَن كان يَحتاج إليه مَن بين المشرق والمغرب في العِلم ».

وفي الاستيعاب لابن عبد البر (٢/ ٣٤٤ ـ ٣٤٥) عن مجاهد أنَّه قال: « ما سمعتُ فُتيا أحسنَ من فتيا ابن عباس، إلَّا أن يقول قائلٌ: قال رسول الله ﷺ، ورُوي مثلُ هذا عن القاسم بن محمد ».

وقال ابن كثير رحمه الله في البداية والنهاية (١٢/ ٨٨): « وثبت عن عمر بن الخطاب أنَّه كان يُجلِسُ ابنَ عباس مع مشايخ الصحابة، ويقول: نِعمَ ترجمان القرآن عبد الله بن عباس، وكان إذا أقبل يقول عمر: جاء فتى الكهول، وذو اللِّسان السَّئول، والقلبِ العَقول ».

ابنُ عمِّ رسول الله ﷺ جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه:

في صحيح البخاري (٣٧٠٨) من حديث أبي هريرة، وفيه: « وكان أخْيَرَ النَّاس للمساكين جعفر بن أبي طالب، كان ينقلبُ بنا فيُطعِمُنا ما كان في بيتِه، حتى إن كان ليُخرِجِ إلينا العُكَّة التي ليس فيها شيء فيَشُقُّها، فنلعق ما فيها ».

قال الحافظ ابن حجر في شرحه (الفتح ٧/ ٧٦): « وهذا التقييد يُحمَل عليه المطلقُ الذي جاء عن عكرمة، عن أبي هريرة وقال: (ما احتذى النِّعالَ ولا ركب المطايا بعد رسول الله ﷺ أفضلُ مِن جعفر بن أبي طالب) أخرجه الترمذي والحاكم بإسنادٍ صحيح ».

وقال فيه الذهبي في السير (١/ ٢٠٦): « السيِّد الشهيد الكبيرُ الشأن، عَلَمُ المجاهدين، أبو عبد الله، ابن عمِّ رسول الله ﷺ عبدِ مناف بن عبد المطلب بن

هاشم بن عبد مناف بن قُصيّ الهاشمي، أخو عليّ بن أبي طالب، وهو أسنُّ من عليّ بعشرِ سنين.

هاجر الهجرتين، وهاجر من الحبشة إلى المدينة، فوافى المسلمين وهم على خيبر إِثْرَ أخذها، فأقام بالمدينة أشهُراً ثمَّ أمَّرَهُ رسولُ الله ﷺ على جيش غزوة مؤتة بناحية الكَرَك، فاستُشهد، وقد سُرَّ رسولُ الله ﷺ كثيراً بقدومه، وحزن ـ والله! ـ لوفاته ».

وفي التقريب لابن حجر أنَّه قال: « جعفر بن أبي طالب الهاشمي، أبو المساكين، ذو الجناحين، الصحابيّ الجليل ابن عمِّ رسول الله ﷺ، استُشهد في غزوة مؤتة سنة ثمان من الهجرة، وَرَدَ ذكرُه في الصحيحين دون رواية له ».

ويُقال له ذو الجناحين؛ لأنَّه عُوِّض عن يديه لَمَّا قُطِعتا في غزوة مؤتة جناحين يطير بهما مع الملائكة، ففي صحيح البخاري (٣٧٠٩) بإسناده إلى الشعبي: « أنَّ ابنَ عمر رضي الله عنهما كان إذا سلَّم على ابن جعفر قال: السلام عليك يا ابنَ ذي الجناحين ».

قال الحافظ في شرحه: « كأنَّه يشير إلى حديث عبد الله بن جعفر، قال: قال لي رسول الله ﷺ: (هنيئاً لك؛ أبوك يطير مع الملائكة في السماء) أخرجه الطبراني بإسنادٍ حسنٍ ».

ثمَّ ذكر طرقاً أخرى عن أبي هريرة وعليّ وابن عباس، وقال في طريقٍ عن ابن عباس: « إنَّ جعفر يطير مع جبريل وميكائيل، له جناحان؛ عوَّضه اللهُ مِن يديه »، وقال: « وإسناد هذه جيِّد ».

ابنُ ابنِ عمِّ رسول الله ﷺ عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما:

في صحيح مسلم (٢٤٢٨) عن عبد الله بن جعفر قال: « كان رسولُ الله

ﷺ إذا قدم من سفرٍ تُلُقِّي بصبيانِ أهل بيته، قال: وإنَّه قدم من سفرٍ فسُبق بي إليه، فحملنِي بين يديه، ثمَّ جيء بأَحَدِ ابْنَي فاطمة فأردفه خلفه، قال: فأُدخلنا المدينة ثلاثةً على دابَّة ».

قال فيه الذهبي رحمه الله في السير (٣/ ٤٥٦): « السيِّد العالِم، أبو جعفر القرشي الهاشمي، الحبشي المولد، المدني الدار، الجَواد بن الجواد ذي الجناحين، له صحبةٌ وروايةٌ، عِدَادُه في صغار الصحابة، استُشهد أبوه يوم مؤتة، فكفَلَه النبيُّ ﷺ ونشأ في حِجْرِه ».

وقال أيضاً: « وكان كبيرَ الشأن، كريماً جواداً، يَصلحُ للإمامة ».

وفي الرياض المستطابة للعامريّ (ص:٢٠٥): « وصلّى عليه أبان بن عثمان، وكان يومئذٍ واليَ المدينة، وحمل أبانُ سريرَه ودموعُه تنحدر وهو يقول: كنتَ ـ والله! ـ خيراً لا شرَّ فيك، وكنتَ ـ والله! ـ شريفاً فاضلاً برًّا ».

ومن أصحاب رسول الله ﷺ الذين هم مِن أهل بيته:

أبو سفيان ونوفل وربيعة وعبيدة بنو الحارث بن عبد المطلب.

وعبد المطلب بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب.

والحارث والمغيرة ابنا نَوفل بن الحارث بن عبد المطلب.

وجعفر وعبد الله ابنا أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب.

ومعتِّب وعتبة ابنا أبي لهب عبد العزّى بن عبد المطلب.

والفضل وعبيد الله ابنا العباس بن عبد المطلب.

* * *

الفصل السابع:

ثناءُ بعض أهل العلم على جماعةٍ من الصحابيات من أهل البيت

ابنةُ رسول الله ﷺ فاطمة رضي الله عنها:

عن عائشة أمِّ المؤمنين رضي الله عنها قالت: « ما رأيتُ أحدًا أشبهَ سَمْتاً ودَلاًّ وهَدْياً برسولِ الله في قيامها وقعودها من فاطمة بنت رسول الله ﷺ... » رواه أبو داود (٥٢١٧) والترمذي (٣٨٧٢)، وإسناده حسن.

وقال أبو نعيم في الحلية (٢/ ٣٩): « ومن ناسكات الأصفياء، وصفيَّات الأتقياء: فاطمة رضي الله تعالى عنها، السيِّدةُ البَتول، البَضْعَة الشبيهةُ بالرسول، أَلْوَطُ أولاده بقلبه لُصوقاً، وأوَّلهم بعد وفاته به لحوقاً، كانت عن الدنيا ومتعتها عازفة، وبغوامض عيوب الدنيا وآفاتها عارفة ».

وقال الذهبي رحمه الله في السير (٢/ ١١٨ ـ ١١٩): « سيِّدةُ نساء العالمين في زمانها، البَضْعَةُ النَّبويّة والجهة المصطفويّة، أمُّ أبيها، بنتُ سيِّد الخلق رسول الله ﷺ أبي القاسم محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشية الهاشمية، وأمُّ الحسنين »، وقال أيضاً: « وقد كان النَّبيُّ ﷺ يحبُّها ويكرمُها ويُسِرُّ إليها، ومناقبها غزيرةٌ، وكانت صابرةً ديِّنةً خيِّرةً صيِّنةً قانعةً شاكرةً لله ».

وقال ابن كثير رحمه الله في البداية والنهاية (٩/ ٤٨٥): « وتُكَنَّى بأمِّ أبيها »، وقال: « وكانت أصغرَ بنات النَّبيِّ ﷺ على المشهور، ولَم يبق بعده سواها، فلهذا عظُمَ أجرُها؛ لأنَّها أُصيبت به عليه الصلاة والسلام ».

أمُّ المؤمنين خديجة بنت خويلد رضي الله عنها:

قال الذهبي في السير (٢/ ١٠٩ ـ ١١٠): «أمُّ المؤمنين وسيِّدة نساء العالمين في زمانها... أمّ أولاد رسول الله ﷺ (سوى إبراهيم)، وأوَّلُ مَن آمن به وصدَّقه قبل كلِّ أحد، وثبَّتتْ جَأشَه... ومناقبُها جَمَّة، وهي مِمَّن كمُل من النساء، كانت عاقلةً جليلةً ديِّنةً مصونةً كريمةً، من أهل الجنَّة، وكان النَّبِيُّ ﷺ يُثني عليها ويفضِّلها على سائر أمّهات المؤمنين، ويُبالغ في تعظيمها...

ومِن كرامتها عليه ﷺ أنَّها لَم يتزوَّج امرأةً قبلها، وجاءه منها عدّةُ أولادٍ، ولَم يتزوّج عليها قطُّ، ولا تَسَرَّى إلى أن قضت نَحْبَها، فوَجَدَ لفَقْدها؛ فإنَّها كانت نِعمَ القرين... وقد أمره اللهُ أن يبشِّرَها ببيتٍ في الجنّة من قصَب، لا صخَبَ فيه ولا نصَب».

ومِمَّا قاله ابنُ القيِّم في جلاء الأفهام (ص:٣٤٩) أنَّ مِن خصائصها أنَّ اللهَ بعث إليها السلام مع جبريل عليه السلام، وقال: «وهذه لَعَمرُ الله خاصَّة لَم تكن لسواها!».

وقال قبل ذلك: «ومنها (أي من خصائصها): أنَّها خيرُ نساء الأمَّة، واختُلف في تفضيلها على عائشة رضي الله عنها على ثلاثة أقوال: ثالثُها: الوقف، وسألتُ شيخَنا ابن تيمية رحمة الله عليه؟ فقال: اختصَّ كلُّ واحدةٍ منهما بخاصَّة، فخديجةُ كان تأثيرُها في أوَّل الإسلام، وكانت تُسَلِّي رسولَ الله ﷺ وتُثبِّتُه وتُسكنه، وتَبذُلُ دونه مالَها، فأدركت غرة الإسلام، واحتملتِ الأذى في الله تعالى وفي رسوله ﷺ، وكانت نُصرتُها للرَّسول ﷺ في أعظمِ أوقات الحاجة، فلها من النُّصرةِ والبذل ما ليس لغيرها، وعائشة رضي الله عنها تأثيرُها في آخر الإسلام، فلها من التفقُّه في الدِّين وتبليغه إلى الأمَّة وانتفاع بَنيها بِما أدَّت إليهم من العلم ما ليس لغيرها، هذا معنى كلامِه».

أمُّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها:

قال فيها الذهبي في السير (٢/ ١٤٠): «... ولَم يتزوَّج النَّبيُّ ﷺ بكراً غيرها، ولا أَحَبَّ امرأةً حُبَّها، ولا أعلمُ في أُمَّة محمد ﷺ ـ بل ولا في النساء مطلقاً ـ امرأةً أعلمَ منها».

وفي السير أيضاً (٢/ ١٨١) عن عليِّ بن الأقْمَر قال: «كان مسروق إذا حدَّث عن عائشة قال: حدَّثتني الصِّدِّيقةُ بنتُ الصِّدِّيق، حبيبةُ حبيبِ الله، المُبرَّأةُ من فوق سبع سماوات، فلَم أكذبها».

وذكر ابن القيم في جلاء الأفهام (ص:٣٥١ ـ ٣٥٥) جملةً من خصائصها، مُلخَّصُها: «أنَّها كانت أحبَّ الناس إلى رسول الله ﷺ، وأنَّه لَم يتزوَّج بِكراً غيرها، وأنَّ الوحيَ كان ينزل عليه وهو في لِحافِها، وأنَّه لَمَّا نزلت عليه آيةُ التَّخيير بدأ بها، فخيَّرها، فاختارت اللهَ ورسولَه، واستنَّ بها بقيَّةُ أزواجِه، وأنَّ اللهَ برَّأها بِما رماها به أهلُ الإفك، وأنزل في عُذرِها وبراءَتِها وَحْياً يُتلَى في محاريب المسلمين وصلواتِهم إلى يوم القيامة، وشهد لها بأنَّها مِن الطيِّبات، ووعدها المغفرةَ والرِّزقَ الكريم، ومع هذه المنزلة العليَّة تتواضعُ لله وتقول: (ولَشأنِي في نفسي أهونُ مِن أن يُنزل الله فِيَّ قرآناً يُتلى)، وأنَّ أكابرَ الصحابةِ رضي الله عنهم إذا أشكل عليهم الأمرُ من الدِّين استفتَوْها، فيجِدون علمَه عندها، وأنَّ رسول الله ﷺ توفي في بيتها، وفي يومِها، وبين سَحْرِها ونَحرِها، ودُفن في بيتِها، وأنَّ المَلَكَ أَرَى صورتَها للنَّبِيِّ ﷺ قبل أن يتزوَّجها في سَرَقة حرير، فقال: (إن يكن هذا من عند الله يُمضِه)، وأنَّ الناسَ كانوا يَتحرَّونَ بهداياهم يومَها مِن رسول الله ﷺ، فيُتحِفونَه بما يُحبُّ في منزلِ أحبِّ نسائه إليه رضي الله عنهم أجمعين».

أمُّ المؤمنين سَوْدَة بنت زَمْعَة ﵂:

قال الذهبيُّ ﵀ في السير (٢/ ٢٦٥ ـ ٢٦٦): «وهي أوَّلُ مَن تزوَّج بها النَّبيُّ ﷺ بعد خديجة، وانفردت به نحواً من ثلاث سنين أو أكثر، حتى دخل بعائشة، وكانت سيِّدةً جليلةً نبيلةً ضخمةً... وهي التي وَهبتْ يومَها لعائشة؛ رِعايَةً لقلبِ رسول الله ﷺ...».

وقال ابنُ القيِّم ﵀ في جلاء الأفهام (ص: ٣٥٠): «... وكبرت عنده، وأراد طلاَقَها، فوهبتْ يومَها لعائشة ﵂ فأمسَكَها، وهذا مِن خواصِّها، أنَّها آثَرَت بيَومِها حِبَّ النَّبيِّ ﷺ، تقرُّباً إلى رسول الله ﷺ وحُبًّا له، وإيثاراً لِمُقامِها معه، فكان رسولُ الله ﷺ يَقسِمُ لنسائه، ولا يَقسِمُ لها، وهي راضيةٌ بذلك، مُؤثِرةٌ لرضى رسول الله ﷺ، ﵂».

أمُّ المؤمنين حفصة بنت عمر بن الخطاب ﵄:

قال الذهبيُّ في السير (٢/ ٢٢٧): «السِّتْرُ الرَّفيعُ، بنتُ أمير المؤمنين أبي حفص عمر بن الخطاب، تزوَّجها النَّبيُّ ﷺ بعد انقضاءِ عِدَّتِها من خُنيس بن حُذافة السَّهمي ـ أحد المهاجرين ـ في سنة ثلاثٍ من الهجرة.

قالت عائشةُ: هي التي كانت تُسامِينِي من أزواج النَّبيِّ ﷺ».

أمُّ المؤمنين أمُّ سلمة هند بنتُ أبي أُميَّة ﵂:

قال الذهبيُّ في السير (٢/ ٢٠١ ـ ٢٠٣): «السيِّدةُ المُحجَّبَةُ الطَّاهرةُ... من المهاجرات الأُوَل... وكانت تُعدُّ من فقهاء الصحابيات».

وقال يحيى بن أبي بكر العامري في الرياض المستطابة (ص: ٣٢٤): «وكانت فاضلةً حليمةً، وهي التي أشارت على النَّبيِّ ﷺ يوم الحُديبية (أي بِحَلْقِ رأسِه ونَحْرِ هَديِه)، ورأت جبريلَ في صورة دِحية».

أمُّ المؤمنين زينب بنت خُزَيْمة الهلاليَّة رضي الله عنها:

ذكر الذهبيُّ في السير (٢/ ٢١٨) أنَّها تُدعى أمَّ المساكين؛ لكثرة معروفها.

وقال ابنُ القيِّم رحمه الله في جلاء الأفهام (ص:٣٧٦): « وكانت تُسمَّى أمَّ المساكين؛ لكثرة إطعامِها المساكين، ولَم تلبَث عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إلَّا يسيراً: شهرين أو ثلاثة، وتوفيت رضي الله عنها ».

أمُّ المؤمنين جُوَيْرِية بنت الحارث رضي الله عنها:

هي أمُّ المؤمنين وحليلةُ سيِّد المرسَلين صلى الله عليه وسلم، ويكفيها ذلك فضلاً وشرَفاً، قال ابن القيِّم في جلاء الأفهام (ص:٣٧٦ ـ ٣٧٧): « وهي التي أعتق المسلمون بسببها مئة أهل بيتٍ من الرَّقيق، وقالوا: أصهارُ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان ذلك مِن برَكَتِها على قومِها رضي الله عنها ».

أمُّ المؤمنين صفيَّةُ بنت حُيَيّ رضي الله عنها:

في جامع الترمذي (٣٨٩٤) بإسنادٍ صحيح من حديث أنس رضي الله عنه: أنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قال لها: « إنَّكِ لابْنَةُ نبِيٍّ، وإنَّ عمَّكِ لَنبِيٌّ، وإنَّكِ لتحت نَبِيٍّ ».

قال الذهبيُّ في السير (٢/ ٢٣٢): « وكانت شريفةً عاقلةً، ذاتَ حَسَبٍ وجمال ودِينٍ رضي الله عنها ».

وقال أيضاً (٢/ ٢٣٥): « وكانت صفيَّةُ ذاتَ حِلمٍ ووَقارٍ ».

وقال ابن القيم في جلاء الأفهام (ص:٣٧٧): « وتزوَّج رسول الله صلى الله عليه وسلم صفيَّةَ بنت حُيَيّ مِن ولَدِ هارون بن عمران أخي موسى عليهما السَّلام ».

وقال أيضاً: « ومِن خصائصِها أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أعتقَها، وجعل عِتقَها صداقَها، قال أنس: (أمهرها نفسَها)، وصار ذلك سُنَّةً للأمَّة إلى يوم القيامة،

يجوز للرَّجلِ أن يجعلَ عِتقَ جاريَتِه صداقَها، وتصيرَ زوجتَه، على منصوصِ الإمام أحمد رحمه الله ».

أمُّ المؤمنين أمُّ حبيبة رَمْلَةُ بنت أبي سفيان رضي الله عنها:

قال الذهبيُّ في السير (٢/ ٢١٨): « السيِّدةُ المُحجَّبة ».

وقال أيضاً (٢/ ٢٢٢): « وقد كان لأمِّ حبيبة حُرمةٌ وجلالةٌ، ولا سيما في دولة أخيها، ولمكانه منها قيل له: خال المؤمنين ».

وقال ابنُ كثير في البداية والنهاية (١١/ ١٦٦): « وقد كانت من سيِّدات أمَّهات المؤمنين، ومن العابدات الورِعات رضي الله عنها ».

أمُّ المؤمنين ميمونة بنت الحارث رضي الله عنها:

في السير (٢/ ٢٤٤) عن عائشة رضي الله عنها قالت: « أمَا إنَّها مِن أتقانا لله، وأَوْصَلنا للرَّحِم ».

وقال الذهبي (٢/ ٢٣٩): « وكانت مِن سادات النِّساء ».

أمُّ المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها:

في صحيح مسلم من حديث طويلٍ (٢٤٤٢) عن عائشة رضي الله عنها قالت: « وهي التي كانت تُسامينِي منهنَّ في المنزلة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولَم أرَ امرأةً قطُّ خيراً في الدِّين من زينب، وأتقى لله، وأصدقَ حديثاً، وأوْصَل للرَّحِم، وأعظمَ صدقة، وأشدَّ ابتذالاً لنفسِها في العمل الذي تصدَّق به وتقرَّب به إلى الله تعالى، ما عدا سَوْرَةً مِن حَدٍّ كانت فيها، تُسرع منها الفَيْئَة ».

قال الذهبيُّ في السير (٢/ ٢١١): « فزوَّجها اللهُ تعالى بنبيِّه بنصِّ كتابه، بلا وليٍّ ولا شاهدٍ، فكانت تَفخَرُ بذلك على أمَّهات المؤمنين، وتقول: زوَّجكنَّ أهاليكُنَّ، وزوَّجَنِي اللهُ من فوق عرشه »، والحديث في صحيح البخاري (٧٤٠٢).

وقال أيضاً: « وكانت مِن سادة النِّساءِ دِيناً ووَرَعاً وجُوداً ومعروفاً، رضي الله عنها ».

وقال أيضاً (٢/ ٢١٧): « وكانت صالِحةً صوَّامةً قوَّامةً بارَّةً، ويُقال لها: أمّ المساكين ».

عَمَّة رسول الله ﷺ صفيَّةُ بنت عبد المطلب رضي الله عنها:

قال الذهبيُّ في السير (٢/ ٢٦٩): « صفيَّةُ عمَّةُ رسول الله ﷺ بنت عبد المطلب، الهاشميَّة، وهي شقيقة حمزة، وأمُّ حواريِّ النَّبِيِّ ﷺ: الزبير ».

وقال أيضاً (١/ ٢٧٠): « والصحيح أنَّه ما أسلم مِن عمَّات النَّبِيِّ ﷺ سواها، ولقد وَجَدت على مَصرَع أخيها حمزة، وصبرت واحتسبت، وهي من المهاجرات الأُوَل ».

ومن الصحابيات من أهل البيت:

بناتُه ﷺ: زينب ورُقيَّة وأمُّ كلثوم.

وأمُّ كلثوم وزينب ابنتا عليِّ بن أبي طالب، وأمُّهما فاطمة.

وأمامة بنت أبي العاص بن الربيع، وأمُّها زينب بنت رسول الله ﷺ، وهي التي كان رسول الله ﷺ يَحمِلُها في الصلاة.

وأمُّ هانئ بنت أبي طالب بن عبد المطلب.

وضُباعة وأمُّ الحَكَم ابنتا الزبير بن عبد المطلب، جاء ذكرُهما في حديث عنهما، أخرجه أبو داود تحت رقم: (٢٩٨٧)، وضُباعةُ هي صاحبةُ حديث الاشتراط في الحجِّ، التي قال لها النَّبِيُّ ﷺ: « قولِي: فإن حَبَسَنِي حابِسٌ فمحلِّي حيث حَبَستَنِي ».

وأمامة بنت حمزة بن عبد المطلب.

الفصل الثامن:

ثناءُ بعض أهل العلم على جماعة من التابعين وغيرهم من أهل البيت

محمد بن علي بن أبي طالب (المشهور بابن الحنفيَّة) رحمه الله:

قال ابن حبان في ثقات التابعين (٥/ ٣٤٧): « وكان من أفاضل أهل بيته ».

وفي ترجمته في تهذيب الكمال للمزي: « قال أحمد بن عبد الله العجلي: تابعيٌّ ثقة، كان رجلاً صالحاً... وقال إبراهيم بن عبد الله بن الجنيد: لا نعلم أحداً أسند عن عليٍّ، عن النَّبِيِّ ﷺ أكثر ولا أصحَّ مِمَّا أسند محمد بن الحنفية ».

وفي السير للذهبي (٤/ ١١٥) عن إسرائيل، عن عبد الأعلى (هو ابن عامر): « أنَّ محمد بن علي كان يُكْنَى أبا القاسم، وكان ورِعاً كثيرَ العلم ».

وقال فيه أيضاً (٤/ ١١٠): « السيِّدُ الإمامُ، أبو القاسم وأبو عبد الله ».

عليُّ بنُ الحُسين بنِ علي بن أبي طالب رحمه الله:

قال ابنُ سعد في الطبقات (٥/ ٢٢٢): « وكان عليُّ ابنُ حُسين ثقةً مأموناً كثيرَ الحديث، عالياً رفيعاً ورِعاً ».

وقال ابن تيمية في منهاج السنة (٤/ ٤٨): « وأمَّا عليُّ ابنُ الحُسين، فمِن كبار التابعين وساداتهم علماً ودِيناً ».

وفي ترجمته في تهذيب الكمال للمزي: « وقال سفيان ابن عيينة، عن الزهري: ما رأيتُ قرشيًّا أفضل مِن عليِّ بنِ الحُسين ».

ونقل معناه عن أبي حازم وزيد بن أسلم ومالك ويحيى بن سعيد الأنصاري رحمهم الله.

وقال العجلي: عليُّ بنُ الحُسين مدنيٌّ تابعيٌّ ثقة.

وقال الزهري: كان عليُّ بنُ الحُسين من أفضلِ أهلِ بيتِه وأحسنِهم طاعة، وأحبِّهم إلى مروان بن الحَكَم وعبد الملك بن مروان ».

وقال الذهبي في السير (٤/ ٣٨٦): « السيِّدُ الإمامُ، زَين العابدين، الهاشميُّ العلويُّ المدني ».

وقال ابن حجر في التقريب: « ثقةٌ ثبتٌ عابدٌ فقيهٌ فاضلٌ مشهور ».

محمد بن علي بنِ الحُسين بن علي بنِ أبي طالب ﷺ:

مِن إجلالِ جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنهما له ما جاء في صحيح مسلم (١٢١٨) في إسناد حديثه الطويل في صفة الحج من حديث جعفر بن محمد (وهو ابن علي بن الحسين)، عن أبيه قال: « دخلنا على جابر بن عبد الله، فسأل عن القوم حتى انتهى إليَّ، فقلتُ: أنا محمد بنُ علي بنِ حُسين، فأهوى بيده إلى رأسي فنزع زِرِّي الأعلى، ثمَّ نزع زِرِّي الأسفل، ثمَّ وضع كفَّه بين ثديَيَّ وأنا يومئذٍ غلامٌ شاب، فقال: مرحباً بكَ يا ابنَ أخي! سَلْ عمَّا شئتَ... فقلتُ: أخبِرني عن حَجَّةِ رسول الله ﷺ ».

فحدَّثه بحديثه الطويل في صفة حجَّة النَّبيِّ ﷺ.

وقال ابنُ تيمية في منهاج السنة (٤/ ٥٠): « وكذلك أبو جعفر محمد بن علي مِن خيار أهل العلم والدِّين، وقيل: إنَّما سُمِّي الباقر؛ لأنَّه بَقَر العلمَ، لا لأجل بَقْر السجود جبهتَه ».

وقال المزيُّ في ترجمته في تهذيب الكمال: « قال العجلي: مدنيٌّ تابعيٌّ ثقةٌ، وقال ابنُ البرقي: كان فقيهاً فاضلاً ».

وقال الذهبي في السير (٤/ ٤٠١ ـ ٤٠٢): « هو السيِّدُ الإمام، أبو جعفر محمد بن علي بن الحُسين بن علي العلوي الفاطمي المدني، ولَدُ زَين العابدين... وكان أحدَ مَن جَمَع بين العلمِ والعملِ والسُّؤْدد والشَّرف والثقة والرَّزانة، وكان أهلاً للخلافة، وهو أحدُ الأئمَّة الاثني عشر الذين تُبجِّلُهم الشيعةُ الإماميَّةُ، وتقول بعِصمَتِهم وبمعرِفتِهم بجميع الدِّين، فلا عِصمة إلَّا للملائكة والنبيِّين، وكلُّ أحدٍ يُصيب ويُخطئ، ويُؤخذ من قوله ويُترك سوى النَّبيِّ ﷺ، فإنَّه معصومٌ مُؤيَّدٌ بالوحي، وشُهر أبو جعفر بالباقر؛ مِن بَقَر العلمَ، أي: شَقَّه، فعرَفَ أصلَه وخفيَّه، ولقد كان أبو جعفر إماماً مجتهِداً، تالياً لكتاب الله، كبيرَ الشأن... ».

وقال أيضاً (ص:٤٠٣): « وقد عدَّه النسائيُّ وغيرُه في فقهاء التابعين بالمدينة، واتَّفق الحفاظ على الاحتجاج بأبي جعفر ».

جعفر بنُ محمد بنِ علي بنِ الحُسين بن علي بن أبي طالب رحمه الله:

قال الإمام ابنُ تيمية في منهاج السنة (٤/ ٥٢ ـ ٥٣): « وجعفر الصادق رضي الله عنه من خيار أهلِ العلم والدِّين... وقال عمرو بن أبي المقدام: كنتُ إذا نظرتُ إلى جعفر بن محمد علمتُ أنَّه مِن سُلالة النَّبيِّين ».

ووصفه في رسالته في فضل أهل البيت وحقوقهم، فقال في (ص:٣٥): « شيخ علماء الأمَّة ».

وقال الذهبي في السير (٦/ ٢٥٥): « الإمام الصادق، شيخ بَنِي هاشم، أبو عبد الله القرشي الهاشمي العلوي النبوي المدني، أحد الأعلام ».

وقال عنه وعن أبيه: « وكانا مِن جِلَّة علماء المدينة ».

وقال في تذكرة الحفاظ (١/ ١٥٠): « وثَّقه الشافعيُّ ويحيى بنُ معين، وعن

أبي حنيفة قال: ما رأيتُ أفقهَ مِن جعفر بن محمد، وقال أبو حاتم: ثقة، لا يُسأل عن مِثلِه ».

عليُّ بنُ عبد الله بنِ عباس رحمه الله:

قال ابن سعد في الطبقات (٥/ ٣١٣): « وكان عليُّ ابنُ عبد الله بن عباس أصغرَ ولدِ أبيه سِنًّا، وكان أجملَ قرشيٍّ على وجه الأرض، وأوسَمَه، وأكثرَه صلاة، وكان يُقال له السجَّاد؛ لعبادتِه وفضلِه ».

وقال أيضاً (ص:٣١٤): « وكان ثقةً قليلَ الحديث ».

وفي تهذيب الكمال للمزي: « وقال العجلي وأبو زرعة: ثقة، وقال عمرو ابن علي: كان مِن خيار الناس، وذكره ابنُ حبان في الثقات ».

وقال الذهبي في السير (٥/ ٢٥٢): « الإمامُ السيِّدُ أبو الخلائف، أبو محمد الهاشمي السجَّاد... كان رحمه الله عالماً عامِلاً، جسيماً وَسِيماً، طُوَالاً مَهيباً... ».

* * *

الفصل التاسع:

مقارنة بين عقيدة أهل السُّنَّة وعقيدة غيرهم في أهل البيت

تبيَّن مِمَّا تقدَّم أنَّ عقيدةَ أهل السُّنَّة والجماعة في آل بيت النَّبِيِّ ﷺ وَسَطٌ بين الإفراط والتفريط، والغُلُوِّ والجفاء، وأنَّهم يُحبُّونَهم جميعاً، ويتولَّونَهم، ولا يَجْفُون أحداً منهم، ولا يَغلُون في أحدٍ، كما أنَّهم يُحبُّون الصحابةَ جميعاً ويتولَّونَهم، فيجمعون بين مَحبَّة الصحابةِ والقرابة، وهذا بخلاف غيرِهم من أهل الأهواءِ، الذين يَغلون في بعض أهل البيت، ويَجفُون في الكثير منهم وفي الصحابة رضي الله عنهم.

ومِن أمثلة غُلُوِّهم في الأئمَّة الاثني عشر من أهل البيت وهم عليٌّ والحسن والحُسين رضي الله عنهم، وتسعة من أولاد الحُسين ما اشتمل عليه كتاب الأصول من الكافي للكُليني من أبوابٍ منها:

ـ باب: أنَّ الأئمة عليهم السلام خلفاء الله عزَّ وجلَّ في أرضه، وأبوابُه التي منها يُؤتى (١/ ١٩٣).

ـ باب: أنَّ الأئمة عليهم السلام هم العلامات التي ذكرها عزَّ وجلَّ في كتابه (١/ ٢٠٦):

وفي هذا الباب ثلاثة أحاديث من أحاديثهم تشتمل على تفسير قوله تعالى: ﴿ وَعَلَـٰمَـٰتٍۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴾، بأنَّ النَّجمَ: رسول الله صلى الله عليه وآله، وأن العلامات الأئمَّة.

ـ باب: أنَّ الأئمَّة عليهم السلام نور الله عزَّ وجلَّ (١/ ١٩٤).

ويشتمل على أحاديث من أحاديثهم، منها حديث ينتهي إلى أبي عبد الله

(وهو جعفر الصادق) في تفسير قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ قال ـ كما زعموا ـ: «﴿ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ ﴾: فاطمة عليها السلام، ﴿ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾: الحسن، ﴿ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ﴾: الحسين، ﴿ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ ﴾: فاطمة كوكب دُرِيٌّ بين نساء أهل الدنيا، ﴿ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ﴾: إبراهيم عليه السلام، ﴿ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾: لا يهودية ولا نصرانية، ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ ﴾: يكاد العلم ينفجر بها، ﴿ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾: إمام منها بعد إمام، ﴿ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾: يهدي الله للأئمَّة مَن يشاء...».

ـ باب: أنَّ الآيات التي ذكرها الله عزَّ وجلَّ في كتابه هم الأئمَّة (١/ ٢٠٧).

وفي هذا الباب تفسير قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ بأنَّ الآيات: الأئمَّة!!

وفيه تفسير قوله تعالى: ﴿ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا ﴾ بأنَّ الآيات: الأوصياء كلُّهم!!!

ومعنى ذلك أنَّ العقابَ الذي حلَّ بآل فرعون سببُه تكذيبهم بالأوصياء الذين هم الأئمَّة!!

ـ باب: أنَّ أهلَ الذِّكر الذين أمر اللهُ الخلقَ بسؤالِهم هم الأئمَّة عليهم السلام (١/ ٢١٠).

ـ باب: أنَّ القرآن يهدي للإمام (١/ ٢١٦).

وفي هذا الباب تفسير قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ بأنَّه يهدي إلى الإمام!!

وفيه تفسيرُ قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾ بأنَّه إنَّما عنى بذلك الأئمَّة عليهم السلام، بهم عقَّد الله عزَّ وجلَّ أيمانكم!!

ـ باب: أنَّ النِّعمة التي ذكرها الله عزَّ وجلَّ في كتابه الأئمَّة عليهم السلام (١/ ٢١٧).

وفيه تفسير قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ بالزعم بأنَّ عليًّا رضي الله عنه قال: «نحن النِّعمة التي أنعم الله بها على عباده، وبنا يفوز مَن فاز يوم القيامة»!!

وفيه تفسير قول الله عزَّ وجلَّ في سورة الرحمن: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، قال: «أبالنَّبِيِّ أم بالوصيِّ تكذِّبان؟!!».

ـ باب: عرض الأعمال على النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله، والأئمَّة عليهم السلام (١/ ٢١٩).

ـ باب: أنَّ الأئمَّة عليهم السلام عندهم جميع الكتب التي نزلت من عند الله عزَّ وجلَّ، وأنَّهم يعرفونها على اختلاف ألسنتِها (١/ ٢٢٧).

ـ باب: أنَّه لَم يجمع القرآنَ كلَّه إلَّا الأئمَّة عليهم السلام، وأنَّهم يعلَمون علمَه كلَّه (١/ ٢٢٨).

ـ باب: أنَّ الأئمَّة عليهم السلام يعلمون جميعَ العلوم التي خرجت إلى الملائكة والأنبياء والرُّسل عليهم السلام (١/ ٢٥٥).

ـ باب: أنَّ الأئمَّة عليهم السلام يعلمون متى يموتون وأنَّهم لا يموتون إلَّا باختيارٍ منهم. (١/ ٢٥٨).

ـ باب: أنَّ الأئمَّة عليهم السلام يعلمون علمَ ما كان وما يكون، وأنَّه لا يخفى عليهم الشيءُ صلوات الله عليهم (١/ ٢٦٠).

ـ باب: أنَّ الله عزَّ وجلَّ لَم يُعلِّم نبيَّه علماً إلَّا أمره أن يُعلِّمَه أمير المؤمنين عليه السلام، وأنَّه كان شريكَه في العلم (١/ ٢٦٣).

ـ باب: أنَّه ليس شيءٌ من الحقِّ في يد الناسِ إلَّا ما خرج من عند الأئمَّة عليهم السلام، وأنَّ كلَّ شيء لم يخرج من عندهم فهو باطلٌ (١/ ٣٩٩).

وهذه الأبوابُ تشتمل على أحاديث من أحاديثهم، وهي منقولةٌ من طبعة الكتاب، نشر مكتبة الصدوق بطهران، سنة (١٣٨١هـ).

ويُعتبَرُ الكتابُ مِن أجَلِّ كتبِهم إن لَم يكن أجَلَّها، وفي مقدِّمة الكتاب ثناءٌ عظيمٌ على الكتاب وعلى مؤلِّفِه، وكانت وفاتُه سنة (٣٢٩هـ)، وهذا الذي نقلتُه منه نماذج من غلوِّ المتقدِّمين في الأئمَّة، أمَّا غلُوُّ المتأخرين فيهم، فيتَّضح من قول أحد كُبرائهم المعاصرين الخميني في كتابه «الحكومة الإسلامية» (ص:٥٢) من منشورات المكتبة الإسلامية الكبرى ـ طهران ـ: «وثبوتُ الولاية والحاكمية للإمام (ع) لا تَعنِي تجردَه عن منزلتِه التي هي له عند الله، ولا تجعله مثلَ مَن عداه مِن الحُكَّام؛ فإنَّ للإمام مقاماً محموداً ودرجةً سامية وخلافة تكوينيَّة تخضعُ لولايتها وسيطرتِها جميعُ ذرَّات هذا الكون، وإنَّ مِن ضروريات مذهبنا أنَّ لأئمَّتنا مقاماً لا يبلغه مَلَكٌ مُقرَّبٌ ولا نَبِيٌّ مرسَلٌ، وبموجِب ما لدينا من الروايات والأحاديث فإنَّ الرَّسول الأعظم (ص) والأئمة (ع) كانوا قبل هذا العالَم أنواراً، فجعلهم الله بعرشِه مُحدقين، وجعل لهم من المنزلة والزُّلفَى ما لا يعلمه إلَّا الله، وقد قال جبرائيل كما ورد في روايات المعراج: لو دنوتُ أنْمُلة لاحترقتُ، وقد ورد عنهم (ع): إنَّ لنا مع الله حالاتٍ لا يسعها مَلَكٌ مقرَّبٌ ولا نَبِيٌّ مرسَل»!!!

ولا يَملكُ المرءُ وهو يرى أو يسمعُ مثلَ هذا الكلام إلَّا أن يقول: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾.

وكلُّ من له أدنى بصيرة يجزم أنَّ ما تقدَّم نقله عنهم وما يشبهه كذبٌ وافتراءٌ على الأئمَّة، وأنَّهم بُرآءُ من الغلاة فيهم وغلوِّهم.

الفصل العاشر:

تحريم الانتساب بغير حق إلى أهل البيت

أشرفُ الأنساب نسَبُ نبيِّنا محمد ﷺ، وأشرف انتسابٍ ما كان إليه ﷺ وإلى أهل بيتِه إذا كان الانتسابُ صحيحاً، وقد كثُرَ في العربِ والعجم الانتماءُ إلى هذا النَّسب، فمَن كان من أهل هذا البيت وهو مؤمنٌ، فقد جَمَع الله له بين شرف الإيمان وشرف النَّسب، ومَن ادَّعى هذا النَّسبَ الشريف وهو ليس من أهله فقد ارتكب أمراً محرَّماً، وهو متشبِّعٌ بِما لَم يُعط، وقد قال النَّبِيُّ ﷺ: « المتشبِّعُ بِما لَم يُعْطَ كلابس ثوبَي زور »، رواه مسلمٌ في صحيحه (٢١٢٩) من حديث عائشة رضي الله عنها.

وقد جاء في الأحاديث الصحيحة تحريمُ انتساب المرء إلى غير نسبِه، ومِمَّا ورد في ذلك حديثُ أبي ذر رضي الله عنه أنَّه سَمع النَّبِيَّ ﷺ يقول: « ليس مِن رجلٍ ادَّعى لغير أبيه وهو يَعلَمه إلَّا كفر بالله، ومَن ادَّعى قوماً ليس له فيهم نسبٌ فليتبوَّأ مقعَدَه من النار »، رواه البخاريُّ (٣٥٠٨)، ومسلم (١١٢)، واللفظ للبخاري.

وفي صحيح البخاري (٣٥٠٩) من حديث واثلة بن الأَسْقع رضي الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ: « إنَّ مِن أعظَمِ الفِرى أن يَدَّعيَ الرَّجلُ إلى غير أبيه، أو يُري عينَه ما لَم تَر، أو يقولَ على رسول الله ﷺ ما لَم يقل »، ومعنى الفِرى: الكذب، وقوله: « أو يُري عينَه ما لَم تَرَ »، أي: في المنام.

وفي مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله (٣١/ ٩٣) أنَّ الوقفَ على أهل البيت أو الأشراف لا يستحقُّ الأخذَ منه إلَّا مَن ثبت نسبُه إلى أهل

البيت، فقد سُئل عن الوقف الذي أُوقِف على الأشراف، ويقول: (إنَّهم أقارب)، هل الأقاربُ شرفاء أم غير شرفاء؟ وهل يجوز أن يتناولوا شيئاً من الوقف أم لا؟

فأجاب: «الحمد لله، إن كان الوقفُ على أهل بيتِ النَّبِيِّ ﷺ أو على بعض أهل البيت، كالعلويِّين والفاطميِّين أو الطالبيِّين، الذين يدخل فيهم بنو جعفر وبنو عَقيل، أو على العبَّاسيِّين ونحوِ ذلك، فإنَّه لا يستحقُّ مِن ذلك إلَّا مَن كان نسبُه صحيحاً ثابتاً، فأمَّا مَن ادَّعى أنَّه منهم أو عُلِم أنَّه ليس منهم، فلا يستحقُّ مِن هذا الوقفِ، وإن ادَّعى أنَّه منهم، كبَني عبد الله بن ميمون القدَّاح؛ فإنَّ أهلَ العلمِ بالأنسَاب وغيرَهم يعلمون أنَّه ليس لهم نسبٌ صحيحٌ، وقد شهد بذلك طوائفُ أهل العلم من أهل الفقه والحديث والكلام والأنساب، وثبت في ذلك محاضرُ شرعيَّة، وهذا مذكورٌ في كتب عظيمة مِن كتب المسلمين، بل ذلك مِمَّا تواتر عند أهل العلم.

وكذلك مَن وقف على الأشراف، فإنَّ هذا اللفظ في العُرف لا يدخل فيه إلَّا مَن كان صحيح النَّسَب من أهل بيت النَّبِيِّ ﷺ.

وأمَّا إن وقف واقفٌ على بني فلانٍ أو أقارب فلانٍ ونحو ذلك، ولم يكن في الوقف ما يقتضي أنَّه لأهل البيت النبويِّ، وكان الموقوف مُلكاً للواقف يصح وقفُه على ذريّة المعيَّن، لم يدخل بنو هاشم في هذا الوقف».

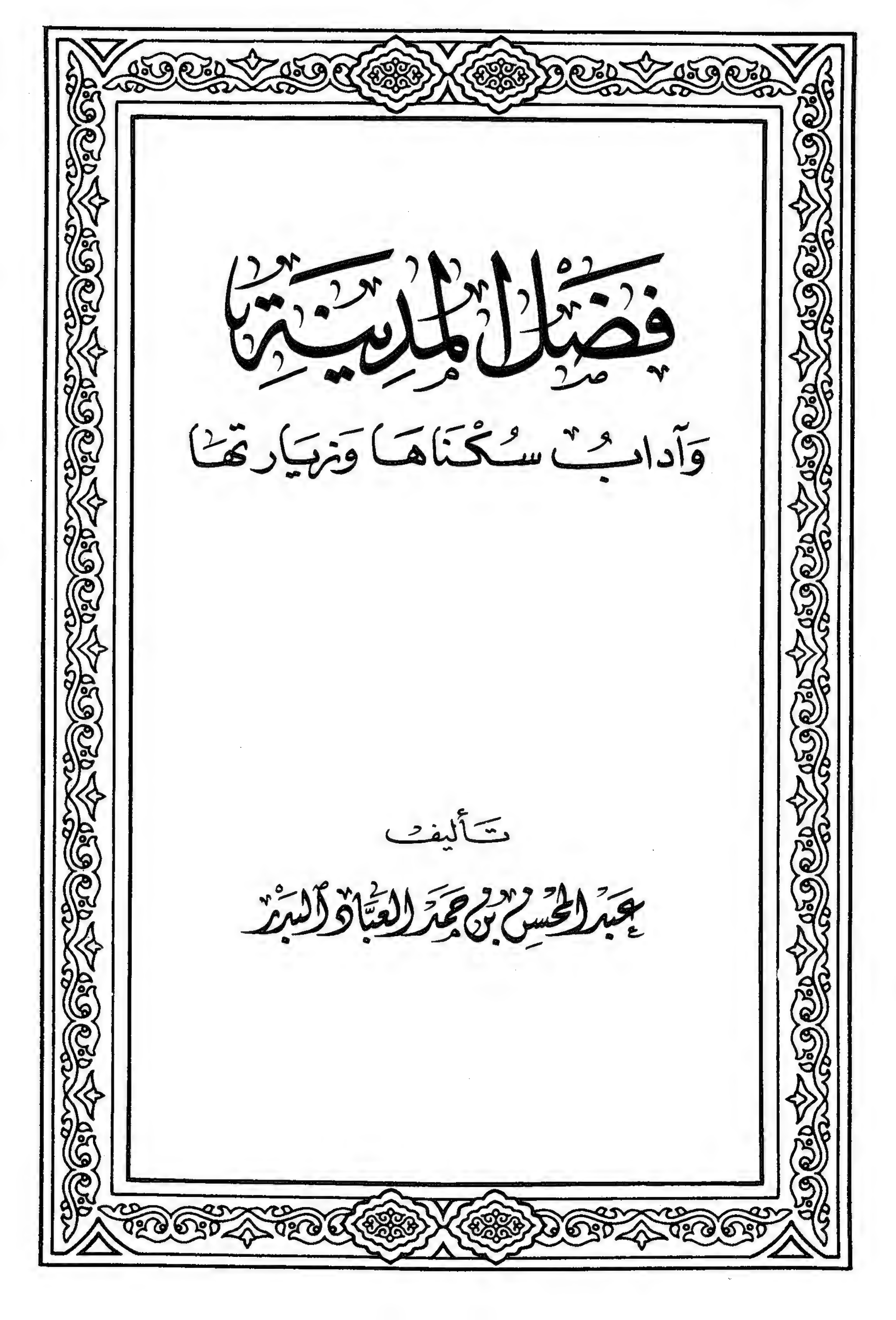
وإلى هنا انتهت هذه الرسالةُ المختصرةُ في فضل أهل البيت وعلُوِّ مكانتهم عند أهل السنَّة والجماعة، وأسأل اللهَ التوفيقَ لما فيه رضاه، والفقهَ في دينه، والثباتَ على الحقّ إنَّه سَميعٌ مُجيبٌ، وصلَّى اللهُ وسلَّم وبارك على نبيِّنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.



الفهرس

❋ ❋ ❋





فضل المدينة

وآداب سكناها وزيارتها

تأليف

عبد المحسن بن حمد العباد البدر



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذ بالله من شرورِ أنفسنا ومن سيِّئاتِ أعمالِنا، مَن يهدِه الله فلا مُضلَّ له، ومَن يُضلل فلا هادي له، وأشهدُ أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُه ورسولُه، وخليلُه وخِيرتُه من خلقِه، أَرسلَه الله بين يدي الساعة بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنِه وسراجاً منيراً، فدلَّ أُمَّتَه على كلِّ خيرٍ، وحذَّرها من كلِّ شرٍّ، اللَّهمَّ صلِّ وسلِّم وبارِكْ عليه وعلى آله وأصحابِه ومَن سَلَكَ سبيلَه واهتدى بهديِه إلى يوم الدِّين، أمَّا بعدُ:

فإنَّ مدينةَ الرَّسول الكريم ﷺ طَيْبَةَ الطيِّبَةَ مهبطُ الوحي ومتنزَّلُ جبريلَ الأمين على الرسول الكريم ﷺ، وهي مأرزُ الإيمان، وملتقى المهاجرين والأنصار، وموطن الذين تبوؤوا الدارَ والإيمان، وهي العاصمة الأولى للمسلمين، فيها عُقدت ألويةُ الجهاد في سبيل الله، فانطلقت كتائبُ الحق لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، ومنها شعَّ النور، فأشرقت الأرض بنور الهداية، وهي دارُ هجرة المصطفى ﷺ، إليها هاجر، وفيها عاش آخر حياته ﷺ، وبها مات، وفيها قُبر، ومنها يُبعث، وقبره أول القبور انشقاقاً عن صاحبه، ولا يُقطع بمكان قبر أحد من الأنبياء سوى مكان قبره ﷺ.

وهذه المدينة المباركة شرَّفها الله وفضّلها، وجعلها خير البقاع بعد مكة، ويدل لتفضيل مكة على المدينة قولُ الرسول الكريم ﷺ لَمّا أخرجه الكفار منها واتَّجه إلى المدينة مهاجراً، قال مخاطباً مكة: «والله إنَّكِ لَخَيْرُ أرضِ الله، وأَحبُّ أرضِ الله إلى الله، ولولا أنِّي أُخرجتُ منكِ ما خرجتُ»، رواه الترمذي، وابن ماجه، وهو حديثٌ صحيحٌ.

وأمَّا الحديثُ الذي يُنسبُ إلى الرَّسولِ ﷺ، وهو: « أنَّ النبيَّ ﷺ دعا وقال: اللَّهمَّ إنَّكَ أخرَجْتَني مِن أَحَبِّ البلادِ إليَّ ـ يعني مكَّةَ ـ فأَسْكِنِّي في أحبِّ البلادِ إليك ـ يعني المدينةَ ـ »، فهو حديثٌ موضوعٌ، ومعناه غيرُ مستقيم؛ لأنَّه يدلُّ على أنَّ الأحبَّ إلى الله غيرُ الأحبِّ إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام، والأَحَبّ إلى الرَّسول غير الأحبِّ إلى الله، ومِن المعلومِ أنَّ محبَّةَ الرَّسولِ ﷺ تابعةٌ لمِحَبَّة الله سبحانه وتعالى، ليس الأحب إلى الله غير الأحب إلى الرسول ﷺ.

* * *

وقد رأيتُ كتابةَ هذه الرسالةِ في فضل هذه المدينة المباركة وبيان آداب سُكناها وزيارتها، فأذكرُ فيها جملةً من فضائلِها، ثمَّ جملةً مِن آدابِ سُكناها، ثمَّ جملةً من آداب زيارتِها:

فمِن فضائلِ هذه المدينةِ المباركة: أنَّ الله تعالى جعلَها حَرَماً آمناً كما جعل مكَّةَ حَرماً آمناً، وقد جاء عن النَّبِيِّ الكريمِ ﷺ أنَّه قال: « إنَّ إبراهيمَ حرَّمَ مكَّةَ، وإنِّي حرَّمتُ المدينةَ »، رواه مسلم، والمقصودُ من هذا التحريمِ المضافِ إلى محمدٍ ﷺ وإلى إبراهيمَ ﷺ هو إظهارُ التحريم، وإلاَّ فإنَّ التَّحريمَ مِن الله عزَّ وجلَّ، وهو الذي جعل هذا حَرَماً، وجعلَ هذا حَرَماً.

واختصَّ الله عزَّ وجلَّ هاتيْن البلدَتَيْن بهذه الصِّفَةِ التي هي الحرمة دون سائر البلاد، ولَم يأتِ دليلٌ ثابتٌ يدلُّ على تحريمِ شيءٍ غير مكَّة والمدينة، وما شاعَ على أَلسِنَة كثيرٍ من النَّاسِ من أنَّ المسجدَ الأقصَى ثالثُ الحَرَمَيْن هو من الخطأ الشائع؛ لأنَّه ليس هناك للحرمين ثالثٌ، ولكنَّ التعبيرَ الصحيح أن يُقال: ثالث المَسجِدَيْن ـ أي المُشَرَّفيْن المُعظَّمَيْن ـ والنبيُّ ﷺ جاء عنه ما يدلُّ

على فضلِ هذه المساجدِ الثلاثة وعلى قصدِها للصلاةِ فيها، حيث قال عليه الصلاة والسَّلام: « لا تُشَدُّ الرِّحالُ إلَّا إلى ثلاثةِ مساجد، المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصَى »، رواه البخاري ومسلم.

ثمَّ إنَّ المقصودَ بالحَرَم في مكَّةَ والمدينة ما تُحيطُ به الحدود لكلٍّ منهما، هذا هو الحَرَمُ، وما شاعَ من إطلاقِ الحرَمِ على المسجدِ النَّبويِّ فقط فهو من الخطأ الشائع؛ لأنَّه ليس هو الحرمُ وحده، بل المدينة كلُّها حَرَمٌ ما بين عَيْرٍ إلى ثَوْر، وما بين لابَتَيْها، وقد قال عليه الصلاة والسَّلام: « المدينةُ حرَمٌ ما بين عَيْرٍ إلى ثور »، رواه البخاري ومسلم.

وقال ﷺ: « إنِّي حرَّمتُ ما بين لابَتَيْ المدينة أن يُقطَع عِضاهُها، أو يُقتل صيدُها »، رواه مسلم.

ومِن المعلومِ أنَّ المدينةَ قد اتَّسعت في هذا الزَّمان حتَّى خرَجَ جزءٌ منها عن الحَرَم، ولهِذا لا يُقال: إنَّ كلَّ المباني الموجودةَ في المدينة من الحَرَمِ، ولكن ما كان داخلَ حدودِ الحرم منها فهو حرمٌ، وما كان خارِجَ حدود الحَرَم فإنَّه يُطلقُ عليه أنَّه من المدينة، ولكن لا يُقال إنَّه من الحرم.

وقد جاء عن النَّبيِّ الكريمِ ﷺ في بيان حدود حرَم المدينة أنَّ الحرَمَ ما بين اللاَّبتَين، أو ما بين الحرَّتين، أو ما بين الجبَلَين، أو ما بين عَيْرٍ إلى ثَور، ولا تنافيَ ولا اضطراب بين هذه الألفاظ؛ فإنَّ الأصغرَ داخلٌ في الأكبرِ، فما بين اللاَّبتين حَرَمٌ، وما بين الحرَّتين حَرَمٌ، وما بين عيْر إلى ثورٍ حرمٌ، وإذا اشتبه الأمرُ في شيءٍ يُحتمَل أن يكون من الحَرَم، ويُحتمل أن يكون من غيرِه، فإنَّ هذا أمثلُ ما يُقال فيه إنَّه من الأمور المشتبهات، والأمورُ المشتبهات بيَّن النَّبِيُّ الكريمُ عليه الصلاة والسلام الطريقةَ التي تُسلَكُ فيها، وهي أن يُحتاط فيها، كما قال النبِيُّ

ﷺ في حديث النُّعمان بن بَشير المتفق على صحَّته: « فمَن اتَّقى الشُّبهات فقد اسْتبرأَ لدينِه وعِرضِه، ومَن وقع في الشُّبُهات وقعَ في الحرام ».

ثمَّ إنَّ من الفضائلِ: التي جاءت في شأن هذه المدينة المباركةِ أنَّ النبيَّ ﷺ سَمَّاها « طيبة »، و« طابة »، بل إنَّه ثبت في صحيح مسلم أنَّ اللهَ سَمَّاها « طابة »، قال النَّبيُّ ﷺ: « إنَّ اللهَ سَمَّى المدينةَ طابة »، وهذان اللَّفظان مُشتقَّان من الطيب، ويَدلاَّن على الطيب، فهما لفظان طيِّبان، أطلقَا على بُقعةٍ طيِّبة.

ومِن فضائلِها: أنَّ الإيمانَ يَأْرِزُ إليها، كما قال ﷺ: « إنَّ الإيمانَ لَيأْرِزُ إلى المدينة كما تَأْرِزُ الحَيَّةُ إلى جُحرِها »، رواه البخاريُّ ومسلم.

ومعنى ذلك أنَّ الإيمانَ يتَّجِه إليها ويكون فيها، والمسلمون يَؤُمُّونَها ويَقصِدونها؛ يدفعُهم إلى ذلك الإيمانُ ومَحبَّةُ هذه البُقعةِ المباركةِ التي حرَّمها الله عزَّ وجلَّ.

ومِن فضائلها: ما جاء عن النَّبيِّ عليه الصلاة والسَّلام أنَّه وَصفَها بأنَّها قريةٌ تأكلُ القُرى، قال ﷺ: « أُمرتُ بقريةٍ تأكل القُرى [يعني أُمرَ بالهجرةِ إلى هذه القريةِ التي تأكلُ القُرى] يقولون لها: يَثْرِب، وهي المدينة »، رواه البخاري ومسلم.

فقولُه عليه الصلاة والسلام: « تأكُلُ القُرى » فُسِّرت بأنَّها تنتصرُ عليها، وتكون الغلبَةُ لَها على غيرِها من القُرى، وفُسِّرت بأنَّها تُجلَبُ إليها الغنائم التي تَحصُلُ في الجهاد في سبيل الله، وتُنقَلُ إليها، وكلٌّ من هذين الأمرَين قد وَقَعَ وحَصَلَ، فحَصَلَ تغلُّبُ هذه المدينة على غيرِها من المدن، بأَن انطلَقَ منها الهُداةُ المُصلِحون والغُزاةُ الفاتِحون، وأخرجوا النَّاسَ من الظُّلمات إلى النُّورِ بإذن ربِّهم، فدخل النَّاسُ في دِينِ الله عزَّ وجلَّ، وكلُّ خيرٍ حصل لأهل الأرضِ فإنَّما

خرجَ من هذه المدينة المباركة، مدينة الرَّسول ﷺ، فكونُها تأكل القرى يصدُقُ على كون الانتصار لَها على غيرِها من المدن، كما حصل ذلك في الصَّدر الأول، ومع الرَّعيل الأول من أصحاب رسول الله ﷺ والخلفاء الرَّاشدين رضي الله عنهم وأرضاهم، وكذلك أيضاً حصولُ الغنائم والإتيانُ بها إليها، وهذا أيضاً قد حصلَ، فإنَّ النَّبِيَّ ﷺ أخبرَ عن إنفاقِ كنوزِ كِسرى وقيصر في سبيل الله عزَّ وجلَّ، وقد حصل ذلك، فقد أُتِيَ بهذه الكنوز إلى هذه المدينة المباركة، وقُسِّمت على يدِ الفاروق رضي الله تعالى عنه وأرضاه.

ومن فضائلها: أنَّ النَّبِيَّ ﷺ حثَّ على الصَّبرِ على لأوائِها وجَهدِها وقال: «المدينةُ خيرٌ لهم لو كانوا يعلمون»، قال ذلك في حقِّ الذين فكَّروا في الانتقالِ من المدينة إلى الأماكنِ التي فيها الرَّخاء، وسَعَة الرِّزق، وكثرة المال، فالنَّبِيُّ ﷺ قال: «المدينةُ خيرٌ لهم لو كانوا يعلمون، لا يَدَعُها أحدٌ رغبةً عنها إلَّا أبدَلَ اللهُ فيها مَن هو خيرٌ منه، ولا يثبُتُ أحدٌ على لأْوَائِها وجَهدِها إلَّا كنتُ له شفيعاً أو شهيداً يوم القيامة»، رواه مسلم.

وهذا يدلُّنا على فضلِ هذه المدينة، وفضلِ الصَّبرِ على الشدَّة واللأْوَى والجَهد والضَنْك إذا حصلَ لأحدٍ، فلا يكون ذلك دافعاً له إلى أن ينتقلَ منها إلى غيرِها يبحَثُ عن الرَّخاءِ وعن سَعَة الرِّزقِ، بل يصبر على ما يحصلُ له فيها، وقد وُعِدَ بهذا الأجرِ العظيم، والثَّوابِ الجزيلِ من الله سبحانه وتعالى.

ومن فضائلها: أنَّ النَّبِيَّ عليه الصلاة والسلام بَيَّن عِظَمَ شأنِها وخطورةَ الإحداثِ فيها عندما بَيَّن حُرمتَها قال: «المدينةُ حَرَمٌ ما بين عَيرٍ إلى ثَور، مَن أَحدَث فيها حَدَثاً أو آوَى مُحدِثاً فعليه لعنةُ الله والملائكةِ والنَّاسِ أجمعين، لا يَقبلُ اللهُ منه صَرْفاً ولا عَدْلاً»، رواه البخاري ومسلم.

ومِن فضائِلِها: ما جاء عن النَّبِيِّ ﷺ من الدُّعاءِ لَها بالبرَكَة، ومِن ذلك قولُه ﷺ: « اللَّهمَّ بارِك لَنا في ثَمَرِنا، وبارِك لَنا في مدينَتِنا، وبارِك لنا في صاعِنا، وبارِك لَنا في مُدِّنا »، رواه مسلم.

ومِن فضائِلِها: أنَّها لا يدخُلُها الطَّاعونُ ولا الدَّجَّالُ، قال ﷺ: « على أنقابِ المدينة ملائكةٌ، لا يَدخُلُها الطَّاعونُ ولا الدَّجَّالُ »، رواه البخاري ومسلم.

والأحاديثُ في فضلِ المدينة كثيرةٌ جدًّا، وهذا الذي ذكرتُ جُملةٌ منها مِمَّا في الصحيحين أو أحدِهما.

ومِن أحسنِ ما أُلِّف في فضائل المدينة الكتاب الذي أعدَّه الشيخ الدكتور صالِح بن حامد الرفاعي لنيل درجة الدكتوراه في الجامعة الإسلامية بالمدينة بعنوان « الأحاديث الواردة في فضائل المدينة جمعاً ودراسةً »، وأُوصِي طلبةَ العلم بالرجوعِ إليه والاستفادةِ منه.

* * *

ومِمَّا اشتملت عليه هذه المدينةُ مسجدان عظيمان، هما: مسجد الرَّسول الكريم ﷺ، ومسجد قباء.

أما مسجدُ الرَّسول الكريم ﷺ فقد جاء في فضلِه أحاديثُ منها قولُه عليه الصلاة والسلام: « لا تُشَدُّ الرِّحالُ إلَّا إلى ثلاثةِ مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى »، رواه البخاري ومسلم. ففي هذه المدينة أحدُ المساجد الثلاثة التي بناها أنبياء، وهي التي لا تُشَدُّ الرِّحال إلَّا إليها.

وأيضاً جاء ما يدلُّ على فضل الصلاة فيه، وأنَّها خيرٌ من ألف صلاة، قال عليه الصلاة والسلام: « صلاةٌ في مسجدي هذا أفضلُ من ألف صلاة فيما سِواه إلَّا المسجد الحرام »، رواه البخاري ومسلم. فهذا فضلٌ عظيمٌ وموسِمٌ

من مواسم الآخرة، الأرباح فيه مضاعفةٌ، ليست بالعشرات ولا بالمئات، ولكن أكثر من الألف.

ومن المعلومِ أنَّ أصحابَ التِّجارات الدُنيوية إذا عَرَفوا أنَّ سِلعَهم تَروجُ في مكانٍ ما في وقتٍ من الأوقات، فإنَّهم يستعدُّون ويتهيَّئون لذلك الموسم، ولو كان الرِّبحُ النصفَ أو الضعفَ، ولكن كيف وهنا الرِّبح في الآخرة ليس عشرة أضعاف، ولا مائة ضعف، ولا خمسمائة، ولا ستمائة، بل أكثر من ألف؟!

ومِمَّا يُنبَّه عليه حول هذا المسجد المبارَك أمورٌ:

الأول: أنَّ التضعيفَ لأجرِ الصلاة فيه بأكثرَ من ألف ليس مقيَّداً بالفرضِ دون النَّفل، ولا بالنَّفلِ دون الفرض، بل لَهما جميعاً؛ لإطلاقِ قوله ﷺ: « صلاة »، فالفريضةُ بألف فريضة، والنَّافلةُ بألف نافلة.

الثاني: أنَّ التضعيفَ الواردَ في الحديثِ ليس مُختصًّا في البقعة التي هي المسجد في زمانه ﷺ، بل لَها ولكلِّ ما أُضيفَ إلى المسجدِ من زياداتٍ، ويَدلُّ على ذلك أنَّ الخليفتَيْن الرَّاشدَين عمر وعثمان رضي الله عنهما زادا المسجد من الجهةِ الأماميَّة، ومِن المعلومِ أنَّ الإمامَ والصفوفَ التي تلِيه في الزيادة خارجُ المسجد الذي كان في زمنه ﷺ، فلولا أنَّ الزيادةَ لَها حكمُ المزيد لَمَا زاد هذان الخليفتان المسجدَ من الجهةِ الأمامية، وقد كان الصحابةُ في وقتِهما متوافِرين ولَم يعترِض أحدٌ على فِعلِهما، وهو واضحُ الدِّلالةِ على أنَّ التضعيفَ ليس خاصًّا بالبُقعةِ التي كانت هي المسجد في زمنِه ﷺ.

الثالث: في المسجد بُقعةٌ وَصَفها رسول الله ﷺ بأنَّها رَوضَةٌ من رياض الجنَّةِ، وذلك في قولِه ﷺ: « ما بين بَيتِي ومِنبَري رَوضةٌ من رياض الجنَّة »، رواه البخاري ومسلم، وتَخصيصُها بهذا الوصفِ دون غيرها من المسجدِ يدلُّ

على فضلِها وتَميُّزِها، وذلك يكون بأداء النَّوافِلِ فيها، وكذا ذِكر الله وقراءةُ القرآن فيها إذا لَم يَحصل إضرارٌ بأحدٍ فيها أو في الوصولِ إليها، أمَّا صلاةُ الفريضةِ فإنَّ أداءَها في الصفوفِ الأماميَّة أفضلُ؛ لقولِه ﷺ: «خيرُ صفوفِ الرِّجال أوَّلُها وشرُّها آخرُها»، رواه مسلم، وقوله ﷺ: «لو يَعلمُ الناسُ ما في النِّداءِ والصفِّ الأولِ، ثمَّ لَم يَجِدوا إلَّا أن يستَهِموا عليه لاسْتهَموا عليه»، رواه البخاري ومسلم.

الرَّابع: إذا امتلأ المسجدُ النبويُّ بالمصلين، فلِمَن جاء متأخِّراً أن يُصلِّيَ في الشوارِعِ بصلاةِ الإمامِ في الجهات الثلاث غير الجهة الأمامية، ويكون له أجر صلاة الجماعة، أمَّا التضعيف بأكثرَ من ألف فإنَّه خاصٌّ بِمَن كانت صلاتُه في المسجد؛ لقول النَّبِيِّ ﷺ: «صلاةٌ في مسجدي هذا خيرٌ من ألف صلاةٍ فيما سواه إلَّا المسجد الحرام»، ومَن صلَّى في الشوارع لَم يكن مُصلِّياً في مسجدِه، فلا يَحصُلُ له هذا التضعيف.

الخامس: شاع عند كثيرٍ من الناس أنَّ مَن قَدِمَ إلى المدينة فعليه أن يُصلِّي أربعين صلاةً في مسجد الرَّسول ﷺ لحديثٍ في مسند الإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه، عن النَّبِيِّ ﷺ أنَّه قال: «مَن صلَّى في مسجدي أربعين صلاةً لا تفوتُه صلاةٌ كُتبت له براءةٌ من النار ونَجاةٌ من العذابِ، وبَرِئَ من النفاق»، وهو حديثٌ ضعيفٌ لا تقومُ به الحُجَّةُ، بل الأمرُ في ذلك واسعٌ، وليس مَن قَدِمَ المدينةَ مُلزَماً بصلواتٍ معيَّنةٍ في مسجده ﷺ، بل كلُّ صلاةٍ فيه خيرٌ من ألفِ صلاة، دون تحديدٍ أو تقييدٍ بصلواتٍ معيَّنة.

السادس: ابتُلِيَ كثيرٌ من المسلمين في كثيرٍ من الأقطارِ الإسلامية ببناء المساجد على القبورِ، أو دفن الموتى في المساجد، وقد يتشبَّثُ بعضُهم لتسويغِ

ذلك بوجود قبرِه ﷺ في مسجدِه، ويُجابُ عن هذه الشُّبهةِ بأنَّ النَّبيَّ ﷺ هو الذي بنى المسجدَ أولَ قدومِه المدينة، وبنى بيوتَه التي تسكنُها أُمَّهاتُ المؤمنين بجوارِ مسجِدِه، ومنها بيت عائشة الذي دُفِن فيه ﷺ، وبقيت هذه البيوتُ كما هي خارج المسجد في زمن الخلفاء الرَّاشدين رضي الله عنهم وزمن معاوية رضي الله عنه، وزمن خلفاء آخرين بعده، وفي أثناء خلافة بني أُميَّة وُسِّع المسجدُ وأُدخلَ بيتُ عائشةَ الذي قُبِرَ فيه ﷺ في المسجد، وقد جاء عن النَّبيِّ ﷺ أحاديثُ مُحكمةٌ لا تَقبلُ النسخَ تدلُّ على تحريمِ اتِّخاذِ القبور مساجد، منها حديثُ جندب بن عبد الله البجليِّ رضي الله عنه الذي سمِعَه من رسول الله ﷺ قبل وفاتِه بخمسٍ ليالٍ قال فيه: سَمِعتُ رسول الله ﷺ قبل أن يَموتَ بخمسٍ يقول: «إنِّي أبرأُ إلى الله أن يكون لي منكم خليلٌ، فإنَّ اللهَ اتَّخذَني خليلاً كما اتَّخذَ إبراهيمَ خليلاً، ولو كنتُ متَّخذاً من أُمَّتي خليلاً لاتَّخذتُ أبا بَكر خليلاً، ألاَ وإنَّ مَن كان قبلكم كانوا يتَّخذون قبورَ أنبيائهم وصالِحيهم مساجد، ألاَ فلا تتَّخذوا القبورَ مساجدَ فإنِّي أنهاكم عن ذلك»، رواه مسلمٌ في صحيحه.

بل إنَّ النَّبيَّ ﷺ لَمَّا نزل به الموتُ حذَّرَ من اتِّخاذ القبور مساجد كما في الصحيحين عن عائشة وابن عباس رضي الله عنهما قالاَ: «لَمَّا نزل برسول الله ﷺ طَفِقَ يَطرحُ خميصةً على وجهه، فإذا اغتمَّ كشفها عن وجهه، فقال وهو كذلك: لعنةُ الله على اليهودِ والنصارى اتَّخذوا قبورَ أنبيائِهم مساجد، يُحذِّرُ ما صَنعُوا».

فهذه الأحاديثُ عن عائشة وابن عباس وجندب رضي الله عنهم مُحكمةٌ لا تقبلُ النسخَ بحالٍ من الأحوالِ؛ لأنَّ حديثَ جندبٍ في آخر أيامه، وحديثَي عائشة وابن عباس في آخر لحظاتِه ﷺ، فلا يجوزُ لأحدٍ من المسلمين أفراد أو جماعات تَركُ ما دلَّت عليه هذه الأحاديث الصحيحةُ المُحكَمة، والتعويلُ على عملٍ

حصل في أثناء عهدِ بني أُمَيَّة، وهو إدخالُ القبر في مسجدِه ﷺ فيستدلُّ بذلك على جواز بناءِ المساجد على القبور أو دفن الموتَى في المساجد.

وأمَّا مسجدُ قُباء، فهو ثاني المسجدَين اللَّذَين لهما فضلٌ وشأنٌ في هذه المدينة وقد أُسِّسَا على التقوى من أوَّلِ يوم، وقد جاء عن النَّبِيِّ ﷺ مِن فعلِه وقولِه ما يدلُّ على فضلِ الصلاة في مسجدِ قباء.

أمَّا فعلُه فعَن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: « كان النَّبِيُّ ﷺ يأتي مسجدَ قباء كلَّ سبتٍ ماشياً وراكباً فيُصلِّي فيه ركعتين »، رواه البخاري ومسلم.

وأمَّا قولُه فقد ثبت عن سَهل بن حُنيف رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « مَن تطهَّرَ في بيتِه ثمَّ أتى مسجدَ قُباء فصلَّى فيه صلاةً كان له أجر عُمرة »، رواه ابن ماجه وغيرُه.

وقوله في هذا الحديث: « فصلَّى فيه صلاة » يشمَلُ الفرضَ والنَّفلَ.

ولَم يَرِد في السُّنَّة ما يدلُّ على فضلِ مساجد أخرى في المدينة غير هذين المسجدين.

* * *

وأمَّا الآدابُ المتعلِّقةُ بسُكنى المدينة: فإنَّ مَن وفَّقه الله لِسُكنى هذه المدينة المباركة طَيْبَة الطيِّبة عليه أن يستشعرَ أنَّه ظَفِرَ بنعمةٍ عظيمةٍ ومِنَّةٍ جسيمةٍ، فيشكر اللهَ على هذه النِّعمة، ويَحمدُه على هذا الفضل والإحسان، وعليه أن يستشعرَ أنَّ كثيرين من سُكَّان المعمورَة يشتَدُّ شوقُهم إلى أن يظفَروا بالوصولِ إلى مكَّةَ والمدينة والبقاء فيها ولو فترةً يسيرة، وفيهم مَن يجمَع النُّقودَ القليلة بعضها إلى بعض سنواتٍ طويلةٍ لتتحقَّقَ له هذه الأُمنيةَ، وأذكرُ أنَّ أحدَ علماء الهند ذكر أنَّ الحُجَّاجَ الهنودَ فيما مضى كانوا يأتون على السُّفُن الشراعية،

ويَمكثون في البحرِ في طريقهم إلى مكَّةَ والمدينة مُدَّة طويلة، وأنَّ جماعةً منهم كانوا في سفينةٍ، فلمَّا رأوا البَرَّ الذي فيه مكَّةَ والمدينة سَجَدوا لله شكراً على ظهرِ السفينةِ.

وإنَّ لسُكنى هذه المدينة آداباً منها:

أوَّلاً: أن يُحبَّ المسلمُ هذه المدينةَ لفضلِها، ولِمَحبَّةِ النَّبيِّ ﷺ إيَّاها، روى البخاريُّ في صحيحه عن أنسٍ رضي الله عنه: «أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان إذا قَدِمَ من سَفرٍ فنظَرَ إلى جُدُراتِ المدينة أوضَعَ راحِلَته، وإن كان على دابَّةٍ حرَّكها من حُبِّها».

ثانياً: أن يَحرِصَ المسلمُ على أن يكون في هذه المدينة مستقيماً على أمر الله، مُلتزِماً بطاعة الله وطاعةِ رسوله ﷺ، شديدَ الحَذَرِ من أن يقعَ في البدَع والمعاصي، فإنَّ الحسناتِ في هذه المدينة لها شأنٌ عظيمٌ، والبِدع والمعاصي فيها ذاتُ خطرٍ كبيرٍ، فإنَّ من يعصي الله في الحَرَم ذنبُه أعظمُ وأشدُّ مِمَّن يعصيه في غير الحَرَم، والسيِّئات لا تُضاعَف فيه بكمِيَّاتِها، ولكنَّها تضخُم وتَعظُم بفعلها في الحرم.

ثالثاً: أن يَحرِصَ المسلمُ في هذه المدينة على أن يكون له نصيبٌ كبيرٌ من تجارةِ الآخرة التي تكون الأرباحُ فيها أضعافاً مضاعفةً، وذلك بأن يُصلِّيَ ما أمكنه من الصلوات في مسجد الرَّسول ﷺ؛ ليُحصِّلَ الأجرَ العظيمَ الموعودَ به في قولِه ﷺ: «صلاةٌ في مسجدي هذا خيرٌ من ألفِ صلاةٍ فيما سِواه إلَّا المسجد الحرام»، رواه البخاري ومسلم.

رابعاً: أن يكون المسلمُ في هذه المدينة المباركة قُدوةً حسنةً في الخير؛ لأنَّه يُقيمُ في بلدٍ شَعَّ منه النورُ، وانطلقَ منه الهُداةُ المصلِحون إلى أنحاء المعمورة، فيَجدَ مَن يَفِدُ إلى هذه المدينة في ساكنيها القدوةَ الحسنةَ والاتِّصافَ بالصفاتِ

الكريمة والأخلاقِ العظيمة، فيعود إلى بلدِه متأثِّراً مستفيداً لِمَا شاهدَه من الخيرِ والمحافظةِ على طاعةِ الله وطاعةِ رسولِه ﷺ، وكما أنَّ الوافدَ إلى هذه المدينة يستفيدُ خيراً وصلاحاً بِمشاهدة القُدوة الحسنة في هذا البلد المبارك، فإنَّ الأمرَ يكون بالعكس عندما يُشاهدُ في المدينة مَن هو على خلاف ذلك، فبدلاً من أن يكون مستفيداً حامداً يكون مُتضرِّراً ذامًّا.

خامساً: أن يَتذكَّر المسلمُ وهو في هذه المدينة أنَّه في أرضٍ طيِّبة هي مَهْبَطُ الوحي ومَأرِزُ الإيمان ومَدْرَجُ الرسول الكريم ﷺ وصحابته الكرام من المهاجرين والأنصار، درَجوا على هذه الأرض وتحرَّكوا فيها على خير واستقامةٍ والتزام بالحقِّ والهدى، فيحذر أن يتحرَّكَ عليها تحرُّكاً يُخالف تحرُّكَهم بأن يكون تحرُّكُه فيها على وجهٍ يُسخِطُ الله عزَّ وجلَّ ويعود عليه بالمضرَّة والعاقبة الوخيمةِ في الدنيا والآخرة.

سادساً: أن يحذرَ مَن وفَّقه الله لسُكنى المدينة أن يُحدِثَ فيها حَدَثاً أو يُؤوي مُحدِثاً فيتعرَّضَ للَّعن؛ لأنَّه ثبت عن الرسول ﷺ أنَّه قال: « المدينةُ حَرَمٌ، فمَن أَحدَث فيها حَدَثاً أو آوى مُحدِثاً فعليه لعنةُ الله والملائكةِ والنَّاسِ أجمعين، لا يُقبل منه يوم القيامة عَدْلٌ ولا صَرفٌ »، رواه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وهو في الصحيحين من حديث علي رضي الله عنه.

سابعاً: أن لا يتعرَّض في المدينة لقطعِ شَجَرٍ أو اصطِيادِ صيدٍ؛ لِمَا وردَ في ذلك من الأحاديث عن الرسول ﷺ، كقولِه ﷺ: « إنَّ إبراهيمَ حرَّم مكَّةَ، وإنِّي حرَّمتُ المدينةَ ما بين لابتيها، لا يُقطَع عِضاهُها، ولا يُصادُ صيدُها »، رواه مسلم من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، وروى مسلمٌ أيضاً من حديث سَعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه: أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: « إنِّي أُحرِّم ما بين لابَتَي المدينة أن

يُقطَع عِضاهُها، أو يُقتل صيدُها »، وفي الصحيحين عن عاصم بن سليمان الأحول قال: « قلتُ لأنسٍ: أَحَرَّم رسول الله ﷺ المدينةَ؟ قال: نعم، ما بين كذا إلى كذا لا يُقطَع شجرُها، مَن أحدث فيها حدَثاً فعليه لعنةُ الله والملائكة والنَّاس أجمعين ».

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّه كان يقول: « لو رأيتُ الظِّباءَ بالمدينة ترتَع ما ذَعَرتُها، قال رسول الله ﷺ: ما بين لابتيْها حرامٌ ».

والمرادُ بالشجر الذي يَحرُم قطعُه هو الذي أنبته الله عزَّ وجلَّ، أمَّا ما زرعه النَّاسُ وغرسوه فإنَّ لهم قطعَه.

ثامناً: أن يصبرَ المسلمُ على ما يحصُلُ له فيها من ضيقِ عيشٍ أو بلاءٍ أو لأواءٍ؛ لقوله ﷺ من حديث أبي هريرةَ رضي الله عنه: « لا يصبِرُ على لأواءِ المدينة وشِدَّتِها أَحدٌ من أُمَّتي، إلَّا كنتُ له شفيعاً يوم القيامة أو شهيداً »، رواه مسلم.

وفي صحيح مسلم أيضاً أنَّ أبا سعيد مولى المَهْريِّ جاء أبا سعيدٍ الخُدري ليالِيَ الحرَّة، فاستشارَه في الجَلاءِ من المدينة، وشكا إليه أسعارَها وكثرةَ عيالِه، وأخبرَه أن لا صبرَ له على جَهدِ المدينة ولأوائها، فقال له: « وَيْحَكَ! لا آمرُكَ بذلك، إنِّي سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: لا يَصبِرُ أَحدٌ على لأوائها فيموت إلَّا كنتُ له شفيعاً يوم القيامة، إذا كان مسلماً ».

تاسعاً: أن يحذَرَ إيذاءَ أهلِها، فإنَّ إيذاء المسلمين في كلِّ مكانٍ حرامٌ، ولكنَّه في البلد المُقدَّس أشدُّ وأعظمُ، فقد روى البخاريُّ في صحيحه عن سَعد بن أبي وقَّاصٍ رضي الله عنه قال: سمِعتُ النَّبِيَّ ﷺ يقول: « لا يَكيدُ أهلَ المدينة أحدٌ إلَّا انْماعَ كما يَنماعُ المِلحُ في الماءِ ».

وروى مسلمٌ في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « مَن أراد أهلَ هذه البلدة بسوءٍ ـ يعني المدينةَ ـ أذابَه اللهُ كما يذوبُ المِلحُ في الماء ».

عاشراً: أن لا يغترَّ ساكنُ المدينة بكونِه من سُكَّانها، فيقول: « أنا مِن سُكَّان المدينة، فأنا على خيرٍ »، فإنَّ مُجرَّدَ السُكنى إذا لَم يكن معها عملٌ صالِحٌ واستقامةٌ على طاعة الله ورسولِه ﷺ، وبُعدٌ عن الذنوبِ والمعاصي لا يُفيدُه شيئاً، بل يعودُ عليه بالضَّرَرِ، وفي موطأ الإمام مالك أنَّ سَلمان الفارسيَّ رضي الله عنه قال: « إنَّ الأرضَ لا تُقدِّسُ أحداً، وإنَّما يُقدِّسُ الإنسانَ عَملُه »، وسنده فيه انقطاع، لكن معناه صحيح، وهو خبَرٌ مطابقٌ للواقع، وقد قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾، ومِن المعلوم أنَّ المدينةَ في مُختَلَف العصور فيها الأخيار وفيها الأشرار، فالأخيارُ تنفعُهم أعمالُهم، والأشرارُ لَم تُقدِّسهم المدينةُ، ولَم ترفع من شأنِهم، وهذا كالنَّسَب، فمُجرَّد كون الإنسانِ نسيباً بدون عملٍ صالِحٍ فإنَّ ذلك لا ينفعُه عند الله؛ لقولِه ﷺ: « ومَن بَطَّأَ به عملُه لَم يُسرِع به نسبُه »، رواه مسلمٌ في صحيحه، فمَن أخَّرَه عملُه عن دخول الجَنَّةِ لَم يكن نسبُه هو الذي يُسرعُ به إليها.

حادي عاشر: أن يَستَشعرَ المسلمُ وهو في هذه المدينة أنَّه في بلدٍ شَعَّ منه النُّور وانتشرَ منه العِلمُ النَّافع إلى أنحاء المعمورة، فيحرِصَ على تحصيل العلم الشرعيِّ الذي يسيرُ به إلى الله على بصيرةٍ ويدعو غيرَه إليه على بصيرةٍ، لا سيما إذا كان طلبُ العلم في مسجد رسول الله ﷺ؛ لحديث أبي هريرةَ رضي الله عنه أنَّه سَمِع رسول الله ﷺ يقول: « مَن دخل مسجدَنا هذا يتعلَّمُ خيراً أو يُعلِّمه كان كالمجاهدِ في سبيلِ الله، ومَن دخلَه لغير ذلك كان كالنَّاظرِ إلى ما ليس له »، رواه أحمد وابن ماجه وغيرُهما، وله شاهدٌ عند الطبراني من حديث سَهل بن سعد رضي الله عنه.

وكما أنَّ لسُكنى المدينة آداباً فإنَّ لزيارتها آداباً، وعلى زائر المدينة مراعاةُ آداب سُكنى المدينة التي تقدَّم جملةٌ منها، وينبغي أن يُعلم أنَّ المشروعَ في حقِّ مَن أراد

القدومَ إلى المدينة أن يَقصِدَ بسفَرِه إليها زيارةَ مسجد الرسول ﷺ وشدَّ الرَّحل إليه؛ لقوله ﷺ: « لا تُشَدُّ الرِّحالُ إلَّا إلى ثلاثةِ مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصَى »، رواه البخاري ومسلم.

وهذا الحديث يدلُّ على منع شدِّ الرَّحل إلى أيِّ مكانٍ مسجدٍ أو غيرِه للتقرُّبِ إلى الله في تلك البُقعةِ الَّتي يُسافر إليها؛ لِمَا في سنن النسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: « لقيتُ بَصْرَةَ بنَ أبي بَصْرَة الغِفاري رضي الله عنه فقال: مِن أين جئتَ؟ قلت: من الطُّور، قال: لو لَقِيتُك مِن قَبل أن تَأتِيَه لَم تأتِه، قلتُ له: ولِمَ؟ قال: إنِّي سَمعْتُ رسولَ الله ﷺ يقول: لا تُعمَلُ المَطِيُّ إلَّا إلى ثلاثةِ مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي، ومسجد بيت المقدس »، وهو حديثٌ صحيحٌ، وفيه استدلالُ بَصرةَ بن أبي بَصرَة الغفاري رضي الله عنه على مَنعِ شَدِّ الرَّحل إلى المساجد أو غيرِها سِوَى هذه المساجد الثلاثة.

ومَن وصل إلى هذه المدينة المبارَكة فإنَّه يُشرَعُ له زِيارة مَسجدَين وثلاث مقابر.

أمّا المسجدان فهما: مسجدُ الرسول ﷺ ومسجد قُباء، وقد مرَّ بعضُ الأدلَّةِ على فضل الصلاة فيهما.

أمّا المقابر الثلاث التي يُشرَع زيارتُها فهي قَبْرُ الرسول ﷺ وقَبْرا صاحِبَيْه أبي بَكر وعمر رضي الله عنهما، ومَقبَرَةُ البَقيع، ومقْبَرَةُ شُهداء أُحُد.

فإذا جاء الزائرُ إلى قَبرِ الرَّسول ﷺ وقَبرَيْ صاحِبيهِ رضي الله عنهما فإنَّه يأتي مِن الجِهَةِ الأَمَاميَّة فيَستَقْبِلُ القبرَ، ويزورُ زيارةً شرعيَّةً، ويَحذَرُ مِن الزِّيارةِ البِدعية، فالزيارةُ الشرعيَّةُ أن يُسلِّمَ على النَّبيِّ ﷺ ويدعو له بأَدَبٍ وخَفْضِ صوتٍ، فيقول: السلامُ عليكَ يا رسول الله ورحمةُ الله وبركاتُه صلَّى اللهُ وسلَّم وبارك عليكَ، وجزاك أفضلَ ما جَزَى نَبياً عن أُمَّته، ثمَّ يُسلِّم على أبي بَكرٍ رضي الله عنه ويَدعو

له، ثمَّ يُسلِّم على عمرَ رضي الله عنه ويدعو له.

ومِمَّا ينبَغِي أن يُعلم أنَّ هَذين الرَّجُليْن العَظيمين والخَليفتَيْن الرَّاشِدَيْن قد حَصَلَ لهما إكرامٌ مِن الله لم يَحصُل مثلُه لغيرِهما، فأمَّا أبو بكر رضي الله عنه فإنَّ الله لَمَّا بَعثَ رسولَه ﷺ بالحقِّ والهُدى كان أوَّلَ مَن آمَنَ به من الرِّجال، ولازَمَه في مكَّةَ بعد البِعثَةِ ثلاثة عشر عاماً، ولَمَّا أَذِن اللهُ لرسوله ﷺ بالهجرةِ إلى المدينة رَافَقَه في الطريق إليها، وأَنزَلَ اللهُ في ذلك قرآناً يُتلَى، وهو قولُ الله عزَّ وجلَّ: ﴿ **إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾، ولازَمَه في المدينة عَشرَ سِنين، وشَهِدَ المشاهِدَ كلَّها معه، ولَمَّا تُوفِّيَ رسولُ الله ﷺ وَلِيَ الخلافةَ مِن بَعدِه وقام بالأمرِ خيرَ قيامٍ، ولَمَّا توفَّاه الله أكرمَه اللهُ بالدَّفن بِجوارِ رسولِ الله ﷺ، وإذا بُعث يكون معه في الجَنَّةِ، وذلك فضلُ الله يُؤتيه مَن يشاءُ واللهُ ذو الفضل العظيم.

وأمَّا عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقد سبقه إلى الإسلام ما يقربُ من أربعين رجلاً، وكان شديداً على المسلمين، فلمَّا هداه اللهُ إلى الإسلام كانت قوَّتُه وشدَّتُه على الكافرين، وكان إسلامُه عِزًّا للمسلمين؛ كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: « ما زلنا أَعِزَّةً مُنذ أَسلَمَ عُمرُ » أخرجه البخاري في صحيحه.

ولازم النَّبيَّ ﷺ في مكة وهاجَرَ معه إلى المدينة، وشَهِدَ المشاهدَ كلَّها معه، ولَمَّا وَلِيَ أبو بكرٍ رضي الله عنه مِن بعده كان عَضُدَه الأيمن، ثمَّ وَلِيَ الخلافةَ مِن بعد أبي بكرٍ، ومَكَثَ فيها أكثَرَ من عَشر سنوات، فُتحت فيها الفتوحات، واتَّسعَتْ رُقعةُ البلاد الإسلامية، وقُضِيَ على الدولتين العُظمَيَيْن في ذلك الزمان: دولتَي

فارس والروم، وأُنفِقَت كنوزُ كِسرَى وقَيصَرَ في سبيل الله كما أخْبَرَ بذلك الصَّادقُ المصدوقُ ﷺ، وكان ذلك على يَدَيْ الفاروق رضي الله عنه، ولَمَّا تُوُفِّيَ أكرَمَه اللهُ بالدَّفن بِجِوارِ رسولِ الله ﷺ، وإذا بُعث يكون معه في الجَنَّةِ، وذلك فضلُ الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفَضلِ العَظيمِ.

أَفَمِثل هذَين الرَّجلَين العَظيمَين اللَّذَيْن هذا شأنُهما وهذا فضلُهما يَحقِدُ عليهما حاقِدٌ، أو يَذُمُّهما ذَامٌّ، نعوذ بالله من الخذلان.

ربَّنا اغفِر لنا ولإخوانِنا الذين سَبقونا بالإيمانِ ولا تَجعلْ في قلوبِنا غِلاًّ للَّذين آمنوا ربَّنا إنَّك رؤوفٌ رحيم.

ربَّنا لا تُزِغ قلوبَنا بعد إذْ هديتَنا وهَبْ لنا من لَدُنْك رحْمَةً إنَّك أنتَ الوهَّاب.

وقد نَقلَ ابنُ كثير رحمه الله في تفسيره عند قوله تعالى: ﴿ **إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا** ﴾، عَن ابنِ أبي حاتم بإسنادِه إلى المغيرَة بن مِقْسَمٍ أنَّه قال: « كان يُقال: شَتْمُ أبي بَكر وعمر رضي الله عنهما من الكبائر »، ثم قال ابن كثير: « قلتُ: وقد ذهبَ طائِفَةٌ من العلماء إلى تَكفيرِ مَن سَبَّ الصحابةَ، وهو روايةٌ عن مالك بنِ أنس رحمه الله، وقال محمد بن سيرين: ما أظُنُّ أَحَداً يُبغِضُ أبا بكر وعُمر وهو يُحِبُّ رسولَ الله ﷺ، رواه الترمذي ».

وأمَّا الزيارَةُ البِدعية فهي التي تَشتَمِل على أمورٍ:

الأول: أن يَدعُوَ رسولَ الله ﷺ ويستغيثَ به ويَطلبَ منه قضاءَ الحاجات وكشفَ الكرُبات، أو غيرَ ذلك مِمَّا لا يُطلب إلَّا من الله، فإنَّ الدعاءَ عبادةٌ، والعبادةُ لا تكون إلَّا لله وحده، وقد قال ﷺ: « الدُّعاءُ هو العِبادةُ » وهو حديث صحيح أخرجه أبو داود والترمذي وغيرُهما، وقال الترمذي: « حديثٌ

حسن صحيح ».

والعبادةُ حقُّ الله، ولا يَجوزُ صرفُ شيءٍ مِن حقِّ الله إلى غير الله، فإنَّ ذلك شركٌ بالله، فاللهُ تعالى هو الذي يُرجى ويُدعى، والرَّسولُ ﷺ يُدْعَى له، ولا يُدْعَى، وكذلك غيرُه من أصحاب القبور يُدعَى لَهم، ولا يُدعون، ومن المعلومِ أنَّ الرسول ﷺ حيٌّ في قَبْرِه حياةً بَرْزَخِيَّةً أكمل من حياة الشُّهداء، وكيفيَّةُ هذه الحياةِ لا يعلَمُها إلَّا الله، وهذه الحياةُ تَختَلِفُ عن الحياةِ قبلَ الموتِ والحياةِ بعدَ البعثِ والنُّشور، فلا يَجوزُ دعاؤُه ﷺ ولا الاستغاثةُ به؛ لأنَّ ذلكَ عبادةٌ، والعبادةُ لا تكون إلَّا لله وحدَه كما تقدَّم.

الثاني: أن يضَعَ يدَيْهِ على صدرِه كهيئَةِ الصلاةِ فإنَّ ذلك لا يَجوزُ؛ لأنَّ هذه هيئةُ خضُوعٍ وذُلٍّ لله عزَّ وجلَّ شُرعت في الصلاةِ حيث يكون المسلمُ قائماً في صلاتِه يُناجِي ربَّه، وقد كان أصحابُ رسول الله ﷺ في حياتِه إذا وَصَلُوا إليه لا يَضَعُون أيدِيهم على صدورِهم عندَ سلامِهم عليه، ولو كان خيراً لَسبقُوا إليه.

الثالث: أن يَمسحَ على الجُدران والشَّبابيك التي حَول قبره ﷺ، وكذا أيّ مكانٍ من المسجد أو غيره، فإنَّ ذلك لا يَجوز؛ لأنَّه لَم تأتِ به السُّنَّةُ، وليس من فِعل السَّلف الصالِحِ، وهو وسيلةٌ إلى الشِّرك، وقد يقول مَن يفعلُ ذلك: أنا أفعلُه مَحَبَّةً للنَّبِيِّ ﷺ، ونقول: إنَّ مَحبَّةَ النَّبِيِّ ﷺ يَجِبُ أن تكون في قلبِ كلِّ مسلم أعظمَ من مَحبَّتِه لوالِدَيْه وولده والنَّاسِ أجْمَعين، كما قال ﷺ: « لا يؤمِنُ أحدُكم حتى أكونَ أَحبَّ إليه من والِدِه ووَلَدِه والناس أَجْمَعِين » رواه البخاري ومسلم.

بل يَجِبُ أن تكون أعظمَ من مَحبَّتِه لنفسِه كما ثبت ذلك في حديثِ عُمرَ رضي الله عنه في صحيح البخاري، وإنَّما وَجبَ أن تكون مَحبتُه ﷺ أعظمَ من مَحبَّة النَّفسِ

والوَالِدِ والوَلَد فَلأنَّ النِّعمةَ التي ساقها الله للمسلمين على يَديْه ﷺ وهي نعمةُ الإسلام، نعمةُ الهداية للصِّراط المستقيم، نعمةُ الخروج من الظُّلمات إلى النُّورِ هي أجَلُّ النِّعَم وأعظمُها، لا يساويها نِعمةٌ ولا يُماثِلُها نِعمة.

لكن ليس علامةُ هذه المَحبَّة المسحَ على الجُدرانِ والشَّبابيك، بل علامتُها اتِّباعُ الرَّسول ﷺ والعملُ بسُنَّتِه؛ فإنَّ دينَ الإسلام مَبْنِيٌّ على أمرَيْن عظيمين:

ـ أحدهما: ألاَّ يُعبد إلَّا الله.

ـ والثاني: أن لا يُعبد اللهُ إلَّا وِفقاً لِمَا جاء به رسولُ الله ﷺ، وهذا مُقتَضى شهادةِ أن لا إله إلَّا الله وشهادةِ أنَّ محمَّداً رسول الله ﷺ.

وفي القرآن الكريم آيةٌ يُسمِّيها بعضُ العلماء آيةُ الامتِحان، وهي قولُ الله عزَّ وجلَّ: ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾، قال الحسنُ البصريُّ وغيرُه من السّلف: « زَعَمَ قومٌ أنَّهم يُحبُّون اللهَ فابْتلاهم اللهُ بهذه الآية ». ومعنى قولهم « ابتلاهم » أي: اختبَرَهم وامتحَنَهم ليَظهَرَ الصادقُ من الكاذب، فإنَّ مَن يَدَّعي مَحبَّةَ الله ورسولِه ﷺ عليه أن يُقيمَ البيِّنَةَ على دعواه، والبيِّنةُ هي اتِّباعُ الرسول ﷺ.

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: « هذه الآيةُ الكريمةُ حاكمَةٌ على كلِّ مَن ادَّعى مَحبَّةَ الله وليس هو على الطريقَةِ المُحمَّدِيَّة، فإنَّه كاذبٌ في نفس الأمرِ حتَّى يتبع الشَّرعَ المُحمَّدِيَّ والدِّينَ النَّبوِيَّ في جميع أقوالِه وأفعالِه، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: « مَن عَمِلَ عَملاً ليس عليه أمْرُنا فهو ردٌّ »، ولهذا قال ﴿ **إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ** ﴾ أي: يَحصُلُ لكم فوقَ ما طلبتم من مَحبَّتكم إيّاه وهو مَحبَّتُه إيَّاكم وهو أعظمُ من الأوَّل، كما قال بعضُ العلماء الحكماء: ليس الشّأنُ أن تُحِبَّ إنَّما الشَّأنُ أن تُحبَّ ». ثم ذكَرَ

كلامَ الحسن وغيرِه من السَّلف المتقدِّم.

وقال النوويُّ في المجموع شرح المهذَّب في شأن مَسح وتقبيلِ جِدار قبْرِه ﷺ: « ولاَ يُغْتَرَّ بِمخالفةِ كثيرينِ من العوام وفعلِهم ذلك، فإنَّ الاقتداءَ والعملَ إنَّما يكون بالأحاديثِ وأقوال العلماءِ، ولا يُلتفت إلى مُحدَثات العوام وغيرِهم وجَهالاَتِهم، وقد ثبتَ في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها: أنَّ رسول الله ﷺ قال: « مَن أحدَثَ في دِينِنا هذا ما لَيس منه فهو ردٌّ »، وفي رواية لمسلم: « مَن عمِلَ عَملاً ليس عليه أمرُنا فهو ردٌّ »، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « لا تَجعَلوا قَبْرِي عيداً، وصلُّوا عليَّ، فإنَّ صلاتَكم تَبلُغُني حَيثُما كنتم »، رواه أبو داود بإسنادٍ صحيح، وقال الفضيلُ بنُ عِياض رحمه الله ما معناه: « اتَّبعْ طُرُقَ الهُدى ولا يَضُرَّكَ قِلَّةُ السَّالكين، وإيّاكَ وطُرُقَ الضَّلالَةِ ولا تَغْتَرَّ بكَثرةِ الهالكين »، ومَن خَطَرَ ببالِه أنَّ المسحَ باليد ونحوِه أبلغُ في البَرَكَةِ، فهو من جهالَتِه وغفلَتِه؛ لأنَّ البَرَكَةَ إنَّما هي فيما وافقَ الشَّرعَ، وكيف يُبتغَى الفضلُ في مخالَفَةِ الصوابِ »، انتهى كلامُه رحمه الله.

الرابع: أن يطوف الزائرُ بقبرِه ﷺ فإنَّ ذلك حرامٌ؛ لأنَّ الله لَم يشرع الطوافَ إلَّا حولَ الكَعبةِ المشرَّفة قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ **وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ** ﴾، فلا يُطاف في أيِّ مكان إلَّا حولَ الكعبة المشرَّفة، ولهذا يُقال: كم لله مِن مصلٍّ في كلِّ مكان، وكذا يُقال: كم لله مِن متصدِّق، وكم لله مِن صائم، وكم لله مِن ذاكر، لكن لا يُقال كم لله مِن طائف في كلِّ مكان؛ لأنَّ الطوافَ مِن خصائصِ البيت العتيقِ، قال شيخُ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: « وقد اتَّفق المسلمون على أنَّه لا يُشرَعُ الطوافُ إلَّا بالبيتِ المعمور، فلا يَجوزُ الطوافُ بصَخرَةِ بيت المقدس، ولا بِحُجرَةِ النَّبيِّ ﷺ، ولا بالقُبَّةِ الَّتي في جبَلِ عرفات ولا غير ذلك ».

الخامس: أن يَرفعَ الصوتَ عند قَبْرِه ﷺ، فإنَّ ذلك غير سائغ؛ لأنَّ الله أدَّب المؤمنين لَمَّا كان النَّبيُّ ﷺ بين أظهرِهم فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ وهو ﷺ مُحتَرَمٌ في حياتِه وبعد وفاتِه.

السادس: أَن يَستقبِل القبرَ من مَكان بعيد سواء كان في المسجد أو خارجَه ويُسلِّمَ عليه ﷺ، وقد قال شيخُنا الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله في مَنسكه «وهو بهذا العملِ أقربُ إلى الجفاءِ مِنه إلى الموالاة والصَّفَاء».

ومِمَّا يُنبَّه عليه أنَّ بعضَ مَن يَقدُمُ إلى المدينة قد يُوصيه بعضُ أهلِه أو غيرُهم أن يبلِّغَ سلامَه للرَّسول ﷺ، ولكونِه لَم يَرِدْ في السُّنَّةِ شيءٌ يدلُّ على ذلك فيَنبغي لِمَن طُلب منه ذلك أن يقول للطالب: أَكْثِر من الصلاة والسلام عليه ﷺ، والملائكةُ تبلِّغُ ذلك إلى الرَّسول ﷺ لقوله ﷺ: «إنَّ لله ملائكةً سَيَّاحين يبلِّغوني عن أُمَّتِي السلامَ» وهو حديثٌ صحيحٌ رواه النسائي وغيرُه، ولقوله ﷺ: «لا تَجعلُوا بيوتكم قبوراً، ولا تَتَّخِذوا قبري عيدًا، وصَلُّوا عليَّ فإنَّ صلاتكم تَبلغني حيث كنتم» وهو حديثٌ صحيحٌ رواه أبو داود وغيره.

ومِمَّا ينبغي أن يُعلم أنَّه لا تلازمَ بين الحج والعمرة وبين الزيارةِ، فيُمكن لِمَن جاء حاجًّا أو معتمراً أن يَعودَ إلى بلده دون أن يأتي إلى المدينةِ، ومَن جاء إلى المدينة من بلده يُمكِن أن يعودَ دون أن يَحُجَّ أو يَعتَمِر، ويُمكن أن يَجمع بين الحجِّ والعمرةِ والزيارة في سَفرةٍ واحدةٍ.

وأما ما يُروى من أحاديث في زيارةِ قبره ﷺ، مثل حديث: «مَن حَجَّ ولَم يَزُرْنِي فقد جَفانِي»، وحديث «مَن زارني بعد مَماتي فكأنَّما زارَني في حياتي»،

وحديث « مَن زارني وزارَ أبي إبراهيم في عامٍ واحد ضَمِنْتُ له على الله الجَنَّةَ »، وحديث « مَن زار قَبري وَجَبتْ له شفاعَتِي »، فهذه الأحاديثُ وأشباهُها لا تقوم بها حُجَّةٌ؛ لأنَّها موضوعةٌ أو ضعيفةٌ جدًّا كما نبَّه على ذلك الحفاظُ كالدارقطني والعُقيلي والبيهقي وابن تيمية وابن حجر رحمهم الله تعالى.

وأمَّا قولُ الله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾، فلا دليلَ في الآية على قَصد القَبْرِ عند ظُلم النَّفسِ وطَلَبِ الاستغفارِ من النَّبيِّ ﷺ؛ لأنَّ سياقَ الآيات في المنافقين، والمجيءُ إليه ﷺ إنَّما يكون في حياتِه؛ لأنَّ الصحابةَ رضي الله عنهم وأرضاهم مَا كانوا يَأتون إلى قبره مُستغفرِين طالبين الاستغفَارَ، ولِهذا عَدَل عمر بنُ الخطاب رضي الله عنه إلى التوسُّلِ بدُعاء العباس عندما أصابهم الجَدْبُ، وقال: « اللَّهمَّ إنَّا كنَّا إذا أَجْدَبْنَا تَوَسَّلْنَا إليكَ بِنبيِّنا فتَسْقِينَا، وإنَّا نَتوسَّلُ إليكَ بِعَمِّ نبيِّنا فاسْقِنَا، قال: فيُسقَوْنَ » أخرجه البخاري في صحيحه.

فلو كان التَّوَسُّلُ به ﷺ بعد موتِه سائغاً لَمَا عَدَلَ عنه عمر رضي الله عنه إلى التوسُّلِ بالعباس رضي الله عنه، ويدلُّ لذلك أيضاً ما رواه البخاريُّ في صحيحه في كتاب المرضى عن عائشة رضي الله عنها أنَّها قالت: « وا رَأساه! فقال رسولُ الله ﷺ: ذاكِ لو كان وأنا حَيٌّ فأستغفرَ لكِ وأدعوَ لكِ، فقالت عائشة: وا ثُكلياه! والله إنِّي لأظنُّكَ تُحِبُّ مَوتِي » الحديث.

فلو كان يَحصلُ منه الدعاءُ والاستغفارُ بعد موته ﷺ لَم يكن هناك فرقٌ بين أن تَموتَ قبله أو يَموتَ قبلها ﷺ.

وزيارةُ قبره ﷺ دَلَّت عليها الأحاديثُ الدالَّةُ على زيارة القبور، كقوله ﷺ: « زُورُوا القبورَ؛ فإنَّها تذكِّرُكم الآخرةَ » أخرجه مسلم في صحيحه.

لكن لا ينبغي إِطالةُ الوقوف عند قَبره ﷺ ولا الإكثارُ من الزيارة لِمَا في ذلك من الإفضاء إلى الغلُوِّ، وقد خَصَّ اللهُ نبيَّه ﷺ دون أُمَّته بأنَّ الملائكة تُبلِّغ السلامَ إليه من كلِّ مكانٍ؛ لقولِه ﷺ: « إنَّ لله ملائكةً سَيَّاحِين يُبلِّغوني عن أُمَّتي السلامَ »، ولقوله ﷺ: « لا تجعلوا بيوتكم قبورًا، ولا تتَّخِذوا قبري عيدًا، وصلُّوا عليَّ فإنَّ صلاتكم تَبلُغُني حيث كنتم »، فإنَّه ﷺ لَمَّا نَهى عن اتِّخاذ قبره عيدًا أَرْشَدَ إلى ما يقومُ مقامَ ذلك بقوله: « وصَلُّوا عليَّ فإنَّ صلاتكم تَبْلُغُني حيث كنتم » أي: بواسِطَةِ الملائكة.

وأمّا زيارةُ قبور البقِيع وزيارةُ قبور شُهداء أُحُد فهي مُستَحَبَّةٌ إذا كانت على وجهٍ مشروعٍ، ومُحَرَّمةٌ إذا كانت على وجهٍ مبتدَعٍ.

فالزيارةُ الشرعيَّةُ هي التي يُؤتى بها وِفقاً لما جاء عن الرسول ﷺ، مشتملةً على انتفاع الحيِّ الزائر، وانتفاع الميِّت المَزُورِ.

فالحيُّ الزائرُ يستفيد ثلاثَ فوائد:

الأولى: تذكُّرُ الموت؛ لِمَا يترتَّب عليه من الاستعدادِ له بالأعمال الصالِحَة؛ لقوله ﷺ: « زوروا القبورَ؛ فإنَّها تذكِّركم الآخرةَ » رواه مسلم.

والثانية: فعلُه الزيارةَ، وهي سنَّةٌ سنَّها رسول الله ﷺ، فيُؤجرُ على ذلك.

والثالثة: الإحسانُ إلى الأمواتِ المسلمين بالدُّعاءِ لَهم، فيُؤْجَر على هذا الإحسان.

وأمّا الميِّتُ المزور، فإنَّه يستفيد في الزيارة الشرعية الدعاءَ له والإحسانَ إليه بذلك؛ لأنَّ الأمواتَ يَستفيدون مِن دُعاء الأحياءِ.

ويُستحبُّ لزائر القبورِ أن يدعوَ لَهم بِما ثبتَ عن رسول الله ﷺ في ذلك، ومنه حديثُ بُرَيدَة بن الحُصَيب رضي الله عنه قال: « كان رسولُ الله ﷺ يعلِّمهم إذا خرَجُوا إلى المقابر، فكان قائلُهم يقول: السَّلامُ عليكم أهلَ الدِّيارِ مِن المؤمنين

والمسلمين، وإنَّا إن شاء الله بكم لَلاَحِقونَ، أسأل اللهَ لنا ولكم العافِيَةَ » رواه مسلم.

وزيارةُ القبور مُستَحبَّةٌ في حقِّ الرِّجالِ، أمَّا زِيارةُ النساء للقبور، ففيها خلافٌ لأهل العلم، مِنهم مَن أجازَ ومِنهم من مَنع، وأظهرُ القولين المنعُ؛ لقوله ﷺ: « لَعنَ الله زَوَّاراتِ القبور » أخرجه الترمذي وغيرُه، وقال الترمذيُّ: « حديثٌ حسنٌ صحيحٌ ».

فإنَّ الأظهرَ في لفظِ « زَوَّارات » أنَّه للنِّسبَةِ، أي: نسبة الزِّيارة إليهنَّ، أو ذوات زيارة، نَظيرُ قوله تعالى: ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلۡعَبِيدِ ﴾ أي: ليس بذِي ظُلم، أو بِمنسُوبٍ إليه الظُّلم، وليس للمبالغَةِ في الزيارة، كما ذكره بعضُ مَن أجازَ زيارةَ النِّساء للقبور، وأيضاً لِما في النِّساءِ مِن الضَّعف وقلَّة الصبرِ عن البُكاءِ والنِّياحَةِ.

وأيضاً فإنَّ القولَ بالمنع أحوطُ؛ لأنَّ المرأةَ إذا تَركت الزيارةَ لَم يفُتْهَا إلَّا أمرٌ مُستَحَبٌّ، وإذا حصلت مِنها الزيارةُ تعرَّضَت لِلَّعنَةِ.

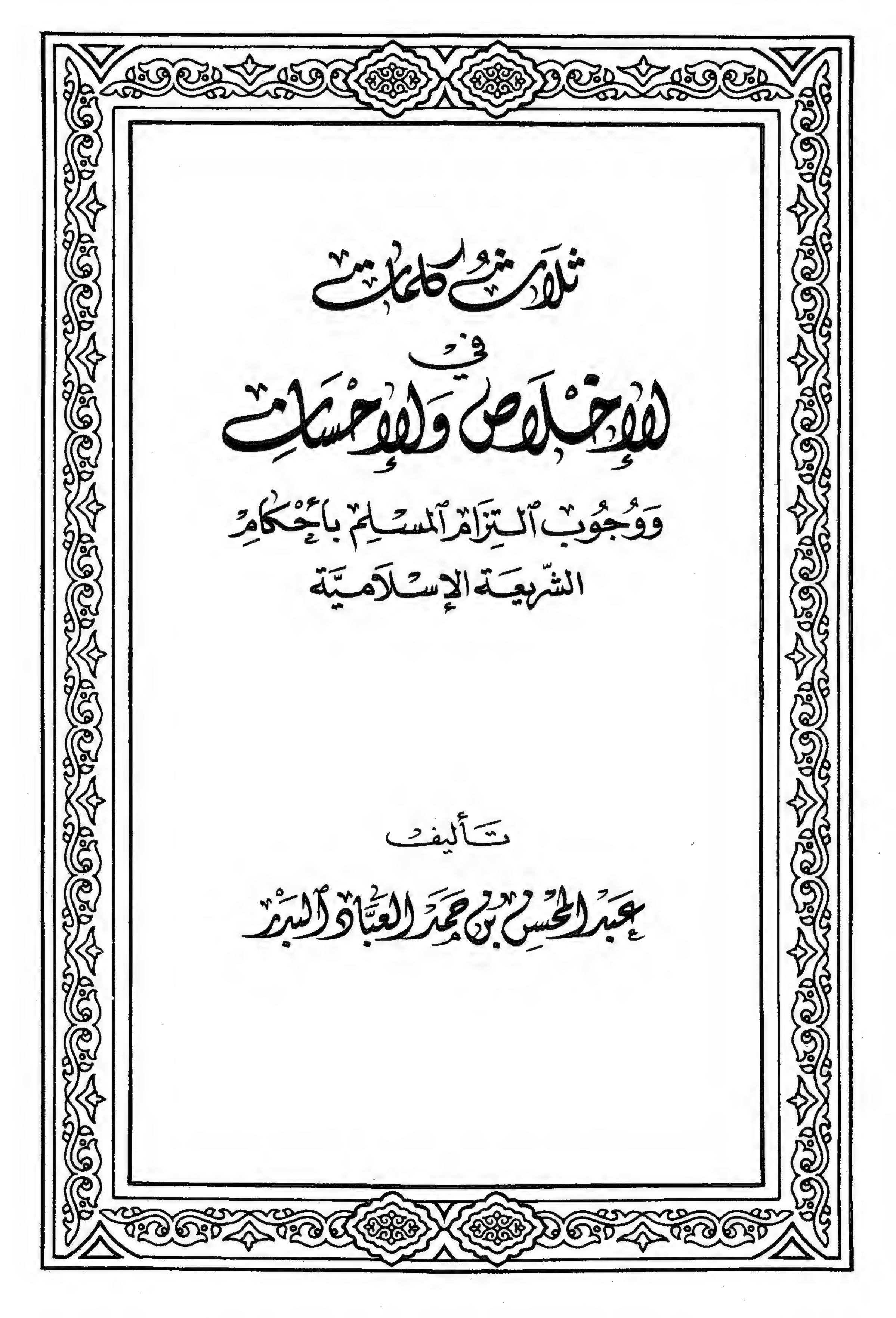
وأمّا الزيارةُ البدعيَّةُ: فهي التي يُؤتى بها على غير الوجهِ المشروعِ، كأن تُقصَدَ القبورُ لدعاء أهلِها والاستغاثَةِ بهم وطلبِ قضاء الحاجات منهم ونَحوِ ذلك، فإنَّ هذه الزيارةَ لا يَستَفيدُ منها الميِّت ويَتَضَرَّرُ بها الحيُّ، فالحيُّ يتضرَّرُ؛ لأنَّه فَعلَ أمراً لا يجوزُ؛ إذ هو شركٌ بالله، والميِّتُ لا ينتَفِعُ؛ لأنَّه لم يُدْعَ له، وإنَّما دُعي مِن دون الله، وقد قال شيخُنا الشيخ عبد العزيز ابن باز رحمه الله في مَنسكه: « فأمّا زيارَتُهُم لقَصدِ الدُّعاءِ عند قبورهم، أو العكوفِ عندها، أو سؤالِهم قضاء الحاجات، أو شفاءَ المرضى، أو سؤالِ الله بهم أو بِجاههم ونحوِ ذلك، فهذه زيارةٌ بِدعيَّةٌ مُنكَرةٌ لَم يَشرَعْها اللهُ ولا رسولُه ولا فعلَها السّلفُ الصالِحُ

رضي الله عنهم، بل هي من الهُجْرِ الذي نَهى عنه الرسول ﷺ حيث قال: « زُورُوا القبورَ ولا تقولوا هُجرًا »، وهذه الأمورُ المذكورةُ تَجتَمِع في كونها بِدعة، ولكنها مُختَلِفَةُ المراتِب، فبعضُها بِدعةٌ ولَيس بشِركٍ، كدُعاء الله سبحانَه عند القبور وسؤالِه بِحقِّ الميِّت وجاهِهِ ونَحوِ ذلك، وبعضُها من الشِّركِ الأكبر كدُعاء الموتَى والاستعانةِ بهم ونحو ذلك ».

هذا ما أردتُ إيرادَه، وأسألُ اللهَ عزَّ وجلَّ أن يوفِّقنا وسَاكنِي هذه المدينة وزائِريها وسائِرَ المسلمين لِمَا تُحمد عاقبتُه في الدنيا والآخرة، وأن يرزقَنَا في هذا البلد الطيِّب طِيب الإقامة وحسنَ الأدب، وأن يُحسِنَ لنا الختام، وصلّى الله وسلَّم وبارَكَ على عبده ورسوله نبيِّنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

❋ ❋ ❋





ثلاث كلمات في الإخلاص والإحسان

ووجوب التزام المسلم بأحكام الشريعة الإسلامية

تأليف

عبد المحسن بن حمد العباد البدر



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، أما بعد:

فهذه ثلاث كلمات في الإخلاص والإحسان ووجوب التزام الشريعة الإسلامية.

الإخلاص

هو في اللغة: تخليص الشيء وتجريده من غيره، فالشيء يسمى خالصاً إذا صفا عن شوبه وخلص عنه، ويسمى الفعل المصفى المخلص من الشوائب إخلاصاً، ومن الأول قوله تعالى: ﴿ **وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ** ﴾ [النحل:٦٦]، فاللبن الخالص ما سلم وصفا من الدم والفرث ومن كل ما يشوبه ويكدر صفاءه، ومن الثاني قوله تعالى: ﴿ **قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ** ﴾ [الأنعام:١٦٢-١٦٣].

وفي الاصطلاح: تصفية ما يراد به ثواب الله وتجريده من كل شائبة تكدر صفاءه وخلوصه له سبحانه.

منزلته

الإخلاص هو أساس النجاح والظفر بالمطلوب في الدنيا والآخرة فهو للعمل بمنزلة الأساس للبنيان وبمنزلة الروح للجسد فكما أنه لا يستقر البناء ولا يتمكن من الانتفاع منه إلَّا بتقوية أساسه وتعاهده من أن يعتريه خلل، فكذلك العمل بدون الإخلاص، وكما أن حياة البدن بالروح، فحياة العمل وتحصيل ثمراته بمصاحبته وملازمته للإخلاص وقد أوضح الله ذلك في كتابه

العزيز فقال: ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [التوبة:١٠٩].

ولما كانت أعمال الكفار التي عملوها عارية من توحيد الله وإخلاص العمل له سبحانه جعل وجودها كعدمها فقال: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان:٢٣]، والإخلاص أحد الركنين العظيمين اللذين انبنى عليهما دين الإسلام وهما إخلاص العمل لله وحده وتجريد المتابعة للرسول ﷺ ولهذا قال الفضيل بن عياض في قوله تعالى: ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الملك:٢]، قال: «أخلصه وأصوبه»، قيل: يا أبا عليّ ما أخلصه وأصوبه؟ قال: «إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل، حتى يكون خالصاً صواباً، فالخالص ما كان لله، والصواب ما كان على السنة». وقال شارح الطحاوية: «توحيدان لا نجاة للعبد من عذاب الله إلّا بهما: توحيد المرسل سبحانه، وتوحيد متابعة الرسول ﷺ، فيوحده ﷺ بالتحكيم والتسليم والانقياد والإذعان، كما يوحد المرسل بالعبادة والخضوع والذل والإنابة والتوكل.

محله

ومحل الإخلاص القلب، فهو حصنه الذي يقطن فيه فمتى كان صالحاً عامراً بسكناه وحده تبع ذلك صلاح الجوارح، ومتى كان خراباً سكن فيه الرياء وملاحظة الناس وكسب ودهم وتحصيل ثنائهم والطمع فيما عندهم ويتبع ذلك سعي الجوارح لتحصيل هذه الأغراض الدنية، وليس أدل على ذلك وأوضح بياناً من قوله ﷺ: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح

الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب ». وقد أوضح ﷺ هذا المعنى وبين تبعية الجوارح لما يقوم بالقلب بقوله ﷺ: « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه ».

والإخلاص مطلوب في الصلاة والزكاة والصوم والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفي كل ما شرعه الله من قول أو فعل، فيقوم الإنسان بتأدية ما شرع الله له والباعث له عليه امتثال أمر الله خوفاً من عقابه وطمعاً فيما لديه من الأجر والثواب.

والإخلاص مطلوب أيضاً فيما يلتزمه الإنسان من الأعمال فهو مطلوب من العامل ومن المستشار والمؤتمن والموظف ومن المعلم والمتعلم، وقد بين النبي ﷺ ما يترتب على طلب العلم مع الإخلاص فيه من النتائج الحميدة وما يترتب على فقدِ الإخلاص فيه من العواقب الوخيمة بقوله ﷺ: « من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة » رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، وروى عنه أيضاً أن النبي ﷺ قال: « إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها فقال: ما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت، قال: كذبت، ولكنك قاتلت ليقال جريء فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، فقال: ما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته وقرأت القرآن فيك. قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم وقرأت القرآن ليقال: قارئ، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار... » الحديث.

ويروى أنَّ معاوية ﷺ لما بلغه هذا الحديث بكى حتى أغمي عليه فلما أفاق قال: صدق الله ورسوله، قال الله ﷻ: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝ أُولَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ﴾ [هود:١٥]، ويقول ابن مسعود ﷺ: «لا تعلموا العلم لثلاث: لتماروا به السفهاء أو لتجادلوا به الفقهاء أو لتصرفوا وجهة الناس إليكم، وابتغوا بقولكم وفعلكم ما عند الله؛ فإنه يبقى ويذهب ما سواه».

الحث عليه وبيان فضله

ولما كان الإخلاص بهذه المنزلة التي تقدم وصفها جاء الشرع المطهر في الحث عليه والترغيب فيه وبيان فضله في آيات كثيرة وأحاديث عديدة، نذكر بعضها على سبيل التمثيل فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾ [الزمر:٢-٣]، وقوله: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾ [البينة:٥]، وقوله: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ ﴾ [النساء:١٤٦] الآية، وقوله: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ﴾ [الأنعام:١٦٢-١٦٣]، وقوله: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [الكهف:١١٠]، وقوله: ﴿ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴾ [الزمر:١٤].

ومن الأحاديث الصحيحة الواردة في ذلك عن رسول الله ﷺ قوله ﷺ لأصحابه في غزوة تبوك: «إن بالمدينة رجالاً ما سرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلَّا كانوا معكم حبسهم المرض»، وفي رواية: «إلَّا شركوكم في الأجر» متفق عليه، واللفظ لمسلم، ومنها قوله ﷺ لسعد بن أبي وقاص: «إنك لن تنفق

نفقة تبتغي بها وجه الله إلَّا أجرت عليها، حتى ما تجعل في فم امرأتك » متفق عليه، ومنها قوله ﷺ: « إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم » رواه مسلم، ومنها قوله ﷺ في الحديث المتفق عليه: « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله... »»، جواباً لمن سأل عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء أي ذلك في سبيل الله؟ وقد أشار النبي ﷺ إلى ما يكتسبه الإنسان في الدنيا بسبب الإخلاص إلى جانب ما أعده الله له في الآخرة من المثوبة بما ذكره ﷺ من قصة الثلاثة الذين أووا إلى غار للمبيت فيه فانحدرت صخرة وسدت عليهم باب الغار ففرج الله عنهم ذلك بسبب إخلاصهم الأعمال الصالحة له سبحانه وتعالى.

ما يضاد الإخلاص وبم تحصل السلامة منه

وكما أن الإخلاص تصفية الشيء مما يشوبه فإذا لم تحصل تصفيته انتفى الإخلاص.

فإذا قام الإنسان بعمل محمود والباعث له عليه ابتغاء وجه الله سمي مخلصاً وسمي عمله إخلاصاً، فإذا فقد ذلك الباعث على العمل أو وجد ولكنه مشوب بباعث آخر كالرياء انتفت التسمية، فإخلاص العمل لله وحده ينافيه ويقابله أن يحل في القلب قصد المخلوقين التماساً لحمدهم وثنائهم وطمعاً فيما عندهم، ولما كان ذلك ينافي الإخلاص جاءت الشريعة الإسلامية بذم الرياء ومقت المرائين فقد قال سبحانه: ﴿ **فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ۝ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ** ﴾ [الماعون:٤-٧]، وأخبر أن الرياء من صفات المنافقين فقال: ﴿ **وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ** ﴾ [النساء:١٤٢]، وروى مسلم عن أبي

هريرة ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: قال الله تعالى: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه».

ومن ابتلاه الله بهذا الداء العضال فعليه أن يسعى في تحصيل الأدوية النافعة التي تستأصل وتقضي عليه، ومن أبرزها شيئان:

أحدهما: أن يزهد فيما ينتظر من الناس من الثناء والعطاء.

والثاني: أن يحمل نفسه على إخفاء الأعمال، وقد أوضح الأول منهما ابن القيم في الفوائد (ص ١٤٨) فقال: «لا يجتمع الإخلاص في القلب ومحبة المدح والثناء والطمع فيما عند الناس إلَّا كما يجتمع الماء والنار والضب والحوت، فإذا حدثتك نفسك بطلب الإخلاص فأقبل على الطمع أولا فاذبحه بسكين اليأس، وأقبل على المدح والثناء فازهد فيهما زهد عشاق الدنيا في الآخرة، فإذا استقام لك ذبح الطمع والزهد في الثناء والمدح سهل عليك الإخلاص.

فإن قلت: وما الذي يسهل عليَّ ذبح الطمع والزهد في الثناء والمدح؟ قلت: أما ذبح الطمع فيسهله عليك علمك يقينا أنه ليس من شيء يطمع فيه إلَّا وبيد الله وحده خزائنه لا يملكها غيره، ولا يؤتى العبد منها شيئاً سواه، وأما الزهد في الثناء والمدح فيسهله عليك علمك أنه ليس أحد ينفع مدحه ويزين ويضر ذمه ويشين إلَّا الله وحده، كما قال ذلك الأعرابي للنبي ﷺ: إن مدحي زين وذمي شين. فقال: «ذلك الله ﷻ»، فازهد في مدح من لا يزينك مدحه ولا يشينك ذمه، وارغب في مدح من كل الزين في مدحه وكل الشين في ذمه، ولن تقدر على ذلك إلَّا بالصبر واليقين، فمتى فقدت الصبر واليقين كنت كمن أراد السفر في البحر في غير مركب قال تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ

حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ [الروم:٦٠]، وقال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة:٢٤] » انتهى كلام ابن القيم رحمه الله، وقد أشار النبي ﷺ إلى إخفاء العبادة ابتعاداً عن الرياء بقوله ﷺ في الحديث المتفق عليه في السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلّا ظله: « ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه... ».

فالحاصل أن العمل مذموم إذا كان الباعث عليه التماس حمد الناس وثنائهم والطمع فيما عندهم، أما إذا عمل الإنسان العمل خالصاً لله ثم ألقى الله له الثناء الحسن في قلوب المؤمنين بسبب ذلك العمل فارتاح لذلك واستبشر به لم يضره ولم ينقص من أجره؛ بدليل أنه ﷺ لما سئل عن الرجل يعمل العمل من الخير ويحمده الناس عليه قال: « تلك عاجل بشرى المؤمن » رواه مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه[1].

***

(١) كلمة نشرت في العدد الثاني من السنة الأولى لمجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة الصادر في شهر رجب عام ١٣٨٨هـ.

الإحسان

الإحسان في اللغة: ضد الإساءة، وهو مصدر أحسن إذا أتى بما هو حسن.

وفي الاصطلاح: الإتيان بالمطلوب شرعاً، على وجه حسن، وقد أوضح ﷺ الإحسان في حديث جبريل المشهور حين سأله عن الإسلام والإيمان، فأجابه عن كل منهما، وكان جوابه عندما سأله عن الإحسان أن قال: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»، فقد بين ﷺ في هذا الحديث الذي رواه مسلم معنى الإحسان، وهو أن يفعل الإنسان ما تعبده الله به كأنه واقف بين يدي الله وذلك يستلزم تمام الخشية والإنابة إليه سبحانه ويستلزم الإتيان بالعبادة على وفق الخطة التي رسمها رسوله عليه الصلاة والسلام.

وقد ضمن ﷺ جوابه عن الإحسان بيان السبب الحافز على الإحسان لمن لم يبلغ هذه الدرجة العالية والمنزلة الرفيعة، ألا وهو تذكير فاعل العبادة بأن الله مطلع عليه لا يخفى عليه شيء من أفعاله وسيجازيه على ذلك إن خيراً فخير وإن شراً فشر، ولا شك أن العاقل إذا تذكر أن الله رقيب عليه أحسن عمله رغبة فيما عند الله من الثواب للمحسنين وخوفاً من العقاب الذي أعده للمسيئين ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق:٣٧].

فضل الإحسان

ولمزيد عناية الإسلام بالإحسان وعظيم منزلته، نوه سبحانه بفضله وأخبر في كتابه العزيز أنه يحب المحسنين وأنه معهم وكفى بذلك فضلاً وشرفاً فقال سبحانه: ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة:١٩٥]، وقال: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ

ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران:١٤٨]، وقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل:١٢٨]، وقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت:٦٩].

جزاء المحسنين

ومن رحمة الله وفضله أن جعل الجزاء من جنس العمل، ومن ذلك أنه جعل ثواب الإحسان إحساناً كما قال: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ [الرحمن:٦٠]، فمن أحسن عمله أحسن الله جزاءه، وقد أوضح سبحانه في كتابه العزيز جزاء المحسنين وأنه أعظم جزاء وأكمله، فقال تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس:٢٦]، وهذه الآية فسرها رسول الله ﷺ بما رواه مسلم في صحيحه عن صهيب رضي الله عنه بأن الحسنى الجنة، والزيادة النظر إلى وجه الله عز وجل، ولا يخفى ما بين هذا الجزاء وذلك العمل الذي هو الإحسان من المناسبة، فالمحسنون الذين عبدوا الله كأنهم يرونه جزاهم على ذلك العمل النظر إليه عياناً في الآخرة، وعلى العكس من ذلك الكفار الذين طبع على قلوبهم فلم تكن محلاً لخشيته ومراقبته في الدنيا فعاقبهم الله على ذلك بأن حجبهم عن رؤيته في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ [المطففين:١٥]، وكما أن جزاء الذين أحسنوا الحسنى فإن عاقبة الذين أساءوا السوأى كما قال تعالى: ﴿ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [الروم:١٠]، ومما ذكره الله في جزاء المحسنين قوله: ﴿ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة:٥٨]، وقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ [الكهف:٣٠] الآية، وقوله: ﴿ لِّلَّذِينَ

أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ﴾ [النحل:٣٠-٣١] الآية، وقوله: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ﴾ [النجم:٣١]، وقوله: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾ [التوبة:١٠٠] الآية، وقوله: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة:١١٢]، وقوله: ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف:٥٦]، إلى غير ذلك من الآيات.

طرق الإحسان

والإحسان مطلوب في العبادات والمعاملات، فأي عبادة افترضها الله على العبد فإن عليه أن يأتي بها على الوجه الذي رضيه سبحانه من إخلاصها له وموافقتها لشريعة نبيه ﷺ، وكما أن الإنسان يحب لنفسه أن يعامله غيره معاملة حسنة فإن عليه أن يحسن إلى غيره ويعامله بمثل ما يحب أن يعامل به هو، وذلك بسلوك طرق الإحسان التي نتعرض لبعضها فيما يلي على سبيل الاختصار:

١ ـ الإحسان بالنفع البدني:

وذلك بأن يجود ببذل ما يستطيعه من القوة البدنية في تحصيل المصالح ودفع المفاسد، فيمنع الظالم من الظلم ويميط الأذى عن الطريق مثلاً، وهذه الطريق هي التي عناها رسول الله ﷺ بقوله في الحديث المتفق عليه: «كل سلامى من الناس عليه صدقة كل يوم تطلع فيه الشمس، تعدل بين اثنين صدقة، وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها أو ترفع عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وبكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة، وتميط الأذى

عن الطريق صدقة».

٢ ـ الإحسان بالمال:

ومن وسع الله عليه الرزق وآتاه المال فإن عليه أن يشكر الله على ذلك بصرفه في الطرق التي شرعها الله، فيقضي الحاجة ويواسي المنكوب ويفك الأسير ويقري الضيف ويطعم الجائع تحقيقاً لقول الله سبحانه: ﴿ **وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَ** ﴾ [القصص:٧٧].

٣ ـ الإحسان بالجاه:

وإذا لم يتمكن المسلم من قضاء حاجة أخيه وإيصال النفع إليه فعليه أن يكون عوناً له في سبيل تحصيلها وذلك بالسعي معه لدى من يستطيع ذلك اقتداء برسول الله ﷺ وامتثالا لأمره فقد شفع ﷺ لمغيث لدى زوجه بريرة رضي الله عنها وأمر أصحابه بالشفاعة فقال: «اشفعوا تؤجروا» متفق عليه.

٤ ـ الإحسان بالعلم:

وهذه الطريق مع التي تليها أعظم الطرق وأتمها نفعاً؛ لأن هذا الإحسان يؤدي إلى ما فيه سعادة الدنيا والآخرة وبه يعبد الله على بصيرة، فمن يسر الله له أسباب تحصيل العلم وظفر بشيء منه كانت مسؤوليته عظيمة ولزمه القيام بما يجب للعلم من تعليم الجاهل وإرشاد الحيران وإفتاء السائل وغير ذلك من المنافع التي تتعدى إلى الغير.

٥ ـ الإحسان بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

ولم تكن أمة محمد ﷺ خير أمة أخرجت للناس إلَّا بسلوكها تلك الطريق كما أن بني إسرائيل لم يلعن من لعن منهم على لسان أنبيائهم إلَّا لتخليهم عن

ذلك الواجب وعدم اكتراثهم بارتكاب المنكرات، قال الله تعالى في حق هذه الأمة: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [آل عمران:١١٠]، وقال في حق بني إسرائيل: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ﴾ [المائدة:٧٨]، ثم بين سبب اللعن بقوله: ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ۝٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ﴾ [المائدة:٧٨-٧٩].

ولا يحصل المطلوب ويتم النفع إلّا إذا كان الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر مؤتمراً بما يأمر به منتهياً عما ينهى عنه وإلا كان أمره ونهيه وبالاً عليه لقول الله تعالى: ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف:٣]، والإحسان إلى الناس بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر لابد أن يكون عن علم لأن الجاهل قد يأمر بما هو منكر وقد ينهى عما هو معروف ولابد أن يجمع إلى العلم الحكمة ويصبر على ما أصابه، ومن الأدلة على هذه الأمور الثلاثة قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾ [يوسف:١٠٨]، وقوله: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ [النحل:١٢٥]، وقوله: ﴿ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ﴾ [لقمان:١٧]، وقد جعل النبي ﷺ إنكار المنكر على ثلاث مراتب، إن لم تحصل المرتبتان الأوليان فلا أقل من الثالثة التي هي أضعف الإيمان، كما في صحيح مسلم عن أبي سعيد رضي الله عنه مرفوعاً: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»[١].

(١)كلمة نشرت في مجلة الجامعة الإسلامية في عدد ربيع الأول عام ١٣٨٩هـ.

وجوب التزام المسلم بأحكام الشريعة الإسلامية

الحمد لله الذي ارتضى الإسلام ديناً لهذه الأمة فأكمله لها وأتم عليها به النعمة، وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله المبعوث رحمة للعالمين، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن سلك سبيله واهتدى بهديه إلى يوم الدين، أما بعد:

فموضوع حديثي: لزوم التزام المسلم بأحكام الشريعة الإسلامية، وسيدور الكلام فيه باختصار حول النقاط التالية:

(١) مَن هو المسلم؟

(٢) الشريعة الإسلامية وما بنيت عليه.

(٣) كمال الشريعة الإسلامية وشمولها وخلودها.

(٤) التزام المسلم بأحكام الشريعة الإسلامية لازم لابد منه.

(٥) النتائج الطيبة للالتزام بالشريعة الإسلامية، والآثار السيئة في التخلي عن ذلك.

مَن هو المسلم؟

المسلم اسم فاعل من أسلم بمعنى: أذعن وانقاد لربه وخالقه سبحانه وتعالى، والإسلام بهذا المعنى شامل خضوع جميع المخلوقات له سبحانه، كما يندرج تحته رسالات رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، يقول الله تعالى: ﴿ **أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ** ﴾ [آل عمران:٨٣]، ويقول سبحانه: ﴿ **وَمَن**

يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة:١٣٠-١٣٣]، ويقول سبحانه: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [آل عمران:٦٧]، ويقول سبحانه عن نبيه يوسف عليه الصلاة والسلام: ﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [يوسف:١٠١].

فشرائع الله كلها تلتقي في إخلاص العبادة لله والخضوع له والاستسلام لشرعه والالتزام بأمره ونهيه وإن تنوعت الشرائع وتعددت المناهج، كما ورد في الحديث: ((نحن معشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد)).

وبعد بعثة رسوله الكريم محمد عليه أفضل الصلاة والتسليم أصبح الإسلام علما على شريعته وعنواناً لأهل ملته ولا يسع أحداً من الجن والإنس الخروج عن دين الإسلام الذي بعث الله به رسوله ﷺ.

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ

ٱهْتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [آل عمران:١٩-٢٠]، ويقول سبحانه: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران:٨٥]، ويقول سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران:١٠٢]، ويقول سبحانه: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام:١٢٥].

وقد فسر النبي ﷺ الإسلام في حديث جبريل المشهور بقوله: « الإسلام أن تشهد أن لا إله إلَّا الله وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا »، وأخبر ﷺ في حديث آخر أن الإسلام بني على خمس: شهادة أن لا إله إلَّا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وحج البيت وصوم رمضان.

وفسر ﷺ الإيمان في حديث جبرائيل بقوله: « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره »، والإسلام والإيمان لفظان إذا جمع بينهما في الذكر عني بالإسلام الأعمال الظاهرة وبالإيمان الأعمال الباطنة كما في حديث جبريل هذا، فإذا ذكر كل واحد منهما منفرداً عن الآخر عني به الأعمال الظاهرة والباطنة معاً.

إذاً فالإسلام عقيدة وعمل، دين ودولة، ومنهج حياة في جميع المجالات، وقد عرف الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله الإسلام بأنه: الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة والخلوص من الشرك.

فالمسلم حقاً هو الذي وفق للدخول في الإسلام أو النشأة عليه والتزم به قولاً وعملاً واعتقاداً حتى أتاه اليقين.

الشريعة الإسلامية وما بنيت عليه

الشريعة الإسلامية هي الوحي الذي أوحاه الله إلى نبيه محمد عليه الصلاة والسلام ليخرج به الناس من الظلمات إلى النور، وهي كتاب الله الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، وسنة رسوله ﷺ المفسرة للقرآن والمبينة له والدالة عليه، والكتاب والسنة متلازمان تلازم شهادة أن لا إله إلَّا الله وشهادة أن محمداً رسول الله، وقد بُنِيت الشريعة الإسلامية على أصلين عظيمين وقاعدتين أساسيتين:

إحداهما: أن لا يعبد إلَّا الله وحده لا شريك له ولا يعبد معه غيره كائناً من كان، لا ملَك مقرب ولا نبي مرسل فضلاً عمن عداهما، كما قال الله تعالى: **﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾** [الجن:١٨]، وقال: **﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾** [الأنعام:١٦٢-١٦٣].

ثانياً: أن لا يعبد الله إلَّا بما شرع الله في كتابه أو سنة رسوله ﷺ، كما قال سبحانه وتعالى: **﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ﴾** [الحشر:٧]، وقال: **﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾** [الكهف:١١٠]، قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: **﴿ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا ﴾**: أي ما كان موافقاً لشرع الله، **﴿ وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾**: وهو الذي يراد به وجه الله وحده لا شريك له، وهذان ركنا العمل المتقبل، لابد أن يكون خالصاً لله صواباً على شريعة رسوله ﷺ، وقال ﷺ في الحديث المتفق على صحته عن عائشة رضي الله عنها: ((من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد))، وفي

لفظ مسلم «من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو ردّ» أي مردود على صاحبه، إذاً فلابد في العمل المقبول أن يكون خالصاً لله وعلى وفق ما جاء به رسوله ﷺ.

كمال الشريعة الإسلامية وشمولها وخلودها

لقد جمع الله للشريعة الإسلامية التي بعث بها رسوله وخليله محمداً ﷺ هذه الصفات صفة الكمال وصفة الشمول وصفة الخلود والبقاء.

أما صفة الكمال الخالية من أي نقص ومن الحاجة إلى أي زيادة فقد أثبتها سبحانه لشريعة الإسلام بقوله سبحانه: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة:٣].

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: «هذه من أكبر نعم الله تعالى على هذه الأمة حيث أكمل تعالى لهم دينهم فلا يحتاجون إلى دين غيره ولا إلى نبي غير نبيهم صلوات الله وسلامه عليه، ولهذا جعله الله تعالى خاتم الأنبياء وبعثه إلى الإنس والجن، فلا حلال إلَّا ما أحله ولا حرام إلَّا ما حرمه ولا دين إلَّا ما شرعه، وكل شيء أخبر به فهو حق وصدق لا كذب فيه ولا خلف، كما قال تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً ﴾ [الأنعام:١١٥] أي صدقاً في الأخبار وعدلاً في الأوامر والنواهي، فلما أكمل لهم الدين تمت عليهم النعمة، ولهذا قال: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة:٣] أي فارضوه أنتم لأنفسكم فإنه الدين الذي أحبه الله ورضيه وبعث به أفضل الرسل الكرام وأنزل به أشرف كتبه.

وأما صفة الشمول والخلود: فإنه ما من شيء يقرب إلى الله إلَّا دلّ الرسول ﷺ أمته عليه وما من شر إلَّا حذرها منه، وقد أخرج مسلم في صحيحه عن

سلمان الفارسي ﷺ أنه قيل له: قد علّمكم نبيكم كل شيء حتى الخراءة، قال: فقال: «أجل لقد نهانا أن نستقبل القبلة بغائط أو بول أو أن نستنجي باليمين أو نستنجي بأقل من ثلاثة أحجار أو أن نستنجي برجيع أو عظم»، وهي صالحة لكل زمان ومكان وعامة للجن والإنس، ليست لقوم دون قوم، كما قال ﷺ في بيان خصائصه: «وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة»، وقال ﷺ: «والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلّا كان من أصحاب النار» رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ، وقال ﷺ: «لو كان موسى حياً ما وسعه إلّا اتباعي»، قال ذلك لما رأى مع أحد أصحابه أوراقاً من التوراة ينظر فيها، وإذا نزل عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام في آخر الزمان من السماء فإنه يحكم بشريعة الإسلام التي هي خاتمة الشرائع.

وقد قال الإمام ابن كثير رحمه الله في تفسير سورة هود: «ثم قال متوعداً لمن كذب بالقرآن أو بشيء منه: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾: أي ومن كفر بالقرآن من سائر أهل الأرض مشركهم وكافرهم وأهل الكتاب وغيرهم من سائر طوائف بني آدم على اختلاف ألوانهم وأشكالهم وأجناسهم ممن بلغه القرآن كما قال تعالى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ وفي صحيح مسلم من حديث شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن أبي موسى الأشعري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «والذي نفسي بيده! لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي أو نصراني ثم لا يؤمن بي إلّا دخل النار»، وقال أيوب السختياني عن سعيد بن جبير قال: «كنت لا أسمع بحديث عن النبي ﷺ على وجهه إلّا وجدت مصداقه أو قال

تصديقه في القرآن، فبلغني أن النبي ﷺ قال: «لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني فلا يؤمن بي إلّا دخل النار»، فجعلت أقول: أين مصداقه في كتاب الله؟ قال: وقلّما سمعت رسول الله ﷺ وجدت له تصديقاً في القرآن حتى وجدت هذه الآية: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ﴾ قال: من الملل كلها».

والحديث بالإسناد الذي ذكره ابن كثير ليس في صحيح مسلم، بل هو في السنن الكبرى للنسائي كما في تحفة الأشراف.

التزام المسلم بأحكام الشريعة الإسلامية لازم لابد منه

وهذه الشريعة الكاملة الشاملة الخالدة التزام المسلم بأحكامها لازم لابد منه ولا خيار للمسلم فيه، وحاجة المسلم إلى السير طبقاً لتعاليم الشريعة الإسلامية فوق كل حاجة وضرورته إلى ذلك فوق كل ضرورة؛ ليفوز برضى الله ﷻ وينجو من سخطه وأليم عقابه، يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب:٣٦]، ويقول سبحانه: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الحشر:٧]، ويقول سبحانه: ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور:٦٣]، ويقول سبحانه: ﴿ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف:٣]، ويقول سبحانه: ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [هود:١١٢]، ويقول سبحانه: ﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الزخرف:٤٣]،

ويقول سبحانه: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام:١٥٣]، ويقول سبحانه: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ [النور:٥١-٥٢]، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء:٥٩]، ويقول سبحانه: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء:٦٥]، ويقول سبحانه: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [المائدة:٤٤]، ويقول: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [المائدة:٤٥]، ويقول سبحانه: ﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝٤٧ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝٤٨ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ۝٤٩ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا

لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة:٤٧-٥٠]، ويقول سبحانه: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ۝ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الأنعام:١١٤].

النتائج الطيبة للالتزام بالشريعة الإسلامية والآثار السيئة في التخلي عن ذلك

إن التزام المسلمين بأحكام شرعهم الحنيف ودينهم القويم هو أساس فلاحهم وعنوان سعادتهم وسبب عزهم ونصرهم على أعدائهم، وهو مصدر أمنهم واستقرارهم، ومتى كانت حالهم بعكس ذلك حصل لهم الخسران والهلاك والذل والهوان، وقد أقسم الله بالعصر على خسارة كل إنسان إلّا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر، وكتاب الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ مليئان بالنصوص التي توضح هذه الحقيقة، وما سجله التاريخ من حصول العزة لمن أطاعه والذلة لمن عصاه يصدق ذلك والواقع المشاهد المعاين أصدق برهان.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل العمران:١٠١]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت:٦٩]، وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد:٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج:٤٠-٤١]، وقال سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ

تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [الصف:١٠-١٢]، وقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الأنفال:٢٩]، وقال سبحانه: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [النور:٥٥-٥٦].

هكذا قال الله في حق من أطاعه واتقاه والتزم شرعه وهداه، ولنستمع لما قاله في حق من زهد بالحق واستبدل الأدنى بالذي هو خير فأعرض عن ذكر الله، يقول الله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [طه:١٢٤-١٢٧]، ويقول سبحانه: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الزخرف:٣٦-٣٧].

ويقول الرسول ﷺ في الحديث الصحيح: «كل أمتي يدخلون الجنة إلّا من أبى»، قيل: يا رسول الله ومن يأبى؟ فقال: «من أطاعني دخل الجنة ومن

عصاني فقد أبى)).

وقد حوى التاريخ في طياته أخبار انتصار المسلمين الصادقين على أعدائهم، وتغلبهم عليهم ليس لكثرة عددهم وعُددهم وإنما هو بسبب قوة إيمانهم وتمسكهم بكتاب ربهم وسنة نبيهم ﷺ، مع أخذهم بالأسباب التي أمرهم الله بها بقوله: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ [الأنفال:٦٠]، فظفروا بنصر الله لأنهم نصروه وجاهدوا في سبيله لتكون كلمته العليا وكلمة أعدائه السفلى فكان لهم ما أرادوا نصراً في الدنيا وسعادة في الآخرة وصدق الله إذ يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد:٧]، ويقول: ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [آل عمران:١٦٠].

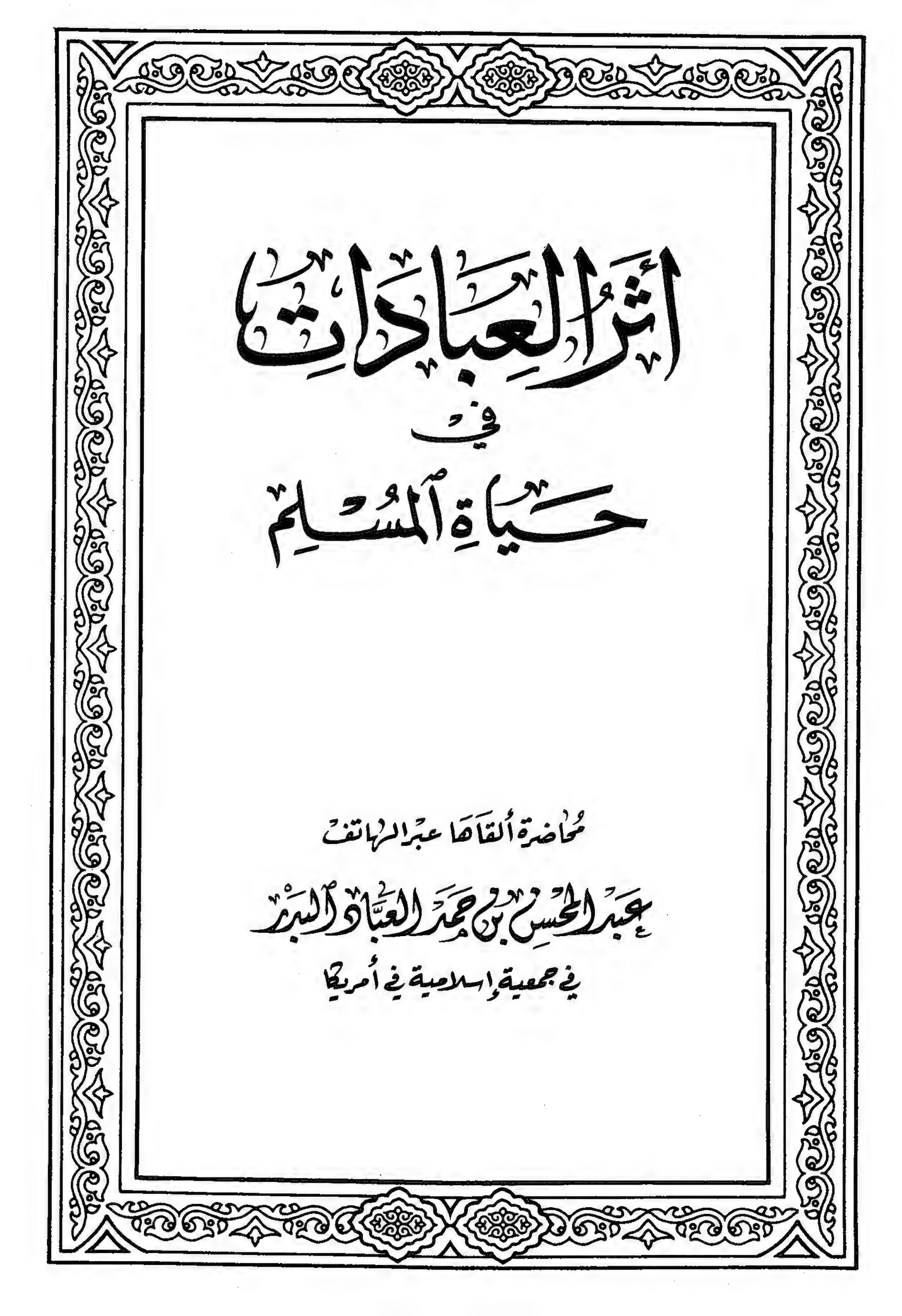
وإذا أراد العاقل في هذا العصر الذي نعيش فيه معرفة الشاهد من الواقع على صدق هذه الحقيقة، وهي أن المسلمين ينتصرون بسبب التزامهم شريعة الإسلام التي اختارها الله لهم، وينهزمون عند زهدهم فيها وبعدهم عن الأخذ بتعاليمها، لم يجد شاهداً أوضح من نتائج الحرب بين العرب واليهود التي تجلت فيها هذه الحقيقة بوضوح، ذلك أن العرب الذين أعزهم الله بالإسلام لما لم يلتزموا في هذا العصر إلَّا من شاء الله منهم بشرع الله ولم يحكموا الوحي الذي نزل به جبريل من الله على رسوله محمد ﷺ واختاروا لأنفسهم التحاكم إلى قوانين وضعية ما أنزل الله بها من سلطان، لما لم يلتزموا بهذه الشريعة الكاملة الصالحة لكل زمان ومكان ظفروا بالخذلان وصارت لهم الذلة أمام من كتب الله عليهم الذلة، وأي ذل وهوان أشد من هذا الذل والهوان، وسيسجل التاريخ ذلك للذين يأتون من بعد كما سجل ما جرى من خير وشر

عن الذين مضوا من قبل، ولن يقوم للمسلمين قائمة إلَّا إذا رجعوا إلى الاعتصام بالله والالتزام بشريعة الله.

وأسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن يوفق المسلمين جميعاً في كل مكان إلى ما فيه عزهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة إنه سميع مجيب، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين[١].

***

(١) محاضرة ألقيت في الجامعة الإسلامية ونشرت في مجلتها في عدد رمضان عام ١٣٩٨هـ.



أثر العبادات في حياة المسلم

محاضرة ألقاها عبر الهاتف

عبد المحسن بن حمد العباد البدر

في جمعية إسلامية في أمريكا



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيِّئات أعمالنا، مَن يهده الله فلا مُضلَّ له، ومَن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحقِّ ليُظهره على الدِّين كلِّه، فبلَّغ الرسالةَ وأدَّى الأمانةَ، ونصحَ الأمَّةَ، اللَّهم صل وسلم وبارك عليه، وعلى آله وأصحابه، ومَن سلك سبيلَه واهتدى بهديه إلى يوم الدِّين.

أما بعد: فالسلام عليكم أيها الإخوة المسلمون المستمعون في أمريكا ورحمة الله وبركاته، وأسأل الله عز وجل لي ولكم العونَ والتسديدَ، وأن يوفِّقنا جميعاً لِمَا يُرضيه.

وحديثي معكم في الموضوع الذي رغبتم الحديثَ فيه؛ وهو أثرُ العبادات في حياة المسلم، فأقول: العبادةُ اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يُحبُّه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، وهذا هو أحسن ما قيل في تعريف العبادة، وللعبادة أهميةٌ عُظمى؛ وذلك أنَّ الله عز وجل خلق الخَلقَ وأرسل الرسلَ وأنزلَ الكتبَ للأمر بعبادته والنهي عن عبادة غيره، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾، أي: خلقهم الله لأمرهم بعبادته ونهيهم عن معصيته، وقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾، وقال سبحانه: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾.

والعبادة أنواعٌ كثيرة؛ منها الخوف والرجاء والتوكل والرغبة والرهبة والإنابة والاستعانة والاستغاثة والذبح والنذر وغير ذلك من أنواع العبادة.

ومن العبادات؛ أركان الإسلام وهي التي اشتمل عليها حديث جبريل المشهور، حيث سأل النَبِيَّ ﷺ عن الإسلام فقال: « أن تشهدَ أن لا إله إلّا الله، وأنَّ محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً » أخرجه مسلم في صحيحه من حديث عمر رضي الله عنه، وهو أوَّلُ حديث عنده في كتاب الإيمان (٨).

وجاءت في حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما حيث قال عليه الصلاة والسلام: « بُنِيَ الإسلامُ على خمس؛ شهادة أن لا إله إلَّا الله وأنَّ محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحجّ البيت، وصوم رمضان » وهو أوَّلُ حديث عند البخاري في كتاب الإيمان (٨)، وهو في صحيح مسلم (١٩).

ثمَّ إنَّ العبادة لا بدَّ في قبولها من شرطين؛ أحدهما: إخلاص العمل لله، والثاني: تجريد المتابعة لرسول الله ﷺ، فلا بدَّ من تجريد الإخلاص لله وحده، فلا يُشرَكُ مع الله غيره، ولا يُصرفُ من أنواع العبادة شيء لغير الله سبحانه وتعالى، و لا بد من تجريد المتابعة للرسول ﷺ، فلا يُعبد الله إلَّا وفقاً لما جاء به الرسول الكريم صلوات الله وسلامه وبركاته عليه، وهذا هو مقتضى شهادة أن لا إله إلَّا الله وشهادة أنَّ محمداً رسول الله؛ لأنَّ مقتضى أشهد أن لا إله إلَّا الله إخلاص العمل لله وحده، فلا يُصرف شيء من أنواع العبادة لغيره، بل تكون العبادات كلُّها خالصةً لوجهه سبحانه وتعالى، ومقتضى أشهد أن محمداً رسول الله أن تكون العبادةُ وفقاً لِمَا جاء عن الرسول الكريم ﷺ، فلا يُعبد الله بالبدع والمحدثات والمنكرات التي ما أنزل الله تعالى بها من سلطان، بل تكون العبادة وفقاً للسنة، ولما جاء به الرسول الكريم ﷺ.

والحاصلُ أنَّ مقتضى أشهد أن لا إله إلَّا الله إخلاص العمل لله، ومقتضى أشهد أنَّ محمداً رسول الله تجريد المتابعة لرسول الله ﷺ، فلا بدَّ في أيِّ عملٍ

من الأعمال أن يكون لله خالصاً وأن يكون لسنة نبيه محمدٍ ﷺ موافقاً ومطابقاً، فإذا اختلَّ أحَدُ هذين الشرطين بأن فُقد الإخلاصُ، أو فُقدت المتابعةُ، أو فُقِدَا معاً فإنَّ العملَ مردودٌ على صاحبه، ولا يقبل عند الله عز وجل، قال تعالى في بيان ردّ العمل بسبب عدم الإخلاص: ﴿ **وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا** ﴾، وقال الرسول الكريم ﷺ في بيان ردِّ العمل إذا كان مبنياً على بدعة: « مَن أحدثَ في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ » رواه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨) من حديث عائشة رضي الله عنها، وفي لفظ لمسلم: « مَن عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ ».

وقال عليه الصلاة والسلام: « فإنَّه مَن يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسُنَّتِي وسُنَّة الخلفاء المهديين الراشدين تَمَسَّكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإيّاكم ومحدثات الأمور، فإنَّ كلَّ محدثة بدعة، وكلَّ بدعة ضلالة » رواه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦) من حديث العرباض ابن سارية، وقال الترمذي: « حديث حسن صحيح ».

وقد بَيَّن عليه الصلاة والسلام في حديث الثلاث وسبعين فرقة الذين يَدخل منهم النار اثنتان وسبعون فرقة، وفرقةٌ واحدة تنجو، بَيَّن عليه الصلاة والسلام أنَّ هذه الفرقة الناجية هم الذين كانوا على ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابُه الكرام رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم.

وقال الإمام مالك بن أنس رحمة الله عليه: « لن يصلح آخر هذه الأمّة إلّا بما صلح به أوّلها »، وقال رحمه الله: « مَن ابتدع في الإسلام بدعةً يراها حسنة فقد زعم أنَّ محمداً خان الرسالة؛ لأنَّ الله يقول: ﴿ **ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ** ﴾ فما لَم يكن يومئذ ديناً فلا يكون اليوم ديناً ». الاعتصام للشاطبي (١/ ٢٨).

ولا يكفي أن يقول الإنسانُ أنا أعمل بهذا العمل وإن لَم يأتِ عن النَّبِيِّ ﷺ؛ لأنَّ قصدي طيبٌ وقصدي حسنٌ، والدليل على هذا أنَّ النَبِيَّ عليه الصلاة والسلام لَمَّا بلغه أنَّ رجلاً من أصحابه الكرام ذبح أُضحيتَه قبل صلاة العيد قال له عليه الصلاة والسلام: « شاتُك شاةُ لحم » أي: ليست أضحية؛ لأنَّها لم تقع طبقاً للسُّنَّة، إذ إنَّ السُّنَّةَ أن يبدأ ذبح الأضاحي بعد صلاة العيد، أما الذبح قبل الصلاة فإنَّه يكون في غير وقته فلا يعتبر، والحديث أخرجه البخاري (٥٥٥٦)، ومسلم (١٩٦١)، وقال الحافظ في شرحه في الفتح (١٠/ ١٧): « قال الشيخ أبو محمد بن أبي جمرة: وفيه أنَّ العمل وإن وافق نيَّةً حسنة لم يصح إلَّا إذا وقع على وفق الشرع ».

ومِمَّا يوضح ذلك أيضاً أنَّ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، صاحب الرسول الله ﷺ جاء إلى أُناس وقد تَحلَّقوا في المسجد، ومع كل واحد منهم عدد من الحصى، وفيهم رجل يقول سبِّحوا مائة، هلِّلوا مائة، كبِّروا مائة، فيعدون بالحصى حتى يأتوا بهذا الذِّكر، يعدونه بذلك الحصى، فوقف على رؤوسهم عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فقال: « ما هذا الذي أراكم تصنعون؟ قالوا: يا أبا عبد الرحمن! حصى نعدُّ به التكبيرَ والتهليلَ والتسبيحَ، قال: فعُدوا سيئاتكم فأنا ضامن أن لا يضيع من حسناتكم شيء، ويحكم يا أمّة محمد! ما أسرع هلكتكم! هؤلاء صحابة نبيكم ﷺ متوافرون، وهذه ثيابُه لم تَبلَ، وآنيتُه لم تكسر، والذي نفسي بيده إنكم لعلَى مِلَّة هي أهدى من مِلَّة محمد ﷺ أو مفتتحو باب ضلالة؟! قالوا: والله يا أبا عبد الرحمن! ما أردنا إلَّا الخير، قال: وكم من مريد للخير لن يصيبه »، هذا الأثر رواه الدارمي في سننه (١/ ٦٨ ـ ٦٩)، وأورده الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٠٠٥).

وأمّا الآثار المترتبة على العبادات فمنها؛ انشراحُ الصدر، وراحةُ البال، وسَعةُ الرزق، وسلامةُ الإنسان وارتياحُه واطمئنانُه.

وقد جاء في القرآن آياتٌ كثيرة، وفي السنة النبوية أحاديث عديدة، تدلّ على تلك الآثار، وعلى أنَّ تقوى الله عز وجل والأعمال الصالحة يترتب عليها سعادة الدنيا وسعادة الآخرة.

قال الله عز وجل: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ فإنَّ هذه الآيةَ الكريمة اشتملت على ذِكر العبادة، وعلى ذِكر الأثر المترتب عليها في حياة المسلم، وهي أنَّ من اتقى الله عز وجل وآمن به فإنَّ الله تعالى يُثيبُه ويعطيه في الحياة الدنيا من الرزق، ويفتح عليه من بركات السماء والأرض وذلك بإنزال الأمطار، وإخراج النبات والكنوز من الأرض.

وقال عز وجل في أهل الكتاب: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ ﴾ فإنَّ هذه الآية الكريمة، هي مثل تلك الآية السابقة، ﴿ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ ﴾ يعني من الأرزاق التي يُنْزِلُها الله عز وجل إليهم من السماء بسبب المطر، وكذلك مِن تحت أرجلهم مِمَّا ينبته الله عز وجل في الأرض من النبات والزروع، وكذلك مِمَّا يخرجه الله عز وجل من الكنوز، وما ذكره الله في هاتين الآيتين عن أهل القرى، وأهل الكتاب، هو من الثواب الدنيوي على الإيمان والتقوى، وأمّا الثواب الأخروي للمؤمنين المتقين فقد ذكره الله تعالى في قوله: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾.

وقال عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ وهذه عبادة، ثم ذكر الأثر المترتب على ذلك بقوله: ﴿ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾، فإنَّ إصلاحَ الأعمال، ومغفرةَ الذنوب في الآخرة، من الآثار المترتبة على العبادة، فقد اشتملت هذه الآية الكريمة، على ذكر آثار تترتب على العبادة في الدنيا وفي الآخرة، ففي الدنيا إصلاح الأعمال والتوفيق والسداد، وأن يكون الإنسان يسير إلى الله عز وجل على بصيرة، وفي الآخرة مغفرة الذنوب، وتكفير السيِّئات.

وقال الله عز وجل: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ ﴾ فهذه الآية الكريمة فيها أنَّ تقوى الله عز وجل وهي عبادتُه وطاعته بامتثال أوامره واجتناب نواهيه يترتب عليها الإخراج من المآزق ومن الشدائد، وكذلك يرزق الله عز وجل مَن أطاعه واتقاه من حيث لا يحتسب.

وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴾ فإنَّ من الآثار المترتبة على تقوى الله عز وجل أن ييسِّر له الأمور، وأن يهيِّئ له سبل الخير، وأن يفتح الطرقَ التي توصله إلى سعادة الدنيا وسعادة الآخرة.

وقال عز وجل: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴾ وهذا من الثواب الأخروي المترتب على تقوى الله سبحانه وتعالى.

وقال عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ فهذه الآية الكريمة تدل على أنَّ مَن اتقى الله عز وجل، وعمل بطاعته وطاعة رسوله ﷺ يجعل له فرقاناً يفرق به بين الحق والباطل، ويسير إلى الله عز وجل على بصيرة وعلى هدى وهذا في الدنيا، وأمّا في الآخرة فيثيبه بتكفير السيِّئات ومغفرة

الذنوب، ومثل قول الله عز وجل في صدر هذه الآية ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ قول الله تعالى في آخر آية الدَّين: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾.

وقال تعالى فيما حكاه عن نوح وقومه: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ فإنَّ هذه الأمور من الآثار المترتبة على العبادة، فالعبادة هنا هي الاستغفار والآثار المترتبة عليها في هذه الآية هي أنه يرسل السماء عليهم مدراراً، ويُمددهم بالأموال والبنين، ويجعل لهم جنات ويجعل لهم أنهاراً.

ومثل هذه الآية ما ذكره الله عن هود وقومه في قوله: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾.

ومثلها أيضاً ما ذكره الله عن نبينا محمد ﷺ وقومه في قوله: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾.

وقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ ففي هذه الآية الكريمة أنَّ الإيمان والعمل الصالح يترتب عليهما أن يحي الإنسان حياة طيبة سعيدة، معمورة بتقوى الله وطاعته وطاعة رسوله صلوات الله وسلامه وبركاته عليه، مع ما يحصله من الثواب الجزيل في الآخرة.

ومِمَّا جاء في السنة المطهرة في بيان ما يترتب على العبادات من الآثار الطيبة في حياة المسلم ما جاء في وصية النَبيِّ الكريم ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما حيث قال عليه الصلاة والسلام في تلك الوصية العظيمة النفيسة: « احفَظ الله يحفظك،

احفظ الله تَجده تجاهك ... » رواه الترمذي (٢٥١٦) وقال: « حديث حسن صحيح ». وفي لفظ آخر عند الإمام أحمد (٢٨٠٣): « احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك تعرَّف إليه في الرَّخاء يعرفك في الشدة » وهذا الحديث هو الحديث التاسع عشر من الأربعين النووية وجاء في شرحها للحافظ ابن رجب في كتابه جامع العلوم والحكم معانٍ نفيسه في شرح هذا الحديث استفدت منه في بيان معاني هذه الجمل من الحديث، وحفظ الله عز وجل لعبده يدخل فيه نوعان: حفظه في بدنه وماله وأولاده وأهله، وكذلك حفظه في دينه بأن يَسلم من الشبهات المضلَّة ومن الشهوات المحرمة، فيكون بذلك على سداد وعلى استقامة في أمور دينه ودنياه، وهذا من حفظ الله عز وجل لِمَن حفظه، فالعبدُ يحفظ اللهَ عز وجل بحفظ حدوده والقيام بأوامره واجتناب نواهيه، واللهُ تعالى يثيبه على ذلك الحفظ حفظاً من جنس عمله، والجزاء من جنس العمل.

فإنَّ قوله: « يحفظك » هذا جزاء، وهو من الآثار المترتبة على العمل الصالح، وهو جزاء من جنس العمل، وقوله: « احفظ الله تجده تجاهك » أي: أنَّك تجد الله عز وجل أمامك فيحوطك ويرعاك، ويحفظك من كلِّ سوء، وقوله عليه الصلاة والسلام: « تعرَّف إليه في الرخاء يعرِفْك في الشدَّة » أي: أنَّك إذا لزمت طاعةَ الله وطاعة رسوله ﷺ في حال رخائك، وفي حال سعتك، فإنَّ الله عز وجل يُثيبك بأن يحفظَك في الشدائد وفي حال وقوعك في المآزق.

ومِمَّا يوضح أنَّ مَن تَعرَّف إلى الله عز وجل في الرخاء عرَفَه الله تعالى في الشدَّة ما جاء في قصة الثلاثة الذين آواهم المبيت إلى غار، فانحدرت عليهم صخرةٌ، وسدَّت بابَ الغار فلم يستطيعوا أن يخرجوا، فصاروا في قبرٍ وهم

أحياء فتذاكروا فيما بينهم، فرأوا أنَّ السببَ الذي يخلصهم الله عز وجل به مما هم فيه من الشدة، أن يبحثوا عن أعمال صالحة عملوها لله عز وجل في حال الرخاء، فيتوسلوا بها إلى الله عز وجل في هذه الشدَّةِ التي وقعوا فيها؛ فتوَسَّلَ أحدُهم إلى الله عز وجل بِبِرِّه لوالديه، وتوسَّلَ الثاني بتَركه الزنى مع قُدرَتِه عليه، وتوسَّل الثالثُ بحفظ حق أجيره وتنميته له لَمَّا ذهب قبل أخذه، فكلُّ واحد منهم توسَّل إلى الله عز وجل بعمل صالح عمله لله عز وجل في حال رخائه، فأزاح الله تعالى تلك الصخرة، وخرجوا يمشون.

وقصة هؤلاء الثلاثة جاءت في صحيح البخاري (٢٢١٥)، ومسلم (٢٧٤٣) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

ثم إنَّ من العبادات الصلاة والزكاة والصيام والحج، وكلُّ واحدة منها لها آثار طيبة في حياة المسلم.

فالصلاةُ هي عمود الإسلام، وهي التي تنهى عن الفحشاء والمنكر، وهي صلةٌ وثيقةٌ بين العبد وبين ربِّه، فإذا حافظ الإنسانُ على الصلوات في المساجد جماعة مع المسلمين فإنَّه تقوى صلته بالله عز وجل، لأنَّه يكون على صلة بالله دائماً وأبداً في اليوم والليلة، يصلي لله خمس مرات صلوات مفروضة، وكذا ما يأتي به من النوافل فإنَّ الله سبحانه وتعالي يثيبه على ذلك كلِّه، فيبعده عن الفحشاء والمنكر؛ لأنَّه إذا همَّ بمعصية وهمَّ بأمر منكر، تذكَّر لماذا يصلي؟ ولماذا يلازم الصلاة؟ إنَّه يفعل ذلك رغبة فيما عند الله من الثواب وخوفاً مما عنده من العقاب، فإنَّ صلاته تنهاه عن الفحشاء والمنكر، فيكون بعيداً عن الفحشاء وبعيداً عن المنكر، قال الله عز وجل: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾.

ثم إنَّ الزكاةَ آثارُها عظيمة؛ فهي تطَهِّر النفسَ من الشُّح والبخل، وتطهر المال، وتكون سبباً في نمائه وكثرته، ويحصل بها ما يسمى في هذا الزمان (بالتكافل الاجتماعي) وهو أنَّ الأغنياءَ عندما يخرجون زكاة أموالهم ويعطونها للفقراء، فإنَّ الفقراء تنسد بذلك حاجاتهم ويحصل لهم القوت بسبب هذا الحق الذي فرضه الله عز وجل في أموال الأغنياء، وقد جاء في حديث معاذ بن جبل المتفق على صحته قوله ﷺ: « فإن هم أجابوا لذلك ـ أي استجابوا للصلاة ـ فأَعلمهم أنَّ الله افترض عليهم صدقةً في أموالهم، تُؤخذ من أغنيائهم فتُرَدُّ على فقرائهم » ففي إخراج الزكاة نفعٌ كبير للأغنياء حيث تتطَهَّر نفوسُهم، وتنمو أموالُهم، ويُثابون على إحسانهم إلى إخوانهم المسلمين، الذين حصل لهم الفقر، وحصلت لهم الفاقةُ والشِّدَّةُ، فيحصل إغناؤهم بهذه الصدقة التي تَسدُّ حاجتهم، وتقضي عوزَهم، والله عز وجل فرض الزكاةَ في أموال الأغنياء على وجه ينفع الفقير، ولا يضر الغني، فهي جزءٌ يسيرٌ من مالٍ كثير تفضَّل الله عز وجل به وجاد، وأوجب ذلك القسط القليل الذي لا يؤثر على الغني إخراجه وهو ينفع ذلك الفقير الذي أعدم ولم يحصل له شيء من المال.

ومن الآثار الحسنة المترتبة على الصدقة والإحسان إلى المساكين ما جاء في صحيح مسلم (٢٩٨٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النَبيِّ ﷺ قال: « بينا رجلٌ بفلاة من الأرض، فسمع صوتاً في سحابة: اسق حديقةَ فلان، فتنحَّى ذلك السحاب فأفرغ ماءَه في حَرَّةٍ، فإذا شَرْجَةٌ من تلك الشِّرَاج قد استوعبت ذلك الماء كلَّه، فتتبَّع الماءَ فإذا رجلٌ قائمٌ في حديقة يحوّل الماء بِمِسْحَاتِه، فقال له: يا عبد الله ما اسمك؟ قال: فلان، للاسم الذي سمع في السحابة، فقال له: يا عبد الله لِمَ تسألني؟ فقال: إنِّي سمعت صوتاً في السحاب الذي هذا ماؤه يقول: اسق حديقة فلان لاسمك، فما تصنع فيها؟ قال: أمّا إذ قلت هذا، فإنِّي

أنظر إلى ما يخرج منها، فأتصدّق بثلثه، وآكل أنا وعيالي ثلثاً، وأردّ فيها ثلثه ».
وفي رواية له: « وأجعل ثلثَه في المساكين والسائلين وابن السبيل ».

وأمّا الصيامُ فإنَّ آثارَه عظيمةٌ، ونتائجَه كبيرةٌ، وذلك أنَّ في الصيام جُنَّةً، كما قال رسول الله ﷺ: « الصيامُ جُنَّة » رواه البخاري (١٨٩٤)، ومسلم (١١٥١)، فهو جُنَّةٌ من النار، ووقايةٌ منها في الدار الآخرة، وهو جُنَّةٌ من المعاصي؛ إذ إنَّ فيه إضعاف قوة الشهوة في النفس، فيكبح جِماحَها، ويحول بينها وبين أن تقع في المزالق، وتقع في الأمور المحرمة، بسبب التمتع بالنعم والتلذذ بها، فإنَّ النفس قد تقدم بسبب ذلك على ما لا تحمد عقباه في الدنيا والآخرة، ولهذا قال النَبِيُّ الكريم عليه الصلاة والسلام: « حُفَّت الجنّة بالمكاره، وحُفَّت النار بالشهوات » رواه البخاري (٦٤٨٧) ومسلم (٢٨٢٢)، واللفظ لمسلم، فالطريق إلى الجنّة يحتاج إلى صبر على طاعة الله عز وجل، ويحتاج إلى صبر عن المعاصي، والطريق إلى النار محفوفٌ بالشهوات، فإذا ابتعد الإنسانُ عن تلك الشهوات ظفر بالسلامة، وإذا أقدم على الشهوات فإنَّ ذلك قد يوقعه في الأمور المحرمة، وتكون لذة عاجلة ولكن يعقبها حسرةٌ وندامةٌ وخزيٌ وعارٌ في الدنيا والآخرة، وقد جاء في الحديث المتفق على صحته عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنَّ الرسول ﷺ قال: « يا معشرَ الشباب مَن استطاع منكم الباءَةَ فليتزوَّج، فإنَّه أحصنُ للفرج، وأغضُّ للبصر، ومن لَم يستطع فعليه بالصومِ، فإنَّه له وِجَاء »، فقد بيَّن عليه الصلاة والسلام أنَّ الإنسان إذا كان قادراً على الزواج، فعليه أن يبادرَ إليه ليُعفَّ نفسه، وليعفَّ غيره، وإذا كان غيرَ قادر فإنَّه يتعاطى هذا العلاج النبوي الذي أرشد إليه الرسول الكريم صلوات الله وسلامه وبركاته عليه وهو الصيام؛ لأنَّه حميةٌ ووقايةٌ من أن يقعَ الإنسانُ في المعاصي، وذلك لما يحصل في الصوم من إضعاف النفس وعدم تمكنها من

الأمور التي كانت تتمكَّن منها في حال التنعم في المآكل والمشارب.

والحاصل أنَّ هذا توجيهٌ نبويٌّ كريم من الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة وأتمّ التسليم للشباب أن يقدموا على الزواج إذا تمكنوا من ذلك وقدروا عليه، وإذا لم يستطيعوا فإنَّهم يكبحون جماح نفوسهم بالصيام.

وفي صيام الأغنياء إحساسهم بألم الجوع، فيتذكرون نعمةَ الله عليهم بالغنى فيشكرون الله عز وجل ويشعرون بأنَّ لهم إخواناً يتألَّمون من الجوع من غير صيام؛ لأنَّهم لا يجدون ما يسُدُّ رَمَقَهم فيكون ذلك حافزاً لهم على الإحسان إلى المساكين والبذل للمُعوزين والمحتاجين.

وأمّا الحجُّ فإنَّه عبادة عظيمة، افترضها الله عزَّ وجلَّ على عباده في العمر مرة واحدة، وهي تشتمل على أمور تتعلَّق بالمال، وأمور تتعلَّق بالبدن، ولها آثارٌ طيبة، ونتائج حميدة في حياة الإنسان، وقد جاء عن النَبِيِّ الكريم عليه الصلاة والسلام: « العمرةُ إلى العمرة كفارةٌ لِمَا بينهما، والحجُّ المبرورُ ليس له جزاء إلَّا الجنّة » رواه البخاري (١٧٧٣)، ومسلم (١٣٤٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه، وسُئل رسولُ الله ﷺ عن أفضل الأعمال فقال: « الإيمانُ بالله ورسوله، قيل: ثمَّ ماذا؟ قال: الجهادُ في سبيل الله، قيل: ثمَّ ماذا؟ قال: حَجٌّ مبرور » رواه البخاري (٢٦)، ومسلم (٨٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه، وقال رسول الله ﷺ: « مَن حَجَّ لله فلم يرفث ولَم يفسق رجع كيوم ولَدته أمُّه » رواه البخاري (١٥٢١)، ومسلم (١٣٥٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه، والحجُّ المبرورُ هو الذي يأتي به الإنسان مطابقاً لسنة النَبِيِّ الكريم عليه الصلاة والسلام، وعلامتُه أن يكون بعد الحجِّ أحسنَ منه قبل الحجّ، فإذا تحوَّلت حالُ الإنسان بعد الحجِّ من حال سيِّئةٍ إلى حال حسنة، أو من حالَ حسنة إلى حال أحسن فهي العلامةُ الواضحةُ لكون حجِّه مبروراً.

ثمّ أيضاً يترتب على أداء الحجّ والعمرة أنَّه يتقرَّب إلى الله عز وجل بعبادات لا وجود لها إلَّا في ذلك المكان، مثل الطواف، فإنَّ الطوافَ عبادةٌ جعلها الله من خصائص بيته العتيق، فإذا وصل إلى مكة طاف بالبيت العتيق، وتقرَّب إلى الله عز وجل بعبادة لو لم يصل إلى مكة لما تقرّب إليه بها؛ لأنَّه لا وجود لها إلَّا حول الكعبة المشرّفة، ويستذكر بذلك ويستشعر أنَّ أيَّ طواف يكون في أي مكان من الأرض ليس مِمَّا شرعه الله عز وجل، فلا يجوز لأحد أن يطوفَ بضريح من الأضرحة، أو بأيِّ بقعة من الأرض سوى الكعبة المشرّفة. ومن ذلك تقبيل واستلام الحجر الأسود، واستلام الركن اليماني، فإنَّ الله عز وجل لَم يشرع للمسلمين أن يتقربوا إليه بتقبيل حجارة أو استلامها إلَّا في هذين الموضعين، ولهذا لَمَّا جاء عمر بن الخطّاب رضي الله تعالى عنه وأرضاه إلى الحجر الأسود وقبَّلَه قال: «إنِّي أعلم أنَّك حجرٌ لا تَضرُّ ولا تنفع، ولولا أنِّي رأيتُ رسولَ الله ﷺ يُقبِّلُك ما قَبَّلْتُك» رواه البخاري (١٥٩٧)، ومسلم (١٢٧٠).

ومن الآثار المترتبة على الحجّ والعمرة أنَّ المُحرِمَ عندما يتَجَرَّد من ثيابه ويلبس إزاراً ورداءً يستوي فيه الغنِيُّ والفقير، يتذكر بهذا اللباس لباسَ الأكفان عند الموت، فيستعد له بالأعمال الصالحة التي هي خير زاد كما قال تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾.

ومن ذلك أيضاً أنّ في اجتماع الحجّاج في عرفة تذكيراً باجتماع الناس في الموقف يوم القيامة فيكون ذلك حافزاً للاستعداد لذلك اليوم بالأعمال الصالحة.

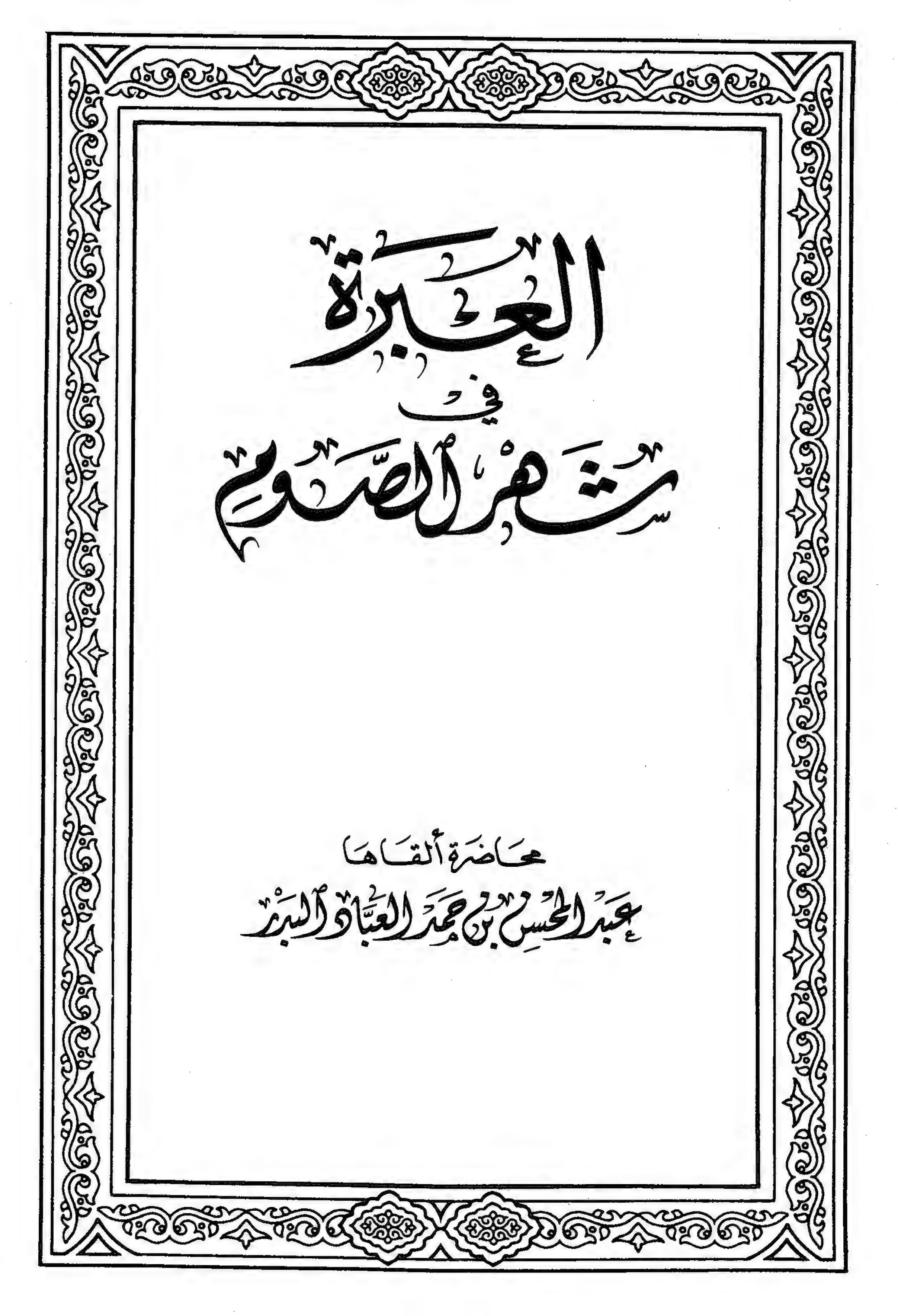
وفي الحجّ يلتقي المسلمون من مشارق الأرض ومغاربها، فيتعارفون، ويتناصحون، ويعرف بعضُهم أحوالَ بعض، فيتشاركون في الأفراح والمسرَّات،

كما يشارك بعضهم بعضاً في آلامه، ويرشده إلى ما ينبغي له فعله، ويتعاونون جميعاً على البر والتقوى كما أمرهم الله سبحانه بذلك.

والحاصل أنّ هذه العبادات العظيمة التي شرعها الله عز وجل، وبنَى عليها دينَه الحنيف، تترتب عليها آثار طيبة في حياة المسلم الدنيوية، وآثار عظيمة في حياته الأخروية.

وأسأل الله عز وجل أن يوفقنا جَميعاً لما يرضيه، وأن يجعلنا مِمَّن يستمع القولَ فيتبع أحسنه، وأن يجعلنا هداةً مهتدين، إنَّه سبحانه جوادٌ كريم، وصلَّى الله وسلم وبارك وأنعم على خير أنبيائه ورسله نبيِّنا وإمامنا وسيدنا محمد بن عبد الله، وعلى آله وأصحابه، ومَن سلك سبيلَه واهتدى بهداه، والحمد لله ربّ العالمين، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.





العبرة في شهر الصوم

محاضرة ألقاها

عبد المحسن بن حمد العباد البدر



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه، أما بعد، فهذه المحاضرة: العبرة في شهر الصوم، فأقول:

الدنيا دار ابتلاء وامتحان

خلق الله عباده ليعبدوه وحده لا شريك له وقال في كتابه العزيز: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات:٥٦]، وأرسل رسله الكرام ليرسموا لهم طريق العبادة، وقال: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل:٣٦]، وجعل حياتهم الدنيوية موطنا لابتلائهم وامتحانهم أيهم أحسن عملاً، وقال: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الملك:٢]، ثم قال: ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾ مبيناً أن هؤلاء الممتحنين منهم من يحسن في عمله فيجازي بما يقتضيه اسمه الغفور ومنهم من يسيء فيكون مستحقاً للعقوبة بما يقتضيه اسمه العزيز وذلك كقوله تعالى: ﴿ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴾ [الحجر:٤٩-٥٠].

موسم من مواسم الآخرة

وكما فضل الله بعض البشر على بعض وبعض الأماكن على بعض، فضّل بعض الزمان على بعض، ومن ذلك تفضيل شهر رمضان المبارك وتمييزه على غيره واختياره ليكون محلاً لإيجاب الصوم على الناس ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ﴾ [القصص:٦٨]. فلقد فضل الله هذا الشهر وجعله موسماً من مواسم الآخرة يتنافس فيه بعبادة الله المتنافسون ويتسابق فيه لتحصيل الفوز والزلفى

عند الله المتسابقون، يتقربون فيه إلى ربهم بصيام النهار وقيام الليل وتلاوة كتابه العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، ويتقربون إلى الله بهذا وغيره من الطاعة مع الحذر والبعد عن المعصية يرجون تجارة لن تبور ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله إنه غفور شكور.

زيادة في الخير

ولما فرض الله على العباد صيام شهر رمضان رغبهم رسول الله ﷺ بعد إنهائه بصيام ست من شوال ليعظم لهم الأجر وليكونوا كمن صام الدهر، فعن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « من صام رمضان ثم أتبعه ستاً من شوال كان كصيام الدهر ». قال الحافظ المنذري: رواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه والطبراني. وزاد وقال: قلت: بكل يوم عشرة. قال: « نعم ». ورواته رواة الصحيح. انتهى.

وذلك أن السنة أقصى حد لها ثلاثمائة وستون يوماً، فإذا أضيف إلى شهر رمضان ستة أيام من شوال وصيام كل يوم بعشرة أيام لأن الحسنة بعشر أمثالها يكون المسلم كأنه صام السنة كلها، ولهذا قال ﷺ: « كان كصيام الدهر » وذلك فضل عظيم من الله فله الحمد والشكر على نعمه التي لا تحصى ولا تعد.

من خير إلى خير

ومن فضل الله وإحسانه إلى عباده أن يسر لهم الأسباب التي ترفع في درجاتهم وتجعلهم على صلة وثيقة دائمة بعبادة ربهم فإذا مرت بهم أيام وليالي شهر رمضان التي يكفر الله فيها السيئات ويرفع الدرجات ويقيل العثرات تقربوا فيها إلى ربهم فإذا ما تصرمت أيامه وانتهت تلتها مباشرة أشهر الحج إلى

بيت الله الحرام فإن يوم عيد الفطر الذي هو أول يوم من شهر شوال هو أول يوم في أشهر الحج التي قال الله تعالى فيها: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة:١٩٧]. نعم إذا انتهت أيام شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن المبارك الذي تفتح فيه أبواب الجنة وتغلق فيه أبواب النار وتصفد الشياطين، أيام الصيام التي قال الله تعالى عنها في الحديث القدسي: «كل عمل ابن آدم له، الحسنة بعشر أمثالها إلّا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به»، إذا انتهت هذه الأيام جاءت بعدها أيام الحج الذي قال عنه رسول الله ﷺ: «من حج ولم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه». رواه البخاري ومسلم وغيرهما، وقال عنه ﷺ: «العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما والحج المبرور ليس له جزاء إلّا الجنة». رواه البخاري ومسلم وغيرهما، فلا يكاد المسلم يودع موسما من مواسم الآخرة إلّا ويستقبل موسماً آخر ليكون على صلة مستمرة بعبادة خالقه وبارئه الذي أوجده من العدم وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة.

العبرة من شهر الصوم

وهذا الموسم المبارك من مواسم الآخرة قد ودعته الأمة الإسلامية منذ أيام فطوبى لمن وفقه الله فيه للأعمال الصالحة وتفضل عليه بقبولها ويا خسارة من مرت به أيامه دون أن يقدم فيها لنفسه صالحاً يلقاه إذا غادر هذه الدار وما أعظم مصيبته إن كان قد شغل أيامه بما يرضي الشيطان ويتفق مع ما تهواه النفس الأمارة بالسوء والعياذ بالله.

وهذا الموسم العظيم الذي مرت بنا أيامه يشتمل على فوائد جمّة وعلى عبر

وعظات تبعث في النفس محبة الخير ودوام التعلق بطاعة الله كما تكسب النفس بغض المعصية والبعد من الوقوع فيما يسخط الله ﷻ.

وسأحاول في هذه الكلمات تسجيل بعض تلك العبر والعظات التي يخرج بها المسلم معه من شهر الصيام والتي هي الحصيلة الطيبة له في تلك الأيام المباركة فأقول مستمداً من الله التوفيق والتسديد:

أولاً:

إن أيام شهر رمضان إذا مرت بالمسلم فهي فرصة من فرص العمر قد تسنح له هذه الفرصة مرة أخرى أو أكثر وقد يوافيه الأجل المحتوم قبل بلوغ ذلك، والمهم في الأمر أن تكون هذه الفرصة قد انتهزت بشغلها في الطاعة والبعد من المعصية وأهم من ذلك أن تحصل المداومة على ذلك، فإن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها كما أن من العقوبة على السيئة السيئة بعدها وذلك أن المسلم الناصح لنفسه إذا وفق لبلوغ هذا الشهر المبارك شغله في طاعة ربه الذي خلقه لعبادته وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة فارتاحت نفسه للأعمال الصالحة وتحرك قلبه للآخرة التي هي المستقر والمنتهى والتي لا ينفع الإنسان فيها إلَّا ما قدمت يداه يوم لا ينفع مال ولا بنون إلَّا من أتى الله بقلب سليم، نعم إذا ألفت النفس الطاعة في تلك الأيام المباركة رغبة فيما عند الله وكفت عن المعصية خوفاً من عقاب الله فالفائدة التي يكتسبها المسلم من ذلك والعبرة التي يجب أن تكون معه بعد ذلك أن يلازم فعل الطاعات واجتناب المنهيات لأن الله تعبد عباده حتى الممات ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾ [الحجر:٩٩]، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ [آل عمران:١٠٢]، فلا يليق بالمسلم وقد ذاق طعم الطاعة في شهر

الصيام أن يحل محل تلك الحلاوة مرارة المعصية، ولا يسوغ له إذ أرغم عدوه في شهر الصيام أن يدخل عليه السرور في شهر شوال وما بعده من الشهور وليس من صفات المسلم الناصح لنفسه أن يودع فعل الخيرات مع توديع شهر الصيام فيستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير فالمعبود في رمضان وغير رمضان حي لا يموت قيوم لا ينام، يرفع إليه عمل النهار قبل عمل الليل وعمل الليل قبل عمل النهار، لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيما.

ثانياً:

الصيام سر بين العبد وبين ربه لا يطلع على حقيقته إلَّا هو سبحانه وتعالى ولهذا جاء في الحديث الصحيح يقول الله تعالى: «كل عمل ابن آدم له، الحسنة بعشر أمثالها إلَّا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به، يدع شهوته وطعامه وشرابه من أجلي»، وذلك أن بإمكان العبد أن يختفي عن الناس ويغلق على نفسه الأبواب ويأكل ويشرب ثم يخرج إلى الناس ويقول إنه صائم ولا يعلم ذلك إلَّا الله تبارك وتعالى، ولكن يمنعه من ذلك اطلاع الله عليه ومراقبته له وهذا شيء يحمد عليه الإنسان والعبرة من ذلك أن يدرك أيضاً أن الذي يخشى إذا أخل الإنسان بصيامه هو الذي يخشى إذا أخل الإنسان بصلاته وزكاته وحجه وغير ذلك مما أوجبه الله، فالذي فرض الصيام هو الذي فرض الصلاة، والصلاة هي أعظم أركان الإسلام بعد شهادة أن لا إله إلَّا الله وأن محمداً رسول الله، ولعظم شأنها وكونها هي الصلة المستمرة ليلا ونهارا بين العبد وبين ربه افترضها الله على نبيه ليلة عرج به إلى السماء فإذا وجد المسلم أن إخلاله بالصيام كبير وعظيم، فيجب أن يجد ويدرك أن حصول ذلك منه في الصلاة

أكبر وأعظم وتلك من أجل الفوائد وأعظم العبر التي يستفيدها المسلم من شهر الصيام.

ثالثاً:

إنَّ مما يشرح الصدر ويدخل السرور على النفوس الطيبة أن تكون المساجد عامرة بالمصلين في شهر رمضان ويكون انشراحها أعظم والسرور أكبر في المداومة على ذلك، فالفائدة التي يليق بالمسلم بعد الذي شاهده في تلك الأيام من اكتظاظ المساجد بالمصلين أن يعقد العزم ويصمم على أن يكون ممن يداوم على هذا الخير ليكون من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلَّا ظله، فإن من بينهم الرجل الذي يكون قلبه معلقاً بالمساجد، كما ثبت ذلك في الصحيح عن رسول الله ﷺ.

رابعاً:

وجوب الصيام عن الطعام والشراب وسائر المفطرات محله شهر رمضان، أما الصيام عن الحرام فمحله طيلة عمر الإنسان فالمسلم يصوم في أيام شهر رمضان عن الحلال والحرام ويصوم طيلة حياته عن الحرام، فالصيام عن الحلال والحرام معا قد مرت أيامه أما الصيام عن الحرام فهو مستمر دائم، وذلك أن الصوم في اللغة: الإمساك عن الشيء، والصوم الشرعي: هو الإمساك عن الأكل والشرب وسائر المفطرات من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، والمعنى الشرعي جزء من جزئيات المعنى اللغوي فكما يطلق المعنى اللغوي على المعنى الشرعي فهو يشمله ويشمل غيره ومن ذلك الامتناع عن الحرام، فامتناع العين واللسان والأذن واليد والرجل والفرج عما منعت منه هو

صيام من حيث اللغة وذلك أن الله تفضل على العباد بهذه النعم التي لا غنى لهم عنها ولكن الله كما امتن عليهم بها أوجب عليهم استعمالها فيما يرضيه وحرم عليهم استعمالها فيما يسخطه، ومن أعظم شكر الله على هذه النعم أن يكون المسلم مستعملاً لها حيث أمر أن يستعملها فيه ممتنعا عن استعمالها في معصية من تفضل بها وبكل نعمة ظاهرة وباطنة سبحانه وتعالى.

فالعين شرع استعمالها في النظر إلى ما أحل الله ومنع من استعمالها في النظر إلى الحرام وامتناعها عن ذلك صيامها وحكمه مستمر دائم.

والأذن شرع استعمالها في استماع ما أبيح لها وحرم على العبد استعمالها في سماع ما لا يجوز سماعه، وامتناعها عن ذلك صيامها وحكمه مستمر دائم.

واليد شرع استعمالها في تعاطي ما هو مباح ومنع من استعمالها في كل حرام وامتناعها من ذلك صيامها وحكمه مستمر دائم.

والرجل شرع استعمالها في المشي إلى كل خير ومنع من المشي فيها إلى الحرام وامتناعها عن ذلك صيامها وحكمه مستمر دائم.

والفرج أبيح استعماله في الحلال ومنع من استعماله في الحرام وامتناعه من ذلك صيامه وحكمه مستمر دائم.

وقد وعد الله من شكر هذه النعم واستعملها حيث أمر الله أن تستعمل وعده بالثواب الجزيل وتوعد من لم يحافظ عليها ولم يراع ما أريد استعمالها فيه بل أطلقها فيما يسخط الله ولا يرضيه بل يرضي الشيطان الذي هو عدو الله وعدو المخلصين من عباد الله، توعده بعقابه وأخبر أن هذه الجوارح مسؤولة يوم القيامة عنه وهو مسؤول عنها فقال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء:٣٦]،

وقال تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [يس:٦٥]، وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [فصلت:١٩-٢١].

وقال ﷺ لمعاذ بن جبل رضي الله عنه بعد أن أمره بحفظ اللسان. وقال له معاذ: يا نبي الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ قال عليه الصلاة والسلام: « ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم أو قال على مناخرهم إلّا حصائد ألسنتهم؟ ». رواه الترمذي. وقال ﷺ: « من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة ». رواه البخاري في صحيحه من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه، وروراه الترمذي وحسنه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ولفظه: « من وقاه الله شر ما بين لحييه وما بين رجليه دخل الجنة ».

وقال ﷺ: « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت ». رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه وأخرجا من حديث أبي موسى رضي الله عنه مرفوعاً: « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ». وقال ﷺ: « إنَّ المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتي وقد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار ». رواه مسلم. وقال ﷺ: « حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات ». أخرجه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

والحاصل أنَّ الله أوجب على العبد أن يصون لسانه وفرجه وسمعه وبصره ويده ورجليه عن الحرام وهو صيام من حيث اللغة، وهذا الصيام لا يختص بوقت دون آخر بل يجب الاستمرار عليه حتى الممات طاعة لله تعالى ليفوز برضى الله ويسلم من سخطه وعقوبته، فإذا أدرك المسلم أنه في شهر الصيام امتنع عما أحل الله له، لأن الله حرم عليه تعاطي ذلك في أيام شهر رمضان فالعبرة من ذلك أن يدرك أن الله قد حرم عليه الحرام مدة حياته وعليه الكف عن ذلك والامتناع منه دائما خوفا من عقاب الله الذي أعده لمن خالف أمره وفعل ما نهى عنه.

وقد أخبر عليه الصلاة والسلام في الحديث القدسي عن ربه أن للصائم فرحتين، فرحة عند فطره وفرحة عند لقاء ربه، فالصائم يفرح عند فطره؛ لأنه قد وفق لإنهاء الصيام الذي جزاؤه عظيم عند الله ويفرح الفرحة الكبرى عند لقاء ربه حيث يجازيه على صيامه الجزاء الأوفى.

ومن حفظ لسانه عن الفحش وقول الزور وفرجه عما حرم الله عليه ويده من تعاطي ما لا يحل تعاطيه وسمعه من سماع ما يحرم سماعه وبصره عما حرم الله النظر إليه واستعمل هذه الجوارح فيما أحل الله من حفظها وحافظ عليها حتى توفاه الله، فإنه يفطر بعد صيامه هذا على ما أعده الله لمن أطاعه من النعيم وأول ما يلاقيه من ذلك ما بينه رسول الله ﷺ مما يجري للمؤمنين عند الانتقال من هذه الدار إلى الدار الآخرة حيث يأتيه في آخر لحظاته في الدنيا ملائكة كأن على وجوههم الشمس معهم كفن من الجنة وحنوط من الجنة يتقدمهم ملك الموت فيقول: « يا أيتها النفس الطيبة أخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان »، فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء إلى آخر ما بينه الرسول الكريم

ﷺ مما يجري بعد ذلك، وهذه هي البوادر الطيبة التي يجدها أمامه من حرص على سعادة نفسه وسعى في خلاصها مما يفضي بها إلى الهلاك والدمار، ولهذا أرشد النبيُّ صلوات الله وسلامه عليه الرجل الذي سأله عن قيام الساعة إلى ما هو أهم من قيامها وهو الاستعداد لها بالأعمال الصالحة فإنه ﷺ قال لمن سأله عن قيامها: « وماذا أعددت لها »، مبينا أن الإنسان في حياته الدنيوية عليه الاستعداد لحياته الأخروية وقد قال الله تعالى: ﴿ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [البقرة:١٩٧]، وذلك أن كل سفر لابد فيه من زاد يناسبه والسفر إلى الآخرة زاده تقوى الله والعمل بطاعته والسير على النهج القويم الذي جاء به رسوله الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

كلمة ختامية

وأختم هذه المحاضرة بكلمة تخصنا معشر الذين امتن الله عليهم بسكنى طيبة الطيبة دار الهجرة والعاصمة الأولى للمسلمين فأقول: إن شهر رمضان المبارك شهر شرفه الله وخصه بخصائص لا توجد في غيره وقد ودعناه نحن وسائر الأمة الإسلامية منذ أيام، ونرجو أن نكون جميعاً ممن فاز برضى الرب جلّ جلاله والذي أحب أن أذكره هنا هو أنه إذا كان هذا الوقت المفضل والزمن المقدس قد مضى وذهب عنا وعن سائر المسلمين في كل مكان فإن لدينا ولله الحمد والمنة المكان المقدس، فقد جمع الله لنا في شهر رمضان بين شرف الزمان وشرف المكان وإذ ذهب شرف الزمان فإن شرف المكان باق موجود، فها هي بين أيدينا سوق من أسواق الآخرة مسجد النبي ﷺ فقد قال ﷺ: « صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلّا المسجد الحرام »، إنه لفضل عظيم من الله، صلاة في هذا المسجد المبارك مسجد

الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام تفوق ألف صلاة في سائر المساجد سوى المسجد الحرام، إن المشتغلين في التجارة الدنيوية يتحرون المواسم التي تنفق فيها السلع وتروج فيها التجارة فيتجشمون الأخطار ويقطعون الفيافي وينتقلون بتجارتهم من مكان إلى آخر إذا علموا أن السلعة التي تساوي ريالاً واحداً قد تباع بريالين اثنين، هذا أمر لا مرية فيه ولا شك، ونحن في هذا البلد الطيب الصلاة الواحدة في مسجد سيد ولد آدم عليه الصلاة والسلام لا تساوي صلاتين أو ثلاثا أو عشراً أو مائة فحسب بل تفوق ألف صلاة في غيره سوى المسجد الحرام. سبحان الله ما أعظم فضله وأوسع جوده وإحسانه فله الحمد والشكر على نعمه.

ولا يفوتني أن أقول: كما أن النعمة من الله علينا في سكنى طيبة الطيبة عظيمة والمنة جسيمة، فإن علينا أن لا ننسى أنه على قدر النعمة تكون المسؤولية فكما أن الإحسان في هذا المكان المقدس أجره عظيم عند الله فإن الإساءة فيه ليست كالإساءة في الأمكنة الأخرى التي لا تفضيل فيها، فمن يعصي الله بعيدا عن الحرم ليس كمن يعصيه في الحرم وليس من يرتكب الحرام وهو في المشرق والمغرب كمن يقترف الذنوب في مكة المكرمة أو المدينة المنورة فإن البون شاسع بين هذا وذاك، فالمدينة المنورة أعز مكان وأقدس بقعة على وجه الأرض بعد مكة المكرمة فهي تلي مكة في الفضل ويليها المسجد الأقصى وهذه المدينة المباركة هي منطلق الرسالة ومنها شع النور إلى سائر أنحاء الأرض وهي المركز الرئيسي والعاصمة الأولى للمسلمين في زمن الرسول ﷺ منذ هاجر إليها وفي زمن أبي بكر وعمر وعثمان وبعض من عهد عليّ رضي الله عن الجميع، وفيها قُبِر رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان وكثير من الصحابة رضوان الله عليهم، وعلى هذه الأرض نزل جبريل عليه السلام

بالوحي من الله إلى محمد عليه الصلاة والسلام وهي الأرض المشتملة على أول جامعة إسلامية أبرز خريجيها أبو بكر الصديق وعمر الفاروق وعثمان ذو النورين وعليّ أبو الحسنين رضي الله عنهم وعن سائر الصحابة أجمعين، وهي الأرض التي مستها أقدام صفوة الصفوة وخلاصة الخلاصة من البشر بعد الأنبياء أصحاب رسول الله ﷺ ورضي الله عنهم أجمعين، فجدير بنا وقد أكرمنا الله بالبقاء فيها أن نتزود فيها من الأعمال الصالحة التي تنفعنا بعد الموت وأن نكون على حذر من الوقوع فيها بما يسخط الله عز وجل.

وأسأل الله تعالى أن يجعلنا جميعاً ممن تقبل الله صيامه وقيامه وأن يرزقنا في هذا البلد الطيب طيب الإقامة وحسن الأدب وأن يحسن لنا الختام، كما أرجوه سبحانه أن يمن على المسلمين في سائر أنحاء الأرض بالرجوع إلى كتاب ربهم وسنّة رسوله ﷺ ليفوزوا بسعادة الدنيا والآخرة إنه سميع مجيب وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله وخليله وخيرته من خلقه محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه ومن سلك سبيله واهتدى بهديه إلى يوم الدين[١].

* * *

(١) محاضرة ألقيت في مدرسة طيبة الثانوية بالمدينة المنورة ونشرت في العدد الثاني من السنة الثالثة لمجلة الجامعة الإسلامية الصادر في شهر شوال عام ١٣٩٠هـ.

مِن
فَضَائِلِ الحَجِّ وَفَوائِدِه

تأليف

عبد المحسن بن حمد العبّاد البدر



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وصلى الله وسلم على رسول الله وعلى آله وصحبه، وبعد، فهذه كلمة تشتمل على ذكر بعض فضائل الحج وفوائده، فأقول:

الحج عبادة من العبادات التي افترضها الله وجعلها إحدى الدعامات الخمس التي يرتكز عليها الدين الإسلامي والتي بينها الرسول ﷺ بقوله في الحديث الصحيح: « بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلَّا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج بيت الله الحرام ».

وقد حج بالناس رسول الله ﷺ في السنة العاشرة من الهجرة حجته التي رسم لأمته فيها كيفية أداء هذه الفريضة وحث على تلقي ما يصدر منه من قول وفعل فقال ﷺ: « خذوا عني مناسككم فلعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا »، فسميت حجته ﷺ حجة الوداع، وقد رغب ﷺ أمته في الحج وبين فضله وما أعد الله لمن حج وأحسن حجه من الثواب الجزيل فقال ﷺ: « من حج ولم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه ». رواه البخاري ومسلم. وقال ﷺ: « العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما والحج المبرور ليس له جزاء إلَّا الجنة ». متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وفي الصحيحين أيضا عنه رضي الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ أي العمل أفضل؟ قال: « إيمان بالله ورسوله »، قيل: ثم ماذا؟ قال: « الجهاد في سبيل الله »، قيل: ثم ماذا؟ قال: « حج مبرور ». وفي صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال لعمرو بن العاص رضي الله عنه عند إسلامه: « أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها وأن الحج يهدم ما كان

قبله... »، وروى البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: يا رسول الله نرى الجهاد أفضل العمل أفلا نجاهد؟ قال: « لا، ولكن أفضل الجهاد حج مبرور ». ويتضح من هذه الأحاديث وغيرها فضل الحج وعظم الأجر الذي أعده الله للحجاج ويتضح أن هذا الثواب العظيم إنما هو لمن كان حجه مبروراً فما هو بر الحج الذي رتب الله عليه ذلك الثواب العظيم؟

أن بر الحج أن يأتي المسلم بحجه على التمام والكمال خالصاً لوجه الله وعلى وفق سنة رسوله ﷺ، وأن يحافظ فيه على امتثال أوامر الله واجتناب نواهيه، وامتثال الأوامر واجتناب النواهي لازم للمسلم دائما وأبداً ولكنه يتأكد في الأزمنة والأمكنة الفاضلة لأن الله خلق الخلق لعبادته وهي طاعته بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، قال الله تعالى: ﴿ **ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً** ﴾ [الملك:٢]، وقال تعالى: ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ** ﴾ [الذاريات:٥٦].

فيكون المسلم ملازما للطاعة وبعيدا عن المعصية حين حجه وقبله وبعده ليوافيه الأجل المحتوم وهو على حالة حسنة فتكون نهايته طيبة وعاقبته حميدة كما قال الله تعالى: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ** ﴾ [آل عمران:١٠٢]، وقال تعالى: ﴿ **وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ** ﴾ [الحجر:٩٩]، وقال ﷺ: « وإنما الأعمال بالخواتيم ».

ومن البر في الحج أن يحرص أثناءه على التأمل في أسراره وعبره والوقوف على ما فيه من فوائد عاجلة وآجلة وهي كثيرة أجملها الله تعالى في قوله: ﴿ **لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ** ﴾ [الحج:٢٨]، وفيما يلي إشارة إلى بعض هذه الفوائد والأسرار التي تضمنتها هذه الجملة من الآية:

أولاً:

إنَّ صلة المسلم ببيت الله الحرام صلة وثيقة تنشأ هذه الصلة منذ بدء انتمائه لدين الإسلام وتستمر معه ما بقيت روحه في جسده، فالصبي الذي يولد في الإسلام أول ما يطرق سمعه من فرائض الإسلام أركانه الخمسة التي أحدها حج بيت الله الحرام. والكافر إذا شهد شهادة الحق لله بالوحدانية ولنبيه محمد ﷺ بالرسالة، الشهادة التي كان بها من عداد المسلمين أول ما يوجه إليه من فرائض الإسلام بقية أركانه بعد الشهادتين وهي إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج بيت الله الحرام. وأول أركان الإسلام بعد الشهادتين الصلوات الخمس التي افترضها الله على المسلمين في كل يوم وليلة وجعل استقبال بيت الله الحرام شرطا من شروطها، فصلة المسلم ببيت الله الحرام مستمرة في كل يوم وليلة يستقبله مع القدرة في كل صلاة يصليها فريضة كانت أو نافلة كما يستقبله في الدعاء.

وهذه الصلات الوثيقة التي حصل بها الارتباط بين قلب المسلم وبيت ربه بصفة مستمرة تدفع بالمسلم ولابد إلى الرغبة الملحة في التوجه إلى ذلك البيت العتيق ليمتع بصره بالنظر إليه ولأداء الحج الذي افترضه الله على من استطاع السبيل إليه. فالمسلم متى استطاع الحج بادر إليه أداء للفريضة ورغبة في مشاهدة البيت الذي يستقبله في جميع صلواته وليشهد المنافع التي نوه الله بشأنها في قوله: ﴿لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ﴾. فإذا وصل المسلم إلى بيت ربه رأى بعيني رأسه أشرف بيت وأقدس بقعة على وجه الأرض الكعبة المشرفة ملتقى وجهات المسلمين في صلاتهم في مشارق الأرض ومغاربها ورأى المسلمين مستديرين حول هذا البيت في صلواتهم وأصغر دائرة هي التي تلي الكعبة ثم التي تليها وهكذا حتى تكون أكبر دائرة في أطراف الأرض فالمسلمون في

صلواتهم مستقبلين بيت ربهم يشكلون نقاط محيطات لدوائر صغيرة وكبيرة مركزها جميعا الكعبة المشرفة.

ثانياً:

إذا يسر الله للمسلم التوجه إلى بيت ربه ووصل إلى الميقات الذي وقته رسول الله ﷺ للإحرام تجرد من ثيابه ولبس إزاراً على نصفه الأسفل ورداء على نصفه الأعلى مما دون رأسه وفي هذه الهيئة من اللباس يستوي الحجاج لا فرق بين الغني والفقير والرئيس والمرؤوس وتساويهم في ذلك يذكر بتساويهم في لباس الأكفان بعد الموت. فإن الكل يجردون من ملابسهم ويلفون بلفائف لا فرق فيها بين الغني والفقير. فإذا تجرد الحاج من لباسه ولبس لباس الإحرام تذكر الموت الذي به تنتهي الحياة الدنيوية وتبتدىء الحياة الأخروية فاستعد لما بعده بالأعمال الصالحة والابتعاد عن المعاصي وهذا الاستعداد هو الزاد الذي نوه الله بذكره في قوله: ﴿ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ [البقرة:١٩٧]، ولهذا لما سأل رجل النبي ﷺ قائلاً: متى الساعة؟ قال له: « وماذا أعددت لها »...منبها بذلك صلوات الله وسلامه عليه إلى أن أهم شيء للمسلم أن يكون معنيا بما بعد الموت مستعدا له في جميع أحواله بفعل المأمورات واجتناب المنهيات ...

ثالثاً:

إذا دخل المسلم في النسك لبّى بالتوحيد قائلاً كما قال ﷺ في تلبيته: « لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك ». يقولها وهو مستشعر لما دلت عليه من إفراد الله بالعبادة وأنه

وحده الذي يخص بها دون ما سواه فكما أنه سبحانه وتعالى المتفرد بالخلق والإيجاد فهو الذي يجب أن تفرد له العبادة دون غيره كائناً من كان، وصرف شيء منها لغير الله هو أظلم وأبطل الباطل. وهذه الكلمة يقولها المسلم إجابة لدعوة الله عباده لحج بيته الحرام. فيستشعر المسلم عظمة الداعي وعظم أهمية المدعو إليه فيسعى في الإتيان بما دعي إليه على الوجه الذي يرضي ربه تعالى مع استيقانه بأن المدار في هذه العبادة وغيرها من العبادات على الإخلاص لله كما دلت عليه كلمة التوحيد التي تضمنتها هذه التلبية وعلى المتابعة لرسول الله ﷺ كما أرشد إلى ذلك ﷺ في حجته حيث قال: « خذوا عني مناسككم ».

رابعاً:

وإذا وصل المسلم إلى الكعبة المشرفة يشاهد عبادة الطواف حولها وهي عبادة لا تجوز في الشريعة الإسلامية إلَّا في هذا المكان، وكل طواف في غير ذلك المكان إنما هو من تشريع الشيطان ويدخل فاعله في جملة من عناهم الله بقوله: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى:٢١].

ويشاهد أيضا تقبيل الحجر الأسود واستلامه واستلام الركن اليماني، ولم تأت الشريعة بتقبيل أو استلام شيء من الأحجار والبنيان إلَّا في هذين الموضعين، ولما قبل عمر بن الخطاب رضي الله عنه الحجر الأسود بيّن أنه فعل ذلك متبعا للرسول ﷺ في تقبيله إياه وقال: « ولولا أني رأيت النبي ﷺ يقبلك ما قبلتك ».

خامساً:

ويشهد الحاج في حجه أعظم تجمع إسلامي وذلك في يوم عرفة في عرفة إذ يقف الحجاج جميعا فيها ملبين مبتهلين إلى الله يسألونه من خير الدنيا والآخرة.

وهذا الاجتماع الكبير يذكر المسلم بالموقف الأكبر يوم القيامة الذي يلتقي فيه الأولون والآخرون ينتظرون فصل القضاء ليصيروا إلى منازلهم حسب أعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر. فيشفع لهم جميعاً إلى الله عبده ورسوله محمد ﷺ ليقضي بينهم فيشفعه الله. وذلك هو المقام المحمود الذي يحمده عليه الأولون والآخرون وهي الشفاعة العظمى التي يختص بها رسول الله ﷺ لا يشاركه فيها ملك مقرب ولا نبي مرسل.

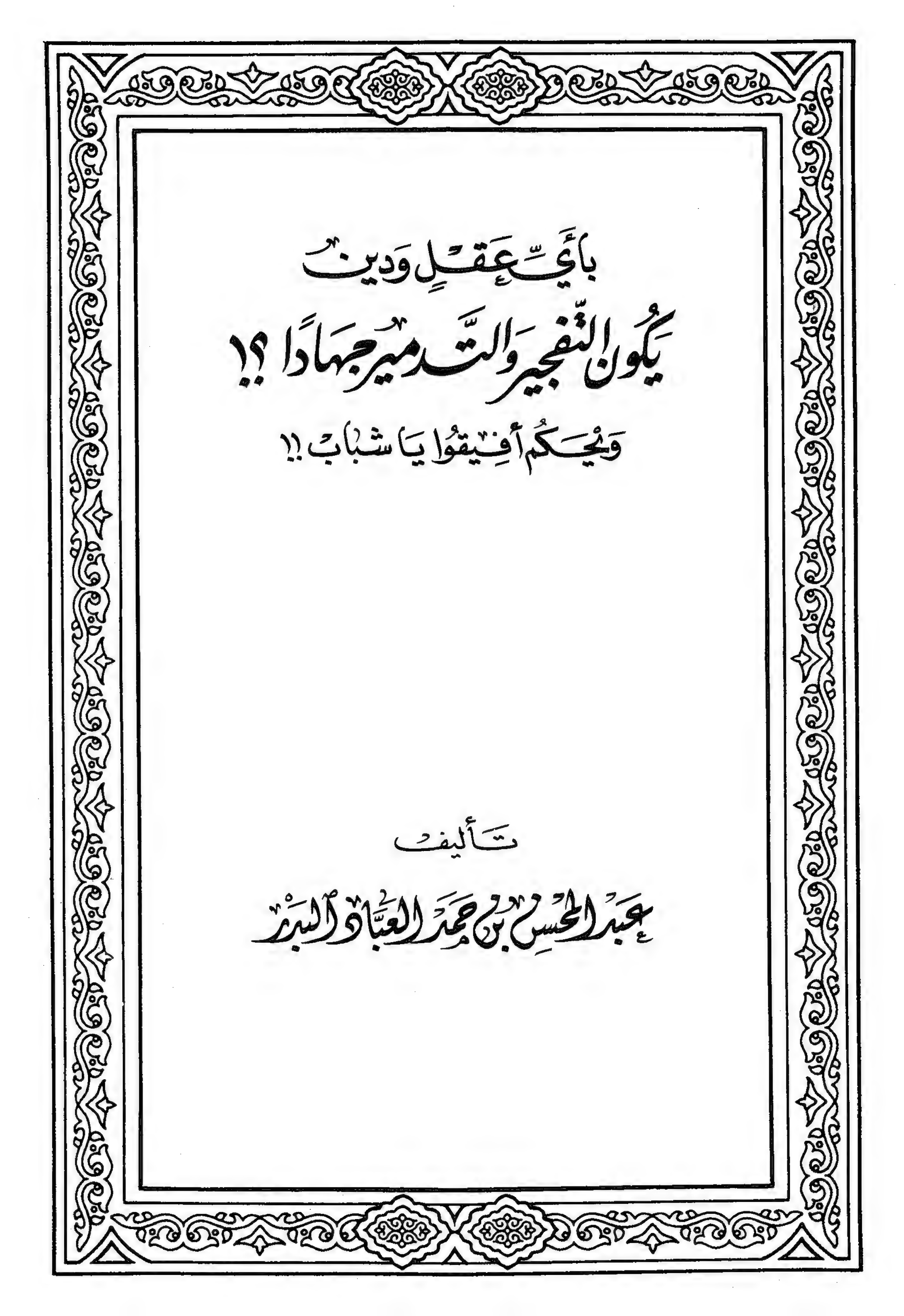
وفي هذا التجمع الإسلامي الكبير في عرفة وكذا في بقية المشاعر يلتقي المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها فيتعارفون ويتناصحون ويتعرف بعضهم على أحوال بعض، فيتشاركون في الأفراح والمسرات كما يشارك بعضهم بعضاً في آلامه ويرشده إلى ما ينبغي له فعله، ويتعاونون جميعاً على البر والتقوى كما أمرهم الله سبحانه بذلك ...

وهذه الفوائد القليلة التي أشرت إليها هي من جملة المنافع الكثيرة التي أجمل ذكرها في قوله تعالى: ﴿لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾، وأن أعظم فائدة للمسلم بعد إنهاء حجه أن يكون حجه مقبولاً وأن يكون بعده خيراً منه قبله، وأن يحدث ذلك تحولاً في سلوكه وأعماله فيتحول من السيء إلى الحسن ومن الحسن إلى الأحسن.

والله المسؤول أن يوفق المسلمين جميعاً للفقه في دينه والثبات عليه وأن يمكن لهم في الأرض وينصرهم على عدوه وعدوهم إنه ولي ذلك والقادر عليه وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه[1]

---

(١) كلمة نشرت في العدد الأول من السنة الرابعة لمجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة الصادر في شهر رجب عام ١٣٩١هـ.



بأيِّ عقلٍ ودين

يكون التفجير والتدمير جهادًا ؟!

ويحكم أفيقوا يا شباب !!

تأليف

عبد المحسن بن حمد العبّاد البدر



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيِّئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومَن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله، اللهمَّ صلِّ وسلِّم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه، ومَن سلك سبيلَه واهتدى بهديه إلى يوم الدِّين.

أمَّا بعد، فإنَّ للشيطان مدخلَين على المسلمين ينفذ منهما إلى إغوائهم وإضلالهم، أحدهما: أنَّه إذا كان المسلمُ من أهل التفريط والمعاصي، زيَّن له المعاصي والشهوات ليبقى بعيداً عن طاعة الله ورسوله ﷺ، وقد قال ﷺ: « حُفَّت الجنَّة بالمكاره، وحُفَّت النار بالشهوات » رواه البخاري (٦٤٨٧)، ومسلم (٢٨٢٢).

والثاني: أنَّه إذا كان المسلم من أهل الطاعة والعبادة زيَّن له الإفراط والغلوَّ في الدِّين ليفسد عليه دينه، وقد قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ ﴾، وقال: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ٧٧ ﴾، وقال ﷺ: « إيَّاكم والغلوَّ في الدِّين؛ فإنَّما هلك مَن كان قبلكم بالغلوِّ في الدِّين »، وهو حديث صحيح، أخرجه النسائي وغيرُه، وهو من أحاديث حَجة الوداع، انظر تخريجه في السلسلة الصحيحة للألباني (١٢٨٣).

ومِن مكائد الشيطان لهؤلاء المُفْرطين الغالين أنَّه يُزيِّن لهم اتِّباعَ الهوى وركوبَ رؤوسهم وسوءَ الفهم في الدِّين، ويُزهِّدهم في الرجوع إلى أهل

العلم؛ لئلاَّ يُبصِّروهم ويُرشدوهم إلى الصواب، وليبقوا في غيِّهم وضلالهم، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾، وقال: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ﴾، وقال: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾، وقال: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾ ﴾، وقال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ﴾، وفي صحيح البخاري (٤٥٤٧)، ومسلم (٢٦٦٥) عن عائشة رضي الله عنها: أنَّ النَّبيَّ ﷺ تلا هذه الآية، فقال: « إذا رأيتم الذين يتَّبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمَّى الله فاحذروهم »، وقال ﷺ: « من يُرِد الله به خيراً يفقِّهه في الدِّين » رواه البخاري (٧١) ومسلم (١٠٣٧)، وهو يدلُّ بمنطوقه على أنَّ من علامة إرادة الله الخير بالعبد أن يفقهه في الدِّين، ويدلُّ بمفهومه على أنَّ مَن لَم يُرد الله به خيراً لم يحصل له الفقه في الدِّين، بل يُبتلى بسوء الفهم في الدِّين.

ومن سوء الفهم في الدِّين ما حصل للخوارج الذين خرجوا على عليٍّ رضي الله عنه وقاتلوه، فإنَّهم فهموا النصوصَ الشرعية فهماً خاطئاً مخالفاً لفهم الصحابة رضي الله عنهم، ولهذا لَمَّا ناظرهم ابن عباس رضي الله عنهما بيَّن لهم الفهمَ الصحيح للنصوص، فرجع مَن رجع منهم، وبقي من لم يرجع على ضلاله، وقصَّة مناظرته لهم في مستدرك الحاكم (٢/ ١٥٠ ـ ١٥٢)، وهي بإسناد صحيح على شرط مسلم، وفيها قول ابن عباس: « أتيتُكم من عند صحابة النَّبيِّ ﷺ من المهاجرين والأنصار، لأبلِّغكم ما يقولون، المخبرون بما يقولون، فعليهم نزل القرآن، وهم أعلمُ بالوحي منكم، وفيهم أنزل، وليس فيكم منهم أحد، فقال بعضُهم: لا تخاصموا قريشاً، فإنَّ الله يقول: ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾، قال ابن عباس:

وأتيتُ قوماً لم أرَ قوماً قطُّ أشدَّ اجتهاداً منهم، مسهمة وجوههم من السَّهر، كأنَّ أيديهم وركبهم تثنى عليهم، فمضى من حضر، فقال بعضُهم: لنكلِّمنَّه ولننظرنَّ ما يقول، قلت: أخبروني ماذا نقمتم على ابن عمِّ رسول الله ﷺ وصهره والمهاجرين والأنصار؟ قالوا: ثلاثاً، قلت: ما هنَّ؟ قالوا: أمَّا إحداهنَّ فإنَّه حكم الرِّجالَ في أمر الله، وقال الله تعالى: ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾، وما للرِّجال وما للحكم، فقلت: هذه واحدة، قالوا: وأمَّا الأخرى فإنَّه قاتَلَ ولَم يسْب ولَم يغنَم، فلئن كان الذي قاتل كفَّاراً لقد حلَّ سبيُهم وغنيمتهم، ولئن كانوا مؤمنين ما حلَّ قتالُهم، قلت: هذه ثنتان، فما الثالثة؟ قال: إنَّه محا نفسَه من أمير المؤمنين، فهو أمير الكافرين، قلت: أعندكم سوى هذا؟ قالوا: حسبنا هذا، فقلت لهم: أرأيتم إن قرأت عليكم من كتاب الله ومن سنَّة نبيِّه ﷺ ما يُردُّ به قولُكم أترضَون؟ قالوا: نعم! فقلت: أمَّا قولكم: حكَّم الرِّجال في أمر الله، فأنا أقرأ عليكم ما قد رُدَّ حكمُه إلى الرِّجال في ثمن ربع درهم، في أرنب ونحوها من الصيد، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ﴾ إلى قوله: ﴿ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾، فنشدتكم الله: أحُكم الرِّجال في أرنب ونحوها من الصيد أفضل أم حكمهم في دمائهم وصلاح ذات بينهم؟! وأن تعلموا أنَّ الله لو شاء لَحَكم ولَم يُصيِّر ذلك إلى الرِّجال، وفي المرأة وزوجها قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ﴾، فجعل الله حكم الرِّجال سنة مأمونة، أخَرَجتُ من هذه؟ قالوا: نعم! قال: وأمَّا قولكم: قاتَل ولم يسْب ولم يغنم، أتسبُون أمَّكم عائشة، ثمَّ تستحلُّون منها ما يُستحلُّ من غيرها؟! فلئن فعلتم لقد كفرتُم، وهي أمُّكم، ولئن قلتُم: ليست أمَّنا لقد كفرتُم؛ فإنَّ الله يقول: ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ﴾، فأنتم تدورون بين

ضلالَتين، أيّهما صرتُم إليها صرتُم إلى ضلالة، فنظر بعضُهم إلى بعض، قلت: أخرجتُ من هذه؟ قالوا: نعم! وأمَّا قولكم: محَا اسمَه من أمير المؤمنين، فأنا آتيكم بمَن ترضَون وأريكم، قد سمعتُم أنَّ النَّبيَّ ﷺ يوم الحُديبية كاتَبَ سُهيل بن عمرو وأبا سفيان بن حرب، فقال رسول الله ﷺ لأمير المؤمنين: اكتب يا علي: هذا ما اصطلح عليه محمد رسول الله، فقال المشركون: لا والله! لو نعلم أنَّك رسول الله ما قاتلناك، فقال رسول الله ﷺ: اللَّهم إنَّك تعلمُ أنِّي رسول الله، اكتب يا علي: هذا ما اصطلح عليه محمد بن عبد الله، فوالله لرسول الله خيرٌ من علي، وما أخرجه من النبوة حين محا نفسَه، قال عبد الله بن عباس: فرجع من القوم ألفان وقُتل سائرُهم على ضلالة ».

ففي هذه القصة أنَّ ألفين من الخوارج رجعوا عن باطلهم؛ للإيضاح والبيان الذي حصل من ابن عباس رضي الله عنهما، وفي ذلك دليلٌ على أنَّ الرجوعَ إلى أهل العلم فيه السلامة من الشرور والفتن، وقد قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ **فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ** ﴾.

ومِمَّا يدلُّ على أنَّ الرجوع إلى أهل العلم خيرٌ للمسلمين في أمور دينهم ودنياهم ما رواه مسلم في صحيحه (١٩١) عن يزيد الفقير قال: « كنتُ قد شَغَفَنِي رأيٌ من رأي الخوارج، فخرجنا في عِصابةٍ ذوي عدد نريد أن نحجَّ، ثمَّ نخرجَ على الناس، قال: فمررنا على المدينة فإذا جابر بن عبد الله يُحدِّث القومَ ـ جالسٌ إلى ساريةٍ ـ عن رسول الله ﷺ، قال: فإذا هو قد ذكر الجهنَّمِيِّين، قال: فقلتُ له: يا صاحبَ رسول الله! ما هذا الذي تُحدِّثون؟ والله يقول: ﴿ **إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ** ﴾، و﴿ **كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا** ﴾، فما هذا الذي تقولون؟ قال: فقال: أتقرأُ القرآنَ؟ قلتُ: نعم! قال: فهل سمعت بمقام محمد عليه السلام، يعني الذي يبعثه فيه؟ قلتُ: نعم!

قال: فإنَّه مقام محمد ﷺ المحمود الذي يُخرج اللهُ به مَن يُخرج. قال: ثمَّ نعتَ وضعَ الصِّراط ومرَّ الناس عليه، قال: وأخاف أن لا أكون أحفظ ذاك. قال: غير أنَّه قد زعم أنَّ قوماً يَخرجون من النار بعد أن يكونوا فيها، قال: يعني فيخرجون كأنَّهم عيدان السماسم، قال: فيدخلون نهراً من أنهار الجنَّة فيغتسلون فيه، فيخرجون كأنَّهم القراطيس. فرجعنا، قلنا: وَيْحكم! أَتَرَوْنَ الشيخَ يَكذِبُ على رسول الله ﷺ؟! فرجعنا، فلا ـ والله! ـ ما خرج منَّا غيرُ رَجل واحد، أو كما قال أبو نعيم ». وأبو نعيم هو الفضل بن دكين هو أحد رجال الإسناد، وقد أورد ابن كثير في تفسيره عند قوله تعالى من سورة المائدة: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾ حديث جابر هذا عند ابن أبي حاتم وابن مردويه وغيرهما، وهو يدلُّ على أنَّ هذه العصابةَ ابتُليت بالإعجاب برأي الخوارج في تكفير مرتكب الكبيرة وتخليده في النار، وأنَّهم بلقائهم جابراً رضي الله عنه وبيانه لهم صاروا إلى ما أرشدهم إليه، وتركوا الباطلَ الذي فهموه، وأنَّهم عدلوا عن الخروج الذي همُّوا به بعد الحجِّ، وهذه من أعظم الفوائد التي يستفيدها المسلم برجوعه إلى أهل العلم.

ويدلُّ لخطورة الغلو في الدِّين والانحراف عن الحقِّ ومجانبة ما كان عليه أهل السنَّة والجماعة قوله ﷺ من حديث حذيفة رضي الله عنه: « إنَّ أخوفَ ما أخاف عليكم رجل قرأ القرآن، حتى إذا رُئيت بهجته عليه وكان ردءاً للإسلام، انسلخ منه ونبذه وراء ظهره، وسعى على جاره بالسيف ورماه بالشرك، قلت: يا نبيَّ الله! أيُّهما أولى بالشرك: الرامي أو المرمي؟ قال: بل الرامي » رواه البخاري في التاريخ وأبو يعلى وابن حبان والبزار، انظر الصحيحة للألباني (٣٢٠١).

وحداثةُ السنِّ مظنَّة سوء الفهم، يدلُّ لذلك ما رواه البخاري في صحيحه (٤٤٩٥) بإسناده إلى هشام بن عروة، عن أبيه أنَّه قال: « قلت لعائشة زوج

النَّبيِّ ﷺ وأنا يومئذ حديث السنِّ: أرأيتِ قول الله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ ﴾، فما أرى على أحد شيئاً أن لا يطوَّف بهما، فقالت عائشة: كلاَّ! لو كانت كما تقول كانت: فلا جناح عليه أن لا يطوَّف بهما، إنَّما أنزلت هذه الآية في الأنصار، كانوا يُهلُّون لِمناة، وكانت مناة حذو قديد، وكانوا يتحرَّجون أن يطوَّفوا بين الصفا والمروة، فلمَّا جاء الإسلام سألوا رسول الله ﷺ عن ذلك، فأنزل الله ﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ ﴾».

وعروة بن الزبير من خيار التابعين، وهو أحدُ الفقهاء السبعة بالمدينة في عصر التابعين، قد مهَّد لعُذره في خطئه في الفهم بكونه في ذلك الوقت الذي سأل فيه حديثَ السنِّ، وهو واضحٌ في أنَّ حداثةَ السنِّ مظنَّةٌ سوء الفهم، وأنَّ الرجوع إلى أهل العلم فيه الخير والسلامة.

***

بأيِّ عقل ودين يكون التفجير والتدمير جهاداً؟!

بعد هذا التمهيد بذكر أنَّ الشيطانَ يدخل إلى أهل العبادة لإفساد دينهم من باب الإفراط والغلوِّ في الدِّين، كما حصل من الخوارج والعصابة التي شغفت برأيهم، وأنَّ طريق السلامة من الفتن الرجوع إلى أهل العلم، كما حصل رجوع ألفين من الخوارج بعد مناظرة ابن عباس رضي الله عنهما، وعدول العصابة عمَّا همَّت به من الباطل برجوعها إلى جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

بعد هذا التمهيد أقول: ما أشبه الليلة بالبارحة! فإنَّ ما حصل من التفجير والتدمير في مدينة الرياض، وما عُثر عليه من أسلحة ومتفجِّرات في مكة والمدينة

في أوائل هذا العام (١٤٢٤هـ) هو نتيجة لإغواء الشيطان وتزيينه الإفراط والغلو لِمَن حصل منهم ذلك، وهذا الذي حصل من أقبح ما يكون في الإجرام والإفساد في الأرض، وأقبح منه أن يزيِّن الشيطان لِمَن قام به أنَّه من الجهاد، وبأيِّ عقل ودين يكون جهاداً قتل النفس وتقتيل المسلمين والمعاهدين وترويع الآمنين وترميل النساء وتيتيم الأطفال وتدمير المباني على من فيها؟!

وقد رأيت إيراد ما أمكن من نصوص الكتاب والسنة في مجيء الشرائع السابقة بتعظيم أمر القتل وخطره، وإيراد نصوص الكتاب والسنة في قتل المسلم نفسه وقتل غيره من المسلمين والمعاهدين عمداً وخطأً، وذلك لإقامة الحجة وبيان المحجَّة، وليهلك مَن هلك عن بيِّنة ويحيى من حيَّ عن بيِّنة.

وأسأل الله عزَّ وجلَّ أن يهدي من ضلَّ إلى الصواب ويخرجهم من الظلمات إلى النور، وأن يقي المسلمين شرَّ الأشرار، إنَّه سميع مجيب.

***

ما جاء في تعظيم أمر القتل وخطره في الشرائع السابقة

قال الله عزَّ وجلَّ عن أحد ابني آدم: ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾، وقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾، وقال ﷺ: « لا تُقتل نفس ظلماً إلَّا كان على ابن آدم الأول كفلٌ من دمها؛ لأنَّه أول من سنَّ القتل » رواه البخاري (٣٣٣٥)، ومسلم (١٦٧٧)، وقال الله عزَّ وجلَّ عن رسوله موسى ﷺ أنَّه قال للخضر: ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ﴾، وقال عنه: ﴿ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ

فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ قَالَ هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ ۝١٥ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٦ ﴾، وفي صحيح مسلم (٢٩٠٥) عن سالم بن عبد الله بن عمر قال: « يا أهل العراق! ما أسْألَكُم عن الصغيرة وأركبَكم للكبيرة! سمعت أبي عبد الله بن عمر يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنَّ الفتنةَ تجيء من ههنا، وأومأ بيده نحو المشرق، من حيث يطلع قرنا الشيطان، وأنتم يضرب بعضُكم رقاب بعض، وإنَّما قتل موسى الذي قتل من آل فرعون خطأً، فقال الله عزَّ وجلَّ له: ﴿ وَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا فَنَجَّيۡنَٰكَ مِنَ ٱلۡغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونٗاۚ ﴾ »، وقول سالم بن عبد الله: « ما أسألَكم عن الصغيرة وأركبَكم للكبيرة! » يشير بذلك إلى ما جاء عن أبيه في صحيح البخاري (٥٩٩٤) أنَّه سأله رجل من أهل العراق عن دم البعوض، فقال: « انظروا إلى هذا، يسألني عن دم البعوض وقد قتلوا ابن النَّبيِّ ﷺ، وسمعت النَّبيَّ ﷺ يقول: هما ريحانتاي من الدنيا »، يعني الحسن والحسين رضي الله عنهما.

وقال تعالى: ﴿ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ لَا تَسۡفِكُونَ دِمَآءَكُمۡ وَلَا تُخۡرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ ثُمَّ أَقۡرَرۡتُمۡ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ۝٨٤ ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ وَٱلۡعَيۡنَ بِٱلۡعَيۡنِ وَٱلۡأَنفَ بِٱلۡأَنفِ وَٱلۡأُذُنَ بِٱلۡأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞۚ ﴾.

* * *

ما جاء في قتل المسلم نفسه عمداً وخطأً

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ۝٢٩ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ عُدۡوَٰنٗا وَظُلۡمٗا فَسَوۡفَ نُصۡلِيهِ نَارٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا

﴿٣٠﴾، وقال رسول الله ﷺ: « مَن قتل نفسَه بشيء في الدنيا عُذِّب به يوم القيامة » رواه البخاري (٦٠٤٧)، ومسلم (١٧٦) عن ثابت بن الضحاك رضي الله عنه، وروى البخاري (٥٧٧٨)، ومسلم (١٧٥) عن أبي هريرة: أنَّ رسول الله ﷺ قال: « مَن تردَّى من جبل فقتل نفسَه فهو في نار جهنَّم يتردَّى فيه خالداً مخلَّداً فيها أبداً، ومَن تحسَّى سُمًّا فقتل نفسَه فسُمُّه في يده يتحسَّاه في نار جهنَّم خالداً مخلَّداً فيها أبداً، ومَن قتل نفسَه بحديدة فحديدتُه في يده يجأ بها في بطنه في نار جهنَّم خالداً مخلَّداً فيها أبداً »، وفي صحيح البخاري (١٣٦٥) عن أبي هريرة قال: قال النَّبيُّ ﷺ: « الذي يخنق نفسَه يخنقها في النار، والذي يطعنها يطعنها في النار ».

وهذا الحديث في مسند الإمام أحمد (٩٦١٨) وغيره وفيه زيادة: « والذي يتقحَّم فيها يتقحَّم في النار »، وانظر: السلسلة الصحيحة للألباني (٣٤٢١).

وفي صحيح البخاري (١٣٦٤)، ومسلم (١٨٠) عن الحسن قال: حدَّثنا جُندب رضي الله عنه في هذا المسجد فما نسينا وما نخاف أن ننسى، وما نخاف أن يكذب جُندب على النَّبيِّ ﷺ، قال: « كان برجل جراح فقتلَ نفسَه، فقال الله: بدرني عبدي بنفسه، حرَّمت عليه الجنَّة »، وروى ابن حبان في صحيحه (موارد الظمآن ٧٦٣) عن جابر بن سمرة رضي الله عنه: أنَّ رجلاً كانت به جراحة، فأتى قرناً له فأخذ مشقصاً، فذبح به نفسَه، فلم يُصلِّ عليه النَّبيُّ ﷺ »، وقال الألباني في صحيح الترغيب (٢٤٥٧): « صحيح لغيره ».

وأمَّا من قتل نفسه خطأً فهو معذور غير مأزور؛ لقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾، وقوله: ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾، قال الله: « قد فعلت » رواه مسلم (١٢٦).

ما جاء في قتل المسلم بغير حقٍّ عمداً وخطأ

قتل المسلم يكون بحقٍّ وبغير حق، يكون بحقٍّ قصاصاً وحَدًّا، والقتل بغير حقٍّ يكون عمداً وخطأ، وقد قال الله عزَّ وجلَّ في القتل عمداً: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ ﴾، وقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾، وقال الله تعالى في سورتي الأنعام والإسراء: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ﴾، وقال في سورة الأنعام: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ ﴾، وقال في الإسراء: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ ﴾، وقال تعالى: ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾، وقال رسول الله ﷺ: «أول ما يُقضى بين الناس يوم القيامة في الدِّماء» رواه البخاري (٦٨٦٤) ومسلم (١٦٧٨)، وقد أكَّد ﷺ في خطبته في حجَّة الوداع حرمة دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم بتشبيهها بحرمة الزمان والمكان، فعن أبي بكرة رضي الله عنه قال: «خطبنا النَّبيُّ ﷺ يوم النحر، قال: أتدرون أيَّ يوم هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننَّا أنَّه سيُسمِّيه بغير اسمه، قال: أليس يوم النحر؟ قلنا: بلى! قال: أي شهر هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنَّه سيُسمِّيه بغير اسمه، فقال: أليس ذو الحجة؟ قلنا: بلى! قال: أي بلد هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى

ظننا أنَّه سيُسمِّيه بغير اسمه، قال: أليست بالبلدة الحرام؟ قلنا: بلى! قال: فإنَّ دماءَكم وأموالَكم وأعراضَكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا إلى يوم تلقون ربَّكم، ألاَ هل بلَّغت؟ قالوا: نعم! قال: اللهمَّ اشهد، فليُبلِّغ الشاهدُ الغائبَ، فرُبَّ مبلَّغ أوعى من سامع، فلا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضُكم رقابَ بعض » رواه البخاري (٦٧) و(١٧٤١)، ومسلم (١٦٧٩)، وقد جاء هذا التأكيد أيضاً في حديث ابن عباس في صحيح البخاري (١٧٣٩)، وحديث ابن عمر فيه أيضاً (١٧٤٢)، وحديث جابر في صحيح مسلم (١٢١٨).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: « اجتنبوا السبع الموبقات، قالوا: يا رسول الله! وما هنَّ؟ قال: الشرك بالله، والسِّحر، وقتل النفس التي حرَّم الله إلَّا بالحقِّ، وأكل الرِّبا، وأكل مال اليتيم، والتولِّي يوم الزَّحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات » رواه البخاري (٢٧٦٦)، ومسلم (١٤٥).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « لن يزال المؤمن في فُسحة من دينه ما لم يُصب دماً حراماً »، وقال ابن عمر: « إنَّ من وَرْطات الأمور التي لا مخرج لِمَن أوقع نفسَه فيها سفك الدم الحرام بغير حلِّه » رواهما البخاري في صحيحه (٦٨٦٢، ٦٨٦٣).

وقال عبادة بن الصامت: « كنَّا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في مجلس، فقال: تُبايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تزنوا، ولا تسرقوا، ولا تقتلوا النفسَ التي حرَّم الله إلَّا بالحقِّ، فمَن وفَّى منكم فأجره على الله، ومَن أصاب شيئاً من ذلك فعوقب به فهو كفَّارةٌ له، ومَن أصاب شيئاً من ذلك فستره الله عليه فأمرُه إلى الله، إن شاء عفا عنه وإن شاء عذَّبه » رواه البخاري (١٨) ومسلم

(١٧٠٩)، وهذا لفظ مسلم.

وعن ابن عمر، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «مَن حَمَلَ علينا السِّلاحَ فليس منَّا» رواه البخاري (٦٨٧٤) ومسلم (١٦١).

وعن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يحلُّ دمُ امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلَّا الله وأنِّي رسول الله إلَّا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيِّب الزاني، والمفارق لدينه التارك للجماعة» رواه البخاري (٦٨٧٨)، ومسلم (١٦٧٦).

وعنه أيضاً: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «سبابُ المسلم فسوق، وقتاله كفر» رواه البخاري (٤٨)، ومسلم (١١٦).

وعن ابن عباس: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «أبغضُ الناس إلى الله ثلاثة: مُلحدٌ في الحرَم، و مبتغ في الإسلام سنَّة الجاهلية، ومطلب دم امرئ بغير حقٍّ ليهريق دمه» رواه البخاري (٦٨٨٢).

وقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَـٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾، وفي صحيح البخاري (٦٨٩٦) عن ابن عمر رضي الله عنهما: «أنَّ غلاماً قُتل غيلة، فقال عمر: لو اشترك فيها أهلُ صنعاء لقتلتُهم»، وقال مغيرة بن حكيم، عن أبيه: «إنَّ أربعة قتلوا صبيًّا، فقال عمر ...» مثله.

وفي صحيح البخاري (٧١٥٢) عن جندب بن عبد الله قال: «إنَّ أوَّل ما ينتن من الإنسان بطنُه، فمَن استطاع أن لا يأكل إلَّا طيِّباً فليفعل، ومَن استطاع

أن لا يُحال بينه وبين الجنَّة بملء كفٍّ من دم هراقه فليفعل »، قال الحافظ في الفتح (١٣/ ١٣٠): « ووقع مرفوعاً عند الطبراني أيضاً من طريق إسماعيل بن مسلم، عن الحسن، عن جندب، ولفظه: (تعلمون أنِّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: لا يحولنَّ بين أحدكم وبين الجنَّة وهو يراها ملءُ كفٍّ دم من مسلم أهراقه بغير حلِّه)، وهذا لو لم يرِد مصرَّحاً برفعه لكان في حكم المرفوع؛ لأنَّه لا يُقال بالرأي، وهو وعيد شديد لقتل المسلم بغير حقٍّ ».

وقال ﷺ: « ومَن خرج على أمَّتي يضرب برَّها وفاجرَها، ولا يتحاش من مؤمنها، ولا يفي لذي عهد عهدَه، فليس منِّي ولستُ منه » رواه مسلم (١٨٤٨).

وهذه أحاديثُ لَم ترد في الصحيحين مِمَّا أورده المنذري في الترغيب والترهيب، وأثبته الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١/ ٦٢٩ ـ ٦٣٤):

عن البراء رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ قال: « لزوال الدنيا أهونُ على الله من قتل مؤمن بغير حق، ولو أنَّ أهلَ سماواته وأهل أرضه اشتركوا في دم مؤمن لأدخلهم الله النار ».

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: « لزوال الدنيا أهون على الله من قتل رجل مسلم ».

وعن بُريدة قال: قال رسول الله ﷺ: « قتل المؤمن أعظم عند الله من زوال الدنيا ».

وعن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما، عن رسول الله ﷺ قال: « لو أنَّ أهل السماء وأهل الأرض اشتركوا في دم مؤمن لأكبَّهم الله في النار ».

وعن أبي بكرة رضي الله عنه، عن النَّبيِّ ﷺ قال: « لو أنَّ أهل السموات والأرض اجتمعوا على قتل مسلم لكبَّهم الله جميعاً على وجوههم في النار ».

وعن معاوية رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كلُّ ذنب عسى الله أن يغفره، إلَّا الرجل يموت كافراً، أو الرجل يقتل مؤمناً متعمِّداً».

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «كلُّ ذنب عسى الله أن يغفره، إلَّا الرجل يموت مشركاً، أو يقتل مؤمناً متعمِّداً».

وعن أبي موسى رضي الله عنه، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «إذا أصبح إبليسُ بثَّ جنودَه، فيقول: مَن أخذل اليوم مسلماً أُلبسُه التاج، قال: فيجيء هذا فيقول: لم أزل به حتى طلَّق امرأته، فيقول: أوشك أن يتزوَّج، ويجيء هذا فيقول: لم أزل به حتى عقَّ والديه، فيقول: يوشك أن يبرَّهما، ويجيء هذا فيقول: لم أزل به حتى أشرك، فيقول: أنت أنت، ويجيء هذا فيقول: لم أزل به حتى قتَل، فيقول: أنت أنت، ويُلبسه التاج».

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «من قتل مؤمناً فاغتبط بقتله لم يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً» رواه أبو داود، ثم روى عن خالد بن دهقان: سألت يحيى بن يحيى الغسَّاني عن قوله: «فاغتبط»، فقال: «الذين يقاتلون في الفتنة، فيقتل أحدهم، فيرى أحدهم أنَّه على هدى لا يستغفر الله، يعني من ذلك».

وعن أبي سعيد رضي الله عنه، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «يخرج عُنق من النار يتكلَّم، يقول: وُكلتُ اليوم بثلاثة: بكلِّ جبَّار عنيد، ومَن جعل مع الله إلَهاً آخر، ومن قتل نفساً بغير حق، فينطوي عليهم فيقذفهم في غمرات جهنَّم».

وأمَّا قتل المؤمن خطأ، فقد أوجب الله فيه الدية والكفارة، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ﴾ إلى قوله: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾﴾.

ما جاء في قتل المعاهد عمداً وخطأ

قتل الذمِّي والمعاهد والمستأمن حرام، وقد ورد الوعيد الشديد في ذلك، فقد روى البخاري في صحيحه (٣١٦٦) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، عن النَّبيِّ ﷺ قال: « مَن قتل نفساً معاهداً لم يرح رائحة الجنة، وإنَّ ريحها توجد من مسيرة أربعين عاماً »، أورده البخاري هكذا في كتاب الجزية، « باب إثم مَن قتل معاهداً بغير جُرم »، وأورده في كتاب الديات، في « باب إثم من قتل ذمِّيًّا بغير جُرم »، ولفظه: « مَن قتل نفساً معاهداً لم يرح رائحة الجنة، وإنَّ ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاماً »، قال الحافظ في الفتح (١٢/ ٢٥٩): « كذا ترجم بالذمِّيِّ، وأورد الخبر في المعاهد، وترجم في الجزية بلفظ: (مَن قتل معاهداً)، كما هو ظاهر الخبر، والمراد به مَن له عهدٌ مع المسلمين سواء كان بعقد جزية أو هُدنة من سلطان أو أمان من مسلم ».

ورواه النسائي (٤٧٥٠) بلفظ: « مَن قتل قتيلاً من أهل الذِّمَّة لم يجد ريح الجنَّة، وإنَّ ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاماً »، ورواه أيضاً (٤٧٤٩) بإسناد صحيح عن رجل من أصحاب النَّبيِّ ﷺ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: « مَن قتل رجلاً من أهل الذِّمَّة لم يجد ريح الجنَّة، وإنَّ ريحها ليوجد من مسيرة سبعين عاماً »، وعن أبي بكرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « مَن قتل معاهداً في غير كُنهه حرَّم الله عليه الجنَّة » رواه أبو داود (٢٧٦٠)، والنسائي (٤٧٤٧) بإسناد صحيح، وزاد النسائي (٤٧٤٨): « أن يشمَّ ريحها ».

ومعنى « في غير كُنهه » أي: في غير وقته الذي يجوز قتله فيه حين لا عهد له، قاله المنذري في الترغيب والترهيب (٢/ ٦٣٥)، وقال: « ورواه ابن حبان في صحيحه، ولفظه قال: (مَن قتل نفساً معاهدة بغير حقِّها لم يرح رائحة الجنَّة،

وإنَّ ريحَ الجنَّة لتوجد من مسيرة مائة عام) »، قال الألباني: « صحيح لغيره ».

وأمَّا قتل المعاهد خطأً، فقد أوجب الله فيه الدية والكفارة، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ ﴾.

وأقول في الختام: اتَّقوا الله أيُّها الشباب في أنفسكم، لا تكونوا فريسةً للشيطان، يجمع لكم بين خزي الدنيا وعذاب الآخرة، واتَّقوا الله في المسلمين من الشيوخ والكهول والشباب، واتَّقوا الله في المسلمات من الأمَّهات والبنات والأخوات والعمَّات والخالات، واتَّقوا الله في الشيوخ الرُّكَّع والأطفال الرُّضَّع، واتَّقوا الله في الدماء المعصومة والأموال المحترمة، ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ ﴾، ﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ ﴾، ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ ﴾، ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ ﴾، أفيقوا من سُباتكم وانتبهوا من غفلتكم، ولا تكونوا مطيَّة للشيطان للإفساد في الأرض.

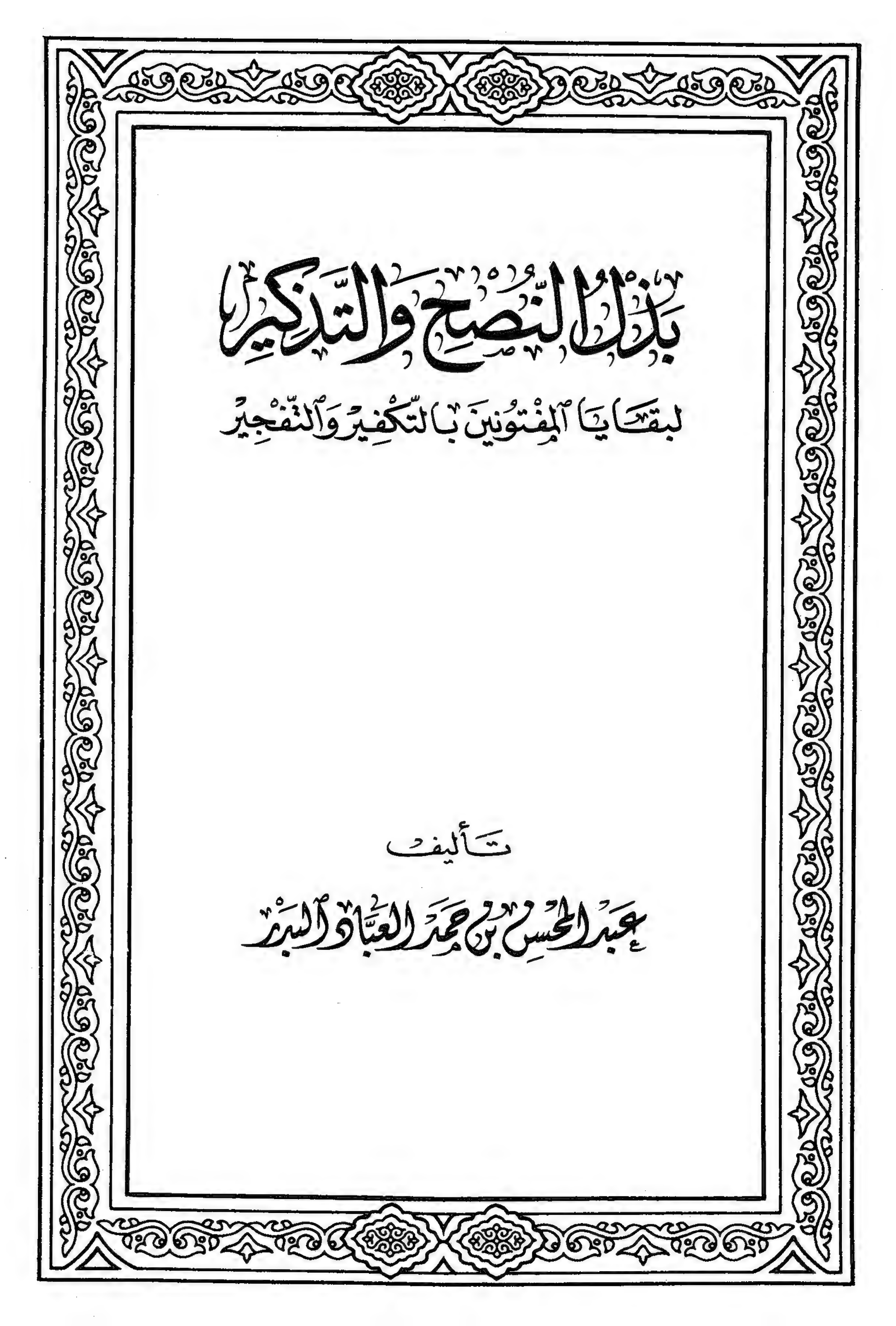
وأسأل الله عزَّ وجلَّ أن يُفقِّه المسلمين بدينهم، وأن يحفظهم من مضلاَّت الفتن، ما ظهر منها وما بطن، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ونبيِّه محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

***

الفهرس

***





بذل النصح والتذكير

لبقايا المفتونين بالتكفير والتفجير

تأليف

عبد المحسن بن حمد العباد البدر



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، والعاقبة للمتَّقين، وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، إله الأولين والآخرين، وقيُّوم السموات والأرضين، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله القائل: «مَن يُرد الله به خيراً يفقهه في الدِّين»، اللَّهمَّ صلِّ وسلِّم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومَن تبعهم بإحسان إلى يوم الدِّين.

أمَّا بعد، فإنَّ الله خلق آدم أبا البشر عليه الصلاة والسلام من طين، وخلق قبل ذلك إبليس أبا الجنِّ من نار، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٢٦ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ۝٢٧**﴾، وقد أمر الله سبحانه ملائكته الذين خلقهم من نور ومعهم إبليس الذي خلقه من نار بالسجود لآدم تحيَّة وتكريماً، فسجد الملائكةُ وامتنع إبليس من السجود حسداً وعناداً واستكباراً، وقد ذكر الله قصَّة الأمر بالسجود لآدم في سبع سُور من القرآن، هي: البقرة والأعراف والحجر والإسراء والكهف وطه وص، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿**وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ۝٦١**﴾، وقال تعالى: ﴿**وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ۝٥٠**﴾، وقد أقسم بعزَّة الله أن يغوي بني آدم إلَّا من سلَّمهم الله منه، قال الله عزَّ وجلَّ عنه: ﴿**قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٨٣**﴾، فمَن كان من المسلمين من أهل التفريط والفسق والمجون دخل عليه الشيطان من طريق الشهوات، ومَن كان منهم سَلَكَ مَسلك العبادة دخل عليه من طريق الإفراط والغلوِّ في الدِّين، حتى يبتعد كلا الطرفين عن طاعة الله ويقع فيما حرَّم

الله، قال ابن القيم في إغاثة اللهفان (١/ ١١٦) لَمَّا ذكر شيئاً من مكايد الشيطان: «قال بعضُ السلف: (ما أمر الله تعالى بأمر إلَّا وللشيطان فيه نزعتان: إمَّا إلى تفريط وتقصير، وإمَّا إلى مجاوزة وغلوٍّ، ولا يُبالي بأيِّهما ظفر)، وقد اقتطع أكثر الناس إلَّا أقلَّ القليل في هذين الواديين: وادي التقصير، ووادي المجاوزة والتعدِّي، والقليل منهم جدًّا الثابت على الصراط الذي كان عليه رسول الله صلَّى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه».

وقد بيَّن الله عزَّ وجلَّ في كتابه الكريم شدَّةَ عداوة الشيطان للإنسان، وحذَّر من الاستجابة له، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾، وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ﴾، وقال: ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا ﴿٥٠﴾ ﴾.

وكلُّ أهل البدع والأهواء دخل عليهم الشيطان من طريق الشبهات التي زيَّنها لهم، فصاروا إلى ما هم عليه، يحسبون أنَّهم على حقٍّ وهم على باطل، كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم ﴿١٤﴾ ﴾، وقال: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ ﴾، وقال: ﴿ قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ﴿١٠٤﴾ ﴾.

ومن أهل البدع الخوارج الذين زيَّن لهم الشيطان باطلَهم، فغرَّهم في دينهم فسلكوا مَسلكَ الإفراط والغلوِّ في الدِّين، وخرجوا على الصحابة الغرِّ الميامين؛ بسبب فهومهم الخاطئة وعدم فقههم في الدِّين، وقد قال ﷺ: « مَن يُرد الله به خيراً يفقهه في الدِّين » أخرجه البخاري (٧١) ومسلم (١٠٣٧) من حديث معاوية رضي الله عنه.

وقد سار على مِنوالهم عصابات في أوقات مختلفة خرجوا على المسلمين بالفتن والإخلال بالأمن، ومِن هؤلاء بعض الشباب الذين خرجوا على الناس في بلاد الحرمين في أوائل عام (١٤٢٤هـ)، فقاموا بالتفجير والتدمير وقتل الأبرياء من المسلمين وغيرهم، وزيَّن لهم الشيطان أنَّ ما فعلوه جهاد، وهو في الحقيقة إفساد في الأرض، وقد كتبتُ لهم نصيحة طُبعت قبل شهر رمضان من ذلك العام بعنوان: « بأيِّ عقل ودين يكون التفجير والتدمير جهاداً؟! ويحكم أفيقوا يا شباب!! »، ذكرتُ فيها أنَّ ما حصل منهم سببه الفهوم الخاطئة وعدم الرجوع إلى أهل العلم، وذكرتُ فيها مناظرة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما للخوارج، وأنَّه بالبيان لهم رجع منهم ألفان عمَّا كانوا عليه من الباطل، وذكرتُ أيضاً قصَّة النَّفر الذين وقع في نفوسهم رأي الخوارج وعزموا على إعلان خروجهم بعد الحجِّ، وأنَّ الله وفَّقهم لحضور مجلس جابر بن عبد الله رضي الله عنهما في مسجد رسول الله ﷺ، فسمعوا منه ما يدلُّ على بطلان ما همُّوا به من الباطل فعدلوا عنه، وبيَّنتُ أنَّ في قصَّة رجوع ألفين من الخوارج بعد بيان ابن عباس رضي الله عنهما لهم، وعدول هؤلاء النَّفر عمَّا همُّوا به من الخروج لما سمعوه من جابر رضي الله عنه، بيَّنتُ أنَّ في الرجوع إلى أهل العلم الوصول إلى الحقِّ والسلامة من الباطل، وذكرتُ أنَّ حداثةَ السنِّ مظنَّةُ سوء الفهم، ومثَّلتُ لذلك بإخبار عروة ابن الزبير عن خطئه في فهم قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ

ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ ﴾، وأنَّه برجوعه إلى عائشة رضي الله عنها تبيَّن له خطؤه، وكان إذاك حديثَ السنِّ، ثم أوردتُّ الأدلة من الكتاب والسنَّة على ما يلي:

- ما جاء في تعظيم أمر القتل وخطره في الشرائع السابقة.
- ما جاء في قتل المسلم نفسه عمداً وخطأ.
- ما جاء في قتل المسلم بغير حقٍّ عمداً وخطأ.
- ما جاء في قتل المعاهَد عمداً وخطأ.

وقلت في ختامها: اتَّقوا الله أيُّها الشباب في أنفسكم، لا تكونوا فريسةً للشيطان، يُجْمَع لكم بين خزي الدنيا وعذاب الآخرة، واتَّقوا الله في المسلمين من الشيوخ والكهول والشباب، واتَّقوا الله في المسلمات من الأمَّهات والبنات والأخوات والعمَّات والخالات، واتَّقوا الله في الشيوخ الرُّكَّع والأطفال الرُّضَّع، واتَّقوا الله في الدماء المعصومة والأموال المحترمة، ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ ﴾، ﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ ﴾، ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ ﴾، ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ ﴾، أفيقوا من سُباتكم وانتبهوا من غفلتكم، ولا تكونوا مطيَّة للشيطان للإفساد في الأرض.

وقد مضى على صدور تلك الرسالة عام ونصف عام تقريباً، حصل بعد ذلك تفجيرات وأفعال سيِّئة من هؤلاء الشباب، قُتِّل فيها أبرياء، ورُمِّل فيها نساء ويُتِّم أطفال، وقُتل فيها كثير من هؤلاء الشباب، وقد قُبض على بعضهم،

وسلَّم بعضُهم نفسَه، فأودِعوا في السجن، وأُخرج مَن أُخرج منهم، وبقي مَن بقي، وبذلك أَمِنوا على أنفسهم وأمن منهم غيرُهم، وارتاح أهلوهم وذووهم.

وهذه رسالة نصح أخرى إلى بقايا هؤلاء الشباب، أسأل الله تعالى أن ينفع بها، وأن يُوفِّقهم لترك ما هم عليه من الباطل لتحصل السلامة لهم ولغيرهم، إنَّه سميع مجيب.

***

جزيرة العرب معقل الإسلام، وليست وطناً لدين سواه

لقد بعث الله من العرب في جزيرة العرب إلى العالَمين خاتَم النبيِّين وسيد المرسلين، نبيَّنا محمداً عليه أفضل الصلاة وأتمّ التسليم، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ ﴾، وقال: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ ﴾، وقال: ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾، وذكر تعالى عن إبراهيم الخليل ﷺ أنَّه قال: ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾.

وهذه الدعوة هي المراد بدعوة إبراهيم في قوله ﷺ: « أنا دعوة أبي إبراهيم، وبُشرى عيسى، ورأت أمي حين حملت بي أنَّه خرج منها نور أضاءت له بُصرى، وبُصرى من أرض الشام » رواه الحاكم (٢/ ٦٠٠) وصححه

ووافقه الذهبي، وانظر: مسند الإمام أحمد (١٧١٥٠) (١٧١٥١) (٢٢٢٦١)، والسلسلة الصحيحة للألباني (١٥٤٥) (١٥٤٦).

وأمَّا بشارة عيسى عليه الصلاة والسلام به، فقد قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ **وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ** ﴾، ويدلُّ لعموم بعثته ﷺ إلى العالمين قوله تعالى: ﴿ **وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾** ﴾، وقوله: ﴿ **قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا** ﴾، وقوله: ﴿ **وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾** ﴾، وفي صحيح البخاري (٣٣٥) ومسلم (١١٦٣) عن جابر رضي الله عنه: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: « أُعطيتُ خمساً لم يُعطهنَّ أحدٌ قبلي ... »، وفيه: « وكان النَّبيُّ يُبعث إلى قومه خاصَّة، وبُعثتُ إلى الناس عامَّة »، ويدلُّ لبعثته إلى الجنِّ قوله تعالى: ﴿ **وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَـٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَـٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾** ﴾، وقوله: ﴿ **فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ** ﴾ في إحدى وثلاثين آية من سورة الرحمن.

وجزيرة العرب موطن الإسلام، وفيها قبلة المسلمين، وإلى المدينة فيها يأرز الإيمان (رواه البخاري ١٨٧٦، ومسلم ١٤٧)، ومنها شعَّ نور الهدى، وانطلق الهُداة المصلحون إلى أنحاء الأرض للدعوة إلى الإسلام وإخراج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربِّهم، ولا يجوز أن تكون هذه الجزيرة وطناً لغير

الإسلام من الأديان؛ لقوله ﷺ: « لأُخرِجنَّ اليهود والنصارى من جزيرة العرب؛ حتى لا أَدَعَ إلَّا مسلماً » أخرجه مسلم (١١٦٧) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وروى الإمام أحمد في مسنده (٢٦٣٥٢) بإسناد حسن عن عائشة رضي الله عنها قالت: « كان آخر ما عهد رسول الله ﷺ أن قال: لا يُترك بجزيرة العرب دينان ».

جزيرة العرب موطن صلاح وإصلاح، وليست موطن إفساد

الصلاحُ والإصلاح مطلوبان في كلِّ مكان، وعلى الأخصِّ في جزيرة العرب، التي هي في الحقيقة جزيرة الإسلام؛ لأنَّها ليست وطناً لغيره من الأديان، ولا يجوز الإفساد في كلِّ مكان من الأرض، وعلى الأخصِّ هذه الجزيرة التي هي معقل الإسلام، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ **وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾** ﴾، وقال تعالى: ﴿ **وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا** ﴾ في موضعين من سورة الأعراف، قال ابن كثير في تفسير الموضع الأول: « ينهى تعالى عن الإفساد في الأرض، وما أضرَّه بعد الإصلاح؛ فإنَّه إذا كانت الأمور ماشيةً على السداد، ثم وقع الإفساد بعد ذلك كان أضرَّ ما يكون على العباد، فنهى تعالى عن ذلك »، وقد ذكر الله في كتابه أنَّ من أعمال المنافقين الإفساد في الأرض مع دعواهم الإصلاح، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾** ﴾، وقد نقل ابن كثير في تفسير هذه الآية عن مجاهد أنَّه قال: « إذا ركبوا معصية الله، فقيل لهم: لا تفعلوا كذا وكذا، قالوا: إنَّما نحن على الهدى مصلحون ».

وما أشبه الليلة بالبارحة؛ فإنَّ الشباب الذين خرجوا على الناس في هذه البلاد في الآونة الأخيرة وقاموا بالإفساد في هذه الجزيرة، وذلك بالتفجير والتدمير وقتل مَن لا يستحق القتل من المسلمين والمستَأمَنين، قد زيَّن لهم الشيطان أنَّ هذا الإجرام من الجهاد في سبيل الله! بل قد وُجد منهم الهمُّ بالسوء في أقدس بقاع الأرض؛ مكة والمدينة، حيث وُجدت معهم فيهما الأسلحة والمتفجِّرات، وقد قال الله عزَّ وجلَّ في المسجد الحرام: ﴿ وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٢٥﴾ ﴾، وقد نقل ابن كثير في تفسير هذه الآية عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّه قال: « ﴿ بِظُلۡمٖ ﴾ هو أن تستحلَّ من الحَرَم ما حرَّم الله عليك من إساءة أو قتل، فتظلم مَن لا يظلمك، وتقتل من لا يقتلك، فإذا فعل ذلك فقد وجب له العذاب الأليم ».

وهذا الإفساد من هؤلاء الشباب حصل منهم في هذه الجزيرة التي هي في هذا الزمان خير البلاد تمسُّكاً بالإسلام ومحافظة على شريعته وأخذاً بأحكامه وآدابه، وحصول هذا العدوان منهم فيه إخلال بالأمن في بلاد هي معقل الإسلام في هذا الزمان، وقد احتوشت هؤلاء الشباب شياطينُ الجنِّ والإنس، فشياطينُ الجنِّ يوسوسون لهم ويُلقون في أذهانهم أنَّ ما يحصل منهم من الإفساد هو جهاد، وأمَّا شياطين الإنس فيُغْرونهم بالباطل، ويُؤجِّجون في قلوبهم الحقد والغيظ على أهل هذه البلاد الذين هم البقية الباقية، ومن العجيب الغريب أن يدَّعي الإصلاح في هذه الجزيرة مَن يسعى فيها بالفساد مِمَّن هربوا منها واحتضنتهم العاصمة الاستعمارية، فيَبثُّون سمومَهم للإفساد في هذه الجزيرة من طريق قناتهم الإفسادية، ومن العجيب أيضاً أن يكون هؤلاء يعيشون في بلاد الكفر، ثم لا يحصل من شباب تلك البلاد مَن يُعاملُهم معاملة بعض شباب هذه الجزيرة للمستأمَنين من تلك البلاد وغيرها، أفيكون

شباب الكفَّار أرجحَ عقولاً وأحسنَ تصرُّفاً من بعض شباب هذه الجزيرة؟!

والله المسئول أن يحفظ هذه البلاد وسائر بلاد المسلمين من كيد الكائدين وعمل المفسدين.

حكم بقاء الكفَّار المستمر والمؤقَّت في جزيرة العرب

إنَّ بقاءَ الكفَّار في جزيرة العرب قسمان: دائمٌ ومؤقَّت، فأمَّا البقاء الدائم فيها فلا يجوز؛ لأنَّه لا يجوز أن تكون وطناً لغير المسلمين؛ لقوله ﷺ: « لأُخرِجنَّ اليهود والنصارى من جزيرة العرب؛ حتى لا أَدَع إلَّا مسلماً »، وقول عائشة رضي الله عنها: « كان آخر ما عهد رسول الله ﷺ أن قال: لا يُترك بجزيرة العرب دينان »، وقد تقدَّم ذكرُهما قريباً وذكر من رواهما، فلهذين الحديثين وأمثالهما لا يجوز أن تكون هذه الجزيرة وطناً لغير الإسلام، ولا يجوز أن يوجد فيها أماكن للعبادة غير مساجد المسلمين.

وأمَّا البقاء المؤقَّت فجائز؛ لقوله تعالى: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ﴾، ولأنَّ الخليفتين أبا بكر وعمر رضي الله عنهما لم يُبادرا إلى إخراج الكفَّار من هذه الجزيرة، وأيضاً فإنَّ الذي قتل عمر رضي الله عنه ـ وتحقَّقت له الشهادة التي أخبر بها الرسول ﷺ ـ كافر، فقد روى البخاري في صحيحه (٣٧٠٠) قصَّة مقتل عمر وبيعة عثمان رضي الله عنهما، وفيها قول عمر رضي الله عنه: « الحمد لله الذي لم يجعل مِيتَتي بيد رجل يدَّعي الإسلام ».

مَن الذي يتولَّى إخراج الكفَّار من جزيرة العرب؟

تواطأ العالَم في هذا الزمان على أنَّ كلَّ بلد يَدخله مَن ليس من أهله بإذن من دولة ذلك البلد، أُطلق على ذلك الإذن اسم (تأشيرة دخول)، ومَن دخل أيَّ بلد بهذا الإذن يكون له الأمان على نفسه ومالِه، ولا يحصل له خلاف ذلك

إلَّا باعتداء عليه بغير حقٍّ، والدخول إلى جزيرة العرب لغير المسلمين لا يجوز إلَّا في زمن مؤقَّت، وينبغي أن يكون ذلك الدخول لِمَا تدعو الحاجة إليه، وما لا تدعو الحاجة إليه كالخدم والسائقين ينبغي أن يُقتصَر فيه على المسلمين.

والذي يتولَّى إخراج الكفَّار من جزيرة العرب بعد دخولهم إيَّاها ولاةُ الأمر فيها، فيتولَّى الإخراج مَن حصل منه الإذن بالدخول، ولا يجوز لأحد غيرهم القيام بشيء من ذلك.

وما حصل من بعض الشباب من الاعتداء على بعض هؤلاء المستأمَنين بالقتل والإيذاء بما هو دونه مخالف لهدي الإسلام، وهو من الإجرام والإفساد في الأرض والإساءة إلى سمعة الإسلام والمسلمين؛ يوضح ذلك أنَّ الصحابةَ رضي الله عنهم في عهد أبي بكر وعمر رضي الله عنهما لم يحصل من أحد منهم الاعتداء على أحد من الكفَّار بالقتل وما دونه، بزعم الإخراج من جزيرة العرب؛ لعلمهم أنَّ الذي يتولَّى الإخراج هم ولاة الأمور.

مقارنة بين أعمال الشباب المفتونين وأعمال الدعاة المصلحين

في هذا الزمان الذي حصل فيه دخول غير المسلمين إلى جزيرة العرب لمُدد مؤقَّتة، قام كثيرٌ من أهل هذه البلاد بدعوتهم إلى الإسلام، ومن ذلك إنشاء مكاتب في مدن المملكة العربية السعودية، أُطلق عليها اسم « توعية الجاليات »، وذلك من فترة طويلة، وقد دخل في الإسلام أعداد كبيرة، ففي التقرير الشامل لمركز توعية الجاليات بالقصيم في بريدة مثلاً، دخل في الإسلام خمسة عشر ألفاً، وذلك في المدة ما بين عام (١٤٠٧هـ) ومطلع عام (١٤٢٤هـ)، ومن تمام الهداية لهؤلاء الذين هداهم الله للإسلام أن يُوفَّقوا لدعاة ناصحين؛ يُفقِّهونهم في الدِّين على فهم السلف الصالح، بعيدين عن البدع ومحدثات الأمور.

وفي أوائل عام (١٤٢٤هـ) ابتلي بعض الشباب في هذه البلاد بالخروج عن طاعة ولاة الأمر فيها والإقدام على قتل بعض المستأمنين بزعم إخراج الكفَّار من جزيرة العرب، وقد أساؤوا بذلك إلى أنفسهم ودينهم وأهليهم وأمَّتهم، وفي صحيفة القبس الكويتية العدد ١١١٣٧، بتاريخ: ٢٤ ربيع الآخر ١٤٢٥هـ، مقال للدكتور حمد بن إبراهيم العثمان، بعنوان: «أضواء على الفكر التفجيري»، اشتمل على جُمل من كلام الشباب المفتونين من مجلتهم في شبكة المعلومات الانترنت، من هذه الجمل في العدد الخامس: «ليعلم الجميع أنَّ عليهم إذا أرادوا منَّا أن نتراجع عن مبادئنا التي من أجلها خُلقنا، وبها أُمرنا ومن أجلها دماءَنا سفكنا، فليُخرجوا محمداً ﷺ من قبره ليقول لنا: (لا تخرجوا المشركين من جزيرة العرب)، ليُخرجوه ليقول: (لا تجاهدوا المشركين من جزيرة العرب)، ليخرجوه ليقول: (إنَّكم مخطئون متطرِّفون إرهابيُّون، لا بدَّ لكم أن تتراجعوا وتتوبوا)، عندها فقط سنسمع ونطيع له ﷺ !!!».

ومَن يطَّلع على هذه الجملة المتناهية في السوء يظهر له شدَّة قسوة قلب قائلها وفظاظته وتحجُّر فكره، ولا أظن أنَّ كثيراً من الشباب المفتونين بالإفساد في هذه البلاد يستسيغون مثل هذا الكلام الذي يدعوهم إلى نهايات سيئة لهم ولغيرهم، وعليهم أن يثوبوا إلى رشدهم، ولا يلتفتوا إلى مثل هذا الكلام الساقط الذي ينادي على قائله بمنتهى الخبث والسوء والوقاحة والخسَّة.

وهذه مقارنة موجزة بين أعمال الشباب المفتونين وأعمال الدُعاة المصلحين:

١ ـ الشباب المفتونون يقتلون الكافر على كفره، فيُسرعون به إلى النار، ويُخرجونه من ظلام إلى ظلام وعذاب دائم، والدعاة المصلحون يَعملون على إخراج الكافر من الظلمات إلى النور، فيظفر بسعادة الدنيا والآخرة.

٢ ـ الشباب المفتونون في قتلهم الكافر يصل إلى أهله في تابوت، فيمتلئون حقداً على الإسلام والمسلمين، وينسبون إلى الإسلام ما هو براء منه بسبب عمل هؤلاء المفتونين، والدعاة المصلحون بدعوتهم غيرهم إلى الإسلام يرجع الإنسان إلى أهله مسلماً قد أصبح من أهل الإسلام، فيدعو أهله وغيرَهم إلى الإسلام.

٣ ـ الشباب المفتونون عرَّضوا أنفسهم للعقوبة الواردة في قوله ﷺ: «مَن قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة، وإنَّ ريحَها توجد من مسيرة أربعين عاماً» رواه البخاري (٣١٦٦) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، والدعاة المصلحون يرجون بدعوتهم مضاعفة الأجور الموعود بها في قوله ﷺ: «مَن دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور مَن تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً» رواه مسلم (٢٦٧٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

٤ ـ الشباب المفتونون أهلوهم وذووهم في همٍّ وغمٍّ وحزن وأسى لحال أبنائهم السيِّئة، والدعاة المصلحون أهلوهم وذووهم في فرح وسرور وغِبطة وبهجة لحال أبنائهم الحسنة.

٥ ـ الشباب المفتونون بأفعالهم القبيحة يَصدُّون عن الدخول في الإسلام ويُسيئون إلى سمعة الدِّين الحنيف، والدعاة المصلحون بأعمالهم الحسنة وترغيبهم في الإسلام يسعون لإخراج الكفَّار من الظلمات إلى النور.

٦ ـ الشباب المفتونون لم يُوفَّقوا لجهاد أنفسهم، فأساؤوا إليها وإلى غيرهم، بأن وقعوا في إفسادٍ سمَّوه جهاداً، والدعاة المصلحون وُفِّقوا لجهاد أنفسهم، فسعوا إلى جهاد غيرهم بدعوته إلى الإسلام.

٧ ـ الشباب المفتونون بأعمالهم الشنيعة مفاتيح شرٍّ مغاليق خير، والدعاة المصلحون بأعمالهم الحسنة مفاتيح خير مغاليق شرٍّ، وفي سنن ابن ماجه

(٢٣٧) عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « إنَّ من الناس مفاتيح للخير مغاليق للشرِّ، وإنَّ من الناس مفاتيح للشرِّ مغاليق للخير، فطوبى لِمَن جعل اللهُ مفاتيح الخير على يديه، وويل لِمَن جعل الله مفاتيح الشرِّ على يديه »، وانظر: السلسلة الصحيحة (١٣٣٢) للألباني.

٨ ـ الشباب المفتونون من أهل الوعيد في قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ** ﴿٨١﴾ ﴾، والدعاة المصلحون من أهل الوعد في قوله: ﴿ **إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ** ﴿١٧٠﴾ ﴾.

٩ ـ الشباب المفتونون لهم نصيب مِمَّا جاء في قوله ﷺ: « ... ومَن خرج على أمَّتي يضرب برَّها وفاجرَها، ولا يتحاش من مؤمنها، ولا يفي لذي عهد عهده، فليس منِّي ولست منه » رواه مسلم (١٨٤٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه، والدعاة المصلحون لهم نصيب مِمَّا جاء في قوله ﷺ: « ثلاث خصال لا يغلُّ عليهنَّ قلب مسلم أبداً: إخلاص العمل لله، ومناصحة ولاة الأمر، ولزوم الجماعة؛ فإنَّ دعوتهم تُحيط من ورائهم » رواه أحمد (٢١٥٩٠) بإسناد صحيح من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه.

أأنتم المسلمون وغيركم مرتدُّون، ما لكم كيف تحكمون؟!

لم يقف الأمر عند هؤلاء الشباب المفتونين عند تتبُّع المعاهَدين في هذه البلاد وقتلهم، بل تعدَّى إفسادُهم بالتفجير والقتل إلى السعوديين، حيث قاموا بالتفجير عند مؤسسات حكومية العاملون فيها سعوديُّون يُحافظون على أمن الناس في هذه البلاد، وفي اعتبارهم أنَّ السلامة لا يستحقُّها إلَّا من كان على شاكلَتهم، يتَّضح ذلك بالنقول عنهم من مجلَّتهم في الانترنت في مقال الدكتور حَمد العثمان المنشور في صحيفة القبس الكويتية المشار إليه قريباً، ومن

هذه النقول ما جاء في العدد الرابع (ص ١٥): « فمَن وقف في صفِّ المجاهدين فقد سلك سبيل الهدى وأفلح، وسعى في نجاة نفسه من عذاب الله، وقدَّم لنفسه، وحصل الرفعة والدرجات العلى في الدنيا والآخرة، ومَن وقف في صفِّ الصليبيين والمرتدِّين في هذه الحرب فقد خسر نفسه وارتدَّ عن دينه وكفر بربِّه وجحد نعمة الله عليه، ومَن وقف متفرِّجاً معتزلاً خاذلاً لإخوانه المسلمين فقد فوَّت على نفسه حظًّا عظيماً، ولم يسلم من إثم القعود والخذلان!!! ».

وفي العدد السادس: « وحركة الجهاد لن تتوقَّف عند حدود ما يُسمَّى بالمملكة العربية السعودية، ولا اعتبار شرعي يمنع مثلاً من تحرُّك الجهاد خارج هذا الكيان إلى اليمن أو إلى تلك الدول المسمَّاة بالخليج!! ».

وفي العدد الثامن: « هذا التصوُّر لهؤلاء المرتدِّين الذين أخذوا مقعد الحاكم الشرعي في بلاد المسلمين يجعل الحوار معهم مستحيلاً أصلاً، ولا حوار مع المرتدِّين شرعاً وسياسة إلَّا بالسيف والقتال في سبيل الله ».

ولَّما حصل التفجير عند مبنى الأمن العام في شارع الوشم في الرياض، وانتشر بين الناس أنَّ في ذلك قتلاً للمسلمين وليس للمشركين، جاء جوابهم في العدد السادس عشر: « وعندما جاء التفجير رفعوا عقائرهم بالصياح: (هل هذا من قتال الصليبيِّين؟! هل قال رسول الله ﷺ: أخرجوا السعوديين من جزيرة العرب، ولا قال: أخرجوا الأمريكان من جزيرة العرب؟!) بل قال: (أخرجوا المشركين من جزيرة العرب)، ما استثنى سعوديًّا ولا غيره، هذا هو الجواب الواضح الصريح لهذا التساؤل البليد مِمَّن طرحه!!! ».

وحول هذه الجمل الساقطة الهابطة أنبِّه على أمور:

الأول: أنَّ قائلَ هذا الكلام المتناهي في السقوط والقبح مستحكم الجهل موغل في الضلال، قلبه كالحجارة أو أشدُّ قسوة، ولا يصدر مثله إلَّا مِمَّن بلغ

النهاية في الشذوذ والانحراف، ولا أظنُّ أنَّ الكثيرين من هؤلاء الشباب يستسيغون مثل هذا الكلام القبيح، فعليهم أن يُعرضوا عنه وعن قائله إعراضاً كليًّا، وأن يتوبوا إلى الله مِمَّا حصل منهم، ويسلِّموا أنفسهم لتحصل لهم ولغيرهم السلامة.

الثاني: أنَّ مقتضى هذا الكلام الساقط أنَّهم هم المسلمون في هذه الجزيرة، وأنَّ السعوديين سواهم حقيقون بالإخراج منها؛ لأنَّهم مشركون، وهذا نهاية في التصوُّر الخاطئ لم يصل إليه الخوارج الأوَّلون الذين خرجوا على أمير المؤمنين علي رضي الله عنه ومَن معه من الصحابة؛ فإنَّهم مع تكفيرهم للصحابة لم يُريدوا إخراجهم من ديارهم في الجزيرة وغيرها، فأيُّ غنيمة هذه ظفر بها الشيطان من هؤلاء الشباب؟! ويح هؤلاء الشباب؟! ما الذي دهاهم؟! بل أين ذُهب بعقولهم حتى وُجد فيهم مَن قال مثل هذه الجُمل الرعناء؟! لقد غرَّهم بالله الغرور، فزيَّن لهم أنَّهم هم المسلمون وأنَّ غيرَهم مرتدُّون!! وقد قال صلى الله عليه وسلم من حديث أبي ذر رضي الله عنه: « ومن دعا رجلاً بالكفر، أو قال: عدو الله! وليس كذلك، إلَّا حار عليه » رواه مسلم (٢١٧)، وإذا كان هذا قول الرسول صلى الله عليه وسلم فيمَن كفَّر رجلاً واحداً، فكيف بِمَن كفَّر أمَّة حكَّامها ومحكوميها؟!

الثالث: أنَّ الخوارجَ الذين خرجوا على عليٍّ والصحابة رضي الله عنهم خرجوا على خير الناس في ذلك الوقت، وهؤلاء الشباب خرجوا على المسلمين في هذه الجزيرة، وأهلُها في هذا الوقت أشدُّ الناس تمسُّكاً بالإسلام وأكثر محافظة على أخلاقه وآدابه، فهم بأعمالهم القبيحة يُريدون القضاء على هذا الخير، ولا يحيق المكر السيِّئ إلَّا بأهله، وقد قال صلى الله عليه وسلم: « ومَن خرج على أمَّتي يضرب برَّها وفاجرَها، ولا يتحاش من مؤمنها، ولا يفي لذي عهد عهده، فليس منِّي ولست منه » رواه مسلم (١٨٤٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

في توبة الشباب المفتونين وتسليم أنفسهم الخير والسلامة لهم ولغيرهم

يتنازع الشبابَ المفتونين بالتفجير في جزيرة الإسلام داعيان: داعي الشرِّ، وهم شياطين الجنِّ والإنس؛ الذين يزيِّنون لهم باطلهم ويحرِّضونهم على الاستمرار في الإفساد، وداعي الخير، وهم كلُّ ناصح لهم يُحبُّ الخير والسلامةَ لهم ولغيرهم، يقول لهم: انتهوا خيراً لكم، وسلِّموا أنفسَكم لتبقوا مدة في السجن، وجدير بهؤلاء الشباب قبول نصح الناصحين الذين يرجون لهم ولغيرهم السلامة، والإعراض عن دعاة الشرِّ الذين يدفعونهم إلى الهلاك والإهلاك، وأن يكون جوابهم لهم مثل جواب يوسف عليه الصلاة والسلام: ﴿ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ﴾، وهذه مقارنة بين بقائهم داخل السجن وخارجه:

- ففي بقائهم في السجن تحصل السلامة لهم ولغيرهم، وفي بقائهم خارجه يحصل منهم الإفساد، الذي فيه هلاكهم وهلاك غيرهم.

- وفي بقائهم في السجن يرتاح أهلوهم وذووهم، وفي بقائهم خارجه يبقى أهلوهم وذووهم في قلق وتخوف من نهايات سيئة لهم.

- وفي بقائهم في السجن يحصل الأمن والأمان لأمَّتهم، وفي بقائهم خارجه يحصل لها الرعب والذعر؛ لما يُخشى من إفسادهم.

إعراض الشباب المفتونين عن الرجوع إلى العلماء مكيدة شيطانية

من أعظم مكائد الشيطان لهؤلاء الشباب المفتونين بالتكفير والتفجير تزيينه في قلوبهم الابتعاد عن أهل العلم وعدم الرجوع إليهم في فهم الدِّين والفقه فيه، بل آل الأمرُ ببعضهم إلى رميهم وغيرهم بالرِّدَّة عن الدين، بزعم

أنَّهم وقفوا في صفِّ المرتدِّين، كما في الجملة الأولى من جملهم الساقطة الهابطة، وبذلك تحقَّق للشيطان ما أراده منهم من تكفيرهم غيرهم من الحكام والمحكومين، ثم الخروج عليهم بالتفجير والتقتيل والتدمير، وبذلك أيضاً خالفوا ما كان عليه سلف الأمَّة من لزوم جماعة المسلمين والنصح لهم ولولاتهم وترك الخروج عليهم، وقد قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ ﴾، وأولو الأمر هم العلماء والأمراء، فيُسمع للعلماء ويُطاع فيما يُبيِّنونه من أمور الدِّين، ويُسمع للأمراء ويطاع فيما يأمرون به ممَّا ليس معصية لله عزَّ وجلَّ، وقد رَجَّح تفسير ولاة الأمر بما يشمل العلماء والأمراء القرطبي وابن كثير في تفسيريهما، ويدلُّ لطاعة العلماء قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾، وقوله: ﴿ لَوۡلَا يَنۡهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ عَن قَوۡلِهِمُ ٱلۡإِثۡمَ وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَۚ ﴾، وقوله: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ ﴾.

وبالرجوع إلى العلماء تحصل السلامة من الوقوع في الفتن وما يترتَّب عليها من أضرار ومفاسد، وتقدَّمت الإشارة إلى رجوع ألفين من الخوارج عن باطلهم عندما ناظرهم عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، ورجوع العصابة التي همَّت بالخروج على الناس بعد الحجِّ لَمَّا سمعوا من جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ما يبيِّن فساد رأي الخوارج بتخليد مرتكب الكبيرة في النار، وإظهار عروة بن الزبير رحمه الله خطأه في فهم قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ ﴾ الآية؛ لَمَّا بيَّنت له خالته عائشة رضي الله عنها الفهم الصحيح لمعناها، وقد قال عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه كما في مصنف عبد الرزاق (٢٠٤٨٣): « لا يزال الناس

صالحين متماسكين ما أتاهم العلم من أصحاب محمد ﷺ ومن أكابرهم، فإذا أتاهم من أصاغرهم هلكوا».

وروى مسلم في أول كتاب الإيمان من صحيحه (٨) حديث جبريل المشهور بإسناده إلى يحيى بن يَعمر، قال: «كان أول من قال في القدر بالبصرة معبد الجهني، فانطلقت أنا وحميد بن عبد الرحمن الحميري حاجَّين أو معتمرين، فقلنا: لو لقينا أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ فسألناه عمَّا يقول هؤلاء في القدر ... »، وفي هذا رجوع التابعين إلى الصحابة في معرفة حكم ما يقع من أمور مشكلة، سواء كان ذلك في العقائد أو غيرها، وهذا هو الواجب على كلِّ مسلم أن يرجع في أمور دينه إلى أهل العلم.

خروج الشباب المفتونين عن الطاعة ومفارقتهم الجماعة

استفاضت النصوص الشرعية وأقوال السلف في السمع والطاعة لأئمَّة المسلمين ولزوم جماعتهم وتحريم الخروج على الولاة ومفارقة الجماعة، ومن ذلك قوله ﷺ: « مَن خرج من الطاعة وفارق الجماعة فمات، مات ميتة جاهلية، ومَن قاتَل تحت رايَّة عميَّة، يغضب لعصبة، أو يدعو إلى عصبة، أو ينصر عصبة، فقُتل، فقتلة جاهلية، ومَن خرج على أمَّتي يضرب بَرَّها وفاجرَها، ولا يتحاش من مؤمنها، ولا يفي لذي عهد عهده، فليس منِّي ولست منه » رواه مسلم (١٨٤٨) عن أبي هريرة ﷺ، وقوله ﷺ: « السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحبَّ وكره ما لم يُؤمَر بمعصية، فإذا أُمِر بمعصية فلا سمع ولا طاعة » رواه البخاري (٧١٤٢) ومسلم (١٨٣٩) عن عبد الله ابن عمر رضي الله عنهما، وقوله ﷺ: « عليك السمع والطاعة في يُسرك وعُسرك، ومَنشطك ومكرهك، وأثرة عليك » رواه مسلم (١٨٣٦) عن أبي هريرة

رضي الله عنه، وقوله ﷺ: « ثلاث خصال لا يغلُّ عليهنَّ قلب مسلم أبداً: إخلاص العمل لله، ومناصحة ولاة الأمر، ولزوم الجماعة؛ فإنَّ دعوتهم تُحيط من ورائهم » رواه أحمد (٢١٥٩٠) بإسناد صحيح من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه.

قال ابن القيم في مفتاح دار السعادة (ص ٧٩) في معنى « لا يغلُّ عليهنَّ قلب مسلم »: « أي: لا يحمل الغلَّ ولا يبقى فيه مع هذه الثلاثة؛ فإنَّها تنفي الغلَّ والغشَّ وفساد القلب وسخائمه »، إلى أن قال: « وقوله: (ومناصحة أئمَّة المسلمين): هذا أيضاً منافٍ للغلِّ والغشِّ؛ فإنَّ النصيحة لا تجامع الغل؛ إذ هي ضده، فمن نصح الأئمة والأمَّة فقد برئ من الغلِّ، وقوله: (ولزوم جماعتهم): هذا أيضاً مِمَّا يُطَهِّر القلب من الغلِّ والغشِّ؛ فإنَّ صاحبه للزومه جماعة المسلمين يُحِبُّ لهم ما يُحِبُّ لنفسه، ويكره لهم ما يكره لها، ويسوؤه ما يسوؤهم، ويَسرُّه ما يسرُّهم ».

وقال الإمام أحمد في اعتقاده كما في السنة للالكائي (١/ ١٦١): « ومَن خرج على إمام المسلمين وقد كان الناس اجتمعوا عليه وأقرُّوا له بالخلافة بأيِّ وجه كان: بالرِّضا أو بالغلبة؛ فقد شقَّ هذا الخارجُ عصا المسلمين وخالف الآثار عن رسول الله ﷺ، فإن مات الخارج عليه مات ميتة جاهلية، ولا يحلُّ قتال السلطان ولا الخروج عليه لأحد من الناس، فمَن فعل ذلك فهو مبتدع على غير السنَّة والطريق ».

وقال الإمام الطحاوي في عقيدة أهل السنة والجماعة: « ولا نرى الخروج على أئمَّتنا وولاة أمورنا وإن جاروا، ولا ندعو عليهم، ولا ننزع يداً من طاعتهم، ونرى طاعتَهم من طاعة الله عزَّ وجلَّفريضة، ما لم يأمروا بمعصية، وندعو لهم بالصلاح والمعافاة ». العقيدة مع شرحها لابن أبي العز (ص ٥٤٠).

وما حصل من الشباب المفتونين بالتكفير والتفجير والتدمير في جزيرة الإسلام مباينٌ تمام المباينة لهذه الأحاديث والآثار، وهم يعلمون ويعلم غيرهم أنَّ آباءهم وأجدادهم عاشوا في هذه البلاد في ولاية هذه الدولة في أمن وأمان سامعين مطيعين للولاة في المعروف، وخروج هؤلاء الشباب عن النهج الصحيح الذي كان عليه آباؤهم وأجدادهم هو من عمل الشيطان وتزيينه الباطل في نفوسهم، وقد قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (٩٧) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ (٩٨) ﴾.

وجوه مخالفة الشباب المفتونين بالتكفير والتفجير للإسلام

لقد كثرت وجوه مخالفة الشباب المفتونين بالتكفير والتفجير للإسلام وتنوَّعت، وكلُّ واحد منها لو اقتُصر عليه كفى به لمن أتى به مصيبة، فكيف بها مجتمعة ومتنوِّعة؟! وهذه جملة من تلك المخالفات مع ذكر الأدلَّة الدَّالة على شدَّتها وخطورتها:

الأول: تكفير المسلمين: قال ﷺ: « أيُّما امرئ قال لأخيه: يا كافر! فقد باء بها أحدهما، إن كان كما قال، وإلاَّ رجعت عليه » رواه البخاري (٦١٠٤) ومسلم (٢١٦)، واللفظ له، وقال ﷺ من حديث أبي ذر رضي الله عنه: « ومَن دعا رجلاً بالكفر، أو قال: عدوَّ الله! وليس كذلك، إلَّا حار عليه » رواه مسلم (٢١٧).

وإذا كان هذا الوعيد في تكفير رجل واحد، فكيف بتكفير أمَّة؟!

الثاني: قتل المسلمين بغير حقٍّ: قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً ﴾، وقال: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا (٩٣) ﴾، وقال: ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَالِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَآءِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ

فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾، وقال ﷺ: « أوّل ما يُقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء » رواه البخاري (٦٨٦٤) ومسلم (١٦٧٨)، وقال ﷺ: « لن يزال المؤمن في فُسحة من دينه ما لم يُصب دماً حراماً » أخرجه البخاري (٦٨٦٢)، وقال جندب بن عبد الله رضي الله عنه: « إنَّ أول ما ينتن من الإنسان بطنه، فمَن استطاع أن لا يأكل إلَّا طيِّباً فليفعل، ومَن استطاع أن لا يُحال بينه وبين الجنة بملء كف من دم هراقه فليفعل » رواه البخاري (٧١٥٢)، قال الحافظ في الفتح (١٣/ ١٣٠) بعد أن ذكر له طريقاً مرفوعاً عند الطبراني: « وهذا لو لَم يرد مصرَّحاً برفعه لكان في حكم المرفوع؛ لأنَّه لا يُقال بالرأي، هو وعيد شديد لقتل المسلم بغير حقٍّ ».

الثالث: قتلهم أنفسهم: قال الله تعالى: **﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾﴾**، وقال ﷺ: « من قتل نفسَه بشيء في الدنيا عُذِّب به يوم القيامة » رواه البخاري (٦٠٤٧) ومسلم (١٧٦).

الرابع: قتل المعاهدين: قال ﷺ: « مَن قتل نفساً معاهداً لَم يرح رائحة الجنة، وإنَّ ريحها توجد من مسيرة أربعين عاماً » أخرجه البخاري (٣١٦٦).

وأمَّا قتلهم خطأ، فقد قال الله عزَّ وجلَّ: **﴿وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾**.

الخامس: ترويع الآمنين: قال ﷺ: «مَن حمل علينا السِّلاحَ فليس منَّا» رواه البخاري (٦٨٧٤) ومسلم (١٦١)، وروى الإمام أحمد (٥/ ٣٦٢) وأبو داود (٥٠٠٤) بإسناد صحيح عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: «حدَّثنا أصحاب محمد ﷺ أنَّهم كانوا يسيرون مع النَّبِيِّ ﷺ، فنام رجل منهم، فانطلق بعضُهم إلى حبل معه فأخذه، ففزع، فقال رسول الله ﷺ: لا يحلُّ لمسلم أن يروِّع مسلماً».

السادس: إتلافهم أموال غيرهم: قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾، وقال ﷺ: «مَن أخذ أموال الناس يريد أداءها أدَّى الله عنه، ومَن أخذ يريد إتلافها أتلفه الله» رواه البخاري (٢٣٨٧)، وإذا كان هذا فيمن أخذ أموال الناس دَيْناً وهو لا يريد أداءها، فكيف بمَن أتلف أموالهم بالتفجير والتدمير؟!

السابع: استيلاؤهم على مراكب غيرهم بالتهديد بالسلاح إذا عُثر عليهم للهرب بها: قال ﷺ: «لا يحلُّ لامرئ أن يأخذ مال أخيه بغير حقِّه» رواه أحمد (٢٣٦٠٥) بإسناد حسن، وقال ﷺ في خطبته يوم النحر بمنى في حجَّة الوداع من حديث أبي بكرة رضي الله عنه: «إنَّ دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا إلى يوم تلقون ربَّكم» أخرجه البخاري (٦٧) و(١٧٤١) ومسلم (١٦٧٩).

الثامن: إخفاء بعضهم نفسه بارتدائه لبس النساء: قال ابن عباس رضي الله عنهما: «لعن رسول الله ﷺ المتشبِّهين من الرِّجال بالنساء، والمتشبِّهات من النساء بالرِّجال» أخرجه البخاري (٥٨٨٥).

ووقوع هؤلاء الشباب في هذه المخالفات وغيرها ناتج عن فهومهم الخاطئة للنصوص وعدم رجوعهم للعلماء، وقد قال ﷺ: «مَن يُرد الله به

خيراً يفقهه في الدِّين »»، فإنَّ مفهومه أنَّ من لم يُرد الله به خيراً لم يفقهه في الدِّين.

والواجب على هؤلاء الشباب أن يتَّقوا الله في إسلامهم وفي أنفسهم وفي أهلهم وفي أمَّتهم، وأن يتفقَّهوا في الدِّين، وأن يرجعوا إلى أهل العلم ليسْلموا من التخبُّط الذي أوقعهم في تلك المخالفات الكثيرة للإسلام، وأن يتركوا الظلم لأنفسهم ولغيرهم، فقد قال ﷺ: « اتَّقوا الظلم؛ فإنَّ الظلم ظلمات يوم القيامة » أخرجه مسلم (٢٥٧٨) من حديث جابر رضي الله عنه، وأن يحذروا أن يكونوا من أهل الإفلاس في الآخرة، الذين قال عنهم رسول الله ﷺ: « إنَّ المفلسَ من أمَّتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيُعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يُقضى ما عليه أُخذ من خطاياهم فطُرحت عليه، ثم طُرح في النار » أخرجه مسلم (٢٥٨١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وإنَّ على هؤلاء الشباب أن يكونوا مؤمنين مسلمين مجاهدين مهاجرين حقًّا، ففي مسند الإمام أحمد بإسناد صحيح (٢٣٩٥٨) عن فضالة بن عبيد قال: قال رسول الله ﷺ في حجَّة الوداع: « ألا أخبرُكم بالمؤمن؟ مَن أمِنَه الناس على أموالهم وأنفسهم، والمسلم مَن سلم الناس من لسانه ويده، والمجاهد مَن جاهد نفسه في طاعة الله، والمهاجر مَن هجر الخطايا والذنوب »»، فلو أنَّ هؤلاء الشباب جاهدوا أنفسهم في طاعة الله لَهَجروا الخطايا والذنوب، وسلِم المسلمون من ألسنتهم وأيديهم، وأمِنَهم الناسُ على أموالهم وأنفسهم، لكنَّهم ركبوا رؤوسهم وابتعدوا عن العلماء، فوقعوا فيما وقعوا فيه، مِن قتل الأبرياء وتدمير المباني وغيرها، وترميل النساء وتيتيم الأطفال، فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة، فإنَّ صبغةً واحدة في النار تُنسي كلَّ نعيم في

الدنيا، ففي صحيح مسلم (٢٨٠٧) عن أنس ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: « يُؤتى بأنعَم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة، فيُصبَغ في النار صبغة، ثم يُقال: يا ابن آدم! هل رأيتَ خيراً قط؟ هل مرَّ بك نعيم قط؟ فيقول: لا والله يا رب! ويُؤتى بأشدِّ الناس بؤساً في الدنيا من أهل الجنة، فيُصبَغ صبغة في الجنة، فيُقال له: يا ابن آدم! هل رأيت بُؤساً قط؟ هل مرَّ بك شدَّة قط؟ فيقول: لا والله يا ربِّ! ما مرَّ بي بؤسٌ قط، ولا رأيتُ شدَّة قط »، وإن حرارة النار في الآخرة تفوق حرارة النار في الدنيا بسبعين ضعفاً، ففي صحيح البخاري (٣٢٦٥) ومسلم (٢٨٤٣) عن أبي هريرة ﵁: أنَّ رسول الله ﷺ قال: « نارُكم جزء من سبعين جزءاً من نار جهنَّم، قيل: يا رسول الله! إن كانت لكافية، قال: فُضِّلت عليهنَّ بتسعة وستين جزءاً، كلُّهنَّ مثل حرِّها ».

وأسأل الله عزَّ وجلَّ أن يثبِّت المهتدين من الشباب المسلمين على هداهم وأن يزيدهم هدى، وأن يتفضَّل بالهداية على مَن وقع منهم في الردى، ويُعيذهم من شرور أنفسهم ويُهيِّئ لهم من أمرهم رشداً، اللَّهمَّ مُنَّ عليهم بالصلاح، واجعلهم من أهل الإصلاح، وأعذهم من شياطين الجنِّ والإنس، ومن الفساد والإفساد، إنَّك على كلِّ شيء قدير.

ورغبة في أن يستفيد هؤلاء الشباب من نصحي أقول لهم عن نفسي: لقد أغناني الله من فضله، فلَم يدخل في مُلكي شبرٌ من الأرض إلَّا بالشراء مِمَّن يملكه شرعاً، ولم أتقاضَ شيئاً من أموال الدولة ـ وذلك جائز شرعاً لِمَن حصل له بدون إشراف نفس ـ والمرتبة التي كنت أتقاضى راتبها عند التقاعد سنة (١٤١٣هـ) حصلت عليها في عهد الملك فيصل سنة (١٣٩٣هـ)، ولست بما قلتُه طامعاً ولا راغباً في حصول أي نفع ماديٍّ أو معنويٍّ.

وكما بذلتُ نصحي لهؤلاء الشباب في هذه الرسالة والتي قبلها فقد بذلته لولاة الأمر في رسائل خاصَّة كثيرة، أوَّلها للملك فيصل رحمه الله سنة (١٣٨٣هـ)، فعلت ذلك امتثالاً لقوله ﷺ: « الدين النصيحة، قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمَّة المسلمين وعامَّتهم » رواه مسلم (١٩٦)، وقوله ﷺ: « إنَّ الله يرضى لكم ثلاثاً، ويَسخط لكم ثلاثاً؛ يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرَّقوا، وأن تناصحوا من ولاَّه اللهُ أمرَكم، ويَسخط لكم قيل وقال وإضاعة المال، وكثرة السؤال » رواه الإمامان مالك في الموطأ (٢/ ٩٩٠)، وأحمد في مسنده (٨٧٩٩) واللفظ له، وهو حديث صحيح، وتعاوناً معهم على بقاء السفينة سالمة، والحيلولة دون خرقها مِمَّن يريد خرقها؛ لتحصلَ النجاة والسلامة من الهلاك؛ لقوله ﷺ: « مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضُهم أعلاها وبعضُهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مرُّوا على مَن فوقهم، فقالوا: لو أنَّا خرقنا في نصيبنا خرْقاً ولم نؤذ مَن فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً » رواه البخاري (٢٤٩٣).

والواجب على أهل هذه البلاد ولاةً ورعيَّة المحافظة على ميراث الإمامَين الجليلَين محمد بن عبد الوهاب، ومحمد بن سعود ـ رحمهما الله ـ وهو الدولة التي أُسِّست واستمرَّت على العمل بالكتاب والسنَّة وما كان عليه سلف الأمَّة، فيُحافظ الولاةُ على القيام بما بُنيت الدولة عليه، وتتعاون معها الرعيَّة على كلِّ ما فيه خيرٌ للإسلام والمسلمين مع الدعاء والنصح لها، والسمع والطاعة في المعروف.

وأسأل الله عزَّ وجلَّ أن يحفظ لهذه البلاد أمنَها وإيمانها، ويَدحرَ كلَّ من أرادها بسوء، ويُعزَّ بولاتها الإسلامَ والمسلمين، ويقيها وسائر بلاد المسلمين شرَّ الأشرار وكيد الفجار والكفَّار، إنَّه سميع مجيب.

الآثار السيِّئة للتكفير والتفجير على المسلمين

لقد اشتدَّت غربةُ الإسلام في هذا الزمان، وزهد الكثيرون من أهله فيما فيه من الحقِّ والهدى الذي نزل من الحكيم الخبير، واعتاضوا بذلك أنظمة وضعها البشر، ونتيجة لذلك حلَّ بالمسلمين الضعف والهوان، وأحاطت بهم أنواع الفتن، ومِن ذلك ما وقع في البلاد الإسلامية وغيرها من تكفير وتفجير أُطلق عليه اسم الإرهاب، جرَّ على المسلمين الويلات والخطوب من أبنائهم وأعدائهم، وكانت بداية ذلك في أول الأمر اختطاف الطائرات، ثم تحوَّل إلى التفجير الذي فيه التقتيل وتدمير المباني وغيرها على مَن فيها، وقد عظُمت المصائب على المسلمين بعد تدمير عمارتين شاهقتين في الغرب أُطلق عليه أحداث الحادي عشر من سبتمبر، ومن الآثار السيِّئة التي ترتَّبت على هذه الأحداث ما يلي:

١ ـ تدخل أصحاب العمارتين الشاهقتين في شؤون قطرَين من الأقطار الإسلامية، هما أفغانستان والعراق، وما نتج عن ذلك من فوضى قتَّل فيها أهلُ هذين القطرَين بعضهم بعضاً، ولا شكَّ أنَّ القضاء على حزب البعث في العراق نعمة كبيرة على أهل العراق وغيرهم، ولكن المصيبة بعد ذلك في بقاء هذا التدخل، ونسأل الله عزَّ وجلَّالذي خلَّص أهل العراق من البعثيين أن يُخلِّصهم من الذين قضوا عليهم، وأن يصلح أحوالهم ويجمع كلمتهم على الخير والهدى.

٢ ـ الإساءة إلى سُمعة الإسلام؛ وذلك بإضافة أعداء الإسلام الأعمال الإجرامية التي يقوم بها بعض شباب المسلمين إلى الإسلام، والإسلام دين الحقِّ والعدل وحفظ حقوق كلِّ ذي حق، من المسلمين وغيرهم، وهو بريء من كلِّ ما يُضاف إليه زوراً بسبب التصرُّفات الشاذَّة الطائشة من بعض أبناء المسلمين.

٣ ـ اتِّهام مناهج التعليم في المملكة العربية السعودية بأنَّها سبب التكفير وما تبعه من تفجير في هذه البلاد، وهذا من مكايد الشيطان لإخلاء المناهج مِمَّا فيها من الخير، وهذا النعيق بالاتِّهام جاء من الخارج ومِمَّن في قلوبهم مرض من الداخل، والمناهج ـ بحمد الله ـ بريئة من التُّهم، ومتهمها هو المتَّهَم، والذين ابتُلوا بالتكفير والتفجير في هذه البلاد لم يحصل ذلك لهم من المناهج الدراسية، بل دخل عليهم من أبواب شرٍّ لا صلة لها بالمناهج البتة، وقد اعترف بذلك بعض الذين قُبض عليهم منهم، والذي حصل من هؤلاء الشباب هو كالذي حصل من أهل التكفير والتفجير في الجزائر من قبل، لا صلة ولا علاقة لشذوذ وانحراف هؤلاء وهؤلاء بالمناهج الدراسية، ومناهج التعليم وُضعت في عهد الملك عبد العزيز رحمه الله، ولم يحصل لدارسيها إلَّا الخير، ولم تُتَّهم بشيء، فلماذا تأخَّر الاتِّهام إلى هذا الوقت؟! وكان للتعليم قبل إنشاء وزارة المعارف مديرية عامة، مقرُّها مكة المكرمة، وكان مديرها العام الشيخ العلامة محمد بن عبد العزيز بن مانع رحمه الله، وهو من أهل العلم والفضل، وقد وُضعت مناهج التعليم في ذلك الوقت، ولَمَّا أُنشئت وزارة المعارف بعد وفاة الملك عبد العزيز رحمه الله في عهد الملك سعود رحمه الله، كان خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز ـ حفظه الله ـ أول وزير للمعارف، فأقرَّ مناهج التعليم، ثم تتابع على الوزارة بعده أربعة وزراء والمناهج التعليمية على ما هي عليه، لم يُوجَّه إليها

تهمة في هذه العهود المتتابعة، وبعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر وما حصل بعدها من تفجير في بلاد الحرمين وغيرها، وُلد هذا الاتِّهام الذي كان قبل ذلك في عالم الأموات، وليست المصيبة في هذا الاتِّهام نفسه، وإنَّما المصيبة في أن يجد قبولاً وأن يُفكَّر في تغييرها.

٤ ـ التراجع الذي حصل لمسيرة الدعوة إلى الإسلام ونشر هدايته في الأرض، فبعد تلك الأحداث حصل تراجع وانحسار لتلك الدعوة التي فيها الخير للبشرية، فتوقف كثير من الأنشطة الدعوية المباركة لما وُجِّه إليها من تهمة دعمها للإرهاب، وفي الوقت الذي أخذت فيها الدعوة إلى الإسلام في الانحسار، فإنَّ دعوة النصارى إلى باطلهم آخذة في الانتشار.

٥ ـ محاولة الضغط على الدول العربية وبالأخصِّ المحافظ منها على الإسلام، بما سمي إصلاحات نحو الأخذ بالديمقراطية المزعومة، ومن المعلوم أنَّ الأنظمة الديمقراطية الجهة التشريعية فيها فئة معينة من البشر، وأما الإسلام فإنَّ التشريع فيه من خالق البشر، وليس ذلك لأحد من البشر، والدستور في المملكة العربية السعودية الكتاب والسنة، بهما وعليهما قامت الدولة السعودية في عهودها الثلاثة، وقد مضى على ذلك أكثر من قرنين، فكيف يُفكَّر في تصدير الديمقراطية للأخذ بها بدلاً من شريعة خالق البشر؟! وما ذلك إلَّا من استبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير.

ولا شكَّ أنَّ عزَّ المسلمين وفلاحهم وصلاحهم لا يكون إلَّا بالالتزام بشرع الله ونبذ كلِّ ما يخالفه، وقد قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ۝٧ ﴾، وقال: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ

ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾، وقال: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾، وقال الرسول ﷺ في أول وصيَّته لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما: « احفظ الله يحفظك » أخرجه الترمذي (٢٥١٦)، وقال: « حديث حسن صحيح ».

وغير خاف أنَّ الذنوب والخطايا سبب العقوبات العاجلة والآجلة للكفَّار والمسلمين، قال الله عزَّ وجلَّعن قوم نوح: ﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ ﴾، وقال تعالى: ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ ﴾، وقال: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ ﴾.

وإنَّ هدى الله هو الهدى، وماذا بعد الحقِّ إلَّا الضلال، وإنَّ تنازل المسلمين عن شيء من دينهم يُسخط ربَّهم ولا يُرضي أعداءَهم، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ

مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣٠﴾ ﴾، وقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَـٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ ﴾، وقال: ﴿ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ ﴾.

والله جلَّ وعلا له ملك السموات والأرض، وهو على كلِّ شيء قدير، هو كاسر الأكاسرة، وقاصم القياصرة، ومُذِلُّ الجبابرة، ومُهلِك الفراعنة، وفي ألفاظ الأذان (الله أكبر) ست مرات، وفي كلِّ ركعة من ركعات الصلاة (الله أكبر) ست مرات، والله أكبر من كلِّ كبير، وأعظم من كلِّ عظيم، قدرته فوق كلِّ قدرة، وبطشه أشدُّ من كلِّ بطش، ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْاْ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُواْ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ ﴾، ﴿ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ﴾، وعند الله من أنواع العقوبات العاجلة، ما لا يخطر ببال متكبِّر، كالصواعق المحرقة والفياضانات الكاسحة والرياح العاتية والزلازل المدمِّرة والأمراض المزمنة، قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ ﴾، وقال: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ ﴾، وقال: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾، وقال: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾ ﴾.

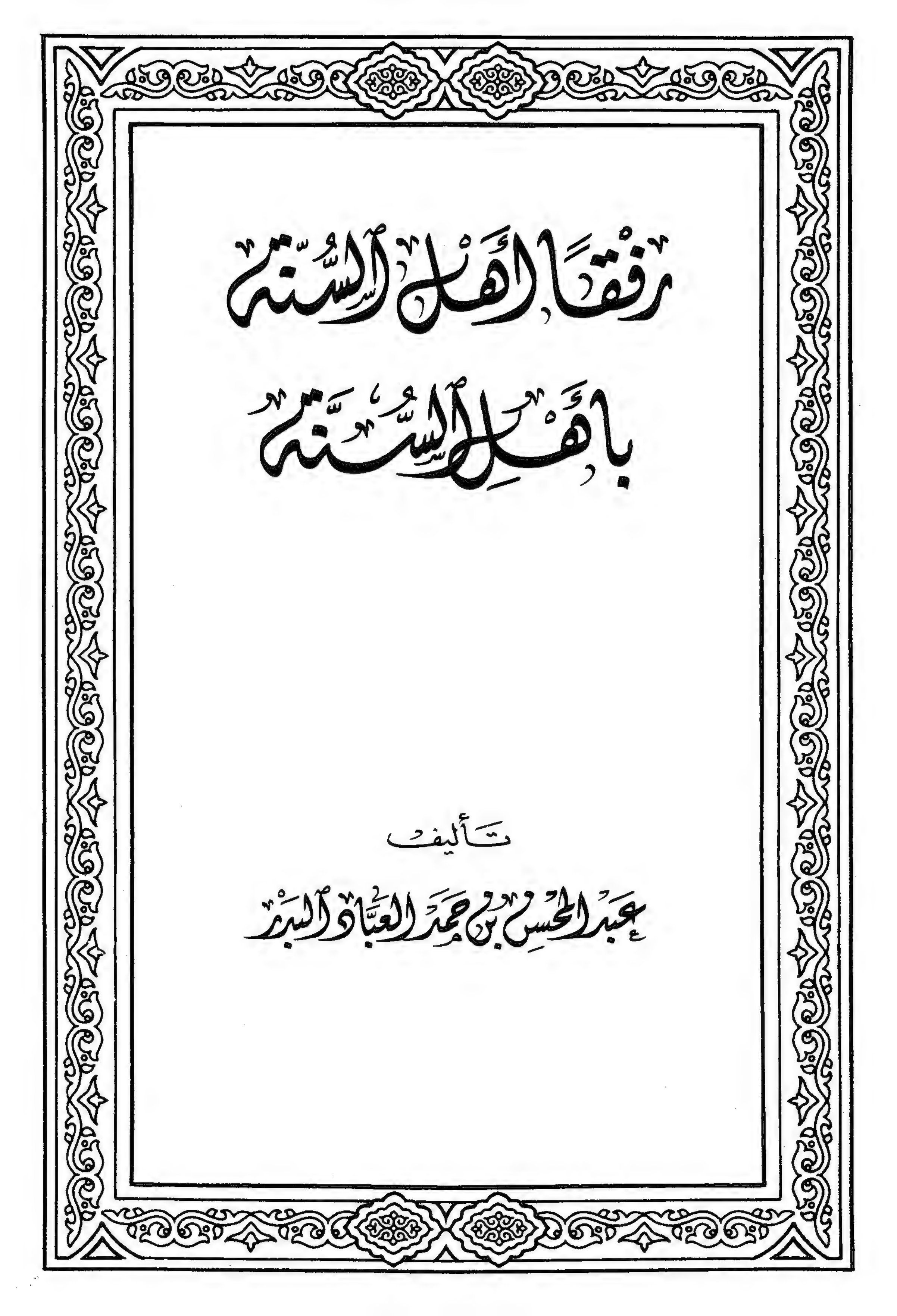
وأسأل الله القوي المتين العزيز القهار الجبار المتكبِّر أن يُعزَّ الإسلام والمسلمين، ويُذلَّ الشركَ والمشركين، ويُدمِّر أعداء الدِّين، اللَّهمَّ من أراد الإسلام والمسلمين بسوء فأشغله بنفسه، ورُدَّ كيدَه في نحره، واجعل في تدبيره تدميره، اللَّهمَّ من أراد بالإسلام والمسلمين سوءاً نطق به أو كتبه فأخرس لسانه وشلَّ بنانه، واجعله عبرة للمعتبرين، اللَّهمَّ سلِّط عليه جنداً من جنودك التي لا يعلمها إلَّا أنت، ربَّنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا، واغفر لنا ربَّنا إنَّك أنت العزيز الحكيم، اللَّهمَّ صلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صلَّيت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنَّك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركتَ على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنَّك حميد مجيد، وسلم تسليماً كثيراً، والحمد لله ربِّ العالَمين أوَّلاً وآخراً.

***



الفهرس

❊ ❊ ❊



رفقاً أهل السنة بأهل السنة

تأليف

عبد المحسن بن حمد العباد البدر



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وصلَّى الله وسلَّم وبارك على نبيِّنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه ومن والاه، وتمسَّك بسُنَّته واهتدى بهداه إلى يوم الدِّين.

أمَّا بعد، فقبل سنوات قليلة، وبعد وفاة شيخنا الجليل شيخ الإسلام عبد العزيز بن عبد الله بن باز سنة (١٤٢٠هـ)، ووفاة الشيخ العلاَّمة محمد بن صالح بن عُثيمين سنة (١٤٢١هـ) رحمهما الله، حصل انقسامٌ وافتراقٌ بين بعض أهل السُّنة، نتج عن قيام بعضهم بتتبُّع أخطاء بعض إخوانهم من أهل السنَّة، ثم التحذير منهم، وقابل الذين خطَّؤوهم كلاَمَهم بمثله، وساعد على انتشار فتنة هذا الانقسام سهولة الوصول إلى هذه التخْطِئات والتحذيرات وما يُقابلها، عن طريق شبكة المعلومات الانترنت، التي يُقذف فيها كلُّ ما يُراد قذفه في أيِّ ساعة من ليل أو نهار، فيتلقَّفه كلُّ من أراده، فتتَّسع بذلك شُقَّة الانقسام والافتراق، ويتعصَّب كلٌّ لمن يُعجبه من الأشخاص وما يُعجبه من الكلام، ولم يقف الأمر عند تخطئة من خُطِّئ من أهل السنَّة، بل تعدَّى ذلك إلى النَّيل من بعض من لا يؤيِّد تلك التخطئة.

وفي أوائل عام (١٤٢٤هـ) كتبت رسالة نصح في هذا الموضوع بعنوان: «رفقاً أهل السنَّة بأهل السنَّة»، قلت في مقدِّمتها: «ولا شكَّ أنَّ الواجبَ على أهل السنَّة في كلِّ زمان ومكان التآلف والتراحم فيما بينهم، والتعاون على البرِّ والتقوى.

وإنَّ مِمَّا يؤسف له في هذا الزمان ما حصل من بعض أهل السنَّة من وحشة واختلاف، مِمَّا ترتَّب عليه انشغال بعضهم ببعض تجريحاً وتحذيراً وهجراً، وكان الواجب أن تكون جهودُهم جميعاً موجَّهةً إلى غيرهم من الكفَّار وأهل

البدع المناوئين لأهل السنَّة، وأن يكونوا فيما بينهم متآلفين متراحمين، يذكِّرُ بعضهم بعضاً برفق ولين ».

وبعد صدور هذه الرسالة، اعترض عليها أفرادٌ من أهل السنَّة ـ عفى الله عنَّا وعنهم ـ وقد أشرتُ إلى ذلك فيما كتبته في آخر رسالة: « الحث على اتباع السنَّة والتحذير من البدع وبيان خطرها »، وهؤلاء الذين اعترضوا على هذه الرسالة في مقدِّمة مَن طلبت منهم الرِّفق بإخوانهم من أهل السنَّة، ولم أُرِد بأهل السنَّة في رسالة: « رفقاً أهل السنَّة بأهل السنَّة » الفِرَقَ والأحزابَ المنحرفة عمَّا كان عليه أهل السنَّة والجماعة، كالذين ظهر حزبُهم من المنصورة في مصر، وقال عن هذا الحزب مؤسِّسُه مخاطباً أتباعَه: « فدعوتُكم أحقُّ أن يأتيها الناس ولا تأتي أحداً ... إذ هي جِماعُ كلِّ خير، وغيرها لا يسلم من النقص!! ». (مذكرات الدعوة والداعية ص ٢٣٢، ط. دار الشهاب) للشيخ حسن البنا.

وقال أيضاً: « وموقفنا من الدعوات المختلفة التي طغت في هذا العصر ففرَّقت القلوبَ وبلبلت الأفكار، أن نزنها بميزان دعوتنا، فما وافقها فمرحباً به، وما خالفها فنحن براء منه، ونحن مؤمنون بأنَّ دعوتنا عامة لا تغادر جزءاً صالحاً من أيَّة دعوة إلَّا ألمت به وأشارت إليه !!! » (مجموعة رسائل حسن البنا ص ٢٤٠، ط. دار الدعوة سنة ١٤١١هـ).

ومقتضى هذا الكلام أنَّهم يُرحِّبون بالرافضي إذا وافقهم، ويتبرَّؤون ممَّن خالفهم ولو كان سُنيًّا على طريقة السَّلف.

وكالقابعين في لندن الذين يُحاربون أهل السنَّة بما ينشرونه في مجلَّتهم التي سمَّوها (السنة)، ومن ذلك نيلهم من علماء المملكة العربية السعودية،

ووصفهم الدعاة الذين على شاكلتهم فيها بالأحرار؛ لإظهارهم معارضة العلماء والنيل منهم، ولا سيما المرجعية فيهم!!

وقد كتب أحدُ الفضلاء رسالة بعنوان: « مجلة السنة؟؟؟ » جمع فيها من مجلتهم جملة من ذلك.

وكالذين ظهرت دعوتهم من دهلي في الهند، وهي لا تخرج عن ستِّ نقاط، ويغلب على أهلها الجهل وعدم الفقه في الدِّين، ولا يُعرِّجون في دعوتهم على أهمِّ المهمَّات، وهو إفراد الله بالعبادة والابتعاد عن الشرك، وهي دعوة الرسل جميعاً، كما قال الله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ** ﴾، فإنَّ الذين ابتُلوا بدعاء أصحاب القبور والاستغاثة بهم والذَّبح لهم ليس لهم نصيب من دعوتهم!

وإنِّي في هذه المقدِّمة أؤكِّد الوصية لشباب أهل السنَّة أن يُعنَوا بالاشتغال بالعلم، وشغل أوقاتهم بتحصيله؛ ليظفروا بالرِّبح ويسلموا من الغبن الذي جاء في قول الرسول ﷺ: « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصِّحة والفراغ » أخرجه البخاري في صحيحه (٦٤١٢)، وهو أوَّل حديث في كتاب الرقاق، ومن أهمِّ كتب العلماء المعاصرين التي ينبغي أن يُعنَوا بقراءتها مجموع فتاوى شيخنا إمام أهل السنَّة والجماعة في زمانه، الشيخ عبد العزيز ابن عبد الله ابن باز رحمه الله، وفتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء، ومؤلفات شيخنا العلامة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله، ولا سيما أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، ومؤلفات العالِـمَين الكبيرين الشيخ محمد ابن صالح العثيمين، والشيخ محمد ناصر الدين الألباني رحمهما الله.

وأوصي أيضاً أن يستفيد طلاَّب العلم في كلِّ بلد من المشتغلين بالعلم من

أهل السنة في ذلك البلد، مثل تلاميذ الشيخ الألباني رحمه الله في الأردن، الذين أسَّسوا بعده مركزاً باسمه، ومثل الشيخ محمد المغراوي في المغرب، والشيخ محمد علي فركوس والشيخ العيد شريفي في الجزائر، وغيرهم من أهل السنَّة، ومن النصح لأهل السنَّة أنَّ مَن أخطأ منهم يُنبَّه على خطئه ولا يُتابَع عليه، ولا يُتبرَّأ منه بسبب ذلك، ويُستفاد منه، لا سيما إذا لم يوجد مَن هو أولى منه في العلم والفضل.

وأوصي أن يحذرَ الشبابُ من الاشتغال بتتبُّع عثرات طلاَّب العلم وتتبُّع مواقع الانترنت التي تُعنى بجمع عثراتهم والتحذير منهم بسببها، وقد أخطأ الشيخ محمد بن سليمان الأشقر خطأً فادحاً في النَّيل من الصحابيِّ أبي بكرة رضي الله عنه ومروياته، واهتمامه بمسألة ولاية المرأة، وفي كونها تشارك في تولية غيرها، ورددت عليه في رسالة بعنوان: « الدفاع عن الصحابي أبي بكرة ومروياته، والاستدلال لمنع ولاية النساء على الرجال »، وأنا إذ أحذِّرُ من زلَّته الشنيعة، لا أحذِّرُ من كتاباته المفيدة، وفي رجال الصحيحين وغيرهما رواة وُصفوا ببدعة قُبلت رواياتهم مع تنبيه أهل العلم على تلك البدع للحذر منها.

وفي أول رمضان من عام (١٤٢٣هـ) وقبل صدور رسالة: « رفقاً أهل السنَّة بأهل السنَّة » بستة أشهر بعثتُ رسالةَ نصح لأحد من تأثَّر بهم بعضُ الشباب من أهل السنَّة، وقد ردَّ عليها برسالة لطيفة دعا اللهَ فيها أن ينفعه بهذه النصيحة، وذكر أنَّه ناصَح الذي أشرت إليه في الرسالة، وأسأل الله عزَّ وجلَّ أن يُوفِّقني وإيَّاه وسائر إخواننا من أهل السنَّة لكلِّ ما يعود بالخير والعاقبة الحميدة، وأن يُجنِّب الجميع كلَّ ما يعود بالضَّرر والعاقبة الوخيمة في الدنيا والآخرة، إنَّه سميع مجيب.

وقد جاء في هذه الرسالة ما يلي:

وبعد، فإنِّي أكتب إلى فضيلتكم هذه الكلمات راجياً أن تأخذوها بعين الاعتبار، و« الدِّين النصيحة »، و« المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدُّ بعضه بعضاً »، ومن حقِّ المسلم على المسلم نصحه والتعاون معه على الخير.

١ ـ ذكرتم لي في اللِّقاء الذي تمَّ مع فضيلتكم قريباً أنَّكم أكبر منِّي سنًّا، وأنا في هذه الأيام قد دخلت في عقد الثمانين، وأنتم على هذا قد تقدَّمتم في هذا العقد، وعلى هذا، فإنَّ كوني مِمَّن درَّسكم في عام (١٣٨١هـ) وما بعده يكون من قبيل رواية الأكابر عن الأصاغر[١]، ومِثْلي ومِثْلكم بحاجة إلى الاشتغال بالعلم النافع عن كلِّ ما يترتَّب عليه فرقة بين أهل السنَّة.

٢ ـ سبق أن سمعتُ منكم قديماً كلمة، وهي أنَّكم انشغلتم عن الاشتغال بالقرآن وتدبُّر معانيه بالاشتغال بالحديث ورجاله، وأقول: أنتم الآن اشتغلتم عن القرآن والحديث بالكلام في بعض أهل السنَّة وغيرهم، ممَّا شغلكم عن الاشتغال بعلم الكتاب والسنة، فقلَّ إنتاجكم العلمي في الآونة الأخيرة نتيجة لذلك، ولا شكَّ أنَّ مقاومة مَن ليسوا من أهل السنَّة ومَن يحصل منهم إثارة الفتن والتقليل من شأن العلماء بزعم عدم فقههم للواقع هو في محلِّه، ولكن الذي ليس في محلِّه الاتجاه إلى تتبُّع أخطاء مَن هم من أهل السنَّة والنيل منهم لعدم موافقتهم لكم في بعض الآراء، فمثل هؤلاء لا ينبغي كثرة الاشتغال بهم، وإذا حصل ذكر بعض أخطائهم فلا ينبغي التشاغل بها وتكرارها وجعلها حديث المجالس، ثم عند المناقشة فيها يحصل منكم الغضب وارتفاع

---

(١) رواية الأكابر عن الأصاغر ـ كما في نزهة النظر شرح نخبة الفكر للحافظ ابن حجر ـ رواية الراوي عمَّن هو دونه في السنِّ أو اللُّقي ـ يعني لقي المشايخ ـ أو في المقدار.

الصوت؛ فإنَّ ذلك ـ بالإضافة إلى ما فيه من محذور ـ فيه تأثير على صحَّتكم.

٣ ـ اشتهر في هذه الأيام ذكر الجرح والتعديل والكلام في بعض أهل السنَّة وغيرهم، ونشر ذلك في شبكة الانترنت، ممَّا جعل الأسئلة تتوارد من أوربا وأمريكا وشمال إفريقيا وغيرها عن بعض من يحصل جرحهم منكم ومن الشيخ ... مع توسُّع الشيخ ... في الكلام في أعراض بعض المشايخ وطلبة العلم في الداخل والخارج، الذين نفع الله بمحاضراتهم ومؤلفاتهم والتحذير منهم، وما ترتَّب على ذلك من التهاجر والتنافر، والرسول ﷺ يقول: «بشِّروا ولا تنفِّروا، ويسِّروا ولا تعسِّروا»، والمخطئ من أهل السنَّة يُحرَص على تشجيعه في الخير، مع تنبيهه على خطئه إذا كان خطؤه واضحاً، ثم لا يُنابَذ ولا يُهجَر ولا يُحذَّر من الاستفادة منه.

وللتلازم الذي بينكم وبين الشيخ ... ونسبة التجريح إليكم وإليه، مع أنَّني أعتقد أنَّكم لا توافقونه في بعض كلامه في الأشخاص، فقد يُظنُّ مع ذلك إضافة ما ليس منكم إليكم، ولهذا فإنَّ الأمل فيكم ألاَّ تشغلوا أنفسكم بتجريح مَن هم من أهل السنَّة، وأن يكون لكم منه موقف يوقفه عند حدِّه، حتى يسلم طلبة العلم وغيرهم في الداخل والخارج من الاشتغال بالقيل والقال وتوارد الأسئلة: ما قولكم في جرح فلان أو فلان لفلان أو فلان، مع أنَّه لا نسبة بينكم وبين هذا الشخص، فأنتم معروفون بالجدِّ في التعلُّم والتعليم، ولكم مؤلفات نافعة، وقد تفوَّقتم على زملائكم أيام الدراسة، ولكم مؤلفات في العلم مفيدة، أمَّا هو فكان من أواخر زملائه، وتقديره في النجاح: جيد، وليس له قدَم في العلم، وليس له مؤلفات، وجلُّ بضاعته الاشتغال في أعراض الناس، ولكم في أصحاب رسول الله ﷺ يوم الحديبية أسوة، حتى قال

بعضهم فيما بعد نادمين على ما حصل منهم: «يا أيُّها الناس! اتِّهموا الرأي في الدِّين».

وأسأل الله عزَّ وجلَّ أن يُوفِّق الجميع لما يُرضيه، ويرينا الحقَّ حقًّا ويوفقنا لاتباعه، ويرينا الباطل باطلاً ويوفِّقنا لاجتنابه، إنَّه سميع مجيب.

والحمد لله ربِّ العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبيِّنا محمد وعلى آله وصحبه.



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي ألَّف بين قلوب المؤمنين، ورغَّبهم في الاجتماع والائتلاف، وحذَّرهم من التفرُّق والاختلاف، وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، خلق فقدَّر، وشرع فيسَّر، وكان بالمؤمنين رحيماً، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله، الذي أمر بالتيسير والتبشير، فقال: « يسِّروا ولا تعسِّروا، وبشِّروا ولا تنفِّروا »، اللَّهمَّ صلِّ وسلِّم وبارك عليه، وعلى آله المطهَّرين، وأصحابه الذين وصفهم الله بأنَّهم أشداء على الكفَّار رُحماءُ بينهم، وعلى مَن تبعهم بإحسان إلى يوم الدِّين، اللَّهمَّ اهدني واهد لي واهد بي، اللَّهمَّ طهِّر من الغلِّ جناني، وسدِّد لإصابة الحقِّ لساني، اللَّهمَّ إنِّي أعوذ بك أن أضِلَّ أو أُضَلَّ، أو أزِلَّ أو أزَلَّ، أو أظلم أو أُظلَم، أو أجهلَ أو يُجهل عليَّ.

أمَّا بعد:

فأهل السنَّة والجماعة هم المتَّبعون لِما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه، ونسبتهم إلى سنَّة الرسول ﷺ التي حثَّ على التمسُّك بها بقوله: « فعليكم بسنَّتي وسنَّة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسَّكوا بها وعضُّوا عليه بالنواجذ »، وحذَّر من مخالفتها بقوله: « وإيَّاكم ومحدثات الأمور، فإنَّ كلَّ محدثة بدعة وكلَّ بدعة ضلالة »، وقوله: « فمَن رغب عن سنَّتي فليس منِّي »، وهذا بخلاف غيرهم من أهل الأهواء والبدع، الذين سلكوا مسالكَ لم يكن عليها الرسول ﷺ وأصحابه، فأهل السنَّة ظهرت عقيدتهم بظهور بعثته ﷺ، وأهلُ الأهواء وُلدت عقائدُهم بعد زمنه ﷺ، منها ما كان في آخر عهد الصحابة، ومنها ما كان بعد ذلك، والرسول ﷺ أخبر أنَّ مَن عاش من أصحابه سيُدرك هذا التفرُّقَ والاختلاف، فقال: « وإنَّه مَن يعش منكم

فسيرى اختلافاً كثيراً »، ثم أرشد إلى سلوك الصراط المستقيم، وهو اتِّباعُ سنَّته وسنَّة خلفائه الراشدين، وحذَّر من محدثات الأمور، وأخبر أنَّها ضلال، وليس من المعقول ولا المقبول أن يُحجب حقٌّ وهدى عن الصحابة ﷺ ويُدَّخر لأناس يجيئون بعدهم؛ فإنَّ تلك البدع المحدَثة كلّها شر، ولو كان في شيء منها خير لسبق إليه الصحابة، لكنَّها شرٌّ ابُتلي به كثير مِمَّن جاء بعدهم مِمَّن انحرفوا عمَّا كان عليه الصحابةُ ﷺ، وقد قال الإمام مالك رحمه الله: « لن يصلح آخر هذه الأمَّة إلَّا بما صلح به أوَّلها »، ولذا فإنَّ أهل السنَّة ينتسبون إلى السنَّة، وغيرهم ينتسبون إلى نحلهم الباطلة كالجبرية والقدرية والمرجئة والإمامية الاثني عشرية، أو إلى أسماء أشخاص معيَّنين، كالجهمية والزيدية والأشعرية والإباضية، ولا يُقال إنَّ من هذا القبيل (الوهابية)، نسبة إلى الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله، فإنَّ أهلَ السنَّة في زمن الشيخ محمد رحمه الله وبعده لا ينتسبون هذه النسبة؛ لأنَّه رحمه الله لم يأت بشيء جديد فيُنتسَب إليه، بل هو متَّبعٌ لِما كان عليه السلف الصالح، ومظهرٌ للسنَّة وناشرٌ لها وداع إليها، وإنَّما يُطلِق هذه النِّسبةَ الحاقدون على دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله الإصلاحية للتشويش على الناس، وصرفهم عن اتِّباع الحقِّ والهدى، وأن يبقوا على ما هم عليه من البدع المحدثة المخالفة لِما كان عليه أهل السنّة والجماعة.

قال الإمام الشاطبي في الاعتصام (١/ ٧٩): « وقال عبد الرحمن بن مهدي: قد سُئل مالك بن أنس عن السنة؟ قال: هي ما لا اسم له غير السنة، وتلا: ﴿ **وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ** ﴾ ».

وقال ابن القيم في مدارج السالكين (٣/ ١٧٩): « وقد سئل بعض الأئمة عن السنة؟ قال: ما لا اسم له سوى السنَّة. يعني أنَّ أهل السنَّة ليس لهم اسم

يُنسبون إليه سواها ».

وفي كتاب الانتقاء لابن عبد البر (ص:٣٥): أنَّ رجلاً سأل مالكاً فقال: مَن أهل السنَّة؟ قال: « أهل السنَّة الذين ليس لهم لقبٌ يُعرفون به؛ لا جهمي ولا قدَري ولا رافضي ».

ولا شكَّ أنَّ الواجبَ على أهل السنَّة في كلِّ زمان ومكان التآلف والتراحم فيما بينهم، والتعاون على البرِّ والتقوى.

وإنَّ مِمَّا يؤسف له في هذا الزمان ما حصل من بعض أهل السنَّة من وحشة واختلاف، مِمَّا ترتَّب عليه انشغال بعضهم ببعض تجريحاً وتحذيراً وهجراً، وكان الواجب أن تكون جهودُهم جميعاً موجَّهةً إلى غيرهم من الكفَّار وأهل البدع المناوئين لأهل السنَّة، وأن يكونوا فيما بينهم متآلفين متراحمين، يذكِّرُ بعضهم بعضاً برفق ولين.

وقد رأيت كتابة كلمات؛ نصيحةً لهؤلاء جميعاً، سائلاً الله عزَّ وجلَّ أن ينفع بهذه الكلمات، إن أريد إلَّا الإصلاحَ ما استطعت، وما توفيقي إلَّا بالله عليه توكَّلت وإليه أنيب، وقد سمَّيت هذه النصيحة « **رفقاً أهل السنَّة بأهل السنَّة** ».

وأسأل الله للجميع التوفيق والسداد، وأن يُصلح ذات بينهم وأن يؤلِّف بين قلوبهم وأن يهديهم سُبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور، إنَّه سميع مجيب.

* * *

نعمةُ النُّطق والبيان

نِعَمُ الله على عباده لا تُعدُّ ولا تُحصى، ومن أعظم هذه النِّعم نعمة النطق التي يُبين بها الإنسانُ عن مراده، ويقول القولَ السديد، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ومَن فَقَدها لم تحصل له هذه الأمور، ولا يُمكنه التفاهم مع غيره إلَّا بالإشارة أو الكتابة إن كان كاتباً، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ ﴾، وقد قيل في تفسيره: إنَّه مثل ضربه الله لنفسه وللوثن، وقيل: إنَّه مثل للكافر والمؤمن، قال القرطبي (٩/ ١٤٩): «روي عن ابن عباس وهو حسن؛ لأنَّه يعمُّ»، وهو واضحٌ في نقصان الرقيق الأبكم الذي لا يُفيد غيرَه ولا يستفيد منه مولاه أينما وجَّهه.

وقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾، فقد أقسم الله بنفسه على تحقق البعث والجزاء على الأعمال، كما أنَّ النطقَ حاصلٌ واقعٌ من المخاطَبين، وفي ذلك تنويه بنعمة النطق.

وقال سبحانه: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾ ﴾، وفسَّر الحسن البيانَ بالنطق، وفي ذلك تنويهٌ بنعمة النطق التي يحصل بها إبانة الإنسان عمَّا يريده.

وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ ﴾ قال ابن كثير في تفسيره: «وقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴾ أي يُبصر بهما، ﴿ وَلِسَانًا ﴾ أي ينطق به فيعبِّر عمَّا في ضميره، ﴿ وَشَفَتَيْنِ ﴾ يستعين بهما على الكلام وأكل الطعام، وجمالاً لوجهه وفمه».

ومن المعلوم أنَّ هذه النعمة إنَّما تكون نعمة حقًّا إذا استُعمل النطق بما هو خير، أمَّا إذا استُعمل بشرٍّ فهو وبالٌ على صاحبه، ويكون مَن فقد هذه النعمة أحسنَ حالاً منه.

حفظُ اللِّسان من الكلام إلاَّ في خير

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٧١ ﴾.

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ۝١٢ ﴾.

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ۝١٦ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝١٧ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝١٨ ﴾.

وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحْتَمَلُواْ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ۝٥٨ ﴾.

وفي صحيح مسلم (٢٥٨٩) عن أبي هريرة أنَّ رسول الله ﷺ قال: « أتدرون ما الغيبةُ؟ قالوا: اللهُ ورسولُه أعلم، قال: ذكرُك أخاك بما يكره، قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لَم يكن فيه فقد بهتَّه ».

وقال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ۝٣٦ ﴾.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « إنَّ الله يرضى لكم ثلاثاً ويكره لكم ثلاثاً؛ يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرَّقوا، ويكره لكم قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة

المال » أخرجه مسلم (١٧١٥)، وجاءت هذه الثلاثة المكروهة في حديث المغيرة عند البخاري (٢٤٠٨) ومسلم.

وعن أبي هريرة ﷺ عن النَّبيِّ ﷺ قال: « كُتب على ابن آدم نصيبه من الزنا، مدركٌ ذلك لا محالة، فالعينان زناهما النظر، والأذنان زناهما الاستماع، واللسان زناه الكلام، واليد زناها البطش، والرِّجل زناها الخُطا، والقلب يهوى ويتمنَّى، ويصدق ذلك الفرج ويكذبه » رواه البخاري (٦٦١٢)، ومسلم (٢٦٥٧)، واللفظ لمسلم.

وروى البخاري في صحيحه (١٠) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النَّبيِّ ﷺ قال: « المسلمُ مَن سلم المسلمون من لسانه ويده »، ورواه مسلم في صحيحه (٦٤) ولفظه: أنَّ رجلاً سأل رسولَ الله ﷺ: أيُّ المسلمين خيرٌ؟ قال: « مَن سلم المسلمون من لسانه ويده ».

وروى مسلمٌ أيضاً من حديث جابر (٦٥) بلفظ حديث عبد الله بن عمرو عند البخاري.

قال الحافظ في شرح الحديث: « والحديث عامٌّ بالنسبة إلى اللسان دون اليد؛ لأنَّ اللسانَ يمكنه القول في الماضين والموجودين والحادثين بعد، بخلاف اليد، نعم! يمكن أن تشارك اللسان في ذلك بالكتابة، وإنَّ أثرها في ذلك لعظيم ».

وفي هذا المعنى يقول الشاعر:

كتبتُ وقد أيقنتُ يوم كتابتي ... بأنَّ يدي تفنَى ويبقى كتابُها

فإن عملَت خيراً ستُجزى بمثله ... وإن عملت شرًّا عليَّ حسابُها

وروى البخاري في صحيحه (٦٤٧٤) عن سهل بن سعد ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: « مَن يضمن لي ما بين لَحْيَيْه وما بين رجليه أضمن له الجنَّة »، المراد

بما بين اللَّحْيَيْن والرِّجْلَين اللسانُ والفرْجُ.

وروى البخاري في صحيحه (٦٤٧٥) ومسلم في صحيحه (٧٤) عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت » الحديث.

قال النووي في شرح الأربعين في شرح هذا الحديث: « قال الشافعي: معنى الحديث إذا أراد أن يتكلَّم فليُفكِّر، فإن ظهر أنَّه لا ضرر عليه تكلَّم، وإن ظهر أنَّ فيه ضرراً وشكَّ فيه أمسك »، ونقل عن بعضهم أنَّه قال: « لو كنتم تشترون الكاغَد للحفظة لسكتُّم عن كثير من الكلام ».

قال الإمام أبو حاتم بن حبان البستي في كتابه روضةُ العقلاء ونزهة الفضلاء (ص:٤٥): « الواجبُ على العاقل أن يلزم الصمتَ إلى أن يلزمه التكلُّمُ، فما أكثرَ مَن ندم إذا نطق، وأقلَّ من يندم إذا سكت، وأطول الناس شقاءً وأعظمهم بلاءً من ابتُلي بلسانٍ مطلقٍ، وفؤادٍ مطبقٍ ».

وقال أيضاً (ص:٤٧): « الواجبُ على العاقل أن يُنصف أذنيه من فيه، ويعلم أنَّه إنَّما جُعلت له أذنان وفم واحدٌ ليسمع أكثر مِمَّا يقول؛ لأنَّه إذا قال ربَّما ندم، وإن لَم يقل لَم يندم، وهو على ردِّ ما لَم يقل أقدر منه على ردِّ ما قال، والكلمةُ إذا تكلَّم بها ملكَتْه، وإن لَم يتكلَّم بها ملكها ».

وقال أيضاً في (ص:٤٩): « لسانُ العاقل يكون وراء قلبه، فإذا أراد القولَ رجع إلى القلب، فإن كان له قال، وإلاَّ فلا، والجاهلُ قلبُه في طرف لسانه، ما أتى على لسانه تكلَّم به، وما عقل دينَه من لَم يحفظ لسانه ».

وروى البخاري في صحيحه (٦٤٧٧) ومسلم في صحيحه (٢٩٨٨)، واللفظُ لمسلم عن أبي هريرة أنَّ رسول الله ﷺ قال: « إنَّ العبدَ ليتكلَّم بالكلمة ما يتبيَّن ما فيها، يهوي بها في النار أبعدَ ما بين المشرق والمغرب ».

وفي آخر حديث وصيّة النَّبِيِّ ﷺ لمعاذ أخرجه الترمذي (٢٦١٦) وقال: « حديثٌ حسنٌ صحيحٌ »، قال ﷺ: « وهل يَكُبُّ الناسَ في النار على وجوههم أو على مناخِرهم إلَّا حصائدُ ألسنتهم »، قاله جواباً لقول معاذ رضي الله عنه: « يا نبيَّ الله! وإنَّا لمؤاخذون بما نتكلَّم به؟ ».

قال الحافظ ابن رجب في شرحه من كتابه جامع العلوم والحكم (٢/ ١٤٧): « والمرادُ بحصائد الألسنة: جزاءُ الكلام المحرَّم وعقوباته؛ فإنَّ الإنسانَ يزرع بقوله وعمله الحسنات والسيِّئات، ثم يحصد يوم القيامة ما زرع، فمَن زرع خيراً مِن قولٍ أو عملٍ حَصَد الكرامة، ومن زرع شراً من قولٍ أو عملٍ حصد غداً الندامة ».

وقال (٢/ ١٤٦): « هذا يدلُّ على أنَّ كفَّ اللسان وضبطَه وحبسَه هو أصل الخير كلِّه، وأنَّ مَن ملك لسانه فقد ملك أمره وأحكمه وضبطه ».

ونقل (٢/ ١٤٩) عن يونس بن عُبيد أنَّه قال: « ما رأيت أحداً لسانه منه على بال إلَّا رأيت ذلك صلاحاً في سائر عمله »، وعن يحيى بن أبي كثير أنَّه قال: « ما صلح منطقُ رجل إلَّا عرفت ذلك في سائر عمله، ولا فسد منطقُ رجل قطُّ إلَّا عرفت ذلك في سائر عمله ».

وروى مسلم في صحيحه (٢٥٨١) عن أبي هريرة أنَّ رسول الله ﷺ قال: « أتدرون مَن المُفلِس؟ قالوا: المُفلِسُ فينا مَن لا دِرهم له ولا متاع، فقال: إنَّ المفلسَ من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاةٍ وصيامٍ وزكاةٍ، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مالَ هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيُعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيَتْ حسناتُه قَبْل أن يُقضى ما عليه أُخذ من خطاياهم فطُرحت عليه، ثمَّ طُرح في النار ».

وروى مسلم في صحيحه (٢٥٦٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه حديثاً طويلاً جاء

في آخره: « بحسب امرئٍ من الشرِّ أن يحقر أخاه المسلم، كلُّ المسلم على المسلم حرامٌ، دمُه ومالُه وعرضُه ».

وروى البخاري في صحيحه (١٧٣٩) ومسلم في صحيحه ـ واللفظُ للبخاري ـ عن ابن عباس رضي الله عنهما: « أنَّ رسول الله ﷺ خطب الناسَ يوم النحر، فقال: يا أيُّها الناس! أيُّ يوم هذا؟ قالوا: يومٌ حرامٌ، قال: أيُّ بلدٍ هذا؟ قالوا: بلدٌ حرامٌ، قال: فأيُّ شهرٍ هذا؟ قالوا: شهرٌ حرامٌ، قال: فإنَّ دماءَكم وأموالَكم وأعراضَكم عليكم حرامٌ، كحرمة يومِكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا، فأعادها مراراً، ثم رفع رأسَه فقال: اللهمَّ هل بلَّغتُ؟ اللهمَّ هل بلَّغتُ؟ قال ابنُ عباس رضي الله عنهما: فوالَّذي نفسي بيده! إنَّها لوصيَّتُه إلى أمَّته، فليبلِّغ الشاهدُ الغائبَ، لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضُكم رقابَ بعض ».

وروى مسلم في صحيحه (٢٦٧٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: « مَن دعا إلى هُدى كان له مِن الأجر مثل أجور مَن تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومَن دعا إلى ضلالةٍ كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً ».

قال الحافظ المنذري في الترغيب والترهيب (١/ ٦٥) تعليقاً على حديث « إذا مات ابنُ آدم انقطع عملُه إلَّا من إحدى ثلاث ... » الحديث، قال: « وناسخ العلم النافع له أجره وأجر من قرأه أو نَسَخَه أو عمل به من بعده ما بقي خطُّه والعملُ به؛ لهذا الحديث وأمثاله، وناسخ غير النافع مِمَّا يوجب الإثمَ، عليه وزره ووزر مَن قَرَأه أو نَسَخَه أو عمل به من بعده ما بقي خطُّه والعملُ به؛ لِمَا تقدم من الأحاديث (مَن سنَّ سُنَّةً حسنة أو سيِّئة)، والله أعلم ».

وروى البخاري في صحيحه (٦٥٠٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « إنَّ اللهَ قال: مَن عادَى لي وَلِياً فقد آذنتُه بالحرب » الحديث.

الظنُّ والتجسُّس

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ ﴾.

ففي هذه الآية الكريمة الأمر باجتناب كثير من الظنِّ، وأنَّ منه إثماً، والنهي عن التجسُّس، والتجسُّسُ هو التنقيب عن عيوب الناس، وهو إنَّما يحصل تبَعاً لإساءة الظنِّ.

وقال ﷺ: « إيَّاكم والظنَّ؛ فإنَّ الظنَّ أكذبُ الحديث، ولا تحسَّسوا، ولا تجسَّسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عبادَ الله إخواناً » رواه البخاري (٦٠٦٤)، ومسلم (٢٥٦٣).

وقال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: « ولا تظنَّنَّ بكلمة خرجت من أخيك المؤمن إلَّا خيراً، وأنت تجد لها في الخير مَحملاً » ذكره ابن كثير في تفسير آية سورة الحجرات.

وقال بكر بن عبد الله المزني كما في ترجمته من تهذيب التهذيب: « إيَّاك من الكلام ما إن أصبتَ فيه لَم تُؤجَر، وإن أخطأت فيه أثمت، وهو سوء الظنِّ بأخيك ».

وقال أبو قلابة عبد الله بن زيد الجرمي كما في الحلية لأبي نعيم (٢/ ٢٨٥): « إذا بلغك عن أخيك شيء تكرهه فالتمس له العذر جهدك؛ فإن لم تجد له عذراً فقل في نفسك: لعلَّ لأخي عذراً لا أعلمه ».

وقال سفيان بن حسين: « ذكرت رجلاً بسوء عند إياس بن معاوية، فنظر في وجهي، وقال: أغزوتَ الرومَ؟ قلت: لا، قال: فالسِّند والهند والترك؟ قلت: لا، قال: أفَتسلَم منك الروم والسِّند والهند والترك، ولم يسلَمْ منك

أخوك المسلم؟! قال: فلَم أعُد بعدها». البداية والنهاية لابن كثير (١٣/ ١٢١).

أقول: ما أحسن هذا الجواب من إياس بن معاوية الذي كان مشهوراً بالذكاء، وهذا الجواب نموذجٌ من ذكائه.

وقال أبو حاتم بن حبان البستي في روضة العقلاء (ص:١٣١): «الواجبُ على العاقل لزوم السلامة بترك التجسس عن عيوب الناس، مع الاشتغال بإصلاح عيوب نفسه؛ فإنَّ من اشتغل بعيوبه عن عيوب غيره أراح بدنَه ولم يُتعب قلبَه، فكلَّما اطَّلع على عيب لنفسه هان عليه ما يرى مثله من أخيه، وإنَّ من اشتغل بعيوب الناس عن عيوب نفسه عمي قلبه وتعب بدنه وتعذَّر عليه ترك عيوب نفسه».

وقال (ص:١٣٣): «التجسُّس من شعب النفاق، كما أنَّ حسنَ الظنِّ من شعب الإيمان، والعاقل يحسن الظنَّ بإخوانه، وينفرد بغمومه وأحزانه، كما أنَّ الجاهلَ يُسيء الظنَّ بإخوانه، ولا يُفكِّر في جناياته وأشجانه».



الرِّفق واللِّين

وصف الله نبيَّه محمداً ﷺ بأنَّه على خُلق عظيم، فقال: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ ﴾، ووصفه بالرِّفق واللِّين، فقال: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾، ووصفه بالرحمة والرأفة بالمؤمنين، فقال: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٢٨ ﴾.

وأمر الرسولُ ﷺ بالرِّفق ورغَّب فيه، فقال: « يسِّروا ولا تعسِّروا، وبشِّروا ولا تنفِّروا » أخرجه البخاري (٦٩) ومسلم (١٧٣٤) من حديث أنس، وأخرجه مسلم (١٧٣٢) عن أبي موسى، ولفظه: « بشِّروا ولا تنفِّروا، ويسِّروا ولا تُعسِّروا »، وروى البخاري في صحيحه (٢٢٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ قال لأصحابه في قصة الأعرابي الذي بال في المسجد: « دَعوه، وهريقوا على بوله سَجْلاً من ماء أو ذنوباً من ماء؛ فإنَّما بُعثتم ميسِّرين ولم تُبعثوا معسِّرين ».

وروى البخاري (٦٩٢٧) عن عائشة رضي الله عنها: أنَّ رسول الله ﷺ قال: « يا عائشة! إنَّ الله رفيقٌ يحبُّ الرِّفقَ في الأمر كلِّه »، ورواه مسلم (٢٥٩٣) بلفظ: « يا عائشة! إنَّ الله رفيقٌ يحبُّ الرِّفق، ويُعطي على الرِّفق ما لا يُعطي على العنف، وما لا يُعطي على ما سواه »، وروى مسلم في صحيحه (٢٥٩٤) عن عائشة، عن النَّبيِّ ﷺ قال: « إنَّ الرِّفقَ لا يكون في شيء إلَّا زانه، ولا يُنزع عن شيء إلَّا شانه »، وروى مسلم أيضاً (٢٥٩٢) عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ قال: « مَن يُحرم الرِّفق يُحرم الخير ».

وقد أمر الله النَّبيَّيْن الكريمين موسى وهارون ـ عليهما الصلاة والسلام ـ أن يدعوا فرعون بالرِّفق واللِّين، فقال: ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾، ووصف الله الصحابةَ الكرام بالتراحم فيما بينهم، فقال: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾.

❊ ❊ ❊

موقف أهل السنَّة من العالم إذا أخطأ أنَّه يُعذر فلا يُبدَّع ولا يُهجَر

ليست العصمةُ لأحد بعد رسول الله ﷺ؛ فلا يسلم عالمٌ من خطأ، ومن أخطأ لا يُتابَع على خطئه، ولا يُتخذ ذلك الخطأ ذريعة إلى عيبه والتحذير منه، بل يُغتفر خطؤه القليل في صوابه الكثير، ومن كان من هؤلاء العلماء قد مضى فيُستفادُ من علمه مع الحذر من متابعته على الخطأ، ويُدعى له ويُترحَّم عليه، ومَن كان حيًّا سواء كان عالماً أو طالب علم يُنبَّه على خطئه برفق ولين ومحبَّة لسلامته من الخطأ ورجوعه إلى الصواب.

ومن العلماء الذين مَضوا وعندهم خلل في مسائل من العقيدة، ولا يستغني العلماء وطلبة العلم عن علمهم، بل إنَّ مؤلَّفاتهم من المراجع المهمَّة للمشتغلين في العلم، الأئمة: البيهقي والنووي وابن حجر العسقلاني.

فأمَّا الإمام أحمد بن حسين أبو بكر البيهقي، فقد قال فيه الذهبي في السير (١٨/ ١٦٣ وما بعدها): « هو الحافظ العلامة الثبت الفقيه شيخ الإسلام »، وقال: « وبورك له في علمه، وصنَّف التصانيف النافعة »، وقال: « وانقطع بقريته مُقبلاً على الجمع والتأليف، فعمل السنن الكبير في عشر مجلدات، ليس

لأحد مثله »، وذكر له كتباً أخرى كثيرة، وكتابه (السنن الكبرى) مطبوع في عشر مجلدات كبار، ونقل عن الحافظ عبد الغافر بن إسماعيل كلاماً قال فيه: « وتواليفه تقارب ألف جزء مِمَّا لم يسبقه إليه أحد، جمع بين علم الحديث والفقه، وبيان علل الحديث، ووجه الجمع بين الأحاديث »، وقال الذهبي أيضاً « فتصانيف البيهقي عظيمة القدر، غزيرة الفوائد، قلَّ مَن جوَّد تواليفه مثل الإمام أبي بكر، فينبغي للعالم أن يعتني بهؤلاء، سيما سننه الكبرى ».

وأمَّا الإمام يحيى بن شرف النووي، فقد قال فيه الذهبي في تذكرة الحفاظ (٤/ ٢٥٩): « الإمام الحافظ الأوحد القدوة شيخ الإسلام علم الأولياء ... صاحب التصانيف النافعة »، وقال: « مع ما هو عليه من المجاهدة بنفسه والعمل بدقائق الورع والمراقبة وتصفية النفس من الشوائب ومحقها من أغراضها، كان حافظاً للحديث وفنونه ورجاله وصحيحه وعليله، رأساً في معرفة المذهب ».

وقال ابن كثير في البداية والنهاية (١٧/ ٥٤٠): « ثم اعتنى بالتصنيف، فجمع شيئاً كثيراً، منها ما أكمله ومنها ما لم يكمله، فمِمَّا كمَّل شرح مسلم والروضة والمنهاج والرياض والأذكار والتبيان وتحرير التنبيه وتصحيحه وتهذيب الأسماء واللغات وطبقات الفقهاء وغير ذلك، ومِمَّا لم يتممه ـ ولو كمل لم يكن له نظير في بابه ـ شرح المهذب الذي سمَّاه المجموع، وصل فيه إلى كتاب الرِّبا، فأبدع فيه وأجاد وأفاد وأحسن الانتقاد، وحرر الفقه فيه في المذهب وغيره، وحرَّر فيه الحديث على ما ينبغي، والغريب واللغة وأشياء مهمَّة لا توجد إلَّا فيه ... ولا أعرف في كتب الفقه أحسن منه، على أنَّه محتاجٌ إلى أشياء كثيرة تُزاد فيه وتُضاف إليه ».

ومع هذه السعة في المؤلفات والإجادة فيها لم يكن من المعمَّرين، فمدَّة عمره خمس وأربعون سنة، ولد سنة (٦٣١هـ)، وتوفي سنة (٦٧٦هـ).

وأمَّا الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، فهو الإمام المشهور بتآليفه الكثيرة، وأهمُّها فتح الباري شرح صحيح البخاري، الذي هو مرجع عظيم للعلماء، ومنها الإصابة وتهذيب التهذيب وتقريبه ولسان الميزان وتعجيل المنفعة وبلوغ المرام وغيرها.

ومن المعاصرين الشيخ العلاَّمة المحدِّث محمد ناصر الدين الألباني، لا أعلم له نظيراً في هذا العصر في العناية بالحديث وسعة الاطِّلاع فيه، لَم يسلم من الوقوع في أمور يعتبرها الكثيرون أخطاء منه، مثل اهتمامه بمسألة الحجاب وتقرير أنَّ ستر وجه المرأة ليس بواجب، بل مستحب، ولو كان ما قاله حقًّا فإنَّه يُعتبر من الحقِّ الذي ينبغي إخفاؤه؛ لِمَا ترتَّب عليه من اعتماد بعض النساء اللاَّتي يهوين السفور عليه، وكذا قوله في كتاب صفة صلاة النَّبيِّ ﷺ: « إنَّ وضع اليدين على الصدر بعد الركوع بدعةٌ ضلالة » وهي مسألة خلافية، وكذا ما ذكره في السلسلة الضعيفة (٢٣٥٥) من أنَّ عدم أخذ ما زاد على القبضة من اللحية من البدع الإضافية، وكذا تحريمه الذهب المحلَّق على النساء، ومع إنكاري عليه قوله في هذه المسائل فأنا لا أستغني وأرى أنَّه لا يستغني غيري عن كتبه والإفادة منها، وما أحسن قول الإمام مالك رحمه الله: « كلٌّ يؤخذ من قوله ويُردُّ إلَّا صاحب هذا القبر، ويشير إلى قبر النَّبيِّ ﷺ ».

وهذه نقول عن جماعة من أهل العلم في تقرير وتوضيح اغتفار خطأ العالم في صوابه الكثير:

قال سعيد بن المسيب (٩٣هـ): « ليس من عالم ولا شريف ولا ذي فضل

إلَّا وفيه عيب، ولكن مَن كان فضلُه أكثرَ من نقصه ذهب نقصه لفضله، كما أنَّه من غلب عليه نقصانه ذهب فضله. وقال غيره: لا يسلم العالم من الخطأ، فمَن أخطأ قليلاً وأصاب كثيراً فهو عالم، ومن أصاب قليلاً وأخطأ كثيراً فهو جاهل ». جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (٢/ ٤٨).

وقال عبد الله بن المبارك (١٨١هـ): « إذا غلبت محاسنُ الرَّجل على مساوئه لَم تُذكر المساوئ، وإذا غلبت المساوئ عن المحاسن لَم تُذكر المحاسن ». سير أعلام النبلاء للذهبي (٨/ ٣٥٢ ط. الأولى).

وقال الإمام أحمد (٢٤١هـ): « لَم يعبر الجسر من خراسان مثل إسحاق (يعني ابن راهويه)، وإن كان يخالفنا في أشياء؛ فإنَّ الناسَ لم يزل يخالف بعضُهم بعضاً ». سير أعلام النبلاء (١١/ ٣٧١).

وقال أبو حاتم ابن حبان (٣٥٤هـ): « كان عبد الملك ـ يعني ابن أبي سليمان ـ من خيار أهل الكوفة وحفاظهم، والغالب على من يحفظ ويُحدِّث من حفظه أن يهم، وليس من الإنصاف ترك حديث شيخ ثبْتٍ صحَّت عدالتُه بأوهام يهم في روايته، ولو سلكنا هذا المسلك للزمنا ترك حديث الزهري وابن جريج والثوري وشعبة؛ لأنَّهم أهل حفظ وإتقان، وكانوا يحدِّثون من حفظهم، ولم يكونوا معصومين حتى لا يهموا في الروايات، بل الاحتياط والأولى في مثل هذا قبول ما يروي الثبت من الروايات، وترك ما صح أنَّه وهم فيها ما لم يفحش ذلك منه حتى يغلب على صوابه، فإن كان كذلك استحق الترك حينئذ ». الثقات (٧/ ٩٧ ـ ٩٨).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية (٧٢٨هـ): « ومِمَّا ينبغي أن يُعرف أن الطوائفَ المنتسبة إلى متبوعين في أصول الدِّين والكلام على درجات، منهم مَن

يكون قد خالف السنَّةَ في أصول عظيمة، ومنهم مَن يكون إنَّما خالف السنَّةَ في أمور دقيقة.

وَمن يكون قد رد على غيره من الطوائف الذين هم أبعدُ عن السنَّة منه، فيكون محموداً فيما ردَّه من الباطل وقاله من الحقِّ، لكن يكون قد جاوز العدل في ردِّه بحيث جحد بعضَ الحقِّ وقال بعضَ الباطل، فيكون قد ردَّ بدعةً كبيرة ببدعة أخفَّ منها، ورد باطلاً بباطل أخفَّ منه، وهذه حالُ أكثر أهل الكلام المنتسبين إلى السنَّة والجماعة.

ومثل هؤلاء إذا لَم يَجعلوا ما ابتدعوه قولاً يفارقون به جماعةَ المسلمين يوالون عليه ويعادون كان من نوع الخطأ، والله سبحانه وتعالى يغفر للمؤمنين خطأَهم في مثل ذلك.

ولهذا وقع في مثل هذا كثيرٌ من سلف الأمة وأئمتها لهم مقالات قالوها باجتهاد وهي تخالف ما ثبت في الكتاب والسنة، بخلاف مَن والى موافقَه وعادى مخالفَه، وفرَّق بين جماعة المسلمين، وكفَّر وفسَّق مخالفَه دون موافقه في مسائل الآراء والاجتهادات، واستحلَّ قتال مخالفه دون موافقه، فهؤلاء من أهل التفرق والاختلافات ». مجموع الفتاوى (٣/ ٣٤٨ ـ ٣٤٩).

وقال (١٩/ ١٩١ ـ ١٩٢): « وكثيرٌ من مجتهدي السلف والخلف قد قالوا وفعلوا ما هو بدعة ولم يعلموا أنَّه بدعة، إمَّا لأحاديث ضعيفة ظنُّوها صحيحة، وإمَّا لآيات فهموا منها ما لَم يُرد منها، وإمَّا لرأي رأوه وفي المسألة نصوص لم تبلغهم، وإذا اتَّقى الرَّجل ربَّه ما استطاع دخل في قوله ﴿ **رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا** ﴾، وفي الصحيح أنَّ الله قال: (قد فعلتُ) ».

وقال الإمام الذهبي (٧٤٨هـ): « ثم إن الكبير من أئمَّة العلم إذا كثر

صوابُه، وعُلم تحرِّيه للحقِّ، واتَّسع علمه، وظهر ذكاؤه، وعُرف صلاحُه وورعه واتِّباعه، يُغفر له زللَه، ولا نضلِّله ونطرحه، وننسى محاسنه، نعم! ولا نقتدي به في بدعته وخطئه، ونرجو له التوبة من ذلك ». سير أعلام النبلاء (٥/ ٢٧١).

وقال أيضاً: « ولو أنَّا كلَّما أخطأ إمامٌ في اجتهاده في آحاد المسائل خطأً مغفوراً له قُمنا عليه وبدَّعناه وهجَرناه، لَمَا سلم معنا لا ابن نصر ولا ابن منده ولا مَن هو أكبر منهما، والله هو هادي الخلق إلى الحقِّ، وهو أرحم الراحمين، فنعوذ بالله من الهوى والفظاظة ». السير (١٤/ ٣٩ ـ ٤٠).

وقال أيضاً: « ولو أنَّ كلَّ من أخطأ في اجتهاده ـ مع صحَّة إيمانه وتوخِّيه لاتباع الحقِّ ـ أهدرناه وبدَّعناه، لقلَّ مَن يسلم من الأئمَّة معنا، رحم الله الجميعَ بمنِّه وكرمه ». السير (١٤/ ٣٧٦).

وقال أيضاً: « ونحبُّ السنَّة وأهلها، ونحبُّ العالم على ما فيه من الاتِّباع والصفات الحميدة، ولا نحبُّ ما ابتدع فيه بتأويل سائغ، وإنَّما العبرة بكثرة المحاسن ». السير (٢٠/ ٤٦).

وقال ابن القيم (٧٥١هـ): « معرفة فضل أئمة الإسلام ومقاديرهم وحقوقهم ومراتبهم وأنَّ فضلَهم وعلمَهم ونصحهم لله ورسوله لا يوجب قبول كلِّ ما قالوه، وما وقع في فتاويهم من المسائل التي خفي عليهم فيها ما جاء به الرسول، فقالوا بمبلغ علمهم والحقُّ في خلافها، لا يوجب اطِّراح أقوالهم جملة، وتنقصهم والوقيعة فيهم، فهذان طرفان جائران عن القصد، وقصد السبيل بينهما، فلا نؤثم ولا نعصم » إلى أن قال: « ومن له علم بالشرع والواقع يعلم قطعاً أنَّ الرَّجلَ الجليل الذي له في الإسلام قدَم صالح وآثار

حسنة، وهو من الإسلام وأهله بمكان قد تكون منه الهفوة والزلَّة هو فيها معذور، بل ومأجور لاجتهاده، فلا يجوز أن يُتبع فيها، ولا يجوز أن تُهدر مكانته وإمامته ومنزلته من قلوب المسلمين ». إعلام الموقعين (٣/ ٢٩٥).

وقال ابن رجب الحنبلي (٧٩٥هـ): « ويأبى الله العصمة لكتاب غير كتابه، والمنصف من اغتفر قليل خطأ المرء في كثير من صوابه ». القواعد (ص:٣).



فتنة التجريح والهجر من بعض أهل السنَّة في هذا العصر، وطريق السلامة منها

حصل في هذا الزمان انشغال بعض أهل السنَّة ببعض تجريحاً وتحذيراً، وترتَّب على ذلك التفرُّق والاختلاف والتهاجر، وكان اللائقُ بل المتعيَّن التواد والتراحم بينهم، ووقوفهم صفًّا واحداً في وجه أهل البدع والأهواء المخالفين لأهل السنَّة والجماعة، ويرجع ذلك إلى سببين:

أحدهما: أنَّ من أهل السنَّة في هذا العصر من يكون دَيْدَنُه وشغلُه الشاغل تتبُّع الأخطاء والبحث عنها، سواء كانت في المؤلفات أو الأشرطة، ثم التحذير مِمَّن حصل منه شيءٌ من هذه الأخطاء، ومن هذه الأخطاء التي يُجرَّح بها الشخص ويُحذَّر منه بسببها تعاونه مثلاً مع إحدى الجمعيات بإلقاء المحاضرات أو المشاركة في الندوات، وهذه الجمعية قد كان الشيخ عبد العزيز ابن باز والشيخ محمد بن عثيمين رحمهما الله يُلقيان عليها المحاضرات عن طريق الهاتف، ويُعاب عليها دخولها في أمر قد أفتاها به هذان العالمان الجليلان، واتِّهام المرء رأيه أولى من اتِّهامه رأي غيره، ولا سيما إذا كان رأياً أفتى به كبار العلماء، وكان بعضُ أصحاب النَّبيِّ ﷺ بعدما جرى في صلح الحُديبية يقول: يا أيُّها الناس! اتِّهموا الرأي في الدِّين.

ومن المجروحين مَن يكون نفعه عظيماً، سواء عن طريق الدروس أو التأليف أو الخطب، ويُحذَّر منه لكونه لا يُعرف عنه الكلام في فلان أو الجماعة الفلانية مثلاً، بل لقد وصل التجريح والتحذير إلى البقيَّة الباقية في بعض الدول العربية، مِمَّن نفعهم عميم وجهودهم عظيمة في إظهار السنَّة ونشرها والدعوة إليها، ولا شكَّ أنَّ التحذير من مثل هؤلاء فيه قطع الطريق بين طلبة

العلم ومَن يُمكنهم الاستفادة منهم علماً وخلقاً.

والثاني: أنَّ من أهل السنَّة مَن إذا رأى أخطاء لأحد من أهل السنَّة كتب في الردِّ عليه، ثم إنَّ المردودَ عليه يُقابل الردَّ بردٍّ، ثم يشتغل كلٌّ منهما بقراءة ما للآخر من كتابات قديمة أو حديثة والسماع لِمَا كان له من أشرطة كذلك؛ لالتقاط الأخطاء وتصيُّد المثالب، وقد يكون بعضُها من قبيل سبق اللسان، يتولَّى ذلك بنفسه، أو يقوم له غيرُه به، ثم يسعى كلٌّ منهما إلى الاستكثار من المؤيِّدين له المُدينين للآخر، ثم يجتهد المؤيِّدون لكلٍّ واحد منهما بالإشادة بقول من يؤيِّده وذم غيره، وإلزام من يلقاه بأن يكون له موقف مِمَّن لا يؤيِّده، فإن لم يفعل بدَّعه تبَعاً لتبديع الطرف الآخر، وأتبع ذلك بهجره، وعَمَلُ هؤلاء المؤيِّدين لأحد الطرفين الذامِّين للطرف الآخر من أعظم الأسباب في إظهار الفتنة ونشرها على نطاق واسع، ويزداد الأمر سوءاً إذا قام كلٌّ من الطرفين والمؤيِّدين لهما بنشر ما يُذمُّ به الآخر في شبكة المعلومات (الانترنت)، ثم ينشغل الشباب من أهل السنَّة في مختلف البلاد بل في القارات بمتابعة الاطلاع على ما يُنشر بالمواقع التي تنشر لهؤلاء وهؤلاء من القيل والقال الذي لا يأتي بخير، وإنَّما يأتي بالضرر والتفرُّق، مِمَّا جعل هؤلاء وهؤلاء المؤيِّدين لكلٍّ من الطرفين يشبهون المتردِّدين على لوحات الإعلانات للوقوف على ما يجدُّ نشره فيها، ويُشبهون أيضاً المفتونين بالأندية الرياضية الذين يشجِّع كلٌّ منهم فريقاً، فيحصل بينهم الخصام والوحشة والتنازع نتيجة لذلك.

وطريق السلامة من هذه الفتن تكون بما يأتي:

أولاً: فيما يتعلَّق بالتجريح والتحذير ينبغي مراعاة ما يلي:

١ ـ أن يتقي اللهَ مَن أشغل نفسَه بتجريح العلماء وطلبة العلم والتحذير

منهم، فينشغل بالبحث عن عيوبه للتخلُّص منها بدلاً من الاشتغال بعيوب الآخرين، ويحافظ على الإبقاء على حسناته فلا يضيق بها ذرعاً، فيوزِّعها على مَن ابتلي بتجريحهم والنَّيل منهم، وهو أحوجُ من غيره إلى تلك الحسنات في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلَّا مَن أتى اللهَ بقلب سليم.

٢ ـ أن يشغل نفسه بدلاً من التجريح والتحذير بتحصيل العلم النافع، والجدِّ والاجتهاد فيه ليستفيد ويُفيد، وينتفع وينفع، فمن الخير للإنسان أن يشتغلَ بالعلم تعلُّماً وتعليماً ودعوة وتأليفاً، إذا تَمكَّن من ذلك ليكون من أهل البناء، وألاَّ يشغل نفسه بتجريح العلماء وطلبة العلم من أهل السنَّة، وقطع الطريق الموصلة إلى الاستفادة منهم، فيكون من أهل الهدم، ومثل هذا المشتغل بالتجريح لا يخلِّف بعده إذا مات علماً يُنتفع به، ولا يفقدُ الناس بموته عالماً ينفعهم، بل بموته يسلمون من شره.

٣ ـ أن ينصرف الطلبة من أهل السنَّة في كلِّ مكان إلى الاشتغال بالعلم، بقراءة الكتب المفيدة وسماع الأشرطة لعلماء أهل السنَّة مثل الشيخ ابن باز والشيخ ابن عثيمين، بدلاً من انشغالهم بالاتصال بفلان أو فلان، سائلين: (ما رأيك في فلان أو فلان؟)، (وماذا تقول في قول فلان في فلان، وقول فلان في فلان؟).

٤ ـ عند سؤال طلبة العلم عن حال أشخاص من المشتغلين بالعلم، ينبغي رجوعهم إلى رئاسة الإفتاء بالرياض للسؤال عنهم، وهل يُرجع إليهم في الفتوى وأخذ العلم عنهم أو لا؟ ومَن كان عنده علم بأحوال أشخاص معيَّنين يُمكنه أن يكتب إلى رئاسة الإفتاء ببيان ما يعلمه عنهم للنظر في ذلك، وليكون صدور التجريح والتحذير إذا صدر يكون من جهة يُعتمد عليها في

الفتوى وفي بيان مَن يؤخذ عنه العلم ويُرجع إليه في الفتوى، ولا شكَّ أنَّ الجهة التي يُرجع إليها للإفتاء في المسائل هي التي ينبغي الرجوع إليها في معرفة مَن يُستفتى ويُؤخذ عنه العلم، وألاَّ يجعل أحدٌ نفسه مرجعاً في مثل هذه المهمَّات؛ فإنَّ من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه.

ثانياً: فيما يتعلَّق بالردِّ على مَن أخطأ، ينبغي مراعاة ما يلي:

١ ـ أن يكون الردُّ برفق ولين ورغبة شديدة في سلامة المخطئ من الخطأ، حيث يكون الخطأ واضحاً جليًّا، وينبغي الرجوع إلى ردود الشيخ عبد العزيز ابن باز رحمه الله للاستفادة منها في الطريقة التي ينبغي أن يكون الردُّ عليها.

٢ ـ إذا كان الخطأ الذي رد عليه فيه غير واضح، بل هو من الأمور التي يحتمل أن يكون الرادُّ فيها مصيباً أو مخطئاً، فينبغي الرجوع إلى رئاسة الإفتاء للفصل في ذلك، وأمَّا إذا كان الخطأ واضحاً، فعلى المردود عليه أن يرجع عنه؛ فإنَّ الرجوعَ إلى الحقِّ خيرٌ من التمادي في الباطل.

٣ ـ إذا حصل الردُّ من إنسان على آخر يكون قد أدَّى ما عليه، فلا يشغل نفسَه بمتابعة المردود عليه، بل يشتغل بالعلم الذي يعود عليه وعلى غيره بالنفع العظيم، وهذه هي طريقة الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله.

٤ ـ لا يجوز أن يَمتحن أيُّ طالب علم غيرَه بأن يكون له موقف من فلان المردود عليه أو الرَّاد، فإن وافق سلم، وإن لم يُوافق بُدِّع وهُجر، وليس لأحد أن ينسب إلى أهل السنَّة مثل هذه الفوضى في التبديع والهجر، وليس لأحد أيضاً أن يصف من لا يسلك هذا المسلك الفوضوي بأنَّه مُميِّع لمنهج السلف، والهجرُ المفيد بين أهل السنَّة ما كان نافعاً للمهجور، كهجر الوالد ولده، والشيخ تلميذه، وكذا صدور الهجر مِمَّن يكون له منزلة رفيعة ومكانة عالية،

فإنَّ هجرَ مثل هؤلاء يكون مفيداً للمهجور، وأمَّا إذا صدر الهجر من بعض الطلبة لغيرهم، لا سيما إذا كان في أمور لا يسوغ الهجر بسببها، فذلك لا يُفيد المهجور شيئاً، بل يترتَّب عليه وجود الوحشة والتدابر والتقاطع، قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٣/ ٤١٣ ـ ٤١٤) في كلام له عن يزيد ابن معاوية: « والصواب هو ما عليه الأئمَّة، من أنَّه لا يُخَصُّ بمحبة ولا يلعن، ومع هذا فإن كان فاسقاً أو ظالماً فالله يغفر للفاسق والظالم، لا سيما إذا أتى بحسنات عظيمة، وقد روى البخاري في صحيحه عن ابن عمر رضي الله عنهما: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: (أوَّل جيش يغزو القسطنطينيَّة مغفورٌ له)، وأول جيش غزاها كان أميرهم يزيد بن معاوية، وكان معه أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه ...

فالواجب الاقتصاد في ذلك، والإعراض عن ذكر يزيد بن معاوية **وامتحان المسلمين به**؛ فإنَّ هذا من البدع المخالفة لأهل السنَّة والجماعة ».

وقال (٣/ ٤١٥): « وكذلك التفريق بين الأمَّة وامتحانها بما لم يأمر الله به ولا رسوله ﷺ ».

وقال (٢٠/ ١٦٤): « وليس لأحد أن ينصب للأمَّة شخصاً يدعو إلى طريقته، ويُوالي ويُعادي عليها غير النَّبيِّ ﷺ، ولا ينصب لهم كلاماً يوالي عليه ويُعادي غير كلام الله ورسوله وما اجتمعت عليه الأمَّة، بل هذا من فعل أهل البدع الذين ينصبون لهم شخصاً أو كلاماً يفرِّقون به بين الأمة، يوالون به على ذلك الكلام أو تلك النسبة ويُعادون ».

وقال (٢٨/ ١٥ ـ ١٦): « فإذا كان المعلم أو الأستاذ قد أمر بهجر شخص أو بإهداره وإسقاطه وإبعاده ونحو ذلك نظر فيه: فإن كان قد فعل ذنباً شرعيًّا عوقب بقدر ذنبه بلا زيادة، وإن لم يكن أذنب ذنباً شرعيًّا لم يجز أن يُعاقب

بشيء لأجل غرض المعلم أو غيره.

وليس للمعلمين أن يحزبوا الناس ويفعلوا ما يلقي بينهم العداوة والبغضاء، بل يكونون مثل الإخوة المتعاونين على البرِّ والتقوى، كما قال الله تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ ﴾ »، قال الحافظ ابن رجب في شرح حديث: « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه » من كتابه جامع العلوم والحكم (١/ ٢٨٨): « وهذا الحديث أصلٌ عظيم من أصول الأدب، وقد حكى الإمام أبو عَمرو بن الصلاح عن أبي محمد بن أبي زيد ـ إمام المالكية في زمانه ـ أنَّه قال: جماعُ آداب الخير وأزمته تتفرَّع من أربعة أحاديث: قول النَّبيِّ ﷺ: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت)، وقوله ﷺ: (من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه)، وقوله للذي اختصر له في الوصيَّة: (لا تغضب)، وقوله ﷺ: (المؤمن يُحبُّ لأخيه ما يُحبُّ لنفسه) ».

أقول: ما أحوج طلبة العلم إلى التأدُّب بهذه الآداب التي تعود عليهم وعلى غيرهم بالخير والفائدة، مع البُعد عن الجفاء والفظاظة التي لا تُثمر إلَّا الوحشة والفُرقة وتنافر القلوب وتمزيق الشمل.

٥ ـ على كلِّ طالب علم ناصح لنفسه أن يُعرِضَ عن متابعة ما يُنشر في شبكة المعلومات الانترنت، عمَّا يقوله هؤلاء في هؤلاء، و هؤلاء في هؤلاء، والإقبال عند استعمال شبكة الانترنت على النظر في مثل موقع الشيخ عبد العزيز ابن باز رحمه الله ومطالعة بحوثه وفتاواه التي بلغت حتى الآن واحداً وعشرين مجلداً، وفتاوى اللجنة الدائمة التي بلغت حتى الآن عشرين مجلداً، وكذا موقع الشيخ محمد بن عثيمين رحمه الله ومطالعة كتبه وفتاواه الكثيرة الواسعة.

وفي الختام أوصي طلبة العلم أن يشكروا اللهَ عزَّ وجلَّ على توفيقه لهم؛ إذ جعلهم من طلاَّبه، وأن يُعنوا بالإخلاص في طلبه، ويبذلوا النَّفس والنّفيس لتحصيله، وأن يحفظوا الأوقات في الاشتغال به؛ فإنَّ العلم لا يُنال بالأماني والإخلاد إلى الكسل والخمول، وقد قال يحيى بن أبي كثير اليمامي: « لا يُستطاع العلم براحة الجسم » رواه مسلم في صحيحه بإسناده إليه في أثناء إيراده أحاديث أوقات الصلاة، وقد جاء في كتاب الله آيات، وفي سنَّة نبيِّه ﷺ أحاديث تدلّ على شرف العلم وفضل أهله، كقوله تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ ﴾، وقوله: ﴿ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ ﴾، وقوله: ﴿ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ ﴾، وقوله: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ﴾، وأما الأحاديث في ذلك فمنها قوله ﷺ: « من يُرد الله به خيراً يفقِّهه في الدِّين » أخرجه البخاري (٧١) ومسلم (١٠٣٧)، وقد دلَّ الحديثُ على أنَّ من علامة إرادة الله تعالى الخير بالعبد أن يفقِّهه في الدِّين؛ لأنه بفقهه في الدِّين يعبد الله على بصيرة، ويدعو غيره على بصيرة، وقوله ﷺ: « خيركم من تعلّم القرآن وعلّمه » رواه البخاري (٥٠٢٧)، وقوله ﷺ: « إنَّ الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين » رواه مسلم (٨١٧)، وقوله ﷺ: « نضّر الله امرءاً سمع مقالتي فوعاها وأدّاها كما سمعها » وهو حديثٌ متواتر، جاء عن أكثر من عشرين صحابياً، ذكرت رواياتهم في كتابي « دراسة حديث (نضّر الله امرءا سمع مقالتي) روايةً ودرايةً »، وقوله ﷺ: « من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله عزَّ وجلَّ به طريقاً من طرق الجنّة، وإنَّ الملائكة لتضع أجنحتها رضاً لطالب العلم، وإنَّ العالِم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض،

والحيتان في جَوف الماء، وإنَّ فضلَ العالِم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإنَّ العلماء ورثةُ الأنبياء، وإنَّ الأنبياء لم يورِّثوا ديناراً ولا درهماً، ورَّثوا العلم، فمَن أخذه أخذ بحظٍّ وافر » وهو حديث حسن لغيره، أخرجه أبو داود (٣٦٢٨) وغيره، وانظر لتخريجه صحيح الترغيب والترهيب (٧٠) والتعليق على مسند الإمام أحمد (٢١٧١٥)، وقد شرح الحافظ ابن رجب هذا الحديث في جزء مفرد، والجملة الأولى وردت في حديث في صحيح مسلم (٢٦٩٩)، وقوله ﷺ: « إذا مات الإنسان انقطع عنه عملُه إلَّا من ثلاثة: إلَّا من صدقةٍ جارية، أو علمٍ يُنتفع به، أو ولدٍ صالحٍ يدعو له » رواه مسلم (١٦٣١)، وقوله ﷺ: « مَن دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً » أخرجه مسلم (٢٦٧٤).

وأيضاً أوصي الجميع بحفظ الوقت وعمارته فيما يعود على الإنسان بالخير؛ لقوله ﷺ: « نعمتان مغبونٌ فيهما كثيرٌ من الناس: الصحَّةُ والفراغ » رواه البخاري في صحيحه (٦٤١٢)، وهو أوّل حديثٍ عنده في كتاب الرِّقاق، وقد أورد في هذا الكتاب (١١/ ٢٣٥ مع الفتح) أثراً عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال: « ارتحلت الدنيا مدبرة، وارتحلت الآخرة مقبلة، ولكلٍّ واحدةٍ منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا؛ فإنَّ اليوم عملٌ ولا حسابٌ، وغداً حسابٌ ولا عمل ».

وأوصي بالاشتغال بما يعني عمّا لا يعني؛ لقوله ﷺ: « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه » حديث حسن، رواه الترمذي (٢٣١٧) وغيره، وهو

الحديث الثاني عشر من الأربعين للنووي.

وأوصي بالاعتدال والتوسُّط بين الغلوّ والجفاء والإفراط والتفريط؛ لقوله ﷺ: « إيّاكم والغلوّ في الدِّين؛ فإنّما هلك من كان قبلكم بالغلوِّ في الدِّين » وهو حديث صحيح، أخرجه النّسائي وغيره، وهو من أحاديث حجّة الوداع، انظر تخريجه في السلسلة الصحيحة للألباني (١٢٨٣).

وأوصي بالحذر من الظلم؛ للحديث القدسي: « يا عبادي! إنِّي حرّمت الظلم على نفسي، وجعلتُه بينكم محرَّماً فلا تظالَموا » رواه مسلم (٢٥٧٧)، ولقوله ﷺ: « اتّقوا الظلمَ؛ فإنَّ الظلم ظلماتٌ يوم القيامة » رواه مسلم (٢٥٧٨).

وأسأل الله عزَّ وجلَّ أن يوفِّق الجميع لِمَا فيه تحصيل العلم النافع والعمل به والدعوة إليه على بصيرة، وأن يجمعهم على الحقِّ والهدى، ويسلمهم من الفتن ما ظهر منها وما بطن، إنَّه وليُّ ذلك والقادر عليه، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبيِّنا محمد وعلى آله وصحبه ومَن تبعهم بإحسان إلى يوم الدِّين.

الموضوعان التاليان مُثبتَان في آخر رسالة: « الحث على اتباع السنة والتحذير من البدع وبيان خطرها »، وقد رأيتُ إثباتهما هنا لتعلُّقهما برسالة: « رفقاً أهل السنَّة بأهل السنَّة ».

بدعة امتحان الناس بالأشخاص

ومن البدع المنكرة ما حدث في هذا الزمان من امتحان بعض من أهل السنَّة بعضاً بأشخاص، سواء كان الباعث على الامتحان الجفاء في شخص يُمتحن به، أو كان الباعث عليه الإطراء لشخص آخر، وإذا كانت نتيجة الامتحان الموافقة لِمَا أراده الممتحِن ظفر بالترحيب والمدح والثناء، وإلاَّ كان حظّه التجريح والتبديع والهجر والتحذير، وهذه نقول عن شيخ الإسلام ابن

تيمية في أوَّلها التبديع في الامتحان بأشخاص للجفاء فيهم، وفي آخرها التبديع في الامتحان بأشخاص آخرين لإطرائهم، قال رحمه الله في مجموع الفتاوى (٣/ ٤١٣ ـ ٤١٤) في كلام له عن يزيد بن معاوية: «والصواب هو ما عليه الأئمَّة، من أنَّه لا يُخَصُّ بمحبة ولا يلعن، ومع هذا فإن كان فاسقاً أو ظالماً فالله يغفر للفاسق والظالم، لا سيما إذا أتى بحسنات عظيمة، وقد روى البخاري في صحيحه عن ابن عمر رضي الله عنهما: أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: (أوَّل جيش يغزو القسطنطينيَّة مغفورٌ له)، وأول جيش غزاها كان أميرهم يزيد بن معاوية، وكان معه أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه ...

فالواجب الاقتصاد في ذلك، والإعراض عن ذكر يزيد بن معاوية **وامتحان المسلمين به**؛ فإنَّ هذا من البدع المخالفة لأهل السنَّة والجماعة».

وقال (٣/ ٤١٥): «وكذلك التفريق بين الأمَّة وامتحانها بما لم يأمر الله به ولا رسوله صلى الله عليه وسلم».

وقال (٢٠/ ١٦٤): «وليس لأحد أن ينصب للأمَّة شخصاً يدعو إلى طريقته، ويُوالي ويُعادي عليها غير النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم، ولا ينصب لهم كلاماً يوالي عليه ويُعادي غير كلام الله ورسوله وما اجتمعت عليه الأمَّة، بل هذا من فعل أهل البدع الذين ينصبون لهم شخصاً أو كلاماً يفرِّقون به بين الأمة، يوالون به على ذلك الكلام أو تلك النسبة ويُعادون».

وقال (٢٨/ ١٥ ـ ١٦): «فإذا كان المعلم أو الأستاذ قد أمر بهجر شخص أو بإهداره وإسقاطه وإبعاده ونحو ذلك نظر فيه: فإن كان قد فعل ذنباً شرعيًّا عوقب بقدر ذنبه بلا زيادة، وإن لم يكن أذنب ذنباً شرعيًّا لم يجز أن يُعاقب بشيء لأجل غرض المعلم أو غيره.

وليس للمعلمين أن يحزبوا الناس ويفعلوا ما يلقي بينهم العداوة والبغضاء، بل يكونون مثل الإخوة المتعاونين على البرِّ والتقوى، كما قال الله تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ ﴾».

ولو ساغ امتحان الناس بشخص في هذا الزمان لمعرفة مَن يكون من أهل السنَّة أو غيرهم بهذا الامتحان، لكان الأحقَّ والأولى بذلك شيخ الإسلام ومفتي الدنيا وإمام أهل السنَّة في زمانه شيخنا الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز المتوفى في ٢٧ من شهر المحرم عام ١٤٢٠هـ، رحمه الله وغفر له وأجزل له المثوبة، الذي عرفه الخاصُّ والعام بسعة علمه وكثرة نفعه وصدقه ورِفقه وشفقته وحرصه على هداية الناس وتسديدهم، نحسبه كذلك ولا نزكي على الله أحداً؛ فقد كان ذا منهج فذٍّ في الدعوة إلى الله وتعليم الناس الخير، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، يتَّسم بالرِّفق واللِّين في نصحه وردوده الكثيرة على غيره، منهج سديد يقوِّم أهلَ السنَّة ولا يُقاومهم[1]، وينهض بهم ولا

(١) من الذين نالتهم سِهام التجريح والمقاومة من بعض المتكلِّفين، وظفروا بالتقويم والتسديد والتشجيع من سماحة الشيخ عبد العزيز ابن باز رحمه الله، رجلان فاضلان يُدرِّسان في المسجد النبوي، ودروسهما مسموعة في الإذاعة، أحدهما زادت مدَّة تدريسه فيه على خمسين عاماً، وأول مرة رأيته يُدرِّس فيه عقب موسم الحج عام (١٣٧٦هـ)، وبعد انتقال الشيخ عبد العزيز بن باز من رئاسة الجامعة الإسلامية بالمدينة إلى رئاسة البحوث العلمية والإفتاء بالرياض، كان رحمه الله كلَّما لقيته يسألني عن الدروس في المسجد النبوي والمدرِّسين فيه، ويَخصُّ بالسؤال عن ذلك الرجل الفاضل.
والثاني له اشتغال بالعلم واهتمام بالتدريس، فيُدرِّس في المسجد النبوي وفي جدة ومكة، وقد سمعتُ من أحد المدرسين في الجامعة الإسلامية في المدينة، أنَّه دخل مسجد الشيخ عبد العزيز بن باز بمكة، فوجد ذلك الرجل الفاضل يُلقي درساً بحضور سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله، وعندما تأتي الأسئلة في الدرس يتولَّى الإجابة عنها الشيخ عبد العزيز رحمه الله.
وهذان نموذجان من تقويمه وتسديده وتشجيعه للمشتغلين بتعليم العلم.

يُناهضهم، ويَسْمو بهم ولا يسِمُهم، منهج يجمع ولا يُفرِّق، ويلمُّ ولا يمزِّق، ويُسدِّد ولا يبدد، ويُيسِّر ولا يُعسِّر، وما أحوج المشتغلين بالعلم وطلبته إلى سلوك هذا المسلك القويم والمنهج العظيم؛ لِمَا فيه من جلب الخير للمسلمين ودفع الضَّرر عنهم.

والواجب على الأتباع والمتبوعين الذين وقعوا في ذلك الامتحان أن يتخلَّصوا من هذا المسلك الذي فرَّق أهلَ السنَّة وعادى بعضُهم بعضاً بسببه، وذلك بأن يترك الأتباعُ الامتحان وكلَّ ما يترتَّب عليه من بُغض وهجر وتقاطع، وأن يكونوا إخوةً متآلفين متعاونين على البرِّ والتقوى، وأن يتبرَّأ المتبوعون من هذه الطريقة التي توبعوا عليها، ويُعلنوا براءتَهم منها ومِن عمل مَن يقع فيها، وبذلك يسلم الأتباع من هذا البلاء والمتبوعون من تبعة التسبُّب بهذا الامتحان وما يترتَّبُ عليه من أضرار تعود عليهم وعلى غيرهم.

التحذير من فتنة التجريح والتبديع من بعض أهل السنة في هذا العصر

وقريبٌ من بدعة امتحان الناس بالأشخاص ما حصل في هذا الزمان من افتتان فئة قليلة من أهل السنَّة بتجريح بعض إخوانهم من أهل السنة وتبديعهم، وما ترتَّب على ذلك من هجر وتقاطع بينهم وقطع لطريق الإفادة منهم، وذلك التجريح والتبديع منه ما يكون مبنيًّا على ظنٍّ ما ليس ببدعة بدعة، ومن أمثلة ذلك أنَّ الشيخين الجليلين عبد العزيز بن باز وابن عثيمين ـ رحمهما الله ـ قد أفتيا جماعة بدخولها في أمر رأيَا المصلحة في ذلك الدخول، ومِمَّن لم يُعجبهم ذلك المفتَى به تلك الفئة القليلة، فعابت تلك الجماعة بذلك، ولَم يقف الأمر عند هذا الحدِّ، بل انتقل العيب إلى مَن يتعاون معها بإلقاء المحاضرات، ووصفه بأنَّه مُميِّع لمنهج السلف، مع أنَّ هذين الشيخين الجليلين

كانا يُلقيان المحاضرات على تلك الجماعة عن طريق الهاتف.

ومن ذلك أيضاً حصول التحذير من حضور دروس شخص؛ لأنَّه لا يتكلَّم في فلان الفلاني أو الجماعة الفلانية، وقد تولَّى كبر ذلك شخص من تلاميذي بكلية الشريعة بالجامعة الإسلامية، تخرَّج منها عام (١٣٩٥ ـ ١٣٩٦هـ)، وكان ترتيبه الرابع بعد المائة من دفعته البالغ عددهم (١١٩) خرِّيجاً[(١)]، وهو غير معروف بالاشتغال بالعلم، ولا أعرف له دروساً علميَّة مسجَّلة، ولا مؤلَّفاً في العلم صغيراً ولا كبيراً، وجلُّ بضاعته التجريح والتبديع والتحذير من كثيرين من أهل السنَّة، لا يبلغ هذا الجارحُ كعبَ بعض مَن جرَحهم لكثرة نفعهم في دروسهم ومحاضراتهم ومؤلفاتهم، ولا ينتهي العجب إذا سمع عاقل شريطاً له يحوي تسجيلاً لمكالمة هاتفية طويلة بين المدينة والجزائر، أكل فيها المسئول لحومَ كثير من أهل السنَّة، وأضاع فيها السائل مالَه بغير حقٍّ، وقد زاد عدد المسئول عنهم في هذا الشريط على ثلاثين شخصاً، فيهم الوزير والكبير والصغير، وفيهم فئة قليلة غير مأسوف عليهم، وقد نجا

---

(١) هذه المعلومات عنه وعن الخرِّيجين منقولة من كتاب: «خرِّيجو الجامعة من عام ٨٤/ ١٣٨٥ إلى عام ٩٥/١٣٩٦هـ)، و«دليل الجامعة الإسلامية لعام (١٣٩٥/ ١٣٩٦هـ) »، وقد طُبعا في الوقت الذي كنت المسئول الأول في الجامعة الإسلامية، وهما مشتملان على تقديم منِّي وموجودان في مكتبتي.

وقد حصل من هذا التلميذ الجارح في أحد أشرطته التي ليس لها خطام ولا زمام، نفي كونه من تلاميذي، وأنَّه لا يذكر دخولي عليهم في الفصل، إلَّا مرة واحدة في حصَّة انتظار!!! ومن العجيب تذكُّرُه حصَّة الانتظار المزعومة ونسيانه أو تناسيه حصَّة أسبوعية في الفقه مدة عام دراسي كامل!! وفي ذلك الوقت كنت في عمل إداري في الجامعة، أحضر لإلقاء محاضرتين في فصلين دراسيين في أحد أيام الأسبوع، ثم أعود إلى عملي الإداري، ولم يكن عندي حصصُ انتظار، وزملاؤه الكثيرون البالغ عددهم (١١٨) خرِّيجاً يعلمون هذه الحقيقة ولا يجهلونها.

مِن هذا الشريط مَن لم يُسأل عنه فيه، وبعض الذين نجوا منه لم ينجوا من أشرطة أخرى له، حوتها شبكة المعلومات الإنترنت، والواجب عليه الإمساك عن أكل لحوم العلماء وطلبة العلم، والواجب على الشباب وطلاَّب العلم ألاَّ يلتفتوا إلى تلك التجريحات والتبديعات التي تضرُّ ولا تنفع، وأن يشتغلوا بالعلم النافع الذي يعود عليهم بالخير والعاقبة الحميدة في الدنيا والآخرة، وقد قال الحافظ ابن عساكر رحمه الله في كتابه تبيين كذب المفتري (ص:٢٩): « واعلم ـ يا أخي! وفَّقنا الله وإياك لمرضاته، وجلعنا مِمَّن يَخشاه ويتَّقيه حق تقاته ـ أنَّ لحوم العلماء رحمة الله عليهم مسمومة، وعادة الله في هتك أستار منتقصيهم معلومة »، وقد أوردتُ في رسالتي « رفقاً أهل السنَّة بأهل السنَّة » جملة كبيرة من الآيات والأحاديث والآثار في حفظ اللسان من الوقيعة في أهل السنَّة، ولا سيما أهل العلم منهم، ومع ذلك لَم تُعجب هذا الجارح، ووصفها بأنَّها غير مؤهَّلة للنشر، وحذَّر منها ومن نشرها، ولا شكَّ أنَّ مَن يقف على هذا الجرح ويطَّلع على الرسالة يجد أنَّ هذا الحكم في واد والرسالة في واد آخر، وأنَّ الأمر كما قال الشاعر:

قد تُنكر العينُ ضوء الشمس من رمَد ... ويُنكر الفمُ طعمَ الماء من سَقَمِ

وأمَّا قول التلميذ الجارح لرسالة « رفقاً أهل السنَّة بأهل السنَّة »: « فمثلاً في كلام أنَّ منهج الشيخ عبد العزيز بن باز ومنهج الشيخ ابن عثيمين على خلاف منهج أهل السنَّة الآخرين، هذا خطأ لا شك، يعني لا يُكثرون الردود ويردون على المخالف، هذا لو صحَّ هو خلاف منهج أهل السنَّة والجماعة، وهو طعن في الشيخين في الحقيقة، وفي غيرهم مِمَّن يمكن أن يُقال عنه هذا الكلام!!! ».

فالجواب عنه من وجوه:

الوجه الأول: أنَّه ليس في الرسالة أنَّ الشيخ عبد العزيز ابن باز رحمه الله لا يكثر الردود، بل ردوده كثيرة، وقد جاء في الرسالة (ص:٥١): «أن يكون الردُّ برفق ولين ورغبة شديدة في سلامة المخطئ من الخطأ، حيث يكون الخطأ واضحاً جليًّا، وينبغي الرجوع إلى ردود الشيخ عبد العزيز ابن باز رحمه الله للاستفادة منها في الطريقة التي ينبغي أن يكون الردُّ عليها».

الوجه الثاني: أنَّني لَم أتعرَّض لذكر منهج الشيخ ابن عثيمين رحمه الله في الردود؛ لأنِّي لا أعرف له مؤلَّفاً صغيراً أو كبيراً في الردود، وسألتُ أحدَ تلاميذه الملازمين له عن ذلك، فأخبرني أنَّه لا يعلم له شيئاً من الردود، وذلك لا يقدح فيه؛ لأنَّه مشغول بتقرير العلم ونشره والتأليف.

الوجه الثالث: أنَّ منهج الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله يختلف عن منهج التلميذ الجارح ومَن يشبهه؛ لأنَّ منهج الشيخ يتَّسم بالرِّفق واللِّين والحرص على استفادة المنصوح والأخذ بيده إلى طريق السلامة، وأمَّا الجارحُ ومَن يشبهه فيتَّسمُ بالشدَّة والتنفير والتحذير، وكثيرون مِن الذين جرحهم في أشرطته كان يُثني عليهم الشيخ عبد العزيز ويدعو لهم ويحثُّهم على الدعوة وتعليم الناس، ويَحثُّ على الاستفادة منهم والأخذ عنهم.

والحاصلُ أنَّني لَم أنسب إلى الشيخ عبد العزيز ابن باز رحمه الله عدم الردِّ على غيره، وأمَّا ابن عثيمين فلَم أتعرَّض له بذكر في قضيَّة الردود، وأنَّ ما ذكره الجارحُ غير مطابق لِمَا في الرسالة، وهو من أوضح الأدلة على تخبُّطه وعدم تثبُّته، وإذا كان هذا منه في كلام مكتوب، فكيف يكون الحال فيما لا كتابة فيه؟!

وأمَّا قول جارح الرسالة: «وأنا في الحقيقة قد قرأتُ الرسالةَ، وعرفت موقفَ أهل السنَّة منها، ولعلَّكم رأيتم الردودَ من بعض العلماء والمشايخ، وما

أظنُّ الردودَ تقف عند ذلك، إنَّما هناك مَن سَيَرُدُّ أيضاً؛ لأنَّه كما يقول الشاعر:

جاء شقيق عارض رمحه   إنَّ بني عمِّك فيهم رماح ».

كذا: عارضٌ، والصواب عارضاً.

فالجواب: أنَّ أهل السنَّة الذين عناهم هم الذين يختلف منهجهم عن منهج الشيخ عبد العزيز رحمه الله الذي أشرتُ إليه قريباً، وهو بهذا الكلام يستنهض هِمَمَ مَن لم يعرفهم للنيل من الرسالة بعد أن استنهض هِمَم مَن يعرفهم، وأنا في الحقيقة لَم أعرض رمحاً، وإنَّما عرضتُ نصحاً لم يقبله الجارحُ ومَن يشبهه؛ لأنَّ النصحَ للمنصوح يشبه الدواءَ للمريض، ومن المرضى مَن يستعمل الدواء وإن كان مُرًّا؛ لِمَا يُؤَمِّله من فائدة، ومن المنصوحين من يصدُّه الهوى عن النصح لا يقبله، بل ويُحذِّر منه، وأسأل الله للجميع التوفيق والهدايةَ والسلامةَ من كيد الشيطان ومكره.

وقد شارك التلميذَ الجارح ثلاثةٌ[1]: اثنان في مكة والمدينة، وهما من تلاميذي في الجامعة الإسلامية بالمدينة، أولهما تخرَّج عام (١٣٨٤ ـ ١٣٨٥هـ)، والثاني عام (١٣٩١ ـ ١٣٩٢هـ)، وأمَّا الثالث ففي أقصى جنوب البلاد، وقد وصف الثاني والثالث مَن يُوزِّع الرسالةَ بأنَّه مبتدع، وهو تبديع بالجملة والعموم، ولا أدري هل علموا أو لم يعلموا أنَّه وزَّعها علماء وطلبة علم لا يُوصَفون ببدعة، وآملُ منهم تزويدي بالملاحظات التي بنوا عليها هذا التبديع العام إن وُجدت للنظر فيها.

---

(١) الثلاثة الذين شاركوا التلميذَ الجارح في الاعتراض على الرسالة، ذكر أوَّلُهم أنَّ له عليها بعض الملاحظات، ووصف الثاني مَن يوزِّعها بأنَّه صاحب هوى أو مغفَّل، والثالث حمد الله أنَّ أهل السنَّة حصل منهم الرَّد عليها والإنكار لها، ووصف مَن يُوزِّعها بأنَّه مبتدع!!

وللشيخ عبد الرحمن السديس إمام وخطيب المسجد الحرام خطبة ألقاها من منبر المسجد الحرام حذَّر فيها من وقيعة أهل السنَّة بعضهم في بعض، نلفتُ الأنظارَ إليها؛ فإنَّها مهمَّة ومفيدة.

وأسأل الله عزَّ وجلَّ أن يوفِّق الجميعَ لِمَا يُرضيه وللفقه في الدِّين والثبات على الحقِّ، والاشتغال بما يعني عمَّا لا يعني، إنَّه وليُّ ذلك والقادر عليه، وصلى الله وسلم وبارك على نبيِّنا محمد وعلى آله وصحبه.

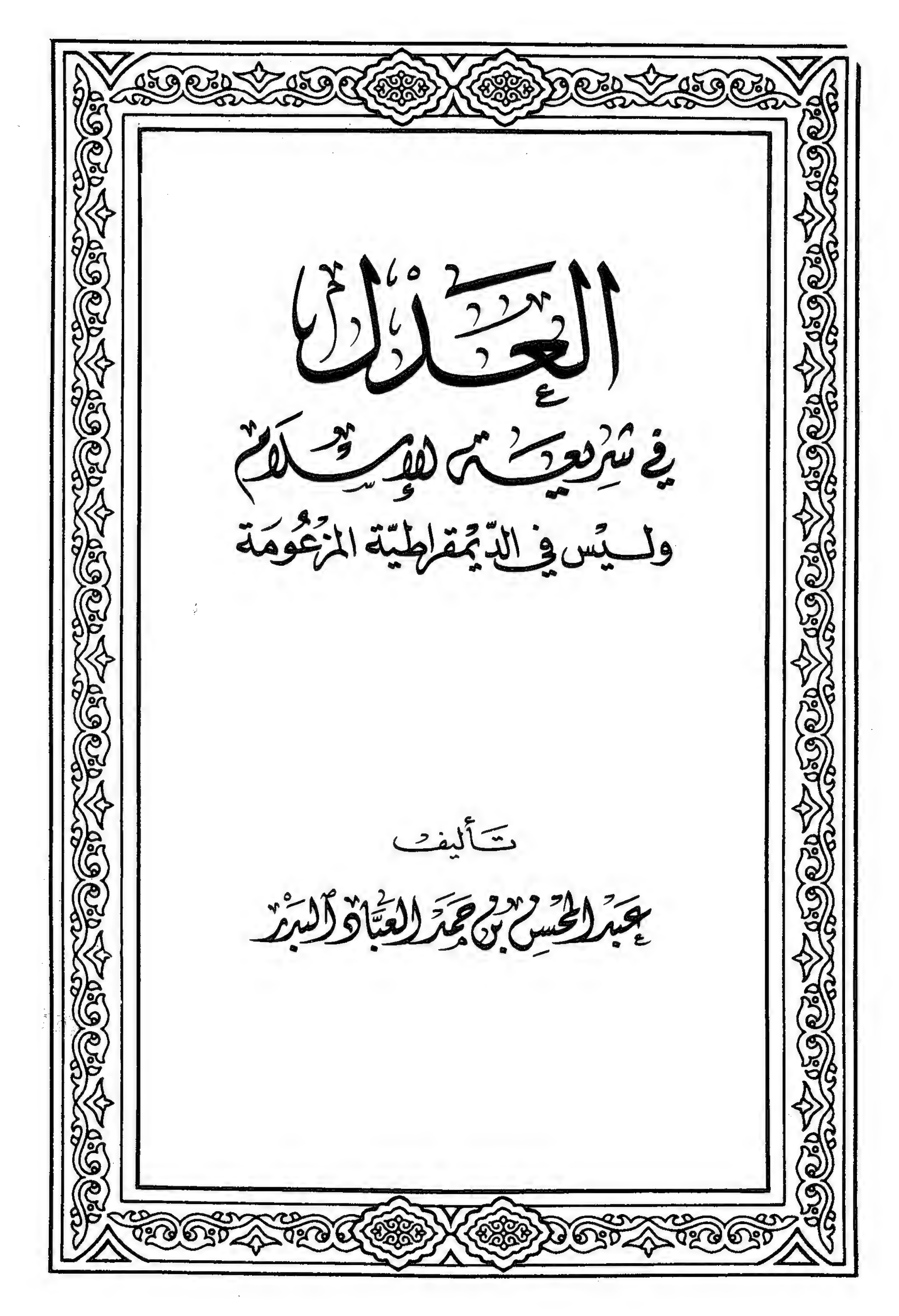
***



لفهرس

❊ ❊ ❊





العدل

في شريعة الإسلام

وليس في الديمقراطية المزعومة

تأليف

عبد المحسن بن حمد العباد البدر



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ربِّ العالمين، رضي الإسلامَ لنا ديناً وجعلنا مسلمين، وأتمَّ علينا النِّعمة وأكمل لنا الدِّين، وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، إله الأوَّلين والآخرين، وقيُّوم السموات والأرضين، وأشهد أنَّ محمداً عبدُه ورسولُه، المبعوث رحمة للعالمين، اللَّهمَّ صلِّ وسلِّم وبارِك عليه وعلى آله الطيِّبين وصحابته الغُرِّ الميامين، ومَن تبعَهم بإحسان إلى يوم الدِّين.

أمَّا بعد، فإنَّ نعمَ الله عزَّ وجلَّ على عباده كثيرةٌ لا تُعدُّ ولا تُحصى، أنعم عليهم بالإيجاد من العدم، وامتنَّ عليهم بأنواع النِّعم، أنعم بسلامة الأبدان والأمن في الأوطان، وتفضَّل عليهم بالأموال والأرزاق، إلى غير ذلك من النِّعم.

وأعظمُ نعمة أنعم الله بها على أهل الأرض أن بعث فيهم رسلَه الكرام لهدايتهم إلى الحقِّ وإخراجهم من الظلمات إلى النور، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾، وقال تعالى: ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾، وقد ختم الله تلك الرسالات برسالة نبيِّنا محمد ﷺ، فبعثه برسالة كاملة عامَّة خالدة؛ فهي باقية إلى قيام الساعة، وعامة للثقلين الجنِّ والإنس، وكاملة لا نقص فيها، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ ﴾، وقال رسول الله ﷺ: « والذي نفسي بيده ! لا يسمع بي أحد من هذه الأمّة، يهوديٌّ ولا نصرانيٌّ ثمَّ يموت ولم يؤمن بالذي أُرسلت به إلَّا كان من أصحاب النَّار » رواه مسلم (١٥٣)، والأمَّة في هذا الحديث أمَّة

الدعوة، فيدخل تحتها كلُّ إنسيٍّ وجنّيٍّ من حين بعثته ﷺ إلى قيام الساعة، فمَن آمن به دخل الجنّة، ومَن كفر به فليس له إلَّا النّار، وقد قال ﷺ عن موسى عليه الصلاة والسلام الذي يزعم اليهودُ أنَّهم أتباعه: «لو كان موسى حيّاً ما وسعه إلَّا اتّباعي»، أورد الحافظ ابن حجر في الفتح (١٣/ ٥٢٥) طرقَه التي لا تخلو من ضعف وذكر أنَّ مجموعها يقتضي أنَّ لها أصلاً، وحسّنه الألباني في الإرواء (١٥٨٩)، وقال ﷺ في عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام الذي يزعم النصارى أنَّهم أتباعه: «والذي نفسي بيده! ليوشكنَّ أن ينزل فيكم ابنُ مريم حكماً مقسطاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد» رواه البخاري (٢٢٢٢) واللفظ له، ومسلم (١٥٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وجوب الحكم بشريعة الإسلام

وقد أوجب اللهُ على المسلمين الحكمَ بهذه الشريعة التي جاء بها الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة وأتمُّ التسليم، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، وقال: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾، وقال: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ﴾، وقال: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا

وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴾، وقال: ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾، وقال: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾.

فالواجب على المسلمين الحكم بشريعة الإسلام والتحاكم إليها، وترك القوانين الوضعية التي وضعها البشر؛ لأنَّ الشريعة وحيٌ من الله الحكيم العليم، وهي مشتملة على تحصيل مصالح العباد في الحال والمآل، وهي منزَّلة من الله المتَّصف بكلِّ كمال المنزَّه عن كلِّ نقص، وهي مستقرَّةٌ ثابتةٌ إلى أن يرث اللهُ الأرضَ ومَن عليها، وأمّا القوانين الوضعية فهي قاصرةٌ لقصور البشر، ومتغيِّرةٌ متبدِّلةٌ، والفرقُ بين شريعة الإسلام والقوانين الوضعية كالفرق بين الخالق والمخلوق.

شَريعةُ الإسلام عَدلٌ وتأمُر بالعدل

شريعة الإسلام عدلٌ في نفسها وتأمر بالعدل، فأمَّا عدلُها فقد قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾، والمعنى أنَّها صدقٌ في الأخبار، وعدلٌ في الأوامر والنَّواهي، فأخبارُها كلُّها صادقة، وأحكامُها كلُّها عادلة، قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: «قال قتادة: صدقاً فيما قال، وعدلاً فيما حكم، يقول صدقاً في الأخبار، وعدلاً في الطلب، فكلُّ ما أخبر به فحقٌّ لا مرية فيه ولا شك، وكلُّ ما أمر به فهو العدل الذي لا عدل سواه، وكلُّ ما نهى عنه فباطل؛ فإنَّه لا

ينهى إلَّا عن مفسدة، كما قال تعالى: ﴿ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ إلى آخر الآية ».

وأمَّا أمرها بالعدل ونهيها عن الجور، فقد جاء في آيات كثيرة، منها قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾، قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: « يُخبر تعالى أنَّه يأمر عباده بالعدل وهو القسط والموازنة، ويندب إلى الإحسان، كقوله تعالى: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴾، وقوله: ﴿ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ ﴾، وقال: ﴿ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ ﴾ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على شريعة العدل والندب إلى الفضل »، وقال ابن العربي في أحكام القرآن عند هذه الآية: « فالعدل بين العبد وربِّه إيثار حق الله على حظِّ نفسه، وتقديم رضاه على هواه، والاجتناب للزواجر، والامتثال للأوامر، وأمَّا العدل بينه وبين نفسه فمنعها عما فيه هلاكها؛ كما قال تعالى: ﴿ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴾، وعزوب الأطماع عن الاتباع، ولزوم القناعة في كلِّ حال ومعنى، وأمَّا العدل بينه وبين الخلق فبذل النصيحة، وترك الخيانة فيما قلَّ وكثر، والإنصاف من نفسك لهم بكلِّ وجه، ولا يكون منك إلى أحد مساءة بقول ولا فعل، لا في سرٍّ ولا في علن، حتى بالهَمِّ والعزم، والصبر على ما يُصيبك منهم من البلوى، وأقلُّ ذلك الإنصاف من نفسك وترك الأذى »، وقد نقله عنه القرطبي في تفسيره، وقال: « قلت: هذا التفصيل في العدل حسن وعدل ».

وهذه الأقسام الثلاثة للعدل اشتمل عليها قوله ﷺ: « اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيِّئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخُلق حسن » رواه الترمذي

(١٩٨٧) عن أبي ذر ﵁، وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

ومنها قوله تعالى في سورة النساء: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾، وقوله في سورة المائدة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾، وقوله في سورة المائدة أيضاً: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ ﴾، فقد أمر الله في هذه الآيات عباده المؤمنين بالقسط، وهو العدل مع القريب والبعيد، والعدو والصديق، فلا يُحابى بالعدل قريب أو صديق لمحبَّته، ولا يُمنع العدل من بعيد أو عدوٍّ لبغضه، قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ ﴾: «أي لا يحملنَّكم بُغض قوم على ترك العدل؛ فإنَّ العدلَ واجبٌ على كلِّ أحد في كلِّ أحد في كلِّ حال، وقال بعض السلف: ما عاملتَ مَن عصى الله فيك بمثل أن تطيعَ الله فيه، والعدل به قامت السموات والأرض».

ومنها قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾، قال ابن كثير: «يأمر تعالى بالعدل في الفعال والمقال على القريب والبعيد، والله تعالى يأمر بالعدل لكلِّ أحد في كلِّ وقت وفي كلِّ حال».

ومنها قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ

﴿ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾، قال ابن كثير عند قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ﴾: « أي يأمركم به من أداء الأمانات والحكم بين الناس وغير ذلك من أوامره وشرائعه الكاملة العظيمة الشاملة ».

مدح أهل العدل وثوابهم، وذمُّ أهل الجور وعقابهم

وكما جاءت الشريعة بالأمر بالعدل والنهي عن الجور، فقد جاءت بمدح أهل العدل وبيان ثوابهم، وذمِّ أهل الجور وبيان عقابهم، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ ﴾، وقال: ﴿ وَمِمَّنۡ خَلَقۡنَآ أُمَّةٌ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ ﴾، وقال: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأۡتِ بِخَيۡرٍ هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾، وقال تعالى في فضل العادلين المقسطين: ﴿ وَأَقۡسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴾، وقال تعالى في عقوبة الجائرين القاسطين: ﴿ وَأَمَّا ٱلۡقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبٗا ﴾.

وروى البخاري (٦٦٠) ومسلم (١٠٣١) عن أبي هريرة ﷺ عن النَّبيِّ ﷺ قال: « سبعةٌ يظلُّهم الله في ظلِّه يوم لا ظلَّ إلَّا ظلُّه: الإمام العادل ... » الحديث، وفي صحيح مسلم (٢٨٦٥) عن عياض بن حمار ﷺ، عن النَّبيِّ ﷺ قال: « وأهل الجنَّة ثلاثة: ذو سلطان مقسط متصدِّق موفق، ورجل رحيم رقيق القلب لكلِّ ذي قربى ومسلم، وعفيف متعفِّف ذو عيال »، وروى مسلم في صحيحه (١٨٢٧) عن عبد الله بن عمرو ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « إنَّ المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن عزَّ وجلَّ، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما وَلوا »، وفي سنن

النسائي (٢٥٧٦) بإسناد صحيح من حديث أبي هريرة: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «أربعةٌ يُبغضهم الله عزَّ وجلَّ»، ومنهم: «الإمام الجائر».

شمولُ عدل الإسلام حقوق الإنسان

وشريعة الإسلام التي أنزلها الله الحكيم الخبير على رسوله الكريم محمد ﷺ شاملة مستوعبة الحقوق كلَّها، سواء كانت حقوقاً لله عزَّ وجلَّ، أو حقوقاً للنفس، أو حقوقاً للناس جميعاً، وقد مرَّ قريباً كلامُ الإمام ابن العربي الذي أوضح فيه عدلَ الشريعة واشتمالها على هذه الحقوق الثلاثة المطلوب من كلِّ مسلم أداؤها، وإنَّما كانت هذه الشريعة كاملة وافية بحقوق الله وحقوق النفس وحقوق الناس وغيرهم؛ لأنَّها مُنَزَّلةٌ من ربِّ الناس، فلم تَدَع صغيراً ولا كبيراً مما للعباد حاجة إليه إلَّا جاءت به واشتملت عليه، ولم يخرج النَّبيُّ ﷺ من هذه الحياة الدنيا إلَّا وقد دلَّ الأمَّة على كلِّ خير، وحذَّرها من كلِّ شرٍّ، قال الإمام ابن القيم في كتابه إعلام الموقعين (٤/ ٣٧٥ ـ ٣٧٦) في بيان كمال الشريعة، قال: «وهذا الأصل من أهمِّ الأصول وأنفعها، وهو مبنيٌّ على حرف واحد، وهو عمومُ رسالته ﷺ بالنسبة إلى كلِّ ما يحتاج إليه العبادُ في معارفهم وعلومهم وأعمالهم، وأنَّه لَم يُحْوِج أمَّتَه إلى أحد بعده، وإنَّما حاجتهم إلى مَن يبلِّغهم عنه ما جاء به، فلرسالته عمومان محفوظان لا يتطرَّق إليهما تخصيصٌ؛ عمومٌ بالنسبة إلى المرسَل إليهم، وعمومٌ بالنسبة إلى كلِّ ما يَحتاج إليه مَن بُعث إليه في أصول الدِّين وفروعه، فرسالتُه كافيةٌ شافيةٌ عامَّة، لا تحوج إلى سواها، ولا يتمُّ الإيمانُ به إلَّا بإثبات عمومِ رسالته في هذا وهذا، فلا يَخرج أحدٌ من المكلَّفين عن رسالته، ولا يخرج نوع من أنواع الحقِّ الذي تحتاج إليه الأمَّة في علومها وأعمالها عمَّا جاء به، وقد توفي رسول الله ﷺ وما طائرٌ يقلِّب جناحيه

في السَّماء إلَّا ذكَر للأمَّة منه علماً وعلَّمهم كلَّ شيء حتى آداب التخلِّي وآدابَ الجِماع والنوم، والقيام والقعود، والأكل والشرب، والركوب والنزول، والسَّفر والإقامة، والصَّمت والكلام، والعُزلة والخلطة، والغنى والفقر، والصحة والمرض، وجميع أحكام الحياة والموت، ووَصَفَ لهم العرشَ والكرسيَّ، والملائكة والجنَّ، والنار والجنة، ويوم القيامة وما فيه حتى كأنَّه رأيُ عَين، وعرَّفهم معبودَهم وإلَهَهم أتمَّ تعريف، حتى كأنَّهم يرونه ويشاهدونه بأوصاف كماله ونعوت جلاله، وعرَّفهم الأنبياء وأممَهم وما جرى لهم وما جرى عليهم معهم، حتى كأنَّهم كانوا بينهم، وعرَّفهم مِن طُرق الخير والشرِّ دقيقها وجليلها ما لَم يعرِّفه نبيٌّ لأمَّته قبله، وعرَّفهم ﷺ من أحوال الموت وما يكون بعده في البرزخ وما يحصل فيه من النَّعيم والعذاب للروح والبدن، ما لَم يعرِّف به نبيٌّ غيرَه، وكذلك عرَّفهم ﷺ من أدلَّة التوحيد والنبوة والمعاد، والردَّ على جميع فرق أهل الكفر والضلال، ما ليس لِمَن عرفه حاجة مِن بعده، اللهمَّ إلَّا إلى مَن يبلِّغه إياه ويبيِّنه ويوضح منه ما خفي عليه، وكذلك عرَّفهم ﷺ مِن مَكايد الحروب ولقاء العدوِّ وطرُق النَّصر والظَّفَر ما لو عَلِموه وعقِلُوه ورعَوْه حقَّ رعايَتِه لَم يقم لَهم عدوٌّ أبداً، وكذلك عرَّفهم ﷺ مِن مكايد إبليس وطرُقِه التي يأتيهم منها، وما يتحرَّزون به مِن كيده ومَكرِه، وما يدفعون به شرَّه ما لا مَزيد عليه، وكذلك عرَّفهم ﷺ مِن أحوال نفوسِهم وأوصافِها ودسائسِها وكمائِنها ما لا حاجة لهم مَعه إلى سِواه، وكذلك عرَّفهم ﷺ مِن أمور مَعايِشِهم ما لو عَلِموه وعمِلُوه لاستقامت لهم دنياهم أعظمَ استقامة.

وبالجملة فجاءهم بخير الدنيا والآخرة برُمَّته، ولَم يُحْوِجْهُم الله إلى أحد سواه، فكيف يُظَنُّ أنَّ شريعتَه الكاملةَ التي ما طرق العالَمَ شريعةٌ أكملَ منها ناقصةٌ، تحتاج إلى سياسة خارجة عنها تكمِّلها، أو إلى قياس أو حقيقة أو

معقول خارجٍ عنها، ومَن ظنَّ ذلك فهو كمَن ظنَّ أنَّ بالناس حاجةً إلى رسول آخَر بعده، وسبَبُ هذا كلِّه خفاءُ ما جاء به على مَن ظنَّ ذلك، وقلَّةُ نصيبه مِن الفَهم الذي وفَّق الله له أصحابَ نبيِّه الذين اكتفوا بما جاء به، واستغنوا به عمَّا سواه، وفتحوا به القلوبَ والبلادَ، وقالوا: هذا عهدُ نبيِّنا إلينا، وهو عهدُنا إليكم)).

ومما اشتملت عليه شريعة الإسلام التي مضى على مجيئها أكثر من أربعة عشر قرناً الإيضاح والبيان لحقوق الإنسان، وأنَّها داخلة في عدل هذه الشريعة، وفي الآيات الكريمات المذكورة قريباً التي أمر الله فيها عباده المؤمنين بالعدل، مع القريب والبعيد والعدوِّ والصديق، التنويه بتلك الحقوق على سبيل الإجمال، وأمَّا التفصيل فقد جاءت الشريعة ببيان حقِّ كلِّ ذي حقٍّ في الحياة وبعد الموت، وأمرت بتأدية تلك الحقوق على أكمل الوجوه وأتمِّها، فقد جاءت ببيان حقوق كلٍّ من الزوجين على الآخر، وحقوق الوالدين على الأولاد، وحقوق الأولاد على والديهم، وحقوق الأقارب على الأقارب، وحقوق الجار على جاره،والصديق على صديقه، والصاحب على صاحبه، وحقوق الفقراء على الأغنياء، وحقوق المسلمين على المسلمين عموماً، ومن الآيات الكريمة التي اشتملت على أمر المسلمين بأداء جملة من الحقوق إلى أهلها آية الحقوق العشرة، وهي قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾، وقوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ

إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾، وقوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا

لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنٗا فَلَا يُسۡرِف فِّي ٱلۡقَتۡلِۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورٗا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۚ وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ﴿٣٤﴾ وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلٗا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكۡرُوهٗا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومٗا مَّدۡحُورًا ﴾.

بل لقد جاءت الشريعة ببيان حقوق الكفار على المسلمين؛ من دعوتهم إلى الإسلام وهدايتهم إلى الصراط المستقيم وإخراجهم من الظلمات إلى النور، ومعاملتهم المعاملة الحسنة، ومن ذلك قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَأَخۡرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ أَن تَوَلَّوۡهُمۡۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾، وقوله ﷺ لعليٍّ رضي الله عنه يوم خيبر: «ثم ادعُهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حقِّ الله فيه؛ فوالله! لأَن يهديَ الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من أن يكون لك حُمر النَّعَم» رواه البخاري (٣٧٠١) ومسلم (٢٤٠٦) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

وكما جاءت الشريعة ببيان حقوق الإنسان والأمر بأدائها في الحياة، فقد جاءت ببيان قسمة المواريث بعد الموت في أول سورة النساء وآخرها، وقد قال ﷺ: «إنَّ الله أعطى كلَّ ذي حقٍّ حقَّه، فلا وصيَّة لوارث»، وهو حديث

صحيح جاء عن عدد من الصحابة ﭬ، انظر: إرواء الغليل (١٦٥٥).

ومع سبق الإسلام إلى بيان حقوق الإنسان وغيرها حتى حقوق الحيوان، فقد وُجد في هذا الزمان ممن لهم صولة وجولة من يتشدَّقون بتبَنِّي حقوق الإنسان والدِّفاع عنها، وكأنَّ ذلك من منجزات هذا العصر، وقد نصَّبوا أنفسَهم للدِّفاع عن هذه الحقوق ولكن على حسب أهوائهم، فيُهدرون ما يشاؤون إهداره من تلك الحقوق، ويُدافعون بزعمهم عمَّا يشاؤون الدفاع عنه منها، وهكذا يفعل القويُّ مع الضعيف، والمتسلِّطُ مع من يتسلَّط عليه، وما وضعوه من حقوق للإنسان فهو ناقص لنقصهم، وما جاءت به الشريعة من حقوق الإنسان فهو كامل وافٍ لكمال الشريعة ووفائها بكلِّ ما يحتاجه الناس؛ لأنَّها تنزيل من الحكيم العليم.

الشورى في الإسلام

الشورى ثابتة في كتاب الله وسنَّة الرسول ﷺ وعمل السلف الصالح من الصحابة ﭬ ومن بعدهم، فأمَّا الكتاب العزيز، فقد قال الله عزَّ وجلَّفي سورة آل عمران لنبيِّه ﷺ: ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ﴾، وأخبر عن المؤمنين بأنَّهم يتشاورون، فقال: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾، وقد سُمِّيت السورة التي اشتملت على هذه الآية: سورة الشورى، وقد ذكر ابن كثير ؒ في تفسيره لقوله: ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ﴾ أنَّ الفقهاء اختلفوا في مشاورة الرسول ﷺ أصحابه، هل هي على الوجوب أو الاستحباب تطييباً لخاطر أصحابه دون ترجيح أي القولين، ورجَّح الحافظ ابن حجر في الفتح (١٣/ ٣٤١) القول بالاستحباب، وكان رسول الله ﷺ يستشيرُ أصحابه في بعض أموره مما لم ينزل عليه فيه وحي، وذلك كثير في أمور الحرب، قال البخاري في صحيحه

(١٣/ ٣٣٩ ـ مع الفتح): «باب قول الله تعالى: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ﴾، وأنَّ المشورةَ قبل العزم والتبين؛ لقول الله تعالى: ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾، فإذا عزم الرسول ﷺ لم يكن لبشر التقدُّم على الله ورسوله، وشاور النَّبيُّ ﷺ أصحابَه يوم أُحد في المقام والخروج، فرأوا له الخروج، فلمَّا لبس لَأْمَتَه وعزم قالوا: أقِم، فلم يَمِل إليهم بعد العزم، وقال: (لا ينبغي لنبيٍّ يلبس لَأْمَتَه فيضعها حتى يحكم الله)، وشاور عليًّا وأسامة فيما رمى به أهل الإفك عائشة» إلى أن قال: «وكانت الأئمَّة بعد النَّبيِّ ﷺ يستشيرون الأمناء من أهل العلم في الأمور المباحة ليأخذوا بأسهلها، فإذا وضح الكتاب أو السنة لم يتعدَّوه إلى غيره اقتداءً بالنَّبيِّ ﷺ، ورأى أبو بكر قتالَ مَن منع الزكاة، فقال عمر: كيف تُقاتل وقد قال رسول الله ﷺ: (أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلَّا الله، فإذا قالوا لا إله إلَّا الله عصموا منِّي دماءهم وأموالهم إلَّا بحقِّها)؟ فقال أبو بكر: والله! لأقاتلنَّ مَن فرَّق بين ما جمع رسول الله ﷺ، ثم تابعه بعدُ عمر، فلم يلتفت أبو بكر إلى مشورةٍ؛ إذ كان عنده حكم رسول الله ﷺ في الذين فرَّقوا بين الصلاة والزكاة، وأرادوا تبديل الدِّين وأحكامه، وقال النَّبيُّ ﷺ: (مَن بدَّل دينَه فاقتلوه)، وكان القُرَّاء أصحاب مشورة عمر كهولاً كانوا أو شُبَّاناً، وكان وقَّافاً عند كتاب الله عزَّ وجلَّ».

وهذا الباب عند الإمام البخاري هو آخر باب من كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة من صحيحه، وهذا الذي ذكره البخاري من كون القرَّاء أصحاب مشورة عمر هو من كلام ابن عباس فيما أسنده البخاري عنه (٧٢٨٦)، وقد قال الحافظ في شرح هذا الباب (١٣/ ٣٤٢): «وقد ورد من استشارة الأئمَّة بعد النَّبيِّ ﷺ أخبار كثيرة، منها مشاورة أبي بكر رضي الله عنه في قتال أهل الرِّدَّة، وقد

أشار إليها المصنف، وأخرج البيهقي بسند صحيح عن ميمون بن مهران قال: (كان أبو بكر الصديق إذا ورد عليه أمر نظر في كتاب الله، فإن وجد فيه ما يقضي به قضى به، وإن علمه من سنة رسول الله ﷺ قضى بينهم، وإن لم يعلم خرج فسأل المسلمين عن السنَّة، فإن أعياه ذلك دعا رؤوس المسلمين وعلماءهم واستشارهم، وأنَّ عمر بن الخطاب كان يفعل ذلك) ... ».

وبهذا يتبيَّن أنَّ المشاورة إنَّما تكون فيما لا نصَّ فيه، وأمَّا ما جاء به النصُّ من الكتاب والسنَّة فلا يجوز العدولُ عنه، كما قال الإمام الشافعي رحمه الله: « أجمع الناس على أنَّ من استبانت له سنَّة رسول الله ﷺ لم يكن له ليَدَعها لقول أحد » عزاه إليه ابن القيم في كتاب الروح (ص ٣٩٥ ـ ٣٩٦).

وقال أيضاً: « إنَّما يؤمَر الحاكم بالمشورة لكون المشير ينبِّهه على ما يغفل عنه، ويدلُّه على ما لا يستحضره من الدليل، لا ليقلد المشيرَ فيما يقوله؛ فإن الله لم يجعل هذا لأحد بعد رسول الله ﷺ » عزاه إليه ابن حجر في الفتح (١٣/ ٣٤٢).

وقال ابن المنذر: « وإذا ثبت الشيء عن رسول الله ﷺ استُغني به عمَّا سواه » عزاه إليه القرطبي في التفسير (٣/ ٩٦).

ومما جاءت به السنَّة في ذلك ـ غير ما أشار إليه البخاري في كلامه المتقدِّم ـ مشاورة النَّبيِّ ﷺ أصحابه في العير التي جاء بها أبو سفيان أخرجه مسلم (١٧٧٩)، ومشاورته ﷺ في أُسارى بدر رواه مسلم (١٧٦٣).

ويتبيَّن مما تقدَّم ما يلي:

١ ـ أنَّ الشورى ثابتة في الكتاب والسنة وعمل الصحابة ومن تبعهم بإحسان، ومن سُوَر القرآن سورة الشورى.

٢ ـ أنَّ المشاورة لا تكون إلَّا فيما لا نصَّ فيه من الكتاب والسنة، وأنَّ ما ورد به النَّصُّ لا يجوز العدول عنه، كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا** ﴾.

٣ ـ أنَّ الإمام يختار أهل مشورته من رؤساء الناس وعلمائهم.

٤ ـ أنَّ مشورة المستشار ليست ملزِمَةٌ للمستشير.

وهذه هي الأسُس التي بُنيت عليها الشورى في الإسلام، وأمَّا الديمقراطية التي استوردها كثير من المسلمين من غيرهم ممن لا يدينُ بدين الإسلام فهي بخلاف ذلك؛ فعندهم المجالس النيابيَّة التي يختارها الشعب للنيابة عنه، ومن حقِّها التشريع الذي لا ينبني على دين، وتشريعات تلك المجالس ملزمة.

طرق ثبوت الخلافة في الإسلام

اختيار الخليفة في الإسلام له طريقان؛ إحداهما: اتفاق أهل الحلِّ والعقد على اختيار الخليفة، والثانية: عهد الخليفة إلى آخر يلي الأمرَ من بعده، وقد تمَّت بهما خلافة أفضل الخلفاء على الإطلاق؛ وهما أبو بكر وعمر رضي الله عنهما.

ففي الطريقة الأولى تمَّ اتفاق كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم على بيعة أبي بكر رضي الله عنه وهم أهل الحلِّ والعقد، وذلك في سقيفة بني ساعدة، وتبع ذلك المبايعة في المسجد، وتحقق باختياره وبيعته رضي الله عنه ما أخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله: « يأبى الله والمؤمنون إلَّا أبا بكر » أخرجه البخاري (٥٦٦٦) ومسلم (٢٣٧٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

وكان ﷺ أراد أن يكتب كتاباً بتعيين خليفة من بعده، ثم ترك الكتابة؛ لِـمَا أطلعه الله عليه من أنَّ المؤمنين ستجتمعُ كلمتُهم وتلتقي أفئدتُهم على أبي بكر رضي الله عنه، وقد أبى الله إلَّا أبا بكر، وأبى المؤمنون إلَّا أبا بكر.

وفي الطريقة الثانية حصل العهد من أبي بكر رضي الله عنه إلى عمر رضي الله عنه لولاية الأمر من بعده.

وبهاتين الطريقتين تمَّت تولية أفضل خليفتين في الإسلام، وبالطريقة التي تمَّت بها بيعة أبي بكر رضي الله عنه تمَّت بيعة علي رضي الله عنه، وأمَّا عثمان رضي الله عنه فتمَّ اختياره من بين ستة جعل عمر رضي الله عنه الأمر إليهم يختارون من بينهم خليفة، فتمَّ اختيار عثمان رضي الله عنه، وقد جاء عن الرسول ﷺ بيان فضل خلافتهم رضي الله عنهم بقوله في حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه: « فعليكم بسنَّتي وسنَّة الخلفاء المهديِّين الراشدين، تمسَّكوا بها وعضُّوا عليها بالنواجذ، وإيَّاكم ومحدثات الأمور؛ فإنَّ كلَّ مُحدَثة بدعة، وكلَّ بدعة ضلالة » رواه أبو داود (٤٦٠٧) والترمذي (٢٦٧٦)، وقال: « حديث حسن صحيح »، وقوله ﷺ في حديث سفينة رضي الله عنه: « خلافةُ النبُوَّة ثلاثون سنة، ثم يؤتي اللهُ الملكَ أو ملكَه من يشاء » رواه أبو داود (٤٦٤٦) وغيره، وهو حديث صحيح، أورده الألباني في السلسلة الصحيحة (٤٦٠) ونقل تصحيحه عن تسعة من العلماء، وأوَّل ملوك المسلمين معاوية رضي الله عنه. وهو خيرُ ملوك المسلمين.

وأمَّا الخلفاء بعدهم، فكان الخليفة يعهد إلى خليفة من بعده، وقد قال النَّبيُّ ﷺ في خلافة الخلفاء الراشدين وخلافة ثمانية من بني أمية قال: « لا يزال هذا الدِّين عزيزاً منيعاً إلى اثني عشر خليفة » أخرجه مسلم (١٨٢١).

وفي خلافة هؤلاء الخلفاء فُتحت الفتوحات واتَّسعت رقعة البلاد الإسلامية إلى بلاد الهند والسند والصين شرقاً والمحيط الأطلسي غرباً.

وإذا تغلَّب مسلمٌ على الولاية واستقرَّ له الأمر واستتبَّ الأمن، فإنَّه يُسمع له ويُطاع، ويُعتبر وليَّ أمر للمسلمين، كالذي حصل لأول خلفاء بني العباس الذي تغلَّب على خلافة بني أميَّة، قال الإمام أحمد في اعتقاده كما في السنة للالكائي (١/ ١٦١): « ومَن خَرجَ على إمام المسلمين وقد كان الناس اجتمعوا عليه وأقرُّوا له بالخلافة بأيِّ وجه كان: بالرِّضا أو بالغلبة، فقد شقَّ هذا الخارجُ عصا المسلمين وخالف الآثار عن رسول الله ﷺ، فإن مات الخارج عليه مات ميتة جاهليَّة، ولا يحلُّ قتال السلطان ولا الخروج عليه لأحد من الناس، فمَن فعل ذلك فهو مبتدعٌ على غير السنَّة والطريق »، وقال الحافظ في الفتح (١٣/ ٧) في شرح حديث: « من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر عليه؛ فإنَّه من فارق الجماعة شبراً فمات، إلَّا مات ميتة جاهلية »، قال: « قال ابن بطَّال: في الحديث حجَّة في ترك الخروج على السلطان ولو جار، وقد أجمع الفقهاء على وجوب طاعة السلطان المتغلِّب والجهاد معه، وأنَّ طاعتَه خيرٌ من الخروج عليه؛ لما في ذلك من حقن الدِّماء وتسكين الدَّهماء، وحجَّتهم هذا الخبر وغيره مما يساعده، ولم يستثنوا من ذلك إلَّا إذا وقع من السلطان الكفر الصريح، فلا تجوز طاعتُه في ذلك، بل تجب مجاهدته لمن قدر عليها، كما في الحديث الذي بعده »، يشير بذلك إلى حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه: « بايعنا على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وعُسرنا ويُسرنا وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله، إلَّا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان ».

الوصول إلى السلطة في الديمقراطية المزعومة

الوصول إلى السلطة في الديمقراطية المزعومة ينبني على التحزب، فيترشَّح من كلِّ حزب واحد منهم، ثم يكون التصويت من كلِّ من أراد من الشعب لمن شاء من المترشِّحين، وعند تمييز الأصوات يُقدَّم من كثرت أصوات منتخبيه، وهذه الطريقة التي استوردها بعض المسلمين من أعدائهم مخالفة للإسلام من وجوه:

الأول: بناؤها على التحزُّب:

الإسلام جاء بالحثِّ على الاجتماع وذمِّ التفرُّق والاختلاف، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ﴾، وقال: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾، وقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾، وقال: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾، وقال: ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾، وقال: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾، وقال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله يرضى لكم ثلاثاً ويكره لكم ثلاثاً؛ فيرضى لكم أن تعبدوه ولا

تشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرَّقوا، ويكره لكم قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال » أخرجه مسلم (١٧١٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وبهذا يتبيَّن أنَّ الديمقراطية المزعومة مخالفةٌ للإسلام؛ لأنَّها مبنيَّةٌ على التحزُّب والتفرُّق والاختلاف.

الثاني: التشريع فيها لفئة معيَّنة:

التشريع في الإسلام للخالق جلَّ جلاله، والرسول ﷺ مبلِّغٌ عنه شرعه، كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًا مُّبِينًا ﴾، وقال: ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾، وقال: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾، وقال: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَـٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٨ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾، وقال: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ ﴾.

وأمَّا قيام المسلمين بوضع تنظيم لبعض شؤونهم لا يُخالف كتاباً ولا سنَّة فلا بأس به.

أمَّا الديمقراطية المزعومة، فإنَّ التشريع فيها لفئة معيَّنة من المخلوقين، يختارهم الشعب في مجالس نيابيَّة يُعتبرون نُواباً له، فيَضعون ما يشاؤون من تشريعات غير مستندة إلى دين، ولا دين معتبر بعد بعثة نبيِّنا محمد ﷺ إلَّا دين

الإسلام، كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾، وقال ﷺ: « والذي نفسي بيده! لا يسمع بي أحد من هذه الأمَّة؛ يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أُرسلتُ به إلَّا كان من أصحاب النار » رواه مسلم (١٥٣)، وقد تقدَّم.

الثالث: الوصول إلى السلطة فيها بكثرة الناخبين كيف كانوا:

اختيار الخليفة في الإسلام يكون باتفاق أهل الحلِّ والعقد على اختيار الخليفة، وبعهد الخليفة إلى آخر يلي الأمر من بعده، وقد تقدّم بيان ذلك.

فاختيار الخليفة في الإسلام ليس لكلِّ أحد، بل لأهل العلم والرأي الذين هم أهل الحلِّ والعقد، وغيرُهم يكون تبعاً لهم، أمَّا الديمقراطية المزعومة فالوصول إلى السلطة فيها يكون بكثرة الناخبين لواحد من الأشخاص المترشِّحين للسلطة، لا فرق في ذلك بين أهل الرأي وغيرهم، فإذا كانت كثرة الناخبين من السَّفلة يكون الذي ينتخبونه من جنسِهم، والطيور تقع على أشكالها، فالصقور مع الصقور، والرخم مع الرخم، والبوم مع البوم، وهكذا.

الرابع: الحرص الشديد فيها على السلطة وبذل المستطاع للوصول إليها:

الأصل في الوصول إلى الخلافة والولايات دونها في الإسلام أن يكون الباعث عليه نصرة الدِّين وإقامة شرع الله، ولخوف التقصير في ذلك جاءت الشريعة بالنهي عن طلب الإمارة وبإسناد الولايات الخاصَّة لمن لا يطلبها ومنعها من يحرص عليها، فعن عبد الرحمن بن سمُرة رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: « يا عبد الرحمن! لا تسأل الإمارة؛ فإنَّك إن أُعطيتها عن مسألة وُكِلْتَ إليها، وإن أُعطيتها عن غير مسألة أُعنْتَ عليها » رواه البخاري (٦٦٢٢) ومسلم (١٦٥٢)، وفي صحيح البخاري (٧١٤٩) ومسلم (١٧٣٣) عن أبي موسى

الأشعري رضي الله عنه قال: « دخلت على النَّبيِّ ﷺ أنا ورجلان من بني عمِّي، فقال أحدُ الرجلين: يا رسول الله! أمِّرنا على بعض ما ولاك الله عزَّ وجلَّ، وقال الآخر مثل ذلك، فقال: إنَّا ـ والله! ـ لا نولِّي على هذا العمل أحداً سأله، ولا أحداً حرص عليه »، ففي هذا الحديث أنَّ النَّبيَّ ﷺ لم يُولِّ الرجلين اللذين طلبا الإمارة، وفي بعض طرقه في الصحيحين أنَّه ﷺ ولَّى على اليمن أبا موسى الأشعري الذي لم يطلب العمل.

وأمَّا الديمقراطية المزعومة فهي مبنيَّة على التحزُّب والتنافس في الوصول إلى السلطة، في الولايات العامَّة والخاصة، بل إنَّ المتنافسين للولايات العامة والخاصَّة يبذلون كلَّ ما يستطيعون من بذل الأموال لجلب التأييد لهم للوصول إلى السلطة، فيربح من يربح ويخسر من يخسر، وهو أشبه شيء بالقمار، وأيضاً يُطلقون الوعود المغرية للناخبين بعد وصولهم إليها.

الخامس: بناؤها على الحريَّة المطلقة في الرأي ولو كانت إلحاداً أو انحلالاً:

الحريَّة في الإسلام مقيَّدةٌ بموافقتها للدِّين الحنيف والسلامة من مخالفته، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ ﴾، وقال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ ﴾، وقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ﴾، وقال: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا ﴾، وقال: ﴿ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴾.

وأمَّا الديمقراطية المستوردة فالحريَّة فيها مطلقة لا يقيِّدها خُلق ولا دين، بل لكلِّ واحد فيها أن يعتقد ما يعتقد ويقول ما يقول وإن كان إلحاداً، وله أن

يفعل ما يفعل وإن كان انحلالاً وانحداراً وانغماساً في مستنقعات الرذائل، فالقلوب فيها تجمَع بين أمراض الشُّبهات وأمراض الشهوات.

السادس: المساواة المطلقة فيها بين الرجال والنساء:

شريعة الإسلام الكاملة جاءت بالتسوية بين الرجال والنساء في أكثر الأحكام، وجاءت بالتمييز بين الجنسين في بعض الأحكام، مثل الميراث والعتق والشهادة والدية والعقيقة ووجوب الجمعة والجماعة على الرجال دون النساء، وجواز لبس الحرير والذهب للنساء دون الرجال وغير ذلك.

وأمَّا الديمقراطية المزعومة ففيها التسوية بين الرجال والنساء، دون مراعاة لفطرة أو خُلُق أو دين.

السابع: تحرُّر المرأة فيها من أسباب الفضيلة وانغماسها في الرذيلة:

حريَّة الرجال والنساء في الإسلام مقيَّدة باتباع الشرع الحنيف، فيصدر كل من الرجال والنساء في العقائد والأقوال والأفعال عمَّا جاء في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وما كان عليه سلفُ هذه الأمَّة من الصحابة ومن تبعهم بإحسان، فتكون معتقداتهم مطابقة لما جاء في الكتاب والسنة، لا تخالفهما في أي شيء، وتكون أقوالهم وأفعالهم مبنيَّة عليهما، فيأتون بما هو مأمور به فيهما من الأقوال والأفعال، وينتهون عن كلِّ ما نُهي عنه فيهما من أقوال وأفعال، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ **ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ** ﴾، وقال: ﴿ **وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ** ﴾.

والمرأة في الإسلام تنطلق في تصرفاتها وأفعالها وأقوالها مما جاء به دينها، ولا تنحرف عنه يمنة ولا يسرة، كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ **وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى**

مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾، وقال: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴾.

والإسلام قد كرَّم المرأة وحفظ لها حقوقها، وأرشدها إلى الأخذ بما فيه سعادتها في دنياها وأخراها، فأمرها بالاحتجاب عن الرجال الأجانب والبعد من مخالطتهم، وألاَّ تسافر إلَّا مع ذي محرم لها، وألاَّ يخلو رجل بها إلَّا مع ذي محرم، قال الله عزَّ وجلَّفي احتجاب النساء: ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾، ففي هذه الآية الكريمة إيجاب الحجاب على أمَّهات المؤمنين، وألاَّ يسألهنَّ أحد إلَّا من وراء حجاب، وقد أجمع العلماء على وجوب تغطيتهنَّ وجوههنَّ عن الرجال الأجانب، والتعليل الذي عُلِّل به الحكم، وهو قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾ يدل على أنَّ لزوم تغطية الوجه لا يختصُّ بهنَّ، بل يكون لغيرهنَّ؛ لأنَّ تعليل الأمر بطهارة القلوب مع ما أكرمهنَّ الله به من ملازمة الرسول ﷺ وما حباهنَّ به من العفَّة والطُّهر يدلُّ على أنَّ غيرهنَّ ممن لم يحصل لهنَّ هذا الشرف يكون أشد حاجة إلى ذلك.

وقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ﴾، ففي هذه الآية الكريمة دلالة على أنَّ حكم الحجاب لا يختصُّ بأمَّهات المؤمنين؛ لأنَّه عُطف عليهنَّ في الآية بناته ﷺ ونساء المؤمنين، وهو دالٌّ على أنَّ حكم الحجاب للجميع، ومن أوضح ما يُستدلُّ به من السنة على وجوب تغطية النساء وجوههنَّ حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن جرَّ ثوبه خُيلاء لم ينظر الله إليه يوم

القيامة، فقالت أمُّ سلمة: فكيف يصنعن النساء بذيولهنَّ؟ قال: يُرخين شبراً، فقالت: إذاً تنكشف أقدامهنَّ! قال: فيُرخينه ذراعاً لا يزدن عليه » رواه أهل السنن وغيرهم، وقال الترمذي (١٧٣١): « هذا حديث حسن صحيح »، فإنَّ مجيء الشريعة بتغطية النساء أقدامهنَّ يدلُّ دلالة واضحة على أنَّ تغطية الوجه واجب؛ لأنَّه موضع الفتنة والجمال من المرأة، وتغطيته أولى من تغطية الرِّجلين.

وأمَّا اختلاط النساء بالرجال فقد قال الله عزَّ وجلَّعن نبيِّه موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿ **وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا** ﴾، ففي هذه القصة الدلالة على أنَّ ترك اختلاط النساء بالرجال كان في الأُمم السابقة؛ فإنَّ هاتين المرأتين احتاجتا إلى سقي غنمهما وانتظرتا حتى ينتهي الرجال من سقي أغنامهم، واعتذرتا لموسى عليه الصلاة والسلام لما سألهما بأنَّ أباهما شيخ كبير لا يتمكَّن من الحضور لسقي الغنم مع الرجال، فسقى لهما موسى عليه الصلاة والسلام.

وفي صحيح البخاري (٨٧٠) عن أمِّ سلمة رضي الله عنها قالت: « كان رسول الله ﷺ إذا سلَّم قام النساء حين يقضي تسليمه، ويَمكث هو في مقامه يسيراً قبل أن يقوم، قال: نرى ـ والله أعلم ـ أنَّ ذلك كان لكي ينصرف النساء قبل أن يُدركهنَّ أحدٌ من الرجال »، ورواه النسائي (١٣٣٣)، ولفظه: « أنَّ النساء في عهد رسول الله ﷺ كنَّ إذا سلَّمن من الصلاة قُمنَ، وثبت رسول الله ﷺ ومن صلَّى من الرجال ما شاء الله، فإذا قام رسول الله ﷺ قام الرجال ».

قال ابن القيم في الطرق الحكمية (ص ٢٨٠): « ومن ذلك أنَّ وليَّ الأمر يجب عليه أن يمنع من اختلاط الرجال بالنساء في الأسواق والفُرَج ومجامع الرجال »، وقال (ص ٢٨١): « ولا ريب أنَّ تمكين النساء من اختلاطهنَّ بالرجال أصلُ كلِّ بليَّة وشرٍّ، وهو من أعظم أسباب نزول العقوبات العامة، كما أنَّه من أسباب فساد أمور العامة والخاصة، واختلاط الرجال بالنساء سبب لكثرة الفواحش والزنا، وهو من أسباب الموت العام والطواعين المتصلة ».

وأمَّا منع المرأة من السفر إلَّا مع ذي محرم ومن خلوة الرجل الأجنبي بها إلَّا مع ذي محرم، فيدلُّ عليه قوله ﷺ: « لا تسافر المرأة إلَّا مع ذي محرم، ولا يدخل عليها رجلٌ إلَّا ومعها محرم، فقال رجلٌ: يا رسول الله! إنِّي أريد أن أخرجَ في جيش كذا وكذا، وامرأتي تريد الحجَّ؟ فقال: اخرج معها » أخرجه البخاري (١٨٦٢) ومسلم (٣٢٧٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما، فقد أرشد النَّبيُّ ﷺ السائلَ في هذا الحديث إلى ترك الجهاد ليسافر مع امرأته للحج، وقال ﷺ: « إيَّاكم والدخول على النساء، فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله! أفرأيتَ الحمو؟ قال: الحمو الموت » رواه البخاري (٥٢٣٢) ومسلم (٢١٧٢) عن عقبة بن عامر رضي الله عنه، والحمو المحرَّم دخوله على المرأة كلُّ قريب للزوج سوى آبائه وأبنائه.

وهذه الأدلة الدَّالة على وجوب تغطية المرأة وجهها عن الرجال الأجانب والابتعاد عن مخالطتهم ومنعها من السفر إلَّا مع ذي محرم ومن خلوة الرجل الأجنبي بها إلَّا مع ذي محرم، من أمثلة عدل الإسلام في تشريعه للمرأة ما يكفل صيانتها وحِشمتها وظفرها بكسب الفضائل وحمايتها من الوقوع في الرذائل، وهذا بخلاف الديمقراطية المستوردة التي تعطي المرأة الحريَّة المطلقة، فتذهب كيف شاءت، وتختلط بمن شاءت، وتتصرَّف كيف شاءت دون

حفيظ لها أو رقيب عليها، ومن يحاول الحيلولة بينها وبين هذا الانفلات فإنَّ حُماة الديمقراطية المزعومة له بالمرصاد؛ لأنَّ في عدم تمكينها من انفلاتها كبتاً للحريَّات واعتداء على حقوق الإنسان بزعمهم.

من كلمات عُقلاء الغربيِّين وعاقلاتهم في التألُّم من انفلات نسائهم

ومع تبنِّي الديمقراطية المزعومة تحرر المرأة وانفلاتها، فقد وُجد في عقلاء وعاقلات الغرب في أوربا وأمريكا من يَبكي حزناً ويتقطَّع قلبه ألَمَاً على الانحطاط والانحدار الذي حصل للمرأة في بلادهم؛ بسبب هجرها للمنزل واختلاطها بالرجال ومشاركتهم في الميادين المختلفة، مع إشادتهم بما اشتمل عليه الإسلام من عدل في تشريعاته التي تسمو بالمرأة إلى كلِّ فضيلة، وتحميها من الوقوع في كلِّ رذيلة، وهذه أمثلة من كلمات بعضهم:

١ ـ قال الشيخ محمد رشيد رضا في كتابه: نداء للجنس اللطيف في حقوق النساء في الإسلام وحظهنَّ من الإصلاح المحمدي العام (ص ٦١): «ونشرت الكاتبة الشهيرة مس أنرود مقالةً مفيدة في جريدة الاسترن ميل في العدد الصادر منها في ١٠ مايو (أيار) سنة ١٩٠١، نقتطف منها ما يأتي: (لأن يشتغل بناتنا في البيوت خوادم أو كالخوادم خير وأخف بلاء من اشتغالهنَّ في المعامل حيث تصبح البنت ملوَّثة بأدران تذهب برونق حياتها إلى الأبد، ألا ليت بلادنا كبلاد المسلمين! فيها الحشمة والعفاف والطهارة رداء الخادمة والرقيق: يتنعَّمان بأرغد عيش، ويُعاملان كما يُعامل أولاد البيت، ولا تمس الأعراض بسوء، نعم! إنَّه لعار على بلاد الإنكليز أن تجعل بناتها مثلاً للرذائل بكثرة مخالطة الرجال، فما بالنا لا نسعى وراء ما يجعل البنت تعمل على ما يوافق فطرتها الطبيعية، من القيام في البيت وترك أعمال الرجال للرجال؛ سلامة لشرفها؟!)».

٢ ـ وقال أيضاً (ص ٦٢): « وقالت الكاتبة الشهيرة اللادي كوك بجريدة ألايكو ما ترجمته، وهو يؤيد ما تقدَّم: إنَّ الاختلاط يألفه الرجال، ولهذا طمعت المرأة بما يخالف فطرتها، وعلى قدر كثرة الاختلاط تكون كثرة أولاد الزنا، وهنا البلاء العظيم على المرأة، فالرجل الذي علقت منه يتركها وشأنها تتقلَّب على مضجع الفاقة والعناء، وتذوق مرارة الذلِّ والمهانة والاضطهاد، بل الموت أيضاً ...

أمَا آن لنا أن نبحث عمَّا يُخفِّف ـ إذا لم نقل: عما يزيل ـ هذه المصائب العائدة بالعار على المدنية الغربية؟! أما آن لنا أن نتَّخذ طرقاً تمنع قتل ألوف الآلاف من الأطفال الذين لا ذنب لهم، بل الذنب على الرجل الذي أغرى المرأة المجبولة على رقة القلب المقتضي تصديق ما يوسوس به الرجل من الوعود ويُمنِّي به من الأماني، حتى إذا قضى منها وطراً تركها وشأنها تقاسي العذاب الأليم؟!

يا أيُّها الوالدان! لا يغرنَّكما بعض دريهمات تكسبها بناتكما باشتغالهنَّ في المعامل ونحوها ومصيرهنَّ إلى ما ذكرنا، علِّموهنَّ الابتعاد عن الرجال، أخبروهنَّ بعاقبة الكيد الكامن لهنَّ بالمرصاد، لقد دلَّنا الإحصاء على أنَّ البلاء الناتج من حمل الزنا يعظم ويتفاقم حيث يكثر اختلاط النساء بالرجال، ألم تروا أنَّ أكثر أمَّهات أولاد الزنا من المشتغلات في المعامل والخادمات في البيوت، وكثير من السيِّدات المعرَّضات للأخطار، ولولا الأطباء الذين يُعطون الأدوية للإسقاط لرأينا أضعاف ما نرى الآن، لقد أدَّت بنا هذه الحال إلى حدٍّ من الدناءة لم يكن تصورها في الإمكان ...!! ».

٣ ـ وقال أيضاً (ص ٦٠ ـ ٦١): « جاء في جريدة (لاغوص ويكلي ركورد) في العدد الصادر في ٢٠ أبريل (نيسان) سنة ١٩٠١ نقلاً عن جريدة

(لندن ثروت) بقلم كاتبة فاضلة ما ترجمته ملخَّصاً: (لقد كثرت الشاردات من بناتنا وعمَّ البلاءُ، وقلَّ الباحثون عن أسباب ذلك، وإذ كنت امرأة أراني أنظر إلى هاتيك البنات وقلبي يتقطَّع شفقة عليهنَّ وحزناً، وماذا عسى يفيدهنَّ بثِّي وحزني وتوجُّعي وتفجُّعي وإن شاركني فيه الناس جميعاً؟! لا فائدة إلَّا في العمل بما يمنع هذه الحالة الرجس، ولله درُّ العالم الفاضل (تومس)! فإنَّه رأى الداء ووصف له الدواء الكافل الشفاء، وهو أن يُباح للرجل التزوج بأكثر من واحدة، وبهذه الواسطة يزول البلاء لا محالة، وتُصبح بناتنا ربَّات بيوت، فالبلاء كلُّ البلاء في إجبار الرجل الأوربي على الاكتفاء بامرأة واحدة، فهذا التحديد هو الذي جعل بناتنا شوارد، وقذف بهنَّ إلى التماس أعمال الرجال، ولا بدَّ من تفاقم الشرِّ إذا لم يُبَح للرجل التزوج بأكثر من واحدة.

أيُّ ظنٍّ وخرص يحيط بعدد الرجال المتزوِّجين الذين لهم أولاد غير شرعيين أصبحوا كَلاًّ وعالة وعاراً على المجتمع الإنساني؟ فلو كان تعدد الزوجات مباحاً لما حاق بأولئك الأولاد وبأمَّهاتهم ما هم فيه من العذاب المهين، ولسَلِم عرضهنَّ وعرض أولادهنَّ؛ فإنَّ مزاحمة المرأة للرجل ستُحلُّ بنا الدمار! ألم تروا أنَّ حال خلقتِها تنادي بأنَّ عليها ما ليس على الرجل، وعليه ما ليس عليها؟ وبإباحة تعدد الزوجات تصبح كلُّ امرأة ربَّةَ بيت وأمَّ أولاد شرعيِّين) ».

ونقل (ص ٦٦) عن الدكتور غوستاف لوبون الفرنسي كلاماً له يشيد فيه بتعدُّد الزوجات في الإسلام، ومنه قوله في كتابه روح السياسة: « إنَّ تعدُّد الزوجات الشرعي عند الشرقيين خير من تعدُّد الزوجات الخبيث المؤدِّي إلى زيادة اللقطاء في أوربا ».

٤ ـ وقال الإنكليزي ساموِيل سمايلس: « إنَّ النظام الذي يقضي بتشغيل المرأة في الفابريكا (المعامل)، مهما نشأ عنه من الثروة للبلاد، فإنَّ نتيجته كانت هادمة لبناء الحياة المنزلية؛ لأنَّه هاجم هيكل المنزل وقوَّض أركان الأسرة ومزَّق الروابط الاجتماعية، فإنَّه بسلبه الزوجة من زوجها والأولاد من أقاربهم صار بنوع خاص لا نتيجة له إلَّا تسفيل أخلاق المرأة؛ إذ وظيفة المرأة الحقيقية هي القيام بالواجبات المنزلية، مثل ترتيب مسكنها وتربية أولادها والاقتصاد في وسائل معيشتها، مع القيام بالاحتياجات البيتية، ولكن المعامل تسلخها من كل هذه الواجبات، بحيث أصبحت المنازل غير منازل، وأضحت الأولاد تشبُّ على عدم التربية، وتُلقَى في زوايا الإهمال وطفئت المحبّةُ الزوجية، وخرجت المرأة عن كونها الزوجة الظريفة والقرينة المحبة للرجل، وصارت زميلته في العمل والمشاق وباتت معرَّضة للتأثيرات التي تمحو غالباً التواضع الفكري والأخلاقي الذي عليه مدار حفظ الفضيلة » من دائرة معارف القرن العشرين لفريد وجدي (٨/ ٦٣٩).

٥ ـ وقالت الأمريكية إيدالين: « إنَّ التجارب أثبتت ضرورة لزوم الأم لبيتها، وإشرافها على تربية أولادها؛ فإنَّ الفارق الكبير بين المستوى الخلقي لهذا الجيل والمستوى الخلقي للجيل الماضي إنَّما مرجعه إلى أنَّ الأمَّ هجرت بيتها وأهملت طفلها وتركته إلى من لا يحسن تربيته ... وإنَّ سبب الأزمات العائلية في أمريكا وسرَّ كثرة الجرائم في المجتمع هو أنَّ الزوجة تركت بيتها لتضاعف دَخْل الأسرة، فزاد الدخل وانخفض مستوى الأخلاق ». المرأة المتبرجة وأثرها السيء في الأمة، لعبد الله التليدي (ص ١٤٦).

دعوة بعض الكُتَّاب إلى البدء من حيث انتهى الغربيُّون

وهذا التحرُّر المقيت والانفلات الذي وقعت فيه نساء الغرب في أوربا وأمريكا من الاختلاط بين الرجال والنساء والسفور الذي وصل إلى إبراز النساء بعض أفخاذهنَّ باسم الحرية والديمقراطية انتقل إلى كثير من بلاد المسلمين، ولم يسلم من ذلك إلَّا من شاء الله، مثل المملكة العربية السعودية، ومع أنَّ ذلك مخالف لشريعة الإسلام، وأنَّ بعض عُقلاء الغرب الذين اكتووا بنار هذه الحرية وذاقوا مرارتها وأدركوا خطرَها، يتمنَّون الخلاصَ منها وأن تأخذ بلادهم بتعاليم الإسلام الكفيلة للمرأة بتحصيل الفضائل والسلامة من الرذائل، مع ذلك فقد وُجد من بعض الكُتَّاب من يدعو إلى الأخذ بالأسباب التي تؤدِّي إلى الاختلاط بين الرجال والنساء، وتعريض كلٍّ من الجنسين للوقوع فيما لا تُحمدُ عقباه في الدنيا والآخرة.

وقد نادى الناصحون الغيورون على هذه البلاد ببقائها محافظة على ما جاء به الإسلام من كرامة المرأة وطهرها وعِفَّتها وسلامتها من التعرُّض لأسباب الفواحش والوقوع في الرذائل.

وفي مقدمة هؤلاء الناصحين شيخ الإسلام وإمام أهل السنة في زمانه شيخنا الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله، فقد قال: «... ذلك أنَّ من المعلوم بأنَّ نزول المرأة للعمل في ميدان الرِّجال يُؤدِّي إلى الاختلاط المذموم والخلوة بهنَّ، وذلك أمرٌ خطير جدًّا له تبعاته الخطيرة وثمراته المُرَّة وعواقبه الوخيمة، وهو مصادم للنصوص الشرعية التي تأمر المرأةَ بالقرار في بيتها والقيام بالأعمال التي تخصُّها وفَطرَها الله عليها، مما تكون فيه بعيدة عن مخالطة الرِّجال.

والأدلَّة الصريحة الدَّالة على تحريم الخلوة بالأجنبيَّة، وتحريم النظر إليها،

وتحريم الوسائل الموصلة إلى الوقوع فيما حرَّم الله، أدلَّة كثيرة مُحكمة قاضية بتحريم الاختلاط المؤدِّي إلى ما لا تُحمد عُقباه، منها قوله تعالى: ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾، وقال الله جلَّ وعلا: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ ﴾، الآية، وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾.

وقال ﷺ: (إيَّاكم والدخول على النساء (يعني الأجنبيات) فقال رجلٌ من الأنصار: يا رسول الله! أفريتَ الحمو؟ قال: الحمو الموت)، ونهى الرسول ﷺ عن الخلوة بالمرأة الأجنبية على الإطلاق، وقال: (إنَّ ثالثهما الشيطان)، وعن السفر إلَّا مع ذي محرم سدًّا لذريعة الفساد، وإغلاقاً لباب الإثم، وحسماً لأسباب الشرِّ، وحماية للنوعين من مكائد الشيطان، ولهذا صحَّ عنه ﷺ أنَّه قال: (اتقوا الدنيا واتقوا النساء، فإنَّ أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء)، وقال ﷺ: (ما تركت بعدي في أمتي فتنة أضرَّ على الرجال من النساء).

وهذه الآيات والأحاديث صريحة الدلالة في وجوب الابتعاد عن الاختلاط المؤدِّي إلى الفساد وتقويض الأُسَر وخراب المجتمعات التي سبقت إلى هذا الأمر الخطير، وصارت تتحسَّر على ما فعلت، وتتمنَّى أن تعود إلى حالنا التي نحن عليه الآن وخصَّنا بها الإسلام.

لماذا لا ننظر إلى وضع المرأة في بعض البلدان الإسلامية المجاورة كيف أصبحت مُهانة مبتذَلة بسبب إخراجها من بيتها وجعلها تقوم في غير وظيفتها، لقد نادى العُقلاء هناك وفي البلدان الغربية بوجوب إعادة المرأة إلى وضعها الطبيعي الذي هيَّأها الله له وركبها عليه جسميًّا وعقليًّا، ولكن بعد ما فات الأوان.

ألا فليتَّق اللهَ المسئولون عن المرأة والتخطيط لعملها وليُراقبوه سبحانه، فلا يفتحوا على الأمَّة باباً خطيراً من أبواب الشرِّ إذا فُتح كان من الصعب إغلاقه، وليعلموا أنَّ النصحَ لهذا البلد حكومة وشعباً هو العمل على ما يُبقيه مجتمعاً متماسكاً قويًّا سائراً على نهج الكتاب والسنَّة وعمل سلف الأمَّة، وسد أبواب الفساد والخطر، وإغلاق منافذ الشرور والفتن، ولا سيما ونحن في عصر تكالب الأعداءُ فيه على المسلمين، وأصبحنا أشد ما نكون حاجة إلى عون الله ودفعه عنَّا شرور أعدائنا ومكائدهم، فلا يجوز لنا أن نفتح أبواباً من الشرِّ مغلقة.

ولقد أحسن جلالة الملك فهد بن عبد العزيز ـ أدام الله توفيقه ـ فيما أصدر من التعميم المبارك برقم ٢٩٦٦/ م وتاريخ ١٩/ ٩/ ١٤٠٤هـ في الموضوع، وهذا نصُّه: (نشير إلى الأمر التعميمي رقم ١١٦٥١ في ١٦/ ٥/ ١٤٠٣هـ المتضمن أنَّ السماح للمرأة بالعمل الذي يُؤدِّي إلى اختلاطها بالرجال سواء في الإدارات الحكومية أو غيرها من المؤسسات العامة أو الخاصَّة أو الشركات أو

المهن ونحوها أمر غير ممكن سواء كانت سعودية أو غير سعودية؛ لأنَّ ذلك محرَّم شرعاً، ويتنافى مع عادات وتقاليد هذه البلاد، وإذا كان يوجد دائرة تقوم بتشغيل المرأة في غير الأعمال التي تُناسب طبيعتها أو في أعمال تؤدِّي إلى اختلاطها بالرجال، فهذا خطأ يجب تلافيه، وعلى الجهات الرقابية ملاحظة ذلك والرفع عنه) ... ». مجلة البحوث الإسلامية (العدد ١٥ ص ٢٧٤).

ليس للنساء الولاية على الرجال ولا المشاركة في توليتهم

ومن الآثار السيِّئة لانفلات النساء واختلاطهنَّ بالرجال ومزاحمتهم في الأعمال ما انتهى إليه الأمر من وصول النساء إلى الولايات العامة والخاصة في الشرق والغرب وفي بعض البلاد الإسلامية؛ لأنَّ الديمقراطية المزعومة تعطيهنَّ حقَّ تولِّي المناصب في الدولة، حتى أعلى منصب فيها، وهذا مخالف لما جاء به الإسلام، فليس للمرأة فيه الولاية على الرجال في أيّ ولاية عامة أو خاصة، وليس لها فيه حق المشاركة في تولية الرجال، فأمَّا كونها لا تشارك في تولية الرجال، فيدلُّ له أنَّ أولَ ولاية في الإسلام بعد النَّبيِّ ﷺ خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، قد تمَّت بيعته باتفاق أهل الحلِّ والعقد، وهم كبار الصحابة ومقدَّموهم رضي الله عنهم، وذلك في سقيفة بني ساعدة أول الأمر، ثم في المسجد بعد ذلك، ولم يكن فيهم امرأة واحدة، وغير أهل الحلِّ والعقد تَبَعٌ لهم، ولا يُقال: إنَّ من هذا القبيل بيعة النساء للنَّبيِّ ﷺ، فإنَّ مبايعة الرجال والنساء له ﷺ ليست على الولاية، بل على الإسلام مع تعيين شيء من أحكامه، كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ

﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾، وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ قال وحوله عصابة من أصحابه: « بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوا في معروف، فمَن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب في الدنيا فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئاً ثم ستره الله فهو إلى الله، إن شاء عفا عنه، وإن شاء عاقبه، فبايعناه على ذلك » أخرجه البخاري (١٨) واللفظ له، ومسلم (١٧٠٩).

وأما التعيين في الولايات الخاصة على المدن والقرى والبعوث والسرايا ونحو ذلك، فهو لإمام المسلمين، كما هو فعل رسول الله ﷺ وخلفائه الراشدين ومن بعدهم.

وأمَّا كون المرأة ليس لها حق الولاية العامة وما دونها من الولايات على الرجال، فيدلُّ لذلك أدلَّة، ذكرتُ جملة منها في رسالة: « الدفاع عن الصحابي أبي بكرة ومروياته، والاستدلال لمنع ولاية النساء على الرجال »، وهذه الأدلة هي:

الأول: قول الله عز وجل: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ﴾، وقوله: ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ﴾، وقوله: ﴿ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾، ففي الآية الأولى: أنَّ رسل الله من الرجال لا من النساء، وفي ذلك تفضيل لهم عليهن، وفي الآية الثانية: بيان أنَّ القوامة إنما هي للرجال على النساء، لما فُضلوا به عليهن، وفي الآية الثالثة: تفضيل الرجال على النساء؛ لأنَّ لهم عليهن درجة، وهذا فيه دلالة على أنَّ الولاية العامة إنما تكون لمن جعل الله

الرسالة فيهم، وهم الرجال ومن جعلهم الله قوامين على النساء، وجعل لهم عليهن درجة، وأنَّها لا تكون لمن لم يُرسل منهن أحد، ومن هن مَقُوم عليهن لا قوّامات، ومن هن دون الرجال درجة، وقد جاءت الشريعة بتفضيل الرجال على النساء في الميراث والشهادة والعتق والعقيقة والدية، حيث جُعلت المرأة على النصف من الرجل في هذه الخمس.

الثاني: قوله ﷺ: « لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة » أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي بكرة رضي الله عنه في موضعين (٤٤٢٥) و(٧٠٩٩)، وأخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٠٤٠٢) (٢٠٤٧٤) (٢٠٤٧٧) بلفظ: « أسندوا أمرهم إلى امرأة »، و(٢٠٤٣٨) (٢٠٤٧٨) (٢٠٥١٧) بلفظ: « تملكهم امرأة »، و(٢٠٥٠٨) بلفظ: « ما أفلح قوم تلي أمرهم امرأة »، وأخرجه النسائي في كتاب القضاء من سننه (٥٣٨٨) باب: النهي عن استعمال النساء في الحكم، ولفظه: « لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة »، وأخرجه الترمذي (٢٢٦٢) بمثل لفظ البخاري والنسائي، وقال: « هذا حديث صحيح ».

وهذا الحديث واضح الدلالة على أنَّ المرأة ليست من أهل الولاية العامة، بل في ذكر النسائي له في كتاب القضاء دلالة أنَّها ليست أهلاً لما دون ذلك، وهو القضاء، قال الشوكاني في السيل الجرار (٤/ ٢٧٣): « وليس بعد نفي الفلاح شيء من الوعيد الشديد، ورأس الأمور هو القضاء بحكم الله عزَّ وجلَّ، فدخوله فيها دخولاً أوّليًّا »، ونفي الفلاح شامل للدنيوي والأخروي، أمَّا الدنيوي فواضح، وأمَّا الأخروي؛ فلأنَّ المرأة لا يمكنها الإلزام بتنفيذ أحكام الشرع المتعلقة بالنساء من القرار في البيوت وترك التبرُّج ومنع الاختلاط بالرجال والخلوة بالنساء وسفرهنَّ بدون محرم وغير ذلك؛ لأنَّها أولُ الواقعين فيه، وفاقد الشيء لا يُعطيه.

الثالث: أنَّ الشريعة جاءت باحتجاب النساء عن الرجال، ومنع الاختلاط بين الرجال والنساء، وقد تقدَّمت الأدلة على ذلك، وكيف تلي المرأة الأمر وهي مأمورة باحتجابها عن الرجال والبعد عن الاختلاط بهم؟!

الرابع: أنَّ المرأة ممنوعة من السفر إلَّا ومعها محرم، وممنوعة من خلوة الرجل الأجنبي بها إلَّا ومعها محرم، وقد تقدَّم الاستدلال على ذلك، والمَحرم زوج المرأة ومن تحرم عليه على التأبيد بنسب كأبيها وابنها وأخيها وعمِّها وخالها ونحوهم، أو سبب مباح من رضاع أو مصاهرة كابنها وأبيها وأخيها وعمِّها من الرضاع ونحوهم، وكأبي زوجها وابن زوجها ونحوهما، وكيف تلي الأمر من لا تسافر إلَّا مع ذي محرم؟! ومن لا يخلو بها رجل أجنبي إلَّا مع ذي محرم؟!

الخامس: أنَّ ولي الأمر إذا كان في جماعة وحضرت الصلاة، أولى بالإمامة من غيره، لقوله ﷺ: «ولا يؤُمَنَّ الرجلُ الرجلَ في سلطانه، ولا يقعد في بيته على تكرمته إلَّا بإذنه» رواه مسلم (١٥٣٣) عن أبي مسعود رضي الله عنه، ورواه النسائي (٧٨٣) بلفظ: «لا يُؤَم الرجل في سلطانه، ولا يُجلس على تكرمته إلَّا بإذنه»، أورده في ترجمة (اجتماع القوم وفيهم الوالي)، والمرأة لا يجوز أن تؤم الرجال في الصلاة، فلا تؤمهم في أمور الدنيا، والنساء لا تجب عليهن الجماعة، وصلاتهن في بيوتهن أفضل من صلاتهن في المساجد، وإذا حضرن إلى المساجد ابتعدن عن الرجال، لقوله ﷺ: «خير صفوف الرجال أولها وشرها آخرها، وخير صفوف النساء آخرها وشرها أولها» رواه مسلم (٩٨٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

السادس: أنَّ من صفات النساء الضعف والجَزَع، والرجال أشدُّ منهنَّ قوة وأكثر تحمُّلاً، ولهذا جاء الوعيد في النياحة على الميت مضافاً إلى النساء؛ لأنَّ

الجزع وعدم الصبر غالب عليهنَّ، وكان ﷺ يأخذ على النساء عند البيعة ألاَّ يَنُحنَ، فعن أمِّ عطيَّة رضي الله عنها قالت: « أخذ علينا رسول الله ﷺ عند البيعة أن لا نَنُوحَ » رواه البخاري (١٣٠٦) ومسلم (٢١٦٤)، وفي صحيح مسلم (٢٨٨) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: « أنَّ رسول الله ﷺ بريء من الصالقة والحالقة والشاقَّة »، والصالقة التي ترفع صوتها عند المصيبة، والحالقة التي تحلق رأسَها، والشاقة التي تشقُّ ثوبها، والولاية في الشرع ثبتت لأهل القوة والصبر، لا لذوات الجزع والضعف.

السابع: أنَّ تاريخ الإسلام خال من ولاية النساء الولاية العامة، بل وحتى الولايات الخاصة التي تكون فيها النساء مرجعاً للرجال، ولم يثبت عن النبي ﷺ وخلفائه الراشدين تولية امرأة في قضاء أو إمارة قرية، أو غير ذلك، وقد قال عليه الصلاة والسلام في حديث العرباض بن سارية: « فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ... » الحديث.

قال ابن قدامة في المغني (١٤/ ١٣): « ولا تصلح للإمامة العظمى، ولا لتولية البلدان، ولهذا لم يول النبي ﷺ ولا أحد من خلفائه ولا مَن بعدهم امرأة قضاءً ولا ولاية بلدٍ، فيما بلغنا، ولو جاز ذلك لم يَخْلُ منه جميع الزمان غالباً »، وكانت وفاة ابن قدامة سنة (٦٢٠هـ).

الثامن: أنَّ الأمَّة مجمعةٌ على أنَّ المرأة لا تتولى الولاية العامة، حكى الإجماع على ذلك غير واحد من أهل العلم منهم ابن حزم، قال في كتابه الفصل (٤/ ١٧٩): « وجميع فرق أهل القبلة ليس منهم أحد يجيز إمامة امرأة ... »، وقال البغوي في شرح السنة (١٠/ ٧٧): « اتفقوا على أنَّ المرأة لا تصلح أن

تكون إماماً ولا قاضياً؛ لأنَّ الإمام يحتاج إلى الخروج لإقامة أمر الجهاد والقيام بأمور المسلمين، والقاضي يحتاج إلى البروز لفصل الخصومات، والمرأة عورة لا تصلح للبروز »، وقال شيخنا الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في أضواء البيان (١/ ٥٥): « من شروط الإمام الأعظم كونه ذكراً، ولا خلاف في ذلك بين العلماء »، والقول بأنَّ المرأة لا تتولى القضاء ولا غيره من الولايات التي تكون فيها المرأة مرجعاً للرجال، هو الذي دلت عليه الأدلة التي تقدم ذكرها، من أنَّ المرأة تحتجب عن الرجال ولا تخالطهم، وكذا خُلُوّ تاريخ الإسلام من ذلك، كما ذكره صاحب المغني، وتقدم قريباً.

وقصَّة المرأة في سورة النمل التي ملكت سبأ لا تدلُّ على أنَّ المرأة من أهل الولاية على الرجال؛ لأنَّها حكاية عمَّن كان قبلنا، وليس فيه ذكر أنَّها شريعة من الشرائع، بل كانت وقومها كفَّاراً يسجدون للشمس، ومع ذلك فقد جاء في شريعتنا ما يدلُّ على خلاف ذلك، ومنها الأدلة الثمانية التي أوردتها، وقد نقل ابن كثير في تفسيره قوله تعالى: ﴿ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ قول الحسن البصري رحمه الله ذامًّا الذين فوَّضوا الأمر إليها: « فوَّضوا أمرهم إلى علجة تضطرب ثدياها ».

اسْتَنْوَقَ الجملُ واسْتَدْيَكت الدَّجاجة

هذا مثلٌ يُضرَبُ لنزول الرِّجال عن أقدارهم في تشبُّههم بالنساء، وارتفاع النساء عن منازلهنَّ إلى التشبُّه بالرِّجال، وكلٌّ من الأمرين مذمومٌ، ولكنَّه أشدُّ في حقِّ الرِّجال، كما قال الشاعر:

وما عجب أنَّ النِّساءَ ترجَّلت ... ولكن تأنيث الرِّجال عُجابُ

وذلك لأنَّ النساءَ في ترجُّلهنِّ يطلبنَ رفعةً مذمومة، والرِّجال يهبطون

بتأنُّثهم من علوٍّ إلى سُفل، فهم أشدُّ ذمًّا وأسوأ حظًّا، يتَّضح ذلك بتسلُّط النساء على الرجال في الولايات أو تسليطهنَّ عليهم من قِبَلهم في البلاد الكافرة ومَن اقتدى بهم من المسلمين، فيقف الرجلُ الذي جعل الله له القوامة على النساء أمام المرأة المتسلِّطة أو المسلَّطة وهي بكامل زينتها واضعة حقيبة أدوات التجميل بجانبها، يقف أمامها في ذُلٍّ وهوان، وهذا شيء غير معروف في تاريخ الإسلام، وإنَّما استورده بعضُ المسلمين من حضارات جديدة وديمقراطية مزعومة لا صلةَ لها بالإسلام.

وقد لعن رسول الله ﷺ من تشبَّه من الجنسين بالآخر، ففي صحيح البخاري (٥٨٨٥) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لعن رسول الله ﷺ المتشبِّهين من الرِّجال بالنساء، والمتشبِّهات من النساء بالرِّجال»، وقد حصل في هذا الزمان ما لم يحصل في الجاهلية الأولى من تبرُّج النساء، حتى وصل ذلك في كثير من بلاد المسلمين إلى إخراج بعض النساء في الأسواق والطُّرُقات رؤوسَهنَّ ونحورَهنَّ وأذرعهنَّ وأعضادهنَّ وسُوقهنَّ وبعض أفخاذهنَّ، وفي مقابل ذلك أسبل الرِّجال ثيابهم حتى غطوا كعابَهم، وقد قال ﷺ: «ما أسفل من الكعبين من الإزار في النار» رواه البخاري (٥٧٨٧)، وفي صحيح مسلم (١٠٦) عن أبي ذر رضي الله عنه، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «ثلاثةٌ لا يُكلِّمهم الله يوم القيامة ولا ينظرُ إليهم ولا يُزكِّيهم ولهم عذابٌ أليم، قال: فقرأها رسول الله ﷺ ثلاث مرَّات، قال أبو ذر: خابوا وخسروا! مَن هم يا رسول الله؟ قال: المُسبِلُ، والمنَّانُ، والمنفِّقُ سلعتَه بالحلف الكاذب»، فهذا الصنف من الرجال نُهوا عن الإسبال فأسبَلوا، وذاك الصنف من النساء أُمِرنَ بالحجاب وتغطية أقدامهنَّ فخالفن وأظهرنَ كثيراً من زينتهنَّ، وقال ﷺ: «ثلاثةٌ لا يدخلون الجنَّة: العاقُّ لوالديه، والدَّيوث، ورَجلةُ النساء» رواه الحاكم (١/ ٧٢)، وصحَّحه ووافقه الذهبي.

والمرأة التي تُمكَّن من الولايات العظمى أو ما دونها من الولايات على الرِّجال من أهل هذا الوعيد في هذا الحديث.

وفي تولية النساء على الرجال وذُلِّ الرِّجال أمام النساء اختلالٌ للموازين وقلبٌ للحقائق، وتقديم للحرث على الحارث، والمقوم عليه على القوَّام، فأصبح المؤخَّر مقدَّماً والمقدَّمُ مؤخَّراً، والتابع متبوعاً والمتبوع تابعاً، والله المستعان، قال الشاعر كما في معجم الأدباء لياقوت الحموي (١٧/ ١٩٨):

قد قُدِّم العَجْبُ على الرُّوَيس — وشارف الوهدُ أبا قُبيسِ
وطاول البقلُ فروعَ الميْس — وهبت العنز لقرع التيسِ
وادَّعت الروم أبًا في قيس — واختلط الناس اختلاط الحيسِ
إذ قرا القاضي حليف الكيس — معاني الشعر على العبيسي

السعادةُ في نور الوحي، والشَّقاءُ والظلام فيما سواه

أرسل اللهُ رسوله محمداً ﷺ بالهدى ودين الحقِّ ليُظهرَه على الدِّين كلِّه، فدلَّ أمَّتَه على كلِّ خير، وحذَّرها من كلِّ شرٍّ، وتركها على بيضاء ليلها كنهارها لا يزيغُ عنها إلَّا هالك، ووصف الله وحيَه إلى نبيِّه ﷺ بالنور، وبيَّن أنَّ هذا النورَ هو مصدرُ هدايتهم وسبيل عزِّهم وسعادتهم في دنياهم وآخرتهم، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ ﴾، وقال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴾، وقال: ﴿ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾،

وقال: ﴿ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾، وقال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾، وقال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾، وقال: ﴿ الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾، وقال: ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ ﴾، وقال: ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾.

وأخبر الله تعالى أنَّ مَن لم يهتد بهذا النور الذي أنزله على رسوله ﷺ فهو في ظلام وشقاء وخسران، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ ﴾، وقال: ﴿ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾، وقال: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾، وقال: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ ﴾، وقال: ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴾، وقال: ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾.

وإنَّه لمن المؤسف أنَّ الكثيرين من المسلمين في هذا الزمان زهدوا في نور ربِّهم الذي فيه سعادتُهم وفلاحهم، واعتاضوا عنه ظلام أعدائهم في أحوالهم

الاجتماعية والتربوية والتعليمية والاقتصادية والسياسية وغير ذلك، فآل أمرُهم إلى أن يكونوا في ذُلٍّ وهوانٍ أمام أعدائهم، ولن يظفروا بأمن وأمان وصلاح وإصلاحٍ إلَّا في الاستضاءة بنور الوحي الذي جاء به نبيُّهم ﷺ، وترك ما يصدِّره لهم أعداؤهم من ظلام زعموه إصلاحاً نحو الديمقراطية المزعومة.

وإنَّ هُدى الله هو الهُدى، وماذا بعد الحقِّ إلَّا الضلال، وإنَّ تنازُلَ المسلمين عن شيء من دينهم يُسخِطُ ربَّهم ولا يُرضي أعداءهم، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾، وقال: ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾، وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴾، وقال: ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾، وقال: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾.

ولا صلاح ولا فلاح للمسلمين إلَّا بالرجوع إلى وحي الله والاستضاءة بنوره والابتعاد عن الظلام الذي يستوردونه من الشرق والغرب، وبذلك يحصل عِزُّهم وفلاحهم، ويسلمون من الذُّلِّ والهوان الذي أحاط بهم، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾، وقال: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟

عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾، وقال: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾، وقال: ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾، وقال الرسول ﷺ في أوَّل وصيَّته لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما: « احفظ الله يحفظك » أخرجه الترمذي (٢٥١٦)، وقال: « حديث حسن صحيح ».

وأسأل الله عزَّ وجلَّ أن يُوفِّق المسلمين حاكمين ومحكومين للتمسُّك بدينهم الذي فيه عِزُّهم وفلاحهم، والحذر من مكايد أعدائهم التي فيها شقاؤهم وهوانهم، وصلَّى الله وسلَّم وبارك على عبده ورسوله نبيِنا محمد وعلى آله وصحبه.





الفهرس



كيف يؤدي الموظف الأمانة

تأليف

عبد المحسن بن حمد العباد البدر



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمَين، والصلاة والسلام الأتمَّان الأكملان على سيد المرسَلين وإمام المتَّقين، نبيِّنا محمد وعلى آله وأصحابه ومَن تبعَهم بإحسان إلى يوم الدِّين.

أمَّا بعد، فهذه رسالة لطيفة في النصح للموظفين والعمَّال في أداء ما أنيط بهم من أعمال، كتبتها أملاً في أن يستفيدوا منها، وأن تكون عوناً لهم على الإخلاص في نيَّاتهم والجدِّ في أعمالهم والقيام بواجباتهم، وأسأل الله للجميع التوفيق والتسديد.

❊ ❊ ❊

آيات كريمة في أداء الأمانة

من الآيات في حفظ الأمانة وترك الخيانة قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا** ﴾، قال ابن كثير في تفسيره: « يُخبرُ تعالى أنَّه يأمر بأداء الأمانات إلى أهلها، وفي حديث الحسن عن سمرة أنَّ رسول الله ﷺ قال: (أدِّ الأمانة إلى مَن ائتمنك، ولا تَخُن مَن خانك) رواه الإمام أحمد وأهل السنن، وهو يَعمُّ جميع الأمانات الواجبة على الإنسان من حقوق الله عزَّ وجلَّ على عباده من الصلاة والزكاة والصيام والكفارات والنذور وغير ذلك مِمَّا هو مؤتَمَن عليه لا يطَّلع عليه العباد، ومن حقوق العباد بعضهم على بعض، كالودائع وغير ذلك مِمَّا يأتَمنون به من غير اطلاع بينة على ذلك، فأمر الله عزَّ وجلَّ بأدائها، فمَن لَم يفعل ذلك في الدنيا أخذ منه ذلك يوم القيامة ».

وقوله تعالى: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ** ﴾، قال ابن كثير: « والخيانة تعمُّ الذنوب الصغار والكبار اللازمة والمتعدِّية، وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس ﴿ **وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ** ﴾: الأمانة الأعمال التي ائتمن الله عليها العباد، يعني الفريضة، يقول: لا تخونوا: لا تنقضوها، وقال في رواية: ﴿ **لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ** ﴾ يقول: بترك سنته وارتكاب معصيته ».

وقوله تعالى: ﴿ **إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا** ﴾، قال ابن كثير رحمه الله بعد أن ذكر أقوالاً في تفسير الأمانة، منها الطاعة والفرائض

والدين والحدود، قال: « وكلُّ هذه الأقوال لا تنافيَ بينها، بل هي متفقة وراجعة إلى أنَّها التكليف وقبول الأوامر والنواهي بشرطها، وهو أنَّه إن قام بذلك أُثيب، وإن تركها عُوقب، فقبلها الإنسان على ضعفه وجهله وظلمه إلَّا مَن وفَّق الله، وبالله المستعان ».

وقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴾، قال ابن كثير: « أي: إذا ائتمنوا لم يخونوا، وإذا عاهدوا لم يغدروا، وهذه صفات المؤمنين، وضدها صفات المنافقين، كما ورد في الحديث الصحيح: (آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتُمن خان)، وفي رواية: (إذا حدَّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر) ».



أحاديث عن الرسول ﷺ في أداء الأمانة

ومن الأحاديث عن رسول الله ﷺ في حفظ الأمانة والتحذير من إضاعتها:

١ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «بينما النَّبيُّ ﷺ في مجلس يُحدِّث القوم، جاءه أعرابيٌّ فقال: متى الساعة؟ فمضى رسول الله ﷺ يُحدِّث، فقال بعضُ القوم: سمع ما قال فكره ما قال، وقال بعضُهم: بل لم يسمع، حتى إذا قضى حديثه قال: أين أراه السائل عن الساعة؟ قال: ها أنا يا رسول الله، قال: فإذا ضُيِّعت الأمانة فانتظر الساعة، قال: كيف إضاعتُها؟ قال: إذا وُسِّد الأمرُ إلى غير أهله فانتظر الساعة» رواه البخاري (٥٩).

٢ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أدِّ الأمانة إلى مَن ائتمنك، ولا تَخُن من خانك» رواه أبو داود (٣٥٣٥) والترمذي (١٢٦٤)، وقال: «هذا حديث حسن غريب»، وانظر: السلسلة الصحيحة للألباني (٤٢٤).

٣ ـ عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أوَّل ما تفقدون من دينكم الأمانة، وآخره الصلاة» رواه الخرائطي في مكارم الأخلاق (ص:٢٨)، وانظر: السلسلة الصحيحة للألباني (١٧٣٩).

٤ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ قال: «آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتُمن خان» رواه البخاري (٣٣) ومسلم (١٠٧).

* * *

أداء الموظف عمله بجدٍّ وإخلاص يُؤجَر عليه في الدنيا والآخرة

إذا قام الموظف بأداء عمله بجدٍّ يرجو ثواب الله أبرأ ذمَّته واستحقَّ الأجرة على العمل في الدنيا، وظفر بالثواب في الدار الآخرة، وقد وردت النصوص الشرعية دالَّة على أنَّ الأجر والثواب على ما يعمله الإنسانُ من أعمال، يكون مع الاحتساب وابتغاء وجه الله، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ **لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا** ﴾، وروى البخاري (٥٥) ومسلم (١٠٠٢) عن أبي مسعود رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: « إذا أنفق الرجلُ على أهله يحتسبُها فهو له صدقة »، وقال ﷺ لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: « ولستَ تُنفق نفقةً تبتغي بها وجه الله، إلَّا أُجرتَ بها، حتى اللقمة تجعلُها في فِي امرأتِك » رواه البخاري (٥٣٥٤) ومسلم (١٦٢٨)، فدلَّت هذه النصوص على أنَّ المسلمَ إذا أدَّى ما هو واجب عليه للعباد برئت ذمَّتُه، وأنَّه إنَّما يحصل الأجر والثواب بالاحتساب وابتغاء وجه الله سبحانه وتعالى.

* * *

حفظ الوقت المخصَّص للعمل لصالح العمل

يجب على كلِّ موظف وعامل أن يشغلَ الوقت المخصَّص للعمل في العمل الذي خُصِّص له، فلا يشتغل فيه في أمور أخرى غير العمل الذي يجب أداؤه فيه، ولا يشغل الوقت أو شيئاً منه في مصلحته الخاصة، ولا في مصلحة غيره إذا كانت لا علاقة لها بالعمل؛ لأنَّ وقتَ العمل ليس مِلكاً للموظف والعامل، بل لصالح العمل الذي أُخذ الأجر في مقابله، وقد وعظ الشيخ المعمَّر بن علي البغدادي المتوفى سنة (٥٠٧هـ) نظامَ المُلك الوزير موعظة بليغة مفيدة، مِمَّا قال في أوَّلها: «معلومٌ ـ يا صدر الإسلام! ـ أنَّ آحاد الرعية من الأعيان مخيَّرون في القاصد والوافد، إن شاؤوا وصلوا، وإن شاؤوا فصلوا، وأمَّا مَن توشَّح بولاية فليس مخيَّراً في القاصد والوافد؛ لأنَّ من هو على الخليقة أمير، فهو في الحقيقة أجير، قد باع زمنه، وأخذ ثمنه، فلَم يبق له من نهاره ما يتصرَّف فيه على اختياره، ولا له أن يصلي نفلاً، ولا يدخل معتكفاً... لأنَّ ذلك فضل، وهذا فرض لازم»، ومنها قوله وهو يعظه: «فاعمُر قبرَك كما عمرتَ قصرَك» ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب (١/ ١٠٧).

وكما أنَّ الإنسان يرغب في أخذ أجره كاملاً ولا يحبُّ أن يُبخسَ منه شيء، فعليه أن لا يبخسَ شيئاً من وقت العمل يصرفه في غير صالح العمل، وقد ذمَّ الله المطفِّفين في المكاييل والموازين الذين يستوفون حقوقهم ويبخسون حقوق غيرهم، فقال: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

مسوغات اختيار العامل والموظف

الأساس في اختيار كلِّ موظف أو عامل أن يكون قويًّا أميناً؛ لأنه بالقوة يستطيع القيام بالعمل المطلوب منه، وبالأمانة يُؤدِّيه على وجه تبرأ به ذمَّته؛ لأنَّه بالأمانة يضعُ الأمورَ في مواضعها، وبالقوة يتمكَّن من أداء الواجب عليه، وقد أخبر الله عن إحدى ابنتي صاحب مدين أنَّها قالت لأبيها لَّما سقى لهما موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿ يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ﴾، وقال عن العفريت من الجنِّ الذي أبدى استعداده لسليمان عليه الصلاة والسلام بالإتيان بعرش بلقيس: ﴿ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٞ ﴾، والمعنى أنَّه جمع بين القدرة على حمله وإحضاره والمحافظة على محتوياته، وأخبر الله عن يوسف عليه الصلاة والسلام أنَّه قال للملِك: ﴿ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ﴾.

وضدُّ القوة والأمانة العجزُ والخيانة، وهي أساس في عدم التعيين في العمل ومسوغات حقيقية للعزل منه، ولَّما جعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه سعد ابن أبي وقاص رضي الله عنه أميراً على الكوفة، ونال منه بعضُ سُفهائها وتكلَّموا فيه عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه، رأى عمر رضي الله عنه المصلحة في عزله درءاً للفتنة، ولئلاَّ يعتدي عليه أحدٌ منهم، لكن عمر رضي الله عنه في مرض موته عيَّن ستة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يُختار منهم خليفة من بعده، وفيهم سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، فخشي أن يُظنَّ أنَّ عزل عمر رضي الله عنه إياه عن إمارة الكوفة لعدم صلاحيته للولاية، فنفى ما قد يُظنُّ بقوله رضي الله عنه: « فإن أصابت الإمرة سعداً فهو ذاك، وإلاَّ فليستعن به أيكم ما أُمِّر؛ فإنِّي لَم أعزله عن عجز ولا خيانة » رواه البخاري (٣٧٠٠).

وفي صحيح مسلم (١٨٢٥) عن أبي ذر رضي الله عنه قال: « قلت: يا رسول الله! ألاَ تستعمِلُني؟ قال: فضرب بيده على منكبي، ثم قال: يا أبا ذر إنَّك ضعيف، وإنَّها أمانة، وإنَّها يوم القيامة خزي وندامة، إلَّا مَن أخذها بحقِّها وأدَّى الذي عليه فيها »، وفيه أيضاً (١٨٢٦) عن أبي ذر رضي الله عنه أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « يا أبا ذر إنِّي أراك ضعيفاً، وإنِّي أحبُّ لك ما أحبُّ لنفسي، لا تأمَرنَّ على اثنين، ولا تَوَلَيَنَّ مال يتيم ».



كبار المسؤولين قدوة في الجدِّ أو الكسل لصغارهم

إذا قام كبار الموظفين بواجباتهم على التمام والكمال، اقتدى بهم في ذلك الموظفون التابعون لهم، وكلُّ رئيس في العمل سيُسأل عن نفسه ومرؤوسيه، وقد قال ﷺ: «كلُّكم راع ومسؤول عن رعيَّته، فالأمير الذي على الناس فهو راع عليهم وهو مسؤول عنهم، والرجلُ راع على أهل بيته وهو مسؤول عنهم، والمرأة راعية على بيت بعلها وولده وهي مسؤولة عنهم، والعبدُ راع على مال سيِّده وهو مسؤول عنه، ألاَ فكلُّكم راع وكلُّكم مسؤول عن رعيته» رواه البخاري (٢٥٥٤) ومسلم (١٨٢٩) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

وإذا حافظ المسؤولون الكبار على الأعمال في جميع أوقاتها صاروا قدوةً حسنة لِمَن دونهم، يقول الشاعر:

وإنَّك إذ مَا تَأتِ ما أنتَ آمِرٌ ... به تُلْفِ مَن إيَّاه تأمُرُ آتِيَا

المعنى: إذا أمرت غيرَكَ مِمَّن هو دونك بأن يقوم بواجبه وكنتَ سابقاً إلى قيامك بالواجب، فإنَّ غيرَكَ يستجيب لك ويقوم بما أمرتَه به.

***

معاملة الموظف غيره بمثل ما يحب أن يُعامَل به

النصيحة شأنها في الإسلام عظيم، ولهذا قال الرسول ﷺ: « الدِّين النصيحة، قالوا: لِمَن يا رسول الله؟ قال: لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم » رواه مسلم (٥٥) عن أبي رقية تميم بن أوس الداري رضي الله عنه، وقال جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه: « بايعتُ رسول الله ﷺ على إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والنصح لكلِّ مسلم » رواه البخاري (٥٧) ومسلم (٥٦).

وكما أنَّ كلَّ موظف أو عامل إذا كانت له حاجة عند غيره يحب أن يعامله غيرُه معاملة حسنة، فإنَّ عليه أن يُعامل غيرَه معاملة حسنة، وقد قال ﷺ: « فمَن أحبَّ أن يُزحزح عن النار ويدخل الجنَّة فلتأته منيَّتُه وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس الذي يحبُّ أن يُؤتى إليه » رواه مسلم (١٨٤٤) في حديث طويل عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، والمعنى: عامِل الناسَ بمثل ما تحبُّ أن يُعاملوك به، وقال ﷺ: « لا يؤمن أحدُكم حتى يُحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه » رواه البخاري (١٣) ومسلم (٤٥) عن أنس رضي الله عنه.

وقد ذمَّ الله مَن يُعامل غيرَه على خلاف ما يحبُّ أن يُعامَل به في قوله: ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾، وقال ﷺ: « إنَّ الله عزَّ وجلَّ حرَّم عليكم عقوق الأمهات، ووأد البنات، ومنعاً وهات، وكره لكم ثلاثاً: قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال » أخرجه البخاري (٢٤٠٨) ومسلم (٥٩٣) عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه، وفي هذا الحديث ذم الجموع المنوع الذي يأخذ ولا

يُعطي، وقد ذكَّرَ اللهُ أولياءَ اليتامى بأنَّهم يخشون على ذريَّتهم الصغار لو تركوهم، فقال تعالى: ﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَـٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾، والمعنى: كما أنَّهم يُحبُّون أن يُحسَن إلى ذريَّتهم الضعاف من بعدهم، فإنَّ عليهم أن يُحسنوا إلى اليتامى الذين لهم ولاية عليهم.



تقديم الموظف الأسبق فالأسبق من أصحاب الحاجات

من العدل والإنصاف ألاَّ يؤخِّر الموظفُ متقدِّماً من أصحاب الحاجات، أو يقدم متأخِّراً، بل يكون التقديم عنده على حسب السبق، وفي ذلك راحة للموظف وأصحاب الحاجات، وقد جاء في سنة الرسول ﷺ ما يدلُّ على ذلك، فعن أبي هريرة ﵁ قال: « بينما النَّبيُّ ﷺ في مجلس يُحدِّث القوم، جاءه أعرابيٌّ فقال: متى الساعة؟ فمضى رسول الله ﷺ يُحدِّث، فقال بعضُ القوم: سمع ما قال فكره ما قال، وقال بعضُهم: بل لَم يسمع، حتى إذا قضى حديثه قال: أين أراه السائل عن الساعة؟ قال: ها أنا يا رسول الله، قال: فإذا ضُيِّعت الأمانة فانتظر الساعة، قال: كيف إضاعتُها؟ قال: إذا وُسِّد الأمرُ إلى غير أهله فانتظر الساعة » رواه البخاري (٥٩).

ووجه الدلالة من الحديث أنَّ الرسول ﷺ لَم يُجب السائل عن الساعة إلَّا بعد فراغه من تحديث مَن سبقوه، قال الحافظ ابن حجر في شرحه: « ويؤخذ منه أخذ الدروس على السبق، وكذلك الفتاوى والحكومات ونحوها ».

وجاء في ترجمة أبي جعفر محمد بن جرير الطبري في لسان الميزان للحافظ ابن حجر قوله: « وأخرج ابن عساكر من طريق أبي معبد عثمان بن أحمد الدينوري قال: حضرتُ مجلسَ محمد بن جرير وحضر الفضل بن جعفر بن الفرات الوزير، وقد سبقه رجل، فقال الطبري للرجل: ألا تقرأ؟ فأشار إلى الوزير، فقال له الطبري: إذا كانت النوبة لك فلا تكترث بدجلة ولا الفرات، قلت: وهذه من لطائفه وبلاغته وعدم التفاته لأبناء الدنيا ».

***

اتصاف الموظف بالعفَّة والسلامة من أخذ الرشوة والهدية

يجب على كلِّ موظف أن يكون عفيفاً عزيزَ النفس غنيَّ القلب بعيداً عن أكل أموال الناس بالباطل، مِمَّا يُقدَّم له من رشوة ولو سمي هدية؛ لأنَّه إذا أخذ أموال الناس بغير حقٍّ أكلها بالباطل، وأكل الأموال بالباطل من أسباب عدم قبول الدعاء، فقد روى مسلم في صحيحه (١٠١٥) عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: « أيُّها الناس! إنَّ الله طيبٌ لا يقبل إلَّا طيباً، وإنَّ الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسَلين، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴾، وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ ﴾، ثم ذكَرَ الرجلَ يُطيل السفر أشعث أغبر، يَمدُّ يديه إلى السماء: يا ربِّ! يا ربِّ! ومطعمُه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام، فأنَّى يُستجاب لذلك؟! ».

ومن أوضح التنفير من أكل المال بالباطل ما رواه البخاري في صحيحه (٧١٥٢) عن جندب بن عبد الله قال: « إنَّ أوَّل ما ينتن من الإنسان بطنه، فمَن استطاع أن لا يأكل إلَّا طيباً فليفعل، ومن استطاع أن لا يُحال بينه وبين الجنة بملء كف من دم هراقه فليفعل »، وما رواه أيضاً (٢٠٨٣) عن أبي هريرة ﵁ عن النَّبيِّ ﷺ قال: « ليأتينَّ على الناس زمان لا يُبالي المرء بما أخذ المال، أمِنْ حلال أم من حرام »، وعند هؤلاء الآخذين غير المبالين أنَّ الحلال ما حلَّ في اليد، والحرام ما لم يصل إليها، وأما الحلال في الإسلام، فهو ما أحلَّه الله ورسوله ﷺ، والحرام ما حرَّمه الله ورسوله ﷺ.

وقد ورد في سنَّة الرسول ﷺ أحاديث تدلُّ على منع العمَّال والموظفين من أخذ شيء من المال ولو سُمِّي هدية، منها حديث أبي حميد الساعدي ﵁ قال:

«استعمل رسول الله ﷺ رجلاً من الأسد، يُقال له: ابن اللتبيَّة على الصدقة، فلمَّا قدم قال: هذا لكم، وهذا لي أُهدي لي، قال: فقام رسول الله ﷺ على المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، وقال: ما بال عامل أبعثه فيقول: هذا لكم، وهذا أُهدِيَ لي؟! أفلاَ قعدَ في بيت أبيه أو في بيت أمِّه حتى ينظرَ أيُهدَى إليه أم لا؟! والذي نفسُ محمد بيده! لا ينال أحدٌ منكم منها شيئاً إلَّا جاء به يوم القيامة يحمله على عُنُقه، بعير له رُغاء، أو بقرة لها خوار، أو شاة تيعَر، ثم رفع يديه حتى رأينا عفرتَي إبطيه، ثم قال: اللَّهمَّ هل بلَّغت؟ مرَّتين» رواه البخاري (٧١٧٤) ومسلم (١٨٣٢)، وهذا لفظه، وفي صحيح البخاري (٣٠٧٣) ومسلم (١٨٣١) ـ واللفظ له ـ عن أبي هريرة ﷺ قال: «قام فينا رسول الله ﷺ ذات يوم، فذكر الغلولَ فعظَّمه وعظَّم أمرَه، ثم قال: لا ألفينَّ أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء، يقول: يا رسول الله! أغِثني، فأقول: لا أملك لك شيئاً؛ قد أبلغتك، لا ألفينَّ أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته فرسٌ له حَمحمة، فيقول: يا رسول الله! أغِثني، فأقول: لا أملك لك شيئاً؛ قد أبلغتك، لا ألفينَّ أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته شاة لها ثغاء، يقول: يا رسول الله! أغِثني، فأقول: لا أملك لك شيئاً؛ قد أبلغتك، لا ألفينَّ أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته نفس لها صياح، فيقول: يا رسول الله! أغِثني، فأقول: لا أملك لك شيئاً؛ قد أبلغتك، لا ألفينَّ أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته رقاع تخفق، فيقول: يا رسول الله! أغِثني، فأقول: لا أملك لك شيئاً؛ قد أبلغتك، لا ألفينَّ أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته صامت، فيقول: يا رسول الله! أغِثني، فأقول: لا أملك لك شيئاً؛ قد أبلغتك».

والرقاع في الحديث الثياب، والصامت الذهب والفضة.

ومنها حديث أبي حميد الساعدي أنَّ رسول الله ﷺ قال: « هدايا العمال غلول » رواه أحمد (٢٣٦٠١) وغيره، وانظر تخريجه في إرواء الغليل للألباني (٢٦٢٢)، وهو بمعنى حديثه المتقدّم في قصة ابن اللتبية.

ومنها حديث عدي بن عميرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « من استعملناه منكم على عمل فكَتَمَنا مخيطاً فما فوقه، كان غلولاً يأتي به يوم القيامة » الحديث، أخرجه مسلم (١٨٣٣).

ومنها حديث بريدة عن النَّبيِّ ﷺ قال: « مَن استعملناه على عمل فرزقناه رزقاً فما أخذ بعد ذلك فهو غلول » رواه أبو داود (٢٩٤٣) بإسناد صحيح، وصححه الألباني.

وفي ترجمة عياض بن غنم رضي الله عنه من كتاب صفة الصفوة لابن الجوزي (١/ ٢٧٧) وكان أميراً لعمر رضي الله عنه على حمص أنَّه قال لبعض أقربائه في قصة طويلة: « فوالله! لأن أُشقَّ بالمنشار أحبُّ إليَّ من أن أخون فلساً أو أتعدَّى! ».

قال ابن القيم في إعلام الموقعين (٣/ ١٥٤) في أدلة سدِّ الذرائع « الوجه الخامس والعشرون: أنَّ الوالي والقاضي والشافع ممنوع من قبول الهدية، وهو أصل فساد العالم وإسناد الأمر إلى غير أهله وتولية الخَونة والضعفاء والعاجزين[٥]، وقد دخل بذلك من الفساد ما لا يحصيه إلَّا الله؛ وما ذاك إلَّا لأنَّ قبول الهدية ممن لم تجر عادته بمهاداته ذريعة إلى قضاء حاجته، وحبُّك الشيء يعمي ويصم، فيقوم عنده شهوة لقضاء حاجته مكافأة له مقرونة بشَرَهٍ

(٥) كذا ، ولعل الصواب: (وأصل فساد العالم إسناد الأمر إلى غير أهله وتولية الخَونة والضعفاء والعاجزين)، ويدل لذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه الذي تقدم قريباً، وفيه جواب النَّبيِّ لمن سأله عن الساعة بقوله: فإذا ضُيِّعت الأمانة فانتظر الساعة قال: كيف إضاعتُها؟ قال: إذا وُسِّد الأمرُ إلى غير أهله فانتظر الساعة ».

وإغماص عن كونه لا يصلح ».

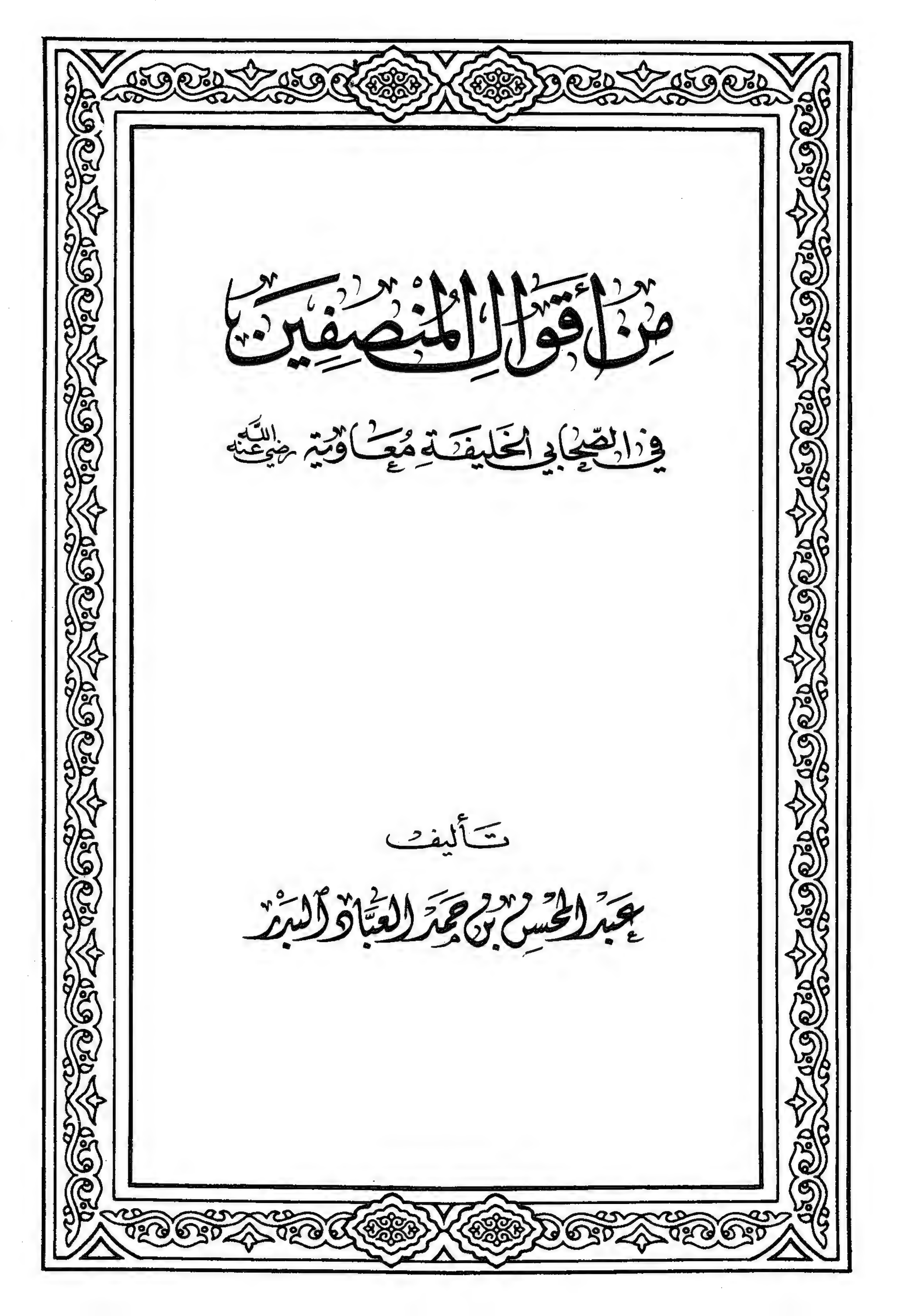
وأسأل الله عزَّ وجلَّ أن يوفِّق كلَّ موظف وعامل من المسلمين إلى أداء عمله على الوجه الذي يُرضي الله تبارك وتعالى، ويعود عليه بالثواب والعاقبة الحميدة في الدنيا والآخرة، وصلى الله وسلَّم وبارك على عبده ورسوله نبيِّنا محمد وعلى آله وصحبه.



الفهرس

❊ ❊ ❊





من أقوال المنصفين
في الصحابي الخليفة معاوية رضي الله عنه
تأليف
عبد المحسن بن حمد العباد البدر



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، إياك نعبد وإياك نستعين، اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم، غير المغضوب عليهم ولا الضالين.

اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم ارض عن الصحابة أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وعنا معهم بمنك وكرمك يا أرحم الراحمين، ﴿ **رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾.

أما بعد أيها الإخوة الكرام: فهذا حديث عن معاوية بن أبي سفيان ـ رضي الله تعالى عنهما ـ مشتملٌ على ذكر بعض أقوال المنصفين فيه، ولا أريد أن أتكلم فيه عن نسبه، وحياته، وحديثه، وما إلى ذلك مما يتعلق به.

وإنما سيكون مقصوراً على ناحية معينة وهي كلام أهل الإنصاف فيه، الذين وفقهم الله سبحانه وتعالى لأن يسلكوا المسلك القويم، وأن يتكلموا فيه بما يليق به، وبما يناسب مقامه، ولم يقعوا فيما وقع فيه أناس لم يحالفهم التوفيق، ولم يحصل لهم ما يكون فيه سلامتهم ونجاتهم وسعادتهم.

ومعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه هو أحد الصحابة الذين أكرمهم الله بصحبة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وكل كلام يقال في الصحابة فيما يتعلق بفضلهم عموماً وما يجب

لهم عموماً، فإن معاوية رضي الله عنه يدخل في ذلك، ولهم فيه كلام يخصّه ويتعلق به مما ينبغي أن يوصف به، وأن يتكلم فيه بشأنه رضي الله تعالى عنه وأرضاه، وما أُورِدُه في هذا الحديث عنه ليس لي منه إلَّا مجرد النقل من كتب بذل أصحابها جهوداً مشكورة في خدمة السّنّة النبوية، وفي بيان ما يجب للصحابة رضي الله عنهم فأنا سآتي بكلام عام في الصحابة جميعاً، ويدخل فيهم معاوية بن أبي سفيان، ثم بالكلام الخاص الذي يتعلق بمعاوية رضي الله عنه.

سبب اختيار الحديث عن معاوية رضي الله عنه

وقد يقول قائل: لماذا اخترت معاوية بن أبي سفيان فخصصته بالحديث دون غيره؟

والجواب عن ذلك: هو أن أحد السلف وهو أبو توبة الحلبي قال قولة مشهورة وهي قوله[1]: «إن معاوية بن أبي سفيان ستر لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فمن كشف الستر اجترأ على ما وراءه».

فالذي يتكلم في معاوية ويجرؤ على أن يتكلم فيه رضي الله عنه بكلام لا يليق فإنه من السهل عليه أن يتكلم في غيره.

ولم يكن الأمر مقتصراً عليه بل تجاوزه إلى من هو خير منه ومن هو أفضل منه، بل إلى من هو أفضل البشر بعد الأنبياء والمرسلين أبو بكر الصديق، ثم عمر بن الخطاب، ثم عثمان بن عفان، ثم عليّ بن أبي طالب رضي الله عنهم وأرضاهم، وكذا غيرهم من الصحابة حصل في حقهم ما حصل من الكلام.

وفي الحقيقة إنما حصل لهم من كلام يليق بهم فهم أهله وهو اللائق بهم

---

(١) انظر البداية والنهاية (٨/ ١٣٩).

رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم، وهو محمدة لمن تكلم به، ولمن حصل منه.

ولهذا كان ذكر هؤلاء الأسلاف الذين تكلموا في حق أولئك الأخيار - رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم - كان ذكرهم دائماً على الألسنة، يُذكَر كلامهم الجميل، ويُتَرَحَّم عليهم ويثنى عليهم في كونهم قاموا بما يجب لأصحاب رسول الله ﷺ، ورضي الله تعالى عن الصحابة أجمعين.

أما من تكلم فيهم بكلام لا ينبغي فهو في الحقيقة لم يضرَّهم إنما ضرَّ نفسه؛ وذلك أنهم - رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم - قدِموا على ما قدَّموا، وقد قدَّموا الخير الكثير، وقد قدَّموا الأعمال الجليلة التي قاموا بها مع رسول الله ﷺ، ورضي الله تعالى عنهم، فالذي يتكلم فيهم بما لا ينبغي هو في الحقيقة لا يضرهم وإنما يضرُّ نفسه.

بل إن ذلك يكون زيادة في حسناتهم، ورفعة في درجاتهم؛ لأنه إذا تكلم فيهم بغير حق أضيف إليهم من حسنات المتكلم فيهم إذا كان له حسنات، فيكون ذلك رفعة في درجاتهم، وهم برآء من قدح القادح، ولا يضر السحاب نبح الكلاب كما يقولون.

فضل الصحابة ﷺ

والله سبحانه وتعالى لما أرسل رسوله محمداً ﷺ وختم به الرسالات وجعل رسالته ﷺ كاملة شاملة خالدة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، خصّه سبحانه وتعالى بأصحاب اختارهم لصحبته، فشاء أن يوجدوا في زمانه ووجدوا، وقاموا بما أمكنهم من جدّ واجتهاد في الجهاد معه في سبيل الله، ونشر سنّته، وتلقي ما جاء عنه - عليه الصلاة والسلام - فصاروا هم الواسطة بين رسول الله ﷺ وبين من جاء بعدهم.

ومن يقدح فيهم فإنَّما يقدح بالواسطة التي تربط المسلمين برسول الله ﷺ، فالذي يقدح فيهم يقدح بالصلة الوثيقة التي تربط الناس برسول الله ﷺ.

فإذا حصل لهم ميزة وخصيصة وهي أنهم اختيروا لصحبة رسول الله ﷺ فشرفهم الله في هذه الحياة الدنيا بالنظر إلى طلعته، وما حصل ذلك لأحد سواهم رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم، وشرفهم الله سبحانه وتعالى بأن سمعوا كلام الرسول من فمه الشريف ﷺ فتلقوا هذا الخير، وهذا النور، وهذا الهدى، وأدَّوه إلى من بعدهم، فكل إنسان يأتي بعدهم فلهم عليه منّة، ولهم عليه فضل؛ لأن هذا الهدى، وهذا النور، وهذا الخير الذي حصل لهم لم يحصل إلَّا بواسطة أولئك الأخيار رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم، وقد ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً»(١).

فهذا الحديث الشريف لأصحاب رسول الله ﷺ من مقتضاه القسط الأكبر، والحظ الأوفر؛ وذلك لأنهم هم الذين تلقوا هذا الهدى وهذا النور من رسول الله ﷺ وأدّوه إلى من بعدهم، فكل من استفاد منه فلهم مثل أجره إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وقبلهم رسول الله ﷺ الذي جاء بهذا الخير وهذا الهدى، فكل من اهتدى ودخل في دين الله وعمل صالحاً، فإن الله يثيب نبيه ﷺ بمثل ما يثيب به ذلك العامل من غير أن ينقص من أجر العامل شيء؛ لأن الرسول ﷺ هو الذي دعا الناس إلى هذا الهدى، فله مثل أجور كل من استفاد خيراً بسببه صلوات الله

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٦٠).

وسلامه عليه، وأصحاب رسول الله ﷺ لهم القسط الأكبر والحظ الأوفر من ذلك؛ لأنهم هم الذين تلقوا هذا الهدى وأدّوه إلى من بعدهم، فهم الذين جمعوا القرآن، وهم الذين حفظوه، وهم الذين أوصلوه إلى من بعدهم، وهم الذين تلقوا سنّة رسول الله ﷺ، ورضي الله تعالى عنهم، وأدوها إلى من بعدهم، فصار لهم الثواب الجزيل، ولهم الأجر العظيم، ولهم الحظ الأوفر من دعوة الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ في الحديث الصحيح الذي قال فيه: «نضّر الله امرءاً سمع مقالتي فوعاها، وأدّاها كما سمعها».

فإنهم هم الذين سمعوا منه مباشرة وبدون واسطة، فهذه خصيصة حصلت لهم، رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم.

إذاً فإن هؤلاء الأخيار وهؤلاء الأسلاف هم الصلة الوثيقة التي تربطنا برسول الله ﷺ، ومن قدح بهؤلاء الذين هم الواسطة، فقد قطع الصلة بينه وبين رسول الله ﷺ وكفى بذلك ضلالاً وخذلاناً والعياذ بالله.

بعض أقوال السلف في الصحابة ﵃

بعد هذا أتلو عليكم بعض النقول التي تكلم بها سلف هذه الأمة في حق صحابة رسول الله ﷺ عموماً ويدخل فيهم معاوية ﵁، وكذلك ما تكلموا به في حق معاوية ﵁ على وجه الخصوص.

١ ـ يقول الطحاوي في عقيدته المشهورة: «ونحب أصحاب رسول الله ﷺ ولا نفرط في حبِّ أحد منهم، ولا نتبرّأ من أحد منهم، ونبغض من يبغضهم، وبغير الخير يذكرهم، ولا نذكرهم إلّا بخير، وحبُّهم دين وإيمان وإحسان، وبغضهم كفر ونفاق وطغيان».

٢ ـ وقال شارح الطحاوية: «فمن أضل ممن يكون في قلبه غلٌّ على خيار

المؤمنين، وسادات أولياء الله تعالى بعد النبيين؛ بل قد فضلهم اليهود والنصارى بخصلة؛ قيل لليهود: من خير أهل ملتكم؟ قالوا: أصحاب موسى.

وقيل للنصارى: من خير أهل ملتكم؟ فقالوا: أصحاب عيسى.

وقيل للرافضة: من شر أهل ملتكم؟ فقالوا: أصحاب محمد، ولم يستثنوا منهم إلَّا القليل، وفيمن سبوهم من هو خير ممن استثنوهم بأضعاف مضاعفة »[(١)].

٣ ـ وقال البغوي في شرح السّنّة: « قال مالك: من يبغض أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ وكان في قلبه عليه غلٌّ فليس له حق في فيء المسلمين، ثم قرأ قوله سبحانه وتعالى: ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ ﴾ الآية.

وذُكر بين يديه رجل ينتقص أصحاب رسول الله ﷺ فقرأ مالك هذه الآية ﴿ مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ ﴾ إلى قوله: ﴿ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَ ﴾.

ثم قال: من أصبح من الناس في قلبه غلّ على أحد من أصحاب النبي ﷺ فقد أصابته هذه الآية »[(٢)].

٤ ـ وقال الشوكاني عند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴾.

قال بعد أن فسر ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ ﴾ أي بعد المهاجرين

---

(١) انظر شرح الطحاوية (ص:٤٦٩).
(٢) انظر شرح السنة (١/ ٢٢٩).

والأنصار بأنهم التابعون لهم بإحسان إلى يوم الدين قال: « أمرهم الله سبحانه بعد الاستغفار للمهاجرين والأنصار أن يطلبوا من الله سبحانه أن ينزع من قلوبهم الغل للذين آمنوا على الإطلاق، فيدخل في ذلك الصحابة دخولاً أولياً؛ لكونهم أشرف المؤمنين، ولكون السياق فيهم، فمن لم يستغفر للصحابة على العموم، ويطلب رضوان الله لهم، فقد خالف ما أمره الله به في هذه الآية.

فإن وجد في قلبه غلّ لهم فقد أصابه نزغ من الشيطان، وحلَّ به نصيب وافر من عصيان الله بعداوة أوليائه وخيرة أمة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم، وانفتح له باب من الخذلان يفد به على نار جهنم إن لم يتدارك نفسه باللجوء إلى الله سبحانه والاستغاثة به بأن ينزع عن قلبه ما طرقه من الغل لخير القرون وأشرف هذه الأمة.

فإن جاوز ما يجده من الغل إلى شتم أحد منهم فقد انقاد للشيطان بزمام، ووقع في غضب الله وسخطه.

وهذا الداء العضال إنما يصاب به من ابتلي بمُعلِّم من الرافضة، أو صاحب أحداً من أعداء خير الأمة، الذين تلاعب بهم الشيطان، وزين لهم الأكاذيب المختلقة، والأقاصيص المفتراة، والخرافات الموضوعة، وصرفهم عن كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وعن سنّة رسول الله ﷺ المنقولة إلينا بروايات الأئمة الأكابر في كل عصر من العصور، فاشتروا الضلالة بالهدى، واستبدلوا الخسران العظيم بالربح الوافر، وما زال الشيطان الرجيم ينقلهم من منزلة إلى منزلة، ومن رتبة إلى رتبة حتى صاروا أعداء كتاب الله، وسنّة رسوله، وخير أمته، وصالحي عباده، وسائر المؤمنين، وأهملوا فرائض الله، وهجروا شعائر الدين، وسعوا في كيد الإسلام وأهله كل السعي،

ورموا الدين وأهله بكل حجر ومدر، والله من ورائهم محيط ».

هذا ما قاله الشوكاني رحمه الله في تفسيره عند هذه الآية، ثم قال: « أخرج الحاكم وصححه وابن مردويه عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: « الناس على ثلاث منازل، قد مضت منزلتان، وبقيت منزلة، فأحسن ما أنتم كائنون عليه أن تكونوا بهذه المنزلة التي بقيت، ثم قرأ: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ ﴾ الآية.

وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن الأنباري في المصاحف وابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها قالت: « أُمروا أن يستغفروا لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فسبوهم »، ثم قرأت هذه الآية: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ ﴾[1].

قلت: وقد أخرج مسلم في أواخر صحيحه هذا الحديث بدون تلاوة الآية.

٥ ـ وقال النووي في شرحه: « قال القاضي: الظاهر أنها قالت هذا عندما سمعت أهل مصر يقولون في عثمان ما قالوا، وأهل الشام يقولون في عليّ ما قالوا، والحرورية في الجميع ما قالوا ».

وأما الأمر بالاستغفار الذي أشارت إليه فهو قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ ﴾.

وبهذا احتج مالك بأنه لا حق في الفيء لمن سب الصحابة رضي الله عنهم؛ لأنَّ الله تعالى إنما جعله لمن جاء بعدهم ممن يستغفر لهم والله تعالى أعلم »[2].

---

(١) انظر فتح القدير (٥/ ١٩٧، ١٩٨).

(٢) انظر شرح النووي (١٨/ ١٥٨).

٦ ـ وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر رضي الله عنهما: «أنه سمع رجلاً وهو يتناول بعض المهاجرين فقرأ عليه ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ﴾ الآية، ثم قال: هؤلاء المهاجرون أفمنهم أنت؟ قال: لا، ثم قرأ عليه ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ ﴾ الآية، ثم قال: هؤلاء الأنصار أفأنت منهم؟ قال: لا، ثم قرأ عليه ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ ﴾ الآية، ثم قال، أفمن هؤلاء أنت؟ قال: أرجو. قال: ليس مِن هؤلاء مَن سبَّ هؤلاء»[(١)].

٧ ـ وقال الإمام أحمد بن حنبل في كتابه السّنّة: «من السنة ذكر محاسن أصحاب رسول الله ﷺ كلهم أجمعين، والكف عن الذي جرى بينهم، فمن سبَّ أصحاب رسول الله ﷺ أو واحداً منهم فهو مبتدع رافضي؛ حبهم سنّة، والدعاء لهم قربة، والاقتداء بهم وسيلة، والأخذ بآثارهم فضيلة.

وقال: لا يجوز لأحد أن يذكر شيئاً من مساوئهم، ولا يطعن على أحد منهم، فمن فعل ذلك فقد وجب على السلطان تأديبه وعقوبته، ليس له أن يعفو عنه، بل يعاقبه ثم يستتيبه، فإن تاب قبل منه؛ وإن لم يتب أعاد عليه العقوبة، وخلده في الحبس حتى يتوب ويراجع».

٨ ـ وقال الإمام أبو عثمان الصابوني في كتابه (عقيدة السلف وأصحاب الحديث): «ويرون الكف عما شجر بين أصحاب رسول الله ﷺ وتطهير الألسنة عن ذكر ما يتضمن عيباً لهم، أو نقصاً فيهم، ويرون الترحم على جميعهم، والموالاة لكافتهم».

٩ ـ وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في العقيدة الواسطية: «ومن أصول أهل السنة والجماعة سلامة قلوبهم وألسنتهم لأصحاب رسول الله ﷺ كما وصفهم

---

(١) انظر فتح القدير (٥/ ١٩٨).

الله في قوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾.

وطاعة للنبي ﷺ في قوله: «لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أنَّ أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مدّ أحدهم ولا نصيفه».

إلى أن قال: «ويتبرؤون من طريقة الروافض الذين يبغضون الصحابة ويسبونهم، وطريقة النواصب الذين يؤذون أهل البيت بقول أو عمل، ويمسكون عما جرى بين الصحابة، ويقولون: إن هذه الآثار المروية في مساوئهم منها ما هو كاذب ومنها ما قد زيد فيه ونقص، وغيّر عن وجهه، والصحيح منه هم فيه معذورون؛ إما مجتهدون مصيبون، وإما مجتهدون مخطئون.

وهم مع ذلك لا يعتقدون أن كل واحد من الصحابة معصوم عن كبائر الإثم وصغائره، بل يجوز عليهم الذنوب في الجملة، ولهم من السوابق والفضائل ما يوجب مغفرة ما صدر منهم إن صدر، حتى إنه يغفر لهم من السيئات ما لا يغفر لمن بعدهم؛ لأن لهم من الحسنات التي تمحو السيئات ما ليس لمن بعدهم، وقد ثبت بقول رسول الله ﷺ أنهم خير القرون، وأن المد من أحدهم إذا تصدق به كان أفضل من جبل أُحد ذهباً ممن بعدهم، ثم إذا كان قد صدر من أحدهم ذنب فيكون قد تاب منه، أو أتى بحسنات تمحوه، أو غفر له بفضل سابقته، أو بشفاعة محمد ﷺ الذي هم أحق الناس بشفاعته، أو ابتلي ببلاء في الدنيا كفِّر به عنه، فإذا كان هذا في الذنوب المحققة فكيف بالأمور التي كانوا فيها مجتهدين، إن أصابوا فلهم أجران، وإن أخطأوا فلهم أجر واحد، والخطأ مغفور.

ثم إن القدر الذي ينكر من فعل بعضهم نزر مغمور في جنب فضائل القوم ومحاسنهم، من الإيمان بالله ورسوله، والجهاد في سبيله، والهجرة، والنصرة، والعلم النافع، والعمل الصالح.

ومن نظر في سيرة القوم بعلم وبصيرة، وما منَّ الله عليهم به من الفضائل عَلِمَ يقيناً أنهم خير الخلق بعد الأنبياء، لا كان ولا يكون مثلهم، وأنهم الصفوة من قرون هذه الأمة التي هي خير الأمم وأكرمها على الله ».

١٠ ـ وقال الشيخ يحيى بن أبي بكر العامري اليمني في كتابه (الرياض المستطابة في من له رواية في الصحيحين من الصحابة): « وينبغي لكل صَيِّنٍ متدين مسامحة الصحابة فيما صدر بينهم من التشاجر، والاعتذار عن مخطئهم، وطلب المخارج الحسنة لهم، وتسليم صحة إجماع ما أجمعوا عليه على ما علموه؛ فهم أعلم بالحال، والحاضر يرى ما لا يرى الغائب، وطريقة العارفين الاعتذار عن المعائب، وطريقة المنافقين تتبع المثالب.

وإذا كان اللازم من طريقة الدين ستر عورات المسلمين، فكيف الظن بصحابة خاتم النبيين مع اعتبار قوله ﷺ: « لا تسبوا أحداً من أصحابي »، وقوله: « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه »، هذه طريقة صلحاء السلف وما سواها مهاوٍ وتلف »[1].

١١ ـ ونقل الحافظ ابن حجر في فتح الباري عن أبي المظفر السمعاني أنه قال: « التعرض إلى جانب الصحابة علامة على خذلان فاعله، بل هو بدعة وضلالة »[2].

---

(١) انظر الرياض المستطابة (ص:٣١١).
(٢) انظر فتح الباري (٤/ ٣٦٥).

١٢ ـ وقال الميموني: « قال لي أحمد بن حنبل: يا أبا الحسن، إذا رأيت رجلاً يذكر أحداً من الصحابة بسوء فاتهمه على الإسلام »[١].

١٣ ـ وروى الخطيب البغدادي في كتابه (الكفاية) بإسناده إلى أبي زرعة الرازي قال: « إذا رأيت الرجل ينتقص أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ فاعلم أنه زنديق؛ وذلك أن رسول الله ﷺ عندنا حق، والقرآن حق، وإنما أدى إلينا هذا القرآن والسنن أصحاب رسول الله ﷺ، وإنما يريدون أن يجرحوا شهودنا؛ ليبطلوا الكتاب والسّنّة، والجرح بهم أولى، وهم زنادقة »[٢].

١٤ ـ قال الحافظ ابن كثير رحمه الله في تفسير قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ﴾ الآية، قال: « فقد أخبر الله العظيم أنه قد رضي عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، فيا ويل من أبغضهم، أو سَبَّهم، أو أبغض أو سبَّ بعضهم، ولا سيما سيد الصحابة بعد الرسول ﷺ وخيرهم وأفضلهم، أعني الصديق الأكبر، والخليفة الأعظم أبا بكر ابن أبي قحافة رضي الله عنه؛ فإن الطائفة المخذولة من الرافضة يعادون أفضل الصحابة ويبغضونهم ويسبونهم عياذاً بالله من ذلك.

وهذا يدل على أن عقولهم معكوسة، وقلوبهم منكوسة، فأين هؤلاء من الإيمان بالقرآن إذ يسبون من رضي الله عنهم.

وأما أهل السنة فإنهم يترضون عمن رضي الله عنه، ويسبون من سبّه الله ورسوله، ويوالون من يوالي الله، ويعادون من يعادي الله، وهم متبعون لا

---

(١) انظر البداية والنهاية (٨/ ١٣٩).

(٢) انظر الكفاية (ص:٤٩).

مبتدعون، ويقتدون ولا يبتدون، ولهذا هم حزب الله المفلحون وعباده المؤمنون ».

١٥ ـ قال الحافظ ابن حجر العسقلاني رحمه الله: « واتفق أهل السنة على وجوب منع الطعن على أحد من الصحابة بسبب ما وقع لهم من حروب، ولو عرف المحق منهم؛ لأنهم لم يقاتلوا في تلك الحروب إلَّا عن اجتهاد، وقد عفا الله تعالى عن المخطىء في الاجتهاد، بل ثبت أنه يؤجر أجراً واحداً، وأن المصيب يؤجر أجرين »[(١)].

من أقوال المنصفين في معاوية رضي الله عنه

ومن أقوال المنصفين في معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه ما يلي:

١ ـ قال الموفق بن قدامة المقدسي في (لمعة الاعتقاد): « ومعاوية خال المؤمنين، وكاتب وحي الله، وأحد خلفاء المسلمين رضي الله عنهم ».

٢ ـ وقال شارح الطحاوية: « وأول ملوك المسلمين معاوية، وهو خير ملوك المسلمين ».

٣ ـ وقال الذهبي في (سير أعلام النبلاء): « أمير المؤمنين ملك الإسلام ».

٤ ـ وروى البيهقي عن الإمام أحمد أنه قال: « الخلفاء: أبو بكر وعمر وعثمان وعليّ. فقيل له: فمعاوية. قال: لم يكن أحد أحق بالخلافة في زمان عليّ من عليّ ورحم الله معاوية ».

٥ ـ وروى ابن أبي الدنيا بسنده إلى عمر بن عبد العزيز أنه قال: « رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام وأبو بكر وعمر جالسان عنده، فسلمت عليه

(١) فتح الباري (١٣/ ٣٤).

وجلست، فبينا أنا جالس أُتيَ بعليّ ومعاوية فأدخلا بيتاً وأجيف الباب، وأنا أنظر، فما كان بأسرع من أن خرج عليّ وهو يقول: قضي لي ورب الكعبة، ثم ما كان بأسرع من أن خرج معاوية وهو يقول: غفر لي ورب الكعبة ».

٦ ـ وروى ابن عساكر عن أبي زرعة الرازي: « أنه قال له رجل: إني أبغض معاوية، فقال له: ولِمَ؟ قال: لأنه قاتل علياً، فقال له أبو زرعة: ويحك إن رب معاوية رحيم، وخصم معاوية خصم كريم، فأيش دخولك أنت بينهما، رضي الله تعالى عنهما ».

٧ ـ وسئل الإمام أحمد عما جرى بين عليٍّ ومعاوية فقال: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾. وكذلك قال غير واحد من السلف.

٨ ـ وسئل ابن المبارك عن معاوية، فقال: « ماذا أقول في رجل قال رسول الله ﷺ: سمع الله لمن حمده. فقال معاوية خلفه: ربنا ولك الحمد ».

ومعلوم أن (سمع) بمعنى استجاب، فمعاوية حصل له هذا الفضل وهو الصلاة خلف رسول الله ﷺ، والرسول ﷺ قال: « سمع الله لمن حمده »، ومعاوية رضي الله عنه كان ممن يصلي وراءه ويقول: ربنا ولك الحمد.

فقيل له ـ أي ابن المبارك ـ أيهما أفضل هو أو عمر بن عبد العزيز؟ فقال: « لَتُرابٌ في منخري معاوية مع رسول الله ﷺ خير وأفضل من عمر بن عبد العزيز ».

٩ ـ وسئل المعافى بن عمران: أيهما أفضل، معاوية أو عمر بن عبد العزبز؟ فغضب وقال للسائل: « أتجعل رجلاً من الصحابة مثل رجل من التابعين؛ معاوية صاحبه، وصهره، وكاتبه، وأمينه على وحي الله ».

١٠ ـ وقال الفضل بن زياد: سمعت أبا عبد الله (يعني الإمام أحمد) ـ وقد سئل عن رجل تنقص معاوية وعمرو بن العاص أيقال له: رافضي؟ ـ فقال: «إنه لم يجترىء عليهما إلَّا وله خبيئة سوء؛ ما انتقص أحد أحداً من الصحابة إلَّا وله داخلة سوء».

١١ ـ وقال ابن المبارك عن محمد بن مسلم عن إبراهيم بن ميسرة قال: «ما رأيت عمر بن عبد العزيز ضرب إنساناً قطّ إلَّا إنساناً شتم معاوية، فإنه ضربه أسواطاً».

١٢ ـ وقال أبو توبة الربيع بن نافع الحلبي: «معاوية ستر لأصحاب محمد ﷺ فإذا كشف الرجل الستر اجترأ على ما وراءه».

وهذه النقول المتقدمة أكثرها في كتاب (البداية والنهاية) لابن كثير في ترجمة معاوية[١].

وقد عقد الإمام البخاري رحمه الله في كتاب فضائل الصحابة من صحيحه باباً قاله فيه: «باب ذكر معاوية رضي الله تعالى عنه»، أورد فيه ثلاثة أحاديث

أحدها: عن ابن أبي مليكة قال: «أوتر معاوية بعد العشاء بركعة، فأتي ابن عباس، فقال: دعه فإنه قد صحب رسول الله».

ثانيها: عن ابن أبي مليكة قيل لابن عباس: «هل لك في أمير المؤمنين معاوية؟ فإنه ما أوتر إلَّا بواحدة، فقال: إنه فقيه».

ثالثها: عن معاوية ﷺ قال: «إنكم تصلون صلاة لقد صحبنا النبي ﷺ ما رأيناه يصليها، ولقد نهى عنهما يعني الركعتين بعد العصر».

قال الحافظ ابن حجر في شرحه: «عبر البخاري في هذه الترجمة بقوله ذِكْر

---

(١) انظر البداية والنهاية لابن كثير، ترجمة معاوية (٨/ ١٣٠ ـ ١٣٩).

ولم يقل فضيلة أو منقبة؛ لكون الفضيلة لا تؤخذ من حديث الباب إلّا أن ظاهر شهادة ابن عباس له بالفقه والصحبة دالة على الفضل الكثير، وقد صنّف ابن أبي عاصم جزءاً في مناقبه، وكذلك أبو عمر غلام ثعلب، وأبو بكر النقاش، وأورد ابن الجوزي في الموضوعات بعض الأحاديث التي ذكروها، ثم ساق عن إسحاق بن راهويه أنه قال: لم يصح في فضائل معاوية شيء، فهذه النكتة في عدول البخاري عن التصريح بلفظ منقبة اعتماداً على قول شيخه، لكنه بدقيق نظره استنبط ما يدفع به رؤوس الروافض »(١).

وورد في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال في معاوية: « لا أشبع الله بطنه ».

فروى بسنده إلى ابن عباس قال: « كنت ألعب مع الصبيان، فجاء رسول الله ﷺ فتواريت خلف الباب، قال: فجاء فحطأني حطأة يعني ضرب بيديه بين كتفي، وقال: « اذهب وادع لي معاوية ». قال: فجئت وقلت: هو يأكل. ثم قال: « اذهب فادع لي معاوية ». قال: فجئت فقلت: هو يأكل. قال: « لا أشبع الله بطنه ».

وقد ختم مسلم رحمه الله بهذا الحديث الأحاديث الواردة في دعاء النبي ﷺ أن يجعل ما صدر منه من سب ودعاء على أحد ليس هو أهلاً لذلك أن يجعله له زكاة، وأجراً، ورحمة، وذلك كقوله: « تربت يمينك، وثكلتك أمك، وعقرى حلقى، ولا كبرت سنك »، فقد أورد في صحيحه عدّة أحاديث.

أحدها هذا الحديث، وقبله حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كانت أم سليم يتيمة، وأم سليم هي أم أنس، فرآها رسول الله ﷺ فقال: « آنت هي لقد

---

(١) انظر الفتح (٧/ ١٠٣-١٠٤).

كبرتِ لا كبر سنّك ». فرجعت اليتيمة إلى أم سليم تبكي، فقالت لها أم سليم: ما لك يا بنية؟ فقالت الجارية: دعا عليَّ النبي ﷺ أن لا يكبر سنّي، فالآن لا يكبر سني أبداً، أو قالت قرني. فخرجت أم سليم مستعجلة تلوث خمارها، حتى لقيت رسول الله ﷺ، فقال لها رسول الله ﷺ: « ما لك يا أم سليم؟ »، قالت: يا رسول الله، أدعوت على يتيمتي؟ قال: « وما ذاك يا أم سليم؟ »، قالت: زَعَمَتْ أنك دعوت عليها أن لا يكبر سنها ولا يكبر قرنها. قال: فضحك رسول الله ﷺ ثم قال: « يا أم سليم، أما تعلمين أن شرطي على ربي أني اشترطت على ربي فقلت: إنما أنا بشر أرضى كما يرضى البشر، وأغضب كما يغضب البشر، فأيما أحد دعوت عليه من أمتي بدعوة ليس لها بأهل أن يجعلها له طهوراً وزكاة وقربة يقربه بها منه يوم القيامة ».

وعقب هذا الحديث مباشرة أورد مسلم ﷺ الحديث الذي قال فيه رسول الله ﷺ في معاوية: « لا أشبع الله بطنه ».

وهذا من حسن صنيع مسلم ﷺ وجودة ترتيبه لصحيحه، وهو من دقيق فهمه، وحسن استنباطه ﷺ.

وقد قال النووي ﷺ في شرحه[(١)]: « وقد فهم مسلم ﷺ من هذا الحديث أن معاوية لم يكن مستحقاً للدعاء عليه، فلهذا أدخله في هذا الباب، وجعله غيره من مناقب معاوية ».

يعني وجعله غير مسلم من مناقب معاوية؛ لأنه يصير في الحقيقة دعاءً له.

وقال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴾ [الإسراء:٣٣]، قال: « وقد

---

(١) انظر شرح النووي (١٦/ ١٥٦).

أخذ الحبر ابن عباس من عموم هذه الآية الكريمة ولاية معاوية السلطة، وأنه سيملك؛ لأنه كان وليَّ عثمان، وقد قتل عثمان مظلوماً رضي الله تعالى عنه، وكان معاوية يطالب علياً رضي الله عنه أن يسلمه قَتَلَته حتى يقتصَّ منهم، لأنه أموي وكان عليٌّ رضي الله عنه يستمهله في الأمر حتى يتمكن ويفعل ذلك، ويطلب من معاوية أن يسلمه الشام فيأبى معاوية ذلك حتى يسلمه القتلة، وأبى أن يبايع علياً هو وأهل الشام، ثم مع المطاولة تمكَّنَ معاوية، وصار الأمر إليه كما قاله ابن عباس، واستنبطه من هذه الآية الكريمة، وهذا من الأمر العجب».

وفي صحيح البخاري عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «آية الإيمان حب الأنصار، وآية النفاق بغض الأنصار».

وقد ذكر الحافظ ابن حجر في الفتح: «أن هذا الفضل للأنصار يشاركهم فيه من كان مشاركاً في المعنى الذي من أجله حصل لهم ذلك الفضل، وهو نصرتهم لرسول الله ﷺ».

ثم قال: وقد ثبت في صحيح مسلم عن عليّ أن النبي ﷺ قال له: «لا يحبك إلَّا مؤمن ولا يبغضك إلَّا منافق»، وهذا جارٍ باطراد في أعيان الصحابة.

قال صاحب المفهم: «وأما الحروب الواقعة بينهم، فإن وقع من بعضهم بغض لبعض فذاك من غير هذه الجهة، بل للأمر الطارئ الذي اقتضى المخالفة؛ ولذلك لم يحكم بعضهم على بعض بالنفاق، وإنما كان حالهم في ذلك حالَ المجتهدين في الأحكام، للمصيب أجران، وللمخطئ أجر واحد، والله تعالى أعلم»[1].

وقال الشيخ يحيى بن أبي بكر العامري اليمني في كتابه (الرياض المستطابة)

---

(١) انظر فتح الباري (١/ ٦٣).

في ترجمة أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: « ونقل السيد الإمام الشريف محمد بن إبراهيم بن المرتضى رضي الله عنه أن بغض عليّ إنما كان علامة النفاق في أول الإسلام؛ لأنه كان ثقيلاً على المنافقين، ولذلك جاء في الأنصار أن بغضهم علامة النفاق أيضاً، وحبهم وحب عليّ علامة الإيمان.

واستدل على ذلك بأن الخوارج يبغضون علياً ويكفرونه مع الإجماع على أنهم غير منافقين، وإن كان ذنبهم عظيماً ومروقهم من الإسلام منصوصاً، والباطنية يحبونه مع الإجماع على كفرهم، ثم كذلك الروافض يحبونه مع ضلالتهم وفسوقهم، وعلى كل حال فلا يصدر سبّ أهل السوابق من الصحابة وتتبع عوراتهم، والتنقيش والتفتيش عن مثالبهم عن ذي قلب سليم، ودين مستقيم، نسأل الله العافية والسلامة »[1].

وقال الحافظ الذهبي في كتابه (ميزان الاعتدال): « فإن قيل: كيف ساغ توثيق مبتدع، وحدُّ الثقة العدالة والإتقان؛ فكيف يكون عدلاً من هو صاحب بدعة؟

والجواب: أن البدعة على ضربين: فبدعة صغرى كغلو التشيع، أو كالتشيع بلا غلوٍّ ولا تحرُّقٍ، فهذا كثير في التابعين وتابعيهم مع الدين والورع والصدق؛ فلو رُدَّ حديث هؤلاء لذهب جملة من الآثار النبوية، وهذه مفسدة بَيِّنَةٌ.

ثم بدعة كبرى كالرفض الكامل، والغلو فيه، والحط على أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، والدعاء إلى ذلك، فهذا النوع لا يحتج بهم ولا كرامة.

وأيضا فما أستحضر الآن في هذا الضرب رجلاً صادقاً ولا مأموناً، بل

---

(١) الرياض المستطابة (ص:١٩٥).

الكذب شعارهم، والتقية والنفاق دثارهم، فكيف يقبل نقلُ من هذا حاله؟ حاشا وكلاّ، فالشيعي الغالي في زمان السلف وعُرْفِهم هو من تكلم في عثمان، والزبير، وطلحة، ومعاوية، وطائفة ممن حارب علياً رضي الله عنه وتعرض لسبهم.

والغالي في زماننا وعرفنا هو الذي يكفر هؤلاء السادة، ويتبرأ من الشيخين أيضاً فهذا ضالٌّ مفترٍ »[1].

ومن المحدثين الذين وصفوا بالتشيع: الفضل بن دكين أبو نعيم شيخ البخاري.

قال الحافظ ابن حجر في مقدمة الفتح: « الثناء عليه في الحفظ والتثبت يكثر إلَّا أن بعض الناس تكلم فيه بسبب التشيع، ومع ذلك فصح أنه قال: « ما كتبت عليَّ الحفظة أني سَبَبْتُ معاوية »[2].

ومنهم محمد بن فضيل بن غزوان الكوفي، قال عنه الحافظ في المقدمة: « قلت: إنما توقف فيه مَن توقف لتشيعه، وقد قال أحمد بن عليّ الأبار: حدثنا أبو هاشم: سمعت ابن فضيل يقول: « رحم الله عثمان، ولا رحم الله من لا يترحم عليه ». قال: ورأيت عليه آثار أهل السنة والجماعة رحمه الله »[3].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: « لا يجوز لعنُ أحد من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ولا سبّه، ومن لعن أحداً منهم كمعاوية بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص، ونحوهما، أو من هو أفضل منهما كأبي موسى الأشعري، وأبي هريرة، وغيرهما، أو من هو أفضل من هؤلاء، كطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام،

---

(١) انظر الميزان (١/ ٥).
(٢) انظر مقدمة الفتح (ص:٤٣٤).
(٣) انظر مقدمة الفتح (ص:٤٤١).

وعثمان بن عفان، وعليّ بن أبي طالب، وأبي بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، أو عائشة أم المؤمنين، وغير هؤلاء من أصحاب النبي ﷺ، فإنه مستحق للعقوبة البليغة باتفاق أئمة الدين، وتنازع العلماء، هل يعاقب بالقتل أو بما دون القتل؟)).

وقال: ((المهاجرون من أوّلهم إلى آخرهم ليس منهم من اتهمه أحد بالنفاق، بل كلهم مؤمنون مشهود لهم بالإيمان)).

وقال: ((وأما معاوية بن أبي سفيان وأمثاله من الطلقاء الذين أسلموا بعد فتح مكة، كعكرمة بن أبي جهل، والحارث بن هشام، وسهيل بن عمرو، وصفوان بن أمية، وأبي سفيان ابن الحارث بن عبد المطلب، هؤلاء وغيرهم ممن حسن إسلامهم باتفاق المسلمين، لم يتهم أحد منهم بعد ذلك بنفاق، ومعاوية قد استكتبه رسول الله ﷺ منذ أسلم)).

وقال: ((لما مات يزيد بن أبي سفيان في خلافة عمر استعمل أخاه معاوية، وكان عمر بن الخطاب من أعظم الناس فراسةً، وأخبرهم بالرجال، وأقومهم بالحق، وأعلمهم به)).

وقال: ((فما استعمل عمر قط، بل ولا أبو بكر على المسلمين منافقاً، ولا استعملا من أقاربهما ولا كانت تأخذهما في الله لومة لائم)).

وقال: ((وقد علم أن معاوية، وعمرو بن العاص، وغيرهما كان بينهم من الفتن ما كان، ولم يتَّهمهم أحد من أوليائهم، ولا محاربيهم بالكذب على النبي ﷺ، بل جميع علماء الصحابة والتابعين بعدهم متفقون على أن هؤلاء صادقون على رسول الله ﷺ مأمونون عليه في الرواية عنه، والمنافق غير مأمون على النبي، كاذب عليه مكذب له)).

وقال: « وسائر أهل السنة والجماعة وأئمة الدين لا يعتقدون عصمة أحد من الصحابة، ولا القرابة، ولا السابقين ولا غيرهم، بل يجوز عندهم وقوع الذنوب منهم، والله يغفر لهم بالتوبة، ويرفع بها درجاتهم، ويغفر لهم بحسنات ماحية، أو بغير ذلك من الأسباب ».

وقال: « وهذا في الذنوب المحققة، وأما ما اجتهدوا فيه فتارة يصيبون، وتارة يخطئون، فإذا اجتهدوا فأصابوا فلهم أجران، وإذا اجتهدوا فأخطؤوا فلهم أجر على اجتهادهم، وخطؤهم مغفور ».

وقال: « ومعاوية لم يدَّع الخلافة، ولم يبايع له فيها حين قاتل عليّا، ولم يقاتل على أنه خليفة، ولا أنه يستحق الخلافة، ويقرون له بذلك، وكان هو يقر بذلك لمن يسأله، وما كان يرى هو وأصحابه أن يبتدئوا عليّاً وأصحابه بالقتال، بل لما رأى عليّ ﵁ وأصحابه أنه يجب على معاوية وأصحابه طاعته ومبايعته؛ إذ لا يكون للمسلمين إلَّا خليفة واحد، وأنهم خارجون عن طاعته يمتنعون عن هذا الواجب وهم أهل شوكة، رأى أن يقاتلهم حتى يؤدوا هذا الواجب فتحصل الطاعة والجماعة. وقال معاوية وأصحابه: إن ذلك لا يجب عليهم، وأنهم إذا قوتلوا كانوا مظلومين.

قالوا: لأن عثمان قتل مظلوماً باتفاق المسلمين، وقتَلَته في عسكر عليّ، وهم غالبون لهم شوكة ».

وقال: « ثم إن عماراً تقتله الفئة الباغية » ليس نصّاً في أن هذا اللفظ لمعاوية وأصحابه، بل إنه يمكن أنه أريد به تلك العصابة التي حملت عليه حتى قتلته وهي طائفة العسكر، ومن رضي بقتل عمار كان حكمه حكمها. ومن المعلوم أنه كان في العسكر من لم يرضَ بقتل عمار كعبد الله بن عمرو بن العاص،

وغيره، بل كل الناس كانوا منكرين لقتل عمار حتى معاوية وعمرو »[١].

خلاصة ما يجب اعتقاده فيما جرى بين الصحابة من الفتن:

والحاصل أن الفتن التي جرت بين الصحابة رضي الله عنهم يجب أن يكون حظ العاقل منها حسنَ الظن بالصحابة الكرام، والسكوت عن الكلام فيهم إلَّا بخير، والترضي عن الصحابة جميعاً، وموالاتهم، ومحبتهم، والجزم أنهم دائرون في اجتهاداتهم بين الأجر والأجرين.

ولقد أحسن شارح الطحاوية حيث قال بعد أن أشار إلى ما جرى بين عليّ ومعاوية رضي الله عنهما: « ونقول في الجميع بالحسنى: ﴿ **رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾ ».

ثم قال: « والفتن التي كانت في أيامه ـ أي أيام أمير المؤمنين عليّ رضي الله عنه ـ قد صان الله عنها أيدينا، فنسأله سبحانه وتعالى أن يصون عنها ألسنتنا بمنه وكرمه ».

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على خير خلقه، وأفضل رسله نبينا محمد بن عبد الله وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

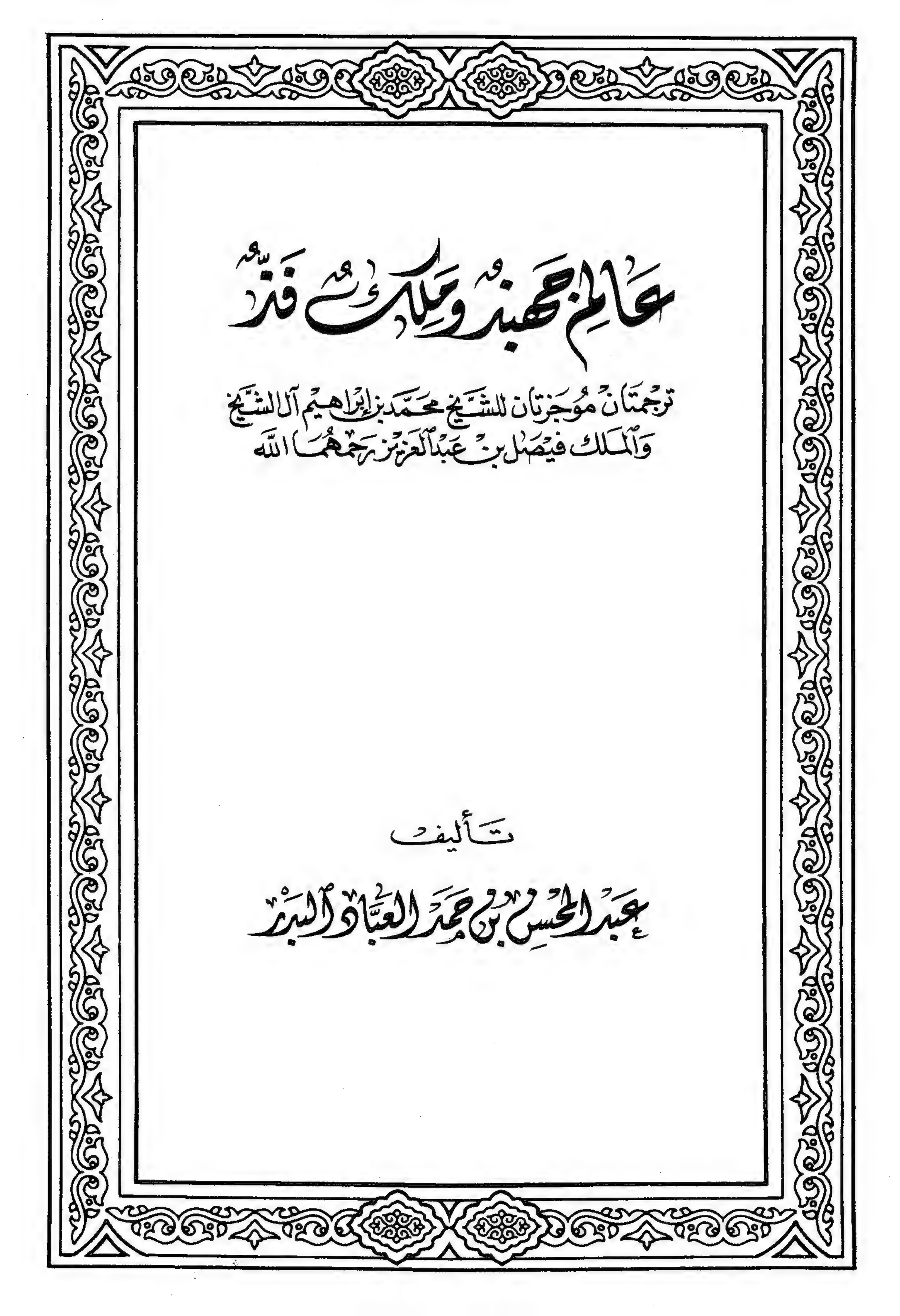
---

(١) وهذه النقول عن شيخ الإسلام من إجابته على سؤال في معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه طبع بتحقيق صلاح الدين المنجد.



الفهرس

* * *



عالم فذ وملك فذ

ترجمتان موجزتان للشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ
والملك فيصل بن عبد العزيز رحمهما الله

تأليف

عبد المحسن بن حمد العباد البدر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده وصلى الله وسلم وبارك على من لا نبي بعده نبينا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعهم بإحسان.

أما بعد:

فإن الذي يتتبع التاريخ يقف على حقيقة واضحة هي أن كثيراً من علماء المسلمين وحكامهم إذا انتقلوا عن هذه الحياة الدنيا لا يموت ذكرهم الحسن بموتهم بل يجعل الله لهم لسان صدق في الآخرين فيذكرونهم بالخير ويثنون عليهم بالجميل ويذكرون مآثرهم العظيمة وأعمالهم الجليلة ويدعون الله لهم بالمغفرة والمثوبة وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء وهو سبحانه ذو الفضل العظيم.

ولقد كان من هؤلاء الأعلام علمان بارزان وطودان شامخان هما سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ المتوفى يوم الأربعاء الموافق الرابع والعشرين من شهر رمضان عام ١٣٨٩هـ والملك فيصل بن عبد العزيز آل سعود المتوفى يوم الثلاثاء الموافق الثالث عشر من شهر ربيع الأول عام ١٣٩٥هـ رحمهما الله تعالى وأسكنهما فسيح الجنان، فإن لهذين الرجلين العظيمين حظاً وافراً من محبة الناس وثنائهم ودعائهم في حياتهما وبعد موتهما، وإن اجتماع ذلك العالم الجِهبذ بذلك الملك الفذ يذَكِّر باجتماع الإمام العظيم مجدد القرن الثاني عشر شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب بالإمام محمد بن سعود وتعاونهما في الدعوة إلى الله والسير على منهج الكتاب والسنة وما كان عليه سلف الأمة، وإن مما تتمتع به البلاد السعودية في هذا الزمن من أمن ورخاء هو من ثمار التمسك بالشريعة الإسلامية التي رفع علم تجديد الدعوة إليها في القرن الثاني عشر الإمامان

الجليلان محمد بن عبد الوهاب ومحمد بن سعود عليهما من الله الرحمة والمغفرة وجزاهما عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

هذا وإن من أعظم ما قامت به حكومة المملكة العربية السعودية تجاه العالم الإسلامي لتعليم العلم النافع والدعوة إلى الخير، إنشاء الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة في عام ١٣٨١هـ ولأهمية هذه المؤسسة العلمية العالمية كان سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم رئيس هذه الجامعة وكان الملك فيصل الرئيس الأعلى لها.

وقد كان كاتب هذه السطور كتب ترجمة موجزة لهذين العلمين البارزين عقب وفاتهما رحمهما الله ونشرت الترجمتان في مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة فرأيت مناسبة نشرهما معاً هنا. والله ولي التوفيق.

عبد المحسن بن حمد العباد البدر

المدينة المنورة

١٢/ ٥/ ١٤٠٢هـ

عالم جِهْبِذ[1]

في اليوم الرابع والعشرين من شهر رمضان المبارك من عام ١٣٨٩هـ فقدت المملكة العربية السعودية علمها الشامخ وكوكبها الأغر ونجمها اللامع ومشعلها الوضاء سماحة المفتي ورئيس القضاة ورئيس الجامعة الإسلامية والكليات والمعاهد العلمية الشيخ الجليل العالم العامل الذي طال عمره وحسن عمله محمد بن إبراهيم آل الشيخ محمد بن عبد الوهاب غفر الله له ورحمه، وكان لوفاته الأثر البالغ في النفوس لما للفقيد رحمه الله من مكانة مرموقة وأعمال جليلة، وهذه لمحة قصيرة عن سماحته رأيت إثباتها في مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة التي هي إحدى المؤسسات العلمية التي يرأسها سماحته في أول عدد يصدر بعد وفاته، وموضوع الحديث عن سماحته مشاع لا يخفى على الكثير من الناس لكنها الرغبة في أداء بعض ما يجب لهذا الرجل الفذ الذي جمع بين العلم والعمل، رحم الله الفقيد ولا فتننا بعده وإنا لله وإنا إليه راجعون.

نسبه

هو صاحب السماحة الشيخ الجليل أبو عبد العزيز محمد بن الشيخ إبراهيم المتوفى سنة ١٣٢٩هـ رحمه الله ابن الشيخ عبد اللطيف المتوفى سنة ١٢٩٣هـ رحمه الله ابن الشيخ عبد الرحمن بن حسن المتوفى سنة ١٢٨٥هـ رحمه الله ابن شيخ الإسلام الإمام الجليل مجدد القرن الثاني عشر محمد بن عبد الوهاب المتوفى سنة ١٢٠٦هـ رحمه الله ينتهي نسبه إلى ذلك الإمام المبارك الذي أظهر الله به السنة

---

(١) في القاموس(١/ ٣٥٢): الجهبذ بالكسر النقاد الخبير.

المحمدية في وقت اشتدت فيه غربة الدين وكثر فيه تعلق الخلق بغير رب العالمين، فأرشد الناس إلى الصراط المستقيم صراط المنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحذرهم من طرق الجحيم الطرق التي سلكها أعداء الله من المغضوب عليهم والضالين فجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خيراً.

ولادته ونشأته وأبرز شيوخه وتلامذته

ولد رحمه الله وغفر له في اليوم السابع عشر من شهر المحرم سنة إحدى عشرة بعد الثلاثمائة والألف ١٣١١هـ في مدينة الرياض ونشأ في بيت العلم والفضل والتقى والصلاح فتغذى بلبان العلم والإيمان وتسلح بسلاح المعرفة والعقيدة السليمة منذ نعومة أظفاره حتى آل أمره إلى أن صار مرجع العلماء وأبرز الفقهاء ونادرة الأذكياء، أخذ العلم عن والده الشيخ إبراهيم وعن عمه الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف وعن الشيخ سعد بن عتيق وعن الشيخ حمد بن فارس وغيرهم ممن فقهه الله في دينه ونور بصيرته ثم أخذ ينشر العلم ويرشد إلى الخير ويحذر من الشر صابراً محتسباً حتى تخرّج على يديه الأعداد الكبيرة من العلماء الذين قاموا بمهام القضاء والتدريس وغيرها في المملكة العربية السعودية، ومن أبرزهم: فضيلة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز نائبه في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة وفضيلة الشيخ عبد الله بن محمد بن حميد الرئيس العام للإشراف الديني بالمسجد الحرام[١].

---

(١) يشغل الآن الشيخ عبد العزيز بن باز منصب رئيس إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد ويشغل الشيخ عبد الله بن حميد منصب رئيس المجلس الأعلى للقضاء.

أعماله رحمه الله

بعد وفاة عمه الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف سنة ١٣٣٩هـ أسند إليه عمله وقام مقامه في الإفتاء ومشيخة علماء نجد وملحقاتها ثم تولى رئاسة القضاة في جميع أنحاء المملكة العربية السعودية، وعند تأسيس الكليات والمعاهد العلمية باقتراحه ومشورته أسندت إليه رئاستها ثم رئاسة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ورئاسة رابطة العالم الإسلامي وغيرها من الأعمال العظيمة التي أنيطت بسماحته والتي كان يزاولها بقوة وحزم إلى نهاية أمره، وما كان تقليد ولاة أمور المسلمين لسماحته هذه الأعمال إلَّا لكونه موضع الثقة التامة وما كان تقلده إياها إلَّا حرصاً منه على أن تسير الأمور فيها على أكمل وجه وأحسن حال.

هذا وإن المدة التي بين وفاة عمه الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف سنة ١٣٣٩هـ رحمه الله وبين وفاته رحمه الله سنة ١٣٨٩هـ خمسون سنة قضاها في الدعوة إلى الحق والجهاد في سبيل الله والذب عن شريعته والعمل بجد وحزم فيما ينفع المسلمين، أجزل الله له الثواب وأسكنه فسيح الجنان.

مؤلفاته

ورغم كثرة هذه الأعمال التي نهض بها والتي يشق القيام بها على الجماعة من الرجال، خلف وراءه من الفتاوى ما يبلغ المجلدات الكثيرة وقد جمع بعضها الشيخ عبد الرحمن بن قاسم وأكثرها في ملفات دار الإفتاء ونرجو الله تعالى أن يوفق المسؤولين لنشرها ليعم الانتفاع بها(١)، كما أن له نصائح توجيهية عامة وخاصة ورسائل قيمة كبيرة الفائدة قد طبع كثير منها.

---

(١) وقد تحقق ذلك بحمد الله وتمت طباعتها.

صفاته رحمه الله

وكان سماحته غفر الله له من الرجال القلائل الذين يعدون من نوادر الزمان لما منحه الله من الصفات الحميدة والخصال الجمة وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

فقد كان رحمه الله إلى جانب غزارة علمه وسعة اطلاعه وقوة ذاكرته راجح العقل ثاقب الرأي صبوراً حليماً ذا أناة وروية وذا شخصية فذة تذوب أمامها الشخصيات الكبيرة مهيب الجانب مع تواضعه وبعده عن الترفع عالي الهمة، رجل علم وعمل حافظاً لوقته معنياً بعمارته في خدمة الإسلام والمسلمين بعزيمة لا تعرف الكسل وهمة لا يشوبها فتور داعياً إلى الله على بصيرة لا يخشى في الله لومة لائم، إلى غير ذلك من الخصال الحميدة التي وفقه الله للاتصاف بها، وقد فقد بصره في السابعة عشرة من عمره، ولكن الله عوضه قوة في البصيرة ونوراً في القلب وإشراقاً في حياته المباركة المعمورة بتقوى الله والجهاد في سبيله.

وفاته رحمه الله

توفي رحمه الله تعالى ضحى يوم الأربعاء الموافق الرابع والعشرين من شهر رمضان المبارك سنة ١٣٨٩هـ وصلي عليه في المسجد الجامع الكبير في الرياض عقب صلاة الظهر، أَمَّ الناس في الصلاة عليه فضيلة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز، واكتظ المسجد بالمصلين عليه من خاصة الناس وعامتهم على الرغم من قصر المدة التي بين وفاته ووقت صلاة الظهر، وكان على رأس الذين حضروا للصلاة عليه الملك فيصل ـ حفظه الله ـ حيث أدى الصلاة عليه

مع الناس في الجامع الكبير ثم ذهب إلى المقبرة ولم يزل على حافة القبر حتى دفن رَحِمَهُ اللَّهُ، وقد نقل من المسجد إلى المقبرة على أكتاف الرجال في مسافة تقرب من اثنين كيلومتراً واكتظت الشوارع بالمشاة وبالسيارات التي تحمل المشيعين لجنازته ولم تكن المصيبة فيه مصيبة أسرة بل كانت المصيبة عامة يتمثل لها بقول الشاعر:

وما كان قيس هلكه هلك واحد ... ولكنه بنيان قوم تهدما[١]

وكانت وفاته رَحِمَهُ اللَّهُ على أثر مرض أصابه في كبده في أواخر شهر شعبان حيث دخل المستشفى في الرياض، وفي أوائل شهر رمضان سافر إلى لندن ثم عاد منها إلى الرياض في مساء يوم الخميس الثامن عشر من شهر رمضان، ومنذ عودته وهو في غيبوبة يفيق أحياناً فيذكر الله ويستغفره حتى توفاه الله تعالى، ومدة عمره ثمان وسبعون سنة وثمانية أشهر وثمانية أيام رَحِمَهُ اللَّهُ وغفر له، وأسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن يفتح له أبواب الجنة الثمانية ليدخل من أيها شاء إنه ولي ذلك والقادر عليه ولا حول ولا قوة إلَّا به.

وقد أرخت سنة وفاته بهذه الأبيات:

سماحة الشيخ العظيم المنزله ... الثاقب الرأي بحل المشكله

مفتي الديار رأس كل قضاتها ... مَعْ دور علم الشرع كل أنَّ له[٢]

وفاته بأحرف أرختها ... فقلت(جد جواد واغفر لي وله[٣]

---

(١) بيت من قصيدة رثى بها عبدة بن الطيب قيس بن عاصم بن سنان المنقري التميمي الصحابي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أورده الحافظ ابن حجر في ترجمته في الإصابة (٣/ ٢٤٣).

(٢) من الأنين أي حزن لوفاته.

(٣) نشر في مجلة الجامعة الإسلامية عدد شوال عام ١٣٨٩هـ.

تكميل

أصدرت صحيفة الدعوة التي تصدر بالرياض عدداً خاصاً عن الفقيد ﷺ وذلك في عددها (٢٣١) الصادر يوم الاثنين ١٣ شوال عام ١٣٨٩هـ يشتمل على سبع وعشرين مقالة نثراً وشعراً وقد وفق لنشر هذه المقالات في هذا العدد سعادة مدير عام مؤسسة الدعوة ورئيس التحرير في ذلك الوقت الأستاذ عبد الله بن إدريس، فشكر الله سعيه وأحسن جزاءه.

وهذه عناوين المقالات وهؤلاء كاتبوها على ترتيب أسمائهم:

(١) صفحات من حياة الفقيد. كلمة لإبراهيم بن عبد الله آل الشيخ.

(٢) مصاب أليم. كلمة لإبراهيم بن محمد بن إبراهيم آل الشيخ.

(٣) وانثل الطور. كلمة لأبي خالد.

(٤) عزاء. قصيدة لأبي سامي.

(٥) مصيبة كبرى. كلمة لإسماعيل الأنصاري.

(٦) ما ماتت النفس النفيسة وحدها. قصيدة لإسماعيل بن سعد بن عتيق.

(٧) عالم فقدناه. كلمة لحسن بن عبد الله آل الشيخ.

(٨) إلى رحمة الله. كلمة لحمد بن محمد بن فريان.

(٩) حادث جلل. كلمة لراشد بن صالح بن خنين.

(١٠) فقيد الإسلام. كلمة لسعد بن عبد العزيز الرويشد.

(١١) الشيخ محمد بن إبراهيم العالم الذي فقدته الأمة الإسلامية. كلمة لصالح بن إبراهيم المنيف.

(١٢) طمى بالورى فدح. قصيدة لصالح بن سليمان بن سحمان.

(١٣) رجل فقدناه. قصيدة لضياء الدين الصابوني.

(١٤) من ذا يقيس الدر بالأصداف. قصيدة لعبد الله بن إدريس.

(١٥) الكليات والمعاهد[1] ثمرة من جهود الشيخ محمد بن إبراهيم. كلمة لعبد الله التركي.

(١٦) فجيعة المملكة في شيخ القضاة وقاضي العلماء. كلمة لعبد الله بن سعد الرويشد.

(١٧) رجل علم وعمل. كلمة لعبد الرحمن رأفت الباشا.

(١٨) جفا جفني المنام. قصيدة لعبد الرحمن بن عبد العزيز بن سليمان بن سحمان.

(١٩) قصيدة لعبد الرحمن بن عبد العزيز بن محمد بن سحمان.

(٢٠) ولئن تفطرت القلوب. قصيدة لعبد العزيز بن محمد بن إبراهيم آل الشيخ.

(٢١) مات الطود. كلمة لفراج بن عليّ العقلاء.

(٢٢) سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ رحمه الله. كلمة لمحمد سرور الصبان.

(٢٣) يا للجراح فجيعها قمم النهى. قصيدة لمحمد بن سعد بن حسين.

(٢٤) رحيل ابن إبراهيم رزء وإنه. قصيدة لمحمد بن عبد العزيز بن هليل.

(٢٥) وداعاً أيها العلم. قصيدة لمحمد عبد المنعم خفاجي.

(٢٦) دمعة على الإمام الراحل. قصيدة لمحمد كامل الفقي.

(٢٧) لتبك الأمة الإسلامية على فقيدها. كلمة لمحمد لقمان السلفي.

---

(١) أطلق عليها فيما بعد سنة ١٣٩٤هـ اسم: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

مَلِكٌ فَذٌّ

في يوم الثلاثاء الموافق الثالث عشر من شهر ربيع الأول عام ١٣٩٥هـ توفي الملك فيصل بن عبد العزيز ملك المملكة العربية السعودية وإمام المسلمين وخادم الحرمين الشريفين وهو في سن الحادية والسبعين من عمره غفر الله له ورحمه، وقد خسر المسلمون بموته ذلك الفيصل العظيم والقائد المظفر والرجل الدؤوب على مصالح المسلمين وقد كان لوفاته الأثر البالغ في النفوس لا في مملكته وحدها ولا في العالم الإسلامي فحسب بل في العالم أجمع وذلك لما يتمتع به رحمه الله من خصال لا تجتمع إلّا في النادر من الرجال، فمن قوة عزيمة إلى تواضع جم إلى حنكة وطول تجارب إلى تحمس للدعوة إلى الله إلى اهتمام بالغ بتضامن المسلمين إلى غير ذلك من صفات حسنة وأخلاق كريمة، فقد فجع بنبأ موته الخاص والعام وبكاه الصغير والكبير وسمعت النبأ المحزن بوفاته وأنا عند أحد الأصدقاء بمدينة الرياض وكنا نسمع بكاء أطفاله من داخل المنزل حين سمعوا بوفاته رحمه الله، وخرجت مدينة الرياض عن بكرة أبيها للمصلى للصلاة عليه وامتلأت الشوارع وانسدت الطرق بين المصلى والمقبرة، وهذه المودة الصادقة والمحبة الشديدة التي تكنها له رعيته تذكر بالحديث الصحيح الذي رواه مسلم في صحيحه عن عوف بن مالك رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم وتصلون عليهم ويصلون عليكم...» الحديث، وستظل هذه المحبة للملك فيصل رحمه الله باقية بإذن الله في قلوب المسلمين وسيظل ذكره بالخير جارياً على ألسنتهم وسيلهجون بالدعاء له باستمرار بالمغفرة والرحمة وأن يجزيه الله الجزاء الأوفى على ما بذله من جهود عظيمة في سبيل إعلاء كلمة الله وإظهار دينه ونشر شريعته.

وكان انتقاله من هذه الدار إلى الدار الآخرة على أثر اعتداء يد أثيمة امتدت إليه خلسة وهو يواصل عمله ضحوة في مكتبه بمجلس الوزراء وقد شاء الله أن يكون رحمه الله عاملاً حتى اللحظة التي فارق فيها الحياة، وأن تكون كيفية مفارقته الحياة على نحو الكيفية التي فارق الحياة فيها الخلفاء الراشدون: عمر ابن الخطاب وعثمان بن عفان وعليّ بن أبي طالب رضي الله عنهم، إذ فارقوا الحياة الدنيا على أثر اعتداء أيد أثيمة امتدت إليهم، وكان رحمه الله يتمنى الشهادة في سبيل الله ونرجو أن يكون قد نالها، قال رحمه الله في خطبته التي ألقاها في موسم الحج عام ١٣٨٨هـ وهو يتحدث عن تحرير المسجد الأقصى: «أيها الإخوة المسلمون، نريدها غضبة ونهضة إسلامية لا تدخلها قومية ولا عنصرية ولا حزبية إنما دعوة إسلامية دعوة إلى الجهاد في سبيل الله، في سبيل ديننا وعقيدتنا دفاعاً عن مقدساتنا وحرماتنا، وأرجو الله سبحانه وتعالى أنه إذا كتب لي الموت أن يكتب لي الموت شهيداً في سبيل الله».

«إخواني: أرجو أن تعذروني إذا ارتج عليّ فإنني حينما أتذكر حرمنا الشريف ومقدساتنا تنتهك وتستباح وتمثل فيها المفاسد والمعاصي والانحلال الخلقي فإنني أدعو الله إذا لم يكتب لنا الجهاد لتخليص هذه المقدسات أن يبقيني لحظة واحدة على قيد الحياة».

أقول: أرجو أن يكون قد نال الشهادة التي تمناها فقد كانت حياته رحمه الله حياة جهاد وعمل متواصل في سبيل الله، والشهادة ليست مقصورة على شهيد المعركة بين المسلمين والكفار، فقد ثبت في صحيح البخاري أن عمر وعثمان رضي الله عنهما شهيدان، فأخرج في صحيحه عن أنس رضي الله عنه: أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم صعد أحداً وأبو بكر وعمر وعثمان فرجف بهم فقال: «اثبت أحد فإنما عليك نبي

وصديق وشهيدان... »»، وأخرج البخاري في صحيحه أن عمر بن الخطاب ﷺ قال: « اللهم ارزقني شهادة في سبيلك واجعل موتي في بلد رسولك ﷺ »»، ولم يكن موت عمر وعثمان رضي الله عنهما في معارك بين المسلمين والكفار وإنما كان باعتداء أيد أثيمة على كل منهما رضي الله عنهما وأرضاهما، وقد عقد الإمام النووي رحمه الله باباً في كتابه (رياض الصالحين) قال فيه: (**باب بيان جماعة من الشهداء في ثواب الآخرة ويغسلون ويصلى عليهم بخلاف القتيل في حرب الكفار**).

وأورد في هذا الباب خمسة أحاديث تشتمل على أصناف وصفهم رسول الله ﷺ بأنهم شهداء فيهم من قتل في سبيل الله ومن مات في سبيل الله ومن قتل دون ماله ومن قتل دون دمه ومن قتل دون دينه ومن قتل دون أهله والمطعون والمبطون والغريق وصاحب الهدم.

ومنذ وفاته رحمه الله تسلم قيادة السفينة من بعده الرجل الفاضل المتواضع ذو السجايا الحسنة والأخلاق الفاضلة الملك خالد بن عبد العزيز يشد أزره ولي عهده سمو الأمير فهد بن عبد العزيز وإخوانهم الكرام فسارت والحمد لله إلى بر النجاة وشاطىء السلامة بحول الله باسم الله مجراها ومرساها.

وأسأل الله تعالى أن يسدد خطاهم وأن يعينهم على كل خير وأن يعز بهم الإسلام ويرفع شأن المسلمين إنه ولي ذلك والقادر عليه وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه[١].

(١) نشر في مجلة الجامعة الإسلامية عدد ربيع الآخر عام ١٣٩٥هـ.

حظيت الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة بزيارة الملك فيصل رَحِمَهُ ٱللَّهُ ثلاث مرات، الأولى في عام ١٣٨٢هـ والأخيرة في مطلع عام ١٣٩٣هـ.

وقد استمع رَحِمَهُ ٱللَّهُ في زيارته الأولى إلى درس في التوحيد ألقيته على طلاب السنة الأولى من كلية الشريعة، وفي زيارته الأخيرة إلى درس في الفقه ألقيته على طلاب السنة الرابعة من كلية الشريعة، أما زيارته الثانية فكانت في أول شهر ذي القعدة من عام ١٣٨٤هـ.

وقد ارتجل في الحفل الذي أقامته الجامعة بمناسبة زيارته كلمة قيمة تفيض بالمعاني السامية والتوجيهات النافعة وألقى كاتب هذه السطور في هذا الحفل كلمة المدرسين في الجامعة. وفيما يلي نص الكلمتين المشار إليهما:

كلمة الملك فيصل رَحِمَهُ ٱللَّهُ التي ارتجلها في الجامعة الإسلامية

أيها الإخوة المسلمون:

إنَّه ليسرني في هذه اللحظة المباركة أن أتقدم إليكم بعظيم شكري وامتناني لما حبوتموني به من مظاهر العطف والرعاية، وإنني لأتقدم بالشكر بصورة خاصة إلى والدنا الكريم رئيس الجامعة وإلى الأخ العزيز نائبه الشيخ عبد العزيز بن باز، وإلى أساتذة ومديري وطلاب هذا المعهد العظيم لما رأيته ولمسته من روح وثابة وعزم أكيد لخدمة هذا الدين وأبناء المسلمين في أقطار العالم الإسلامي.

أيها الإخوة:

ليس غريباً أن أر وأسمع وألمس في هذه الجامعة ما يثلج الصدور ويبهج الخاطر من انطلاقة إسلامية كبرى أرجو لها النجاح وأرجو أن تؤتى ثمارها في

أقطار العالم الإسلامي لخدمة هذه الدعوة المباركة والنهوض بها والسعي إلى نشرها بين أبناء الملة الإسلامية، والدعوة إليها بين أبناء الملل الأخرى، وإنني لأرجو لها نجاحاً باهراً ما دامت ترتكز على مثل هذه السواعد ومثل هذه الروح الوثابة المنطلقة بحول الله لنشر هذا الدين والدعوة إليه والجهاد في سبيله.

أيها الإخوة:

إنَّ المسؤولية الملقاة على عواتقكم وعواتق الجميع مسؤولية كبرى فاسعوا إلى التفقه في دينكم ومعرفة كل ما يمكن معرفته لتكونوا مسلحين بسلاح العلم وسلاح الفقه وبسلاح المعرفة حتى تكونوا مستعدين لما يجابهكم من صعاب ومن دعوات مضللة ومن مجهودات يرغب ويأمل أصحابها في أن يأخذوا من هذا الدين وأن يحطوا من قدره وأن يهاجموه بكل ما أوتوا من قوة، وإنني لأرجو الله مخلصاً أن يهبكم الصبر والشجاعة والقوة لتكافحوا في سبيل هذا الدين ولتبصروا الناس بما يحتويه هذا الدين وما تحتويه هذه الدعوة والشريعة من مزايا ومن مكارم ومن أسس هي أصلح ما يكون للبناء، البناء الذي يهدف إلى صالح البشر وإلى خير الأمة ولا يهدف إلى التزوير وإلى البدع والمضللات وإلى هدم الكيانات البشرية وإلى هدم الأخلاق وكل ما هو كريم في بني الإنسان.

أيها الإخوة:

إن أمامكم طريقاً شاقاً وطريقاً طويلاً وصعاباً جمّة، وأرجو أن تتسلحوا لها بالعلم والعرفان والنفس المطمئنة الصابرة الحكيمة في الدعوة إلى الله، وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل:١٢٥]، وجادل الكفرة وجادل المشركين وجادل المرتدين

والملحدين والمعاندين حتى تلقمهم الحجة وتتغلب عليهم بالحكمة وبالعقل والصبر، فهذا هو السبيل إلى الدعوة وهذا هو السبيل إلى تنوير أذهان الناس وتبصيرهم فيما تحتويه هذه الدعوة وما يحتويه الشرع الإسلامي والدين الإسلامي من مزايا وخصائص لا يمكن أن تخطر على قلب بشر ولا يمكن أن ينكرها أو يجحدها إلَّا جاحد أو مكذب.

أيها الإخوة الكرام:

لا أريد أن أطيل عليكم وإنني واثق بحول الله من أن بين جنبات هذا المعهد من هم أحسن مني وأفقه مني وأعلم مني ممن ألقيت على عاتقهم مسؤولية تثقيفكم، أيها الإخوان ومسؤولية تنويركم لا أقول إلى الحق فإن الحق واضح ولكن لصقل أفكاركم ومداركم لتكونوا سلاحاً في يد الإسلام، في يد هذه الدعوة تبصرون الجاهل وتوضحون الطريق لمن أراد الإيضاح وتجابهون من أراد العنت والكفر والعناد بحجة واضحة، وقد قال صلوات الله وسلامه عليه: « **تركتكم على مثل محجة بيضاء لا يزيغ عنها إلَّا هالك** ».

فالحق واضح ولكن يحتاج إلى أن نهدي إليه الناس وأن نبصرهم بالسبل التي تؤول إلى الحق وتهتدي بالحق وتطلب الحق، فمن أراد الحق فهو واضح ومن أراد الجحود فلا حول ولا قوة إلَّا بالله، فإن في الإسلام والمسلمين بحول الله وقدرته من القوة والثبات ما يمكنهم من أن يدافعوا عن الحق أمام كل جاحد وكل مرتد وكل متكبر.

أيها الإخوان:

إن ما نقوم به في سبيل نشر العلم والدعوة إلى الله ونشر الثقافة الإسلامية ما هو إلَّا قليل مما يجب علينا ولكننا نسير حسب الإمكانيات وحسبما يتحمله

أو يقتدر عليه مجهود البشر ولكن ثقوا بحول الله أننا سائرون بكل ما أوتينا من قوة لنصر ديننا ولخدمة الإسلام وللدفاع عنه ولتبصير الناس به، فمن أراد الحق ومن أراد الخير فسبيله واضح ومن أراد غير ذلك استعنا عليه بالله سبحانه وتعالى ثم بقوة العقيدة والإصرار على التمسك بها، فإن أخشى ما يُخشى على المسلمين هو إدخال الشك في نفوسهم من عقيدتهم ومن دينهم وهذا ما يخشى على المسلمين منه، وإنني أرجو الله مخلصاً أن يجعلنا وإياكم من أنصار دينه وأن يحفظنا بالإسلام وأن يوفقنا لسبيل الحق والصواب.

ولي ملاحظة بسيطة أحب أن أقدمها للأخ نائب الرئيس، فقد تفضل وقال عني بأنني أمير المؤمنين وأني كذا وكذا، فأرجو أن يتقبل مني هذه الملاحظة فإنني لست في درجة من سلفوا من أمراء المؤمنين ومن خلفاء المسلمين وإنما أرجو أن يعتبروني هو وإخواني وكل من أتشرف بخدمتهم أن أكون خادم المسلمين وخادم المؤمنين وهذا أشرف ما يكون، أرجو من الله سبحانه وتعالى أن يوفقني بأن أقوم بهذا الواجب حسب إمكاني وأن يوفقني لخلوص النية والعمل الصالح الدائب إنه على كل شيء قدير.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

❊ ❊ ❊

كلمة ألقيتها بين يدي الملك فيصل رحمه الله

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على سيد المرسلين وإمام المتقين محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد:

فأصالة عن نفسي ونيابة عن إخوتي المدرسين في هذه الجامعة أتقدم بين يدي جلالتكم لإلقاء هذه الكلمة الوجيزة.

يا إمام المسلمين! لا شك أن تأسيس الجامعة الإسلامية من أعظم الحسنات التي وفق الله حكومتكم السنية لها فهي بحق مفخرة خالدة سجلها التاريخ في صفحاته الزاخرة بما لهذه الحكومة الموقرة من المكرمات، وقد حظيت من جلالتكم بالعناية التامة إذ رعيتموها حق رعايتها وبذلتم الوسع في سبيل السير بها إلى الأمام وتذليل الصعاب التي تعترضها.

ونبشركم أنها بحمد الله منذ تأسيسها جادة في التوجيه إلى الخير ونشر الدعوة في أقطار الأرض وها هي في آخر هذا العام الدراسي تؤتي ثمارها فيتخرّج أول فوج من أبنائها إن شاء الله تعالى، عددهم ما يقرب من خمسين طالباً ينتشرون في أنحاء المعمورة محققين بذلك بحول الله تعالى وقوته مدلول قوله تعالى: ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة:١٢٢].

وإنا لنرجو الله سبحانه أن يحقق الهدف الأسمى من تأسيسها فيفتح الله بسببها آذاناً صما عن استماع الحق وقلوباً غلفاً قد استحكم عليها غلافها حتى

صارت بعيدة عن الحق والاستنارة بضوئه وأعيناً عمياً عن النظر في الأدلة والبراهين التي نصبها الله لتدل على وجوده وأنه المستحق للعبادة دون ما سواه.

نعم يا إمام المسلمين إنها من أعظم الحسنات لحكومتكم الجليلة فهي ملتقى المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها لاسيما وقد كان تأسيسها في العاصمة الأولى للمسلمين مدينة رسول الله ﷺ في زمن تداعى أعداء الإسلام عليه من كل جانب ووضعوا المخططات الطويلة العريضة لغزوه بشتى الوسائل، وأنجع وسيلة توصلوا إليها مع الأسف غزوه بواسطة أبنائه والمنتسبين إليه وذلك بما يلصقونه به مما هو منه براء بعبارات لا تنطلي إلَّا على من بعدت الشقة بينه وبين تعاليم السماء.

فتأسيس هذه الجامعة المباركة في هذا الزمن فيه قيام ببعض الواجب إزاء هذه التيارات، وفق الله وله الحمد والمنة لهذا المشروع العظيم حكومتكم السنية زادها الله من التوفيق والهدى.

ولا ريب أن الدعوة إلى الله والعمل على نشرها والذب عن دين الله طريقة المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وقد أخبر النبي ﷺ عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه بعظم أجر الداعي إلى الله تعالى والمتسبب في إيصال الهدى إلى الخلق وأقسم على ذلك مؤكداً له بقوله ﷺ: « فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم ».

يا إمام المسلمين! في هذه المناسبة المباركة نرى لزاما علينا معشر المدرسين في هذه الجامعة أن نقوم بأداء بعض ما يجب لجلالتكم.

فجماع الخير في الدنيا والآخرة يحصل للمتقين فلهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وقد وعدهم الله وهو لا يخلف الميعاد أن يمكن لهم في الأرض فقال: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ

ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗا﴾ [النور:٥٥]، وقال: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ [الحج:٤٠-٤١]، وأخبر بأن لهم عند استحكام الشدائد مخرجاً، ومن أصدق الشواهد الواقعية على ذلك ما حصل للمسلمين يوم بدر من النصر المبين على قلة عددهم وعُدَدِهم.

وما ذكره النبي ﷺ من قصة الثلاثة الذين انحدرت عليهم صخرة وسدت باب الغار الذي أووا إليه ففرّج الله عنهم ما هم فيه بسبب تقواهم لله وإخلاصهم الأعمال الصالحة له سبحانه.

ومن ولاه الله أمر المسلمين فحمله ثقيل ومسؤوليته كبيرة لأنه سيسأل أمام الله عن نفسه وعن رعيته لقول الرسول ﷺ: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، فالإمام راع ومسؤول عن رعيته»، ولهذا يقول الإمام أحمد رحمه الله: «لو كانت لي دعوة مستجابة لجعلتها للأئمة لأن بصلاحهم صلاح الرعية»، وما أشبه من ولاه الله أمر المسلمين بالقلب الذي بيّن النبي ﷺ عظم مكانته بقوله: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب».

يا إمام المسلمين! أي إنسان ينوي سفراً فإنه يحتاط لنفسه فيحمل معه زاده وما يحتاج إليه، وإن الناس جميعاً في هذه الدار مسافرون ومسافة السفر مجهولة لكل أحد ومنتهى ذلك السفر الموت، وذلك السفر زاده الوحيد الذي لا ينتفع الإنسان بغيره هو تقوى الله، ولما ذكر الله زاد السفر في الدنيا إلى الحج وغيره نبّه إلى زاد الآخرة وأنه أفضل زاد فقال تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۖ

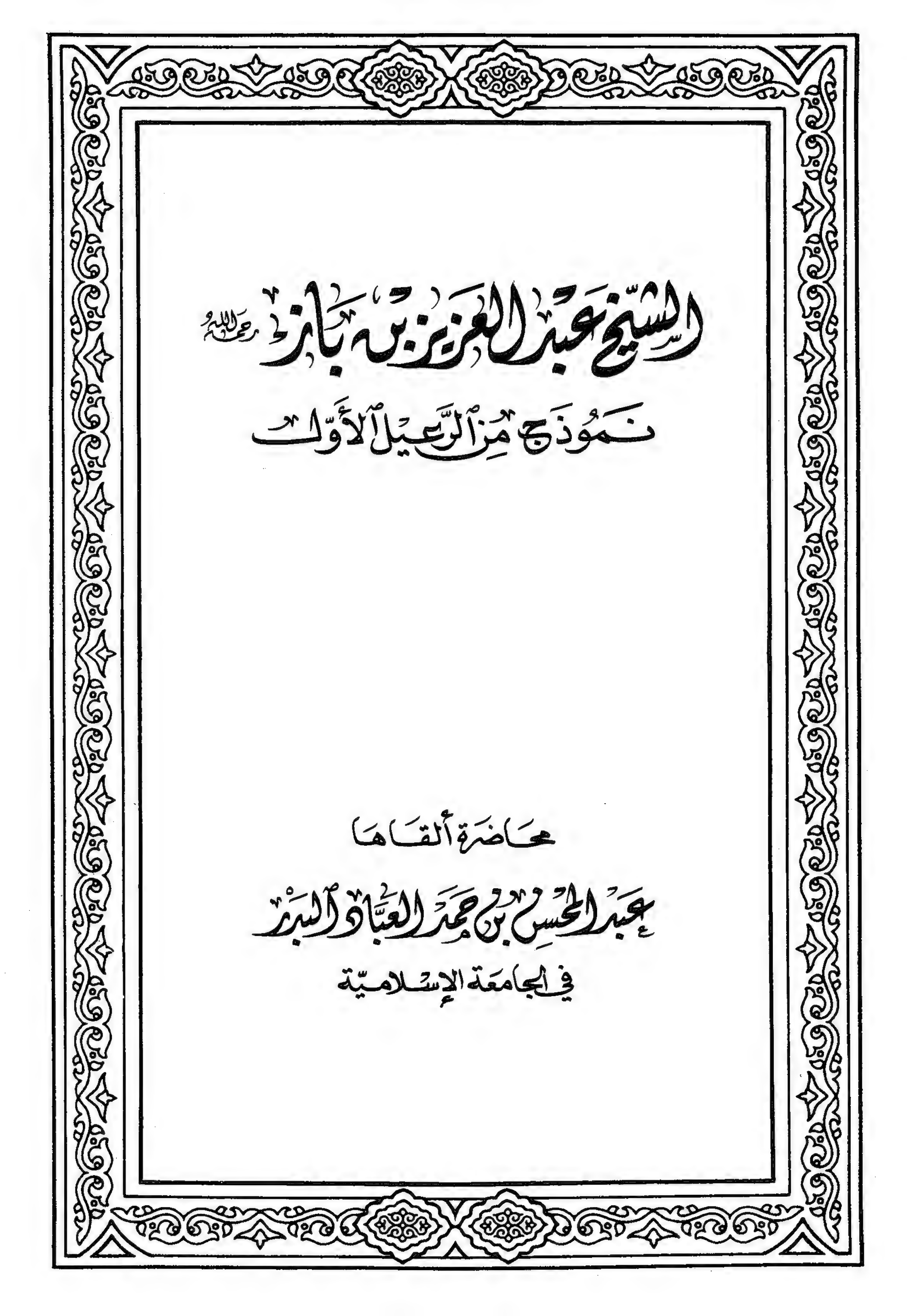
﴿وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة:١٩٧].

يا إمام المسلمين! البطانة الصالحة أعظم معوان على الحق ولهذا شبّه النبي ﷺ الجليس الصالح بحامل المسك وجليس السوء بنافخ الكير، وأحوج الخلق إلى البطانة الصالحة ولاة أمر المسلمين، وقد كان عمر بن عبد العزيز رحمه الله يقول لجلسائه: « من صحبني منكم فليصحبني بخمس: يدلني إلى ما لا أهتدي إليه من العدل، ويكون لي على الحق عوناً، ويبلغني حاجة من لا يستطيع إبلاغها، وأن لا يغتاب عندي أحداً، ويؤدي الأمانة التي حملها مني ومن الناس، فإذا كان كذلك فحي هلا وإلاّ فهو في حرج من صحبتي والدخول علي ».

يا إمام المسلمين! إن مما يكسب العبرة الوقوف على ما سجله التاريخ بين طياته من عبر وعظات، فهو مملوء من الصفحات المشرقة لأولياء الله الذين قاموا بأداء ما أوجبه الله عليهم، ومملوء من الصفحات المظلمة المبرهنة عما أوقع الله بأعدائه من العقاب، ففي مطالعة تلك الصفحات ما يحرك النفس ويبعث على النشاط في سبيل إعادة مجد الإسلام ورفع رايته لاسيما مطالعة ما سجله من سيرة الرسول ﷺ وسيرة الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز وغيرهم من الرجال المصلحين الذين وقفوا نفوسهم على إعلاء كلمة الله والعمل بما يرضيه.

ختاماً: نبتهل إلى الله أن يجعلكم من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلَّا ظله، وأن يمنّ عليكم بالتوفيق والتسديد في جميع ما تأتون وتذرون وأن ينصر بكم دينه ويعلي كلمته ويخذل بكم من أراد الإسلام وأهله بسوء إنه ولي ذلك والقادر عليه.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله

نموذج من الرعيل الأول

محاضرة ألقاها

عبد المحسن بن حمد العباد البدر

في الجامعة الإسلامية



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله نحمدُه ونستعينُه، ونستغفرُه ونتوبُ إليه، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِ اللهُ فلا مُضلَّ له، ومن يُضلل فلا هاديَ له، وأشهدُ أن لا إله إلَّا اللهُ وحده لا شريكَ له، وأشهدُ أنّ محمّداً عبدُه ورسولُه، وخليلُه وخيرتُه من خَلْقِه، أرسلهُ اللهُ تعالى بين يدي السّاعة بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، فدلَّ أمّتَهُ على كلِّ خير، وحذّرها من كلِّ شرّ، اللهمّ صلِّ وسلِّم وبارك عليه، وعلى آله وأصحابه، ومن سلكَ سبيلَهُ واهتدى بهديه إلى يوم الدِّين.

أمّا بعدُ:

أيُّها الإخوةُ، إنّ حديثي معكم هذه اللّيلة[1] في شخصٍ عرفهُ الخاصُّ والعامُّ، عرفتْهُ الدُّنيا مسلمُها وكافرُها، رجلٌ ـ فيما أحسبُ ـ أكبرُ شخصيّةٍ علميّةٍ في هذا العصر، يذكّرنا بما كان عليه سلفُ هذه الأمّة من العلماء العاملين والهداة المصلحين من غزارة علم، وكرم أخلاق، وسعة اطّلاع، وعموم نفع ونصح للإسلام والمسلمين، وهو بحقّ نموذج من الرّعيل الأوّل.

وهو سماحةُ الإمام العَلاّمة، المحدِّث الفقيه، شيخ الإسلام، ومفتي الأنام، مجدِّد القرن الخامس عشر، الشّيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز، رحمه الله وغفرَ له، ولن آتي بشيءٍ جديدٍ لا يعرفُه النّاسُ، فموضوعُ الحديث معروفٌ لدى الخاصِّ والعامِّ، ولكن أحببتُ أن أُدْلِيَ بدَلْوي مع الدِّلاء، وأن أذكُرَ شيئاً ممّا

(١) هي محاضرة ألقيت ليلة الجمعة السّادس من شهر صفر عام ١٤٢٠هـ في مسجد الجامعة الإسلاميّة بالمدينة المنوّرة، وقد فُرّغت من شريط التّسجيل وأُدخل عليها بعضُ التّعديلات.

يتعلّقُ بهذا الرّجُل العظيم، ولكي تكون المعلوماتُ عن هذا الرّجُل العظيم محصورةً فأنا أوجزُها في عشر نقاطٍ وهي:

أوّلاً: نسبُه، وولادتُه، ونشأتُه.

ثانياً: شيوخُه وتلاميذُه.

ثالثاً: أعمالُه التي تولاّها.

رابعاً: علمُه.

خامساً: عمومُ نفعِه.

سادساً: عبادتُه.

سابعاً: مؤلّفاتُه.

ثامناً: صلتي الخاصّةُ به.

تاسعاً: وفاتُه، وعَقِبُهُ، ومَنْ خَلَفَهُ.

عاشراً: أمنيّاتٌ ومقترحاتٌ.

هذه هي النِّقاطُ التي سيدورُ حولها الكلامُ عن هذا الرّجل الإمام العظيم رحمه الله.

أوّلاً: أقولُ -كما أسلفتُ-:

هو الإمامُ العلاّمةُ، المحدِّثُ الفقيهُ، شيخُ الإسلام، مفتي الأنام، مجدِّدُ القرن الخامس عشر، الشّيخُ عبدُ العزيز بن عبد الله بن عبد الرّحمن بن محمّد بن عبد الله آل باز.

وُلد في مدينة الرّياض في اليوم الثّاني عشر من الشّهر الثّاني عشر من عام ثلاثين بعد الثّلاثمائة والألف.

ونشأَ في أسرةٍ كريمةٍ فيها أهلُ علمٍ وفضلٍ، وكان رَحِمَهُ اللَّهُ منذ نشأته ذا همّةٍ عاليةٍ، وحرصٍ على تحصيل العلم، وجِدٍّ فيه، وقد حفظ القرآنَ قبل البلوغ، وكان رَحِمَهُ اللَّهُ بصيراً، وحصلَ له مرضٌ في السَّنَة السّادسة عشرة من عُمُرِه، ضعفَ فيها بصرُه، وأخذَ في الضَّعْفِ حتّى انتهى تماماً في سنِّ العشرين، ولكنّ الله عزّ وجلّ عوّضهُ بصيرةً في قلبِه، ونُوراً وإيماناً، فنشأ على علمٍ وفضلٍ، وجِدٍّ واجتهادٍ في تحصيل العلم، حتّى نبغَ في سنٍّ مبكّرةٍ رَحِمَهُ اللَّهُ.

ثانياً: أمّا شيوخُه الذين أخذَ عنهم العلمَ فمنهم

الشّيخُ محمّد بن عبد اللّطيف بن عبد الرّحمن بن حسن بن الشّيخ محمّد بن عبد الوهّاب رحمةُ الله على الجميع.

والشّيخُ صالح بن عبد العزيز بن عبد الرّحمن ابن حسن قاضي الرّياض.

والشّيخُ سعد بن حَمَد بن عَتيق قاضي الرّياض.

والشّيخُ حَمَد بن فارس وكيل بيت المال.

والشّيخُ سعد وَقّاص البخاريُّ أخذ عنه علمَ التّجويد في مكّة المكرّمة في سنة خمسٍ وخمسين وثلاثمائة وألف.

أمّا شيخُه الذي تتلمذَ عليه كثيراً، والذي لازمه سنينَ طويلةً، واستفادَ من علمِه، فهو سماحةُ الشّيخ محمّد بن إبراهيم بن عبد اللّطيف بن عبد الرّحمن ابن حسن بن الشّيخ الإمام محمّد بن عبد الوهّاب رحمةُ الله على الجميع، فقد دَرَسَ عليه العلومَ الكثيرةَ المتنوّعة، واستفادَ من علمه كثيراً، وكان رَحِمَهُ اللَّهُ يُجِلُّ شيخَهُ، ويثني عليه، ويدعُو له كثيراً، رحمةُ الله على الجميع، فهؤلاء هم أبرزُ شيوخه.

أمّا تلاميذه:

فهم كثيرون يصعبُ عدُّهم، وأستطيعُ أن أقولَ: إنّ الغالبيّةَ العظمى من القُضاة وأساتذة الجامعات في الكليّات الشّرعيّة، وكذلك في كثيرٍ من المعاهد والمدارس هم تلاميذُه أو تلاميذُ تلاميذِه، أو تلاميذُ تلاميذِ تلاميذِه، بل إنّ الأفواجَ الخمسةَ الأُولى الذين تخرّجُوا من كليّة الشّريعة في الرّياض، وهم الفوجُ الأوّلُ الذي تخرّج في عام ستّةٍ وسبعين وثلاثمائة وألف، وكذلك الأفواجُ التي تلتهُم، وآخرُها الفوجُ الذي تخرّج سنة ثمانين وثلاثمائة وألف، وهي السَّنَةُ التي تسبقُ انتقالَهُ إلى الجامعة الإسلاميّة حيث كان يدرِّسُ في كليّة الشّريعة، فهذه الأفواجُ الخمسةُ هم تلاميذُه مباشرةً، أخذُوا عنه مباشرةً، وأوّلُ فوجٍ تخرّجَ وأخذَ عنه العلمَ هو الذي تخرّج في عام ستّةٍ وسبعين وثلاثمائة وألف، ومن حين تخرّجُوا وهم إمّا في تدريسٍ وإمّا في قضاءٍ، ومن أخذَ عن هؤلاء المدرّسين هم تلاميذُ تلاميذِه، وكذلك الشّأنُ في الأفواج الأربعة الأخرى. وهكذا فيكون الكثيرُ من القُضاة والمدرِّسين في الجامعات وفي غيرها في العلوم الشّرعيّة هم ـ كما قلتُ ـ إمّا من تلاميذِه، أو تلاميذِ تلاميذِه، أو تلاميذِ تلاميذِ تلاميذِه.

وقد كان من فضل الله عزّ وجلّ عَلَيَّ أن كنتُ من تلاميذه الذين هم في الفوج الرّابع من الأفواج الخمسة الذين أخذُوا عن الشّيخ رحمه الله وغفرَ له.

وبعد انتقاله من المدينة إلى الرّياض كان له دروسٌ في جامع الإمام تركي بن عبد الله، وفي أحد المساجد القريبة من منزله، وأخذ عنه العلم فيها كثيرون من أساتذة الجامعات وغيرهم، فهؤلاء أيضاً من تلاميذه الذين أخذُوا عنه العلمَ.

ثالثاً: الأعمالُ التي تولّاها

أوّلُ عملٍ أُسند إليه القضاءُ في الخَرْجِ، وكان ذلك في شهر جُمادى الآخرة من عام سبعةٍ وخمسين وثلاثمائة وألفٍ، أي وهو في السّابعة والعشرين من عمره رحمه الله، واستمرّ في القضاء في الخَرْجِ إلى نهاية عام واحدٍ وسبعين وثلاثمائة وألفٍ.

ثمّ بعد ذلك انتقلَ إلى التّدريس في معهد الرّياض العلميّ، وكذلك في كليّة الشّريعة بعد إنشائها، واستمرّ في هذا العمل إلى نهاية عام ثمانين وثلاثمائة وألفٍ حيث فُتحت الجامعةُ الإسلاميّةُ في أوّل عام واحدٍ وثمانين وثلاثمائة وألف، وكان هو المباشرُ لإنشائها وتأسيسها نائباً لرئيسها سماحة المُفتي الشّيخ محمّد بن إبراهيم رحمه الله.

واستمرّ في الجامعة من العاشر من شهر ربيع الأوّل من سنة واحدٍ وثمانين وثلاثمائة وألفٍ إلى الرّابع عشر من شهر شوّال من سنة خمسٍ وتسعين وثلاثمائة وألفٍ، أي أنّه مكثَ فيها خمسةَ عشرَ عاماً.

ثمّ انتقلَ إلى رئاسة إدارة البحوث العلميّة والإفتاء والدّعوة والإرشاد واستمرّ فيها، وفي عام أربعة عشر وأربعمائة بعد الألف عُيِّن مفتياً عامّاً للملكة، ورئيساً لهيئة كبار العلماء وإدارة البحوث العلميّة والإفتاء.

وبالإضافة إلى ذلك كان يقومُ برئاسة المجلس التّأسيسي لرابطة العالَم الإسلامي، ورئاسة المجلس الأعلى العالمي للمساجد، ويقومُ أيضاً برئاسة المجمع الفقهي التّابع لرابطة العالَم الإسلامي، وأيضاً بعد انتقاله عن الجامعة صارَ عضواً في مجلسها الأعلى، وكان رئيسُها الأعلى خادمُ الحرمين الشّريفين حفظهُ اللهُ، وكان إذا غابَ عن الجَلَسات يُنيبُ سماحةَ الشّيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله.

رابعاً: علمه

كان رَحِمَهُ اللَّهُ عالماً كبيراً كما يعرفُ ذلك الخاصُّ والعامُّ، وكان عالماً ربّانيّاً، وقد نقلَ الحافظُ ابن حجر في فتح الباري عن ابن الأعرابي أنّه قال: لا يُقال للعالِمِ ربّانيّ حتّى يكون عالِماً عاملاً مُعلِّماً.

وقد كان كذلك فهو عالِمٌ وعاملٌ ومعلِّمٌ، وداعيةٌ إلى الله عزّ وجلّ على بصيرةٍ رَحِمَهُ اللَّهُ.

وكان إماماً في الدِّين، وقد قال شيخُ الإسلام ابن تيمية: بالصّبر واليقين تُنالُ الإمامةُ في الدِّين، قال اللهُ عزّ وجلّ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾.

وكان رَحِمَهُ اللَّهُ عالِماً بالحديث والفقه، له عنايةٌ بالدّليل، وحرصٌ على الرُّجوع إلى الأدلّة والتّمسُّك بها، والحثِّ على سلوك هذا المسلك، فكان معنيّاً بالحديث، ومعرفة صحيحه وضعيفه، ورجاله، ومن يُتكلَّمُ فيه منهم، وكان في فتاواه وفي دروسه يذكرُ ذلك فيقول: الحديثُ الفلانيُّ صحيحٌ، أو ضعيفٌ؛ لأنّ في سنده فلاناً، أو أنّه منقطعٌ، أو أنّه مرسلٌ، أو أنّه كذا، أو أنّه كذا.

وكان معنيّاً بالفقه رَحِمَهُ اللَّهُ، وهو المرجعُ في الفتوى في داخل المملكة وخارجها، وهو مفتي الأنام كما ذكرتُ، يرجعُ النّاسُ إليه في مختلف المسائل.

وكان يُعنى بذِكرِ القول أو الحكم مقروناً بدليله، وبيان وجهه، سواءً كان من المنقول أو من المعقول، رَحِمَهُ اللَّهُ.

وكان رَحِمَهُ اللَّهُ في تعقّبه على القول الذي يرى أنّه خلافُ الصّواب في غاية الأدب مع أهل العلم، فيقول: هذا القولُ فيه نظرٌ، والصّوابُ هو كذا وكذا، ومن يطّلع على حاشيته على فتح الباري التي تقع في الثّلاثة المجلّدات الأُولى

يجد ذلك واضحاً جليّاً، فإنّه عندما يتعقّبُ الحافظَ ابن حجرٍ أو من ينقل عنه في بعض المسائل يبدأُ بقوله: هذا القولُ فيه نظرٌ، والصّوابُ هو كذا وكذا، ويذكرُ الدّليلَ على ذلك، أمّا إذا كان القولُ ساقطاً أو باطلاً ظاهرَ البطلان مجانباً للحقِّ ومخالفاً للدّليل فإنّه يقول: هذا القولُ ظاهرُ البطلان، أو هذا القولُ غيرُ صحيحٍ، أو لا يصحُّ، قولٌ باطلٌ، أو ما إلى ذلك من العبارات.

وكان رحمه الله قد حصلَ له سؤددٌ في العلم، ومنزلةٌ عاليةٌ، ومكانةٌ رفيعةٌ، يشهدُ بذلك الخاصُّ والعامُّ، ولم يحصل هذا السُّؤدد من فراغٍ وإخلادٍ إلى الرّاحة، وإنّما حصّله بالجِّدِّ والاجتهاد منذ نعومة أظفاره، وهو رجلٌ عاملٌ جادٌّ، ذو همّةٍ عاليةٍ، والشّاعرُ يقول:

وإذا كانت النّفوسُ كباراً تعبتْ في مرادها الأجسادُ

فلم ينل ما نال ـ بعد توفيق الله ـ إلّا بالجِّدِّ والاجتهاد، والتّعب والنَّصَب والمشقّة، وبذل الجهد والصحّة و العافية في الاشتغال بالعلم، و نفع النّاس، رحمه الله.

وقد قال يحيى بن أبي كثيرٍ اليَمامِيّ كما ذكرهُ عنه الإمامُ مسلمٌ في صحيحه: لا يُستطاعُ العلمُ براحة الجسم.

ويقول الشّاعرُ:

لو لا المشقّةُ سادَ النّاسُ كلّهمُ الجُودُ يُفْقِرُ والإقدامُ قتّالُ

وقد كان رحمه الله صابراً محتسباً، جادّاً مُجِدّاً في جميع مراحل حياته، إلى أن توفّاهُ اللهُ عزّ وجلّ، وكان عاملاً في محلِّ العمل الرّسميّ، وفي المسجد، وفي الطّريق، وفي البيت، لا يعرفُ وقتاً للرّاحة إلّا الشّيء اليسير، فبابُه مفتوحٌ رحمه الله لاستقبال النّاس للاستفتاء، وطلب الشّفاعة والمُساعدة والنُّصح، وغير ذلك من الأمور التي يحتاجُ إليها النّاسُ.

فهو إنّما حصّلَ هذا السُّؤددَ وهذه المنزلةَ العاليةَ الرّفيعةَ بالجِّدِّ والاجتهاد، وبذل النّفس و النّفيس، رحمه الله وغفرَ له.

خامساً: عمومُ نفعِه

كان رحمه الله نافعاً للنّاس في علمِه، وفي نُصحِه، وأمرِه بالمعروف ونهيِه عن المنكر، والدّعوةِ إلى الخير، ومُساعدة النّاس بماله وبجاهه، كلُّ ذلك من أوجه عموم نفعه.

فهو داعيةٌ إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، في محاضراته وكلماته وكتاباته.

وكان يقوم بتعيين الدُّعاة في خارج المملكة على نفقة بعض المحسنين.

ومن عموم نفعه كثرةُ فتاويه سواءً عن طريق المقابلة واللِّقاء المباشر، أو عن طريق المهاتفة، أو عن طريق المراسلة، كلُّ ذلك كان يحصلُ من سماحته رحمه الله في نفع النّاس.

وكان رحمه الله عندما يقف على بعض الأخطاءِ في بعض الصّحف والمجلاّت يُنبِّهُ عليها بكلماتٍ تنشرُ في الصّحف أو في رسائل يكتبُها وتطبعُ مستقلّةً.

وكانت مجالسُه رحمه الله معمورةً بالعلم والنُّصح والنّفع وإفادة النّاس والإحسان إليهم، وهي مجالسُ تحضرُها الملائكةُ لأنّها معمورةٌ بذِكْرِ الله وبالعلم النّافع وبالنُّصح وبالنّفع للمسلمين، رحمه الله وغفرَ له.

وكان حريصاً على مساعدة المحتاجين، وتعمير المساجد، في داخل المملكة وخارجها، وفي مكتبه الخاصّ في بيته سجلاّتٌ بأشخاصٍ وبجهاتٍ مختلفةٍ يتلقّون المساعدات، سواءً كانوا من الفقراء أو من الدُّعاة، في داخل المملكة وخارجها.

وكان رحمه الله ذا لطفٍ وكرمٍ، وحسن ضيافةٍ، فعندما يأتيه الإنسانُ ويكونُ من بلدٍ غير البلد الذي هو فيه يبادرُ إلى دعوته إلى تناول طعام الغداء أو العَشاء، ويسألُ عن حاله وحال أبيه وأمّه إذا كانا موجودين، أو عن حال بعض أقاربه، وعن البارزين من أهل العلم في بلده، وهذا من كريم أخلاقه وفضله ونبله رحمه الله.

وكان يرتادُ منزلَه الفقراءُ والمحتاجُون، ومن جاءَ مستفتياً أو طالباً مساعدةً، ويشاركُونه في طعام الغداء أو العَشاء الذي يهيّأ كلّ يوم على قدرٍ يكفي لتلك الأعداد من ضيوفه رحمه الله.

وفي حجّ عام ألف وأربعمائة وتسعة عشر وهو العام الذي تخلّف فيه عن الحجّ في آخر حياته لمرض نصحه الأطبّاء بعدم السّفر للحجّ من أجله كلّف من يقومُ بفتح بيته في مكّة، ومخيّمه في منى، وصُنْعِ الولائم وتقديمها للنّاس الذين اعتادُوا أن يأتُوا إليه ليستفيدوا من علمه، ويشاركوه في طعامه، وكان يتّصلُ بمن كلّفه بذلك بالهاتف للاطمئنان على ذلك.

وكان يبذلُ جاهَهُ في الشّفاعة للنّاس وفي مساعدتهم في تحصيل مطالبهم وقضاء حوائجهم.

ثمّ إنّه كان يتيسّرُ لي أن أزورهُ في وقت الحجِّ في منزله وفي المخيّم في منى، وفي هذه السَّنَة لمّا تخلّف عن الحجِّ سافرتُ إلى مكّة لمَّا كان فيها قبل ذهابه إلى الطّائف بيومين، وذلك في يوم الخميس الموافق التّاسع والعشرين من شهر ذي الحجّة، ذهبتُ أنا وبعضُ أبنائي خصِّيصاً لزيارته، ولمَّا جئنا إليه وسلّمنا عليه كعادته يبادرُ إلى السُّؤال عن الحال وعن الوالدين، ويدعُو إلى تناول طعام الغداء، فقلتُ له: إنّا قد جئنا من المدينة خصِّيصاً لزيارتك، ونتناولُ طعامَ

الغداء معك ثمّ نرجعُ إلى المدينة، فقال رحمه الله: قال اللهُ عزّ و جلّ: « وجبتْ محبّتي للمتحابّين والمُتزاورين فِيَّ ».

وفي ذلك اللّقاء كان في مجلسه ستّون من أصحاب الحاجات، وقد ذكَرَ عددَهُم أحدُ الذين كانوا يتولّون قراءةَ المعاملات عليه، وكان وصولنا إليه في السّاعة العاشرة صباحاً، ومنذ ذلك الوقت إلى أن أذّن لصلاة الظّهر وعنده كاتبان كلٌّ واحدٍ منهما عنده عددٌ من المعاملات، يتناوبان القراءة عليه، وإذا حصلَ اتّصالٌ بالهاتف رفع السّمّاعةَ وأجابَ على استفتاء من يستفتي.

ولّما أُذّن لصلاة الظّهر سأل كم عددُ الذين بقيت معاملتهم؟ قيل: إنّه بقي ثمانيةٌ، فقال: إن شاء اللهُ بعد الصّلاة ننهي معاملاتهم، وبعد الصّلاة رجعَ وأنهى ما بقي وجلسَ إلى أن قُدّم طعامُ الغداء، فقام الجميعُ لتناول طعامَ الغداء، وكان الطّعامُ كثيراً كعادته لأنّ الذين يحضرُون كثيرون، وكان عددُ الصّحون التي تحلّق عليها النّاسُ في ذلك اليوم ستّة صحون كبيرة، رحمه الله وغفرَ له.

ولم يكتف رحمه الله في بذله النّفعَ للنّاس وحرصه على مساعدتهم فكتبَ كتاباً لأحد المشايخ الكبار وذلك في اليوم الثّامن من الشّهر الثّالث من عام ثمانية عشر وأربعمائة وألف، قال فيه: يسرُّني أن أخبركم بأنّه منذ زمنٍ طويلٍ وأنا قائمٌ بالعمل على مساعدة كثيرٍ من المحتاجين في داخل المملكة وخارجها، وتعمير المساجد في داخل المملكة وخارجها، وتعيين الدُّعاة في خارج المملكة وذلك على نفقه خادم الحرمين الشّريفين ووليّ عهده وعدد من الأمراء وأصحاب الخير والتُّجّار، ثمّ قال بعد ذلك: والدّوامُ لله، و﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾، فإذا حدثَ بي حادثُ الموت أرجُو أن تتولّوا هذه الأعمالَ، وأن تحتسبُوا الأجرَ عند الله عزّ وجلّ.

سادساً: عبادتُه

كان رحمه الله عاملاً بعلمه، وثمرةُ العلمِ العملُ، فكان كثيرَ الذِّكْرِ لله عزّ وجلّ، وكثيرَ الدُّعاء، وكان ملازماً للحجِّ، وقد حجّ سبعاً وأربعين حجّةً رحمه الله، عرفتُ هذا لمّا زارَ منطقةَ الباحة في عام ألف وأربعمائة في شعبان سُئل، وكان من جواب السُّؤال أن ذكرَ عمرَهُ وأنّه في ذلك الوقت يبلغُ السّبعين من العُمُرِ، وأنّه حجّ ثمانياً وعشرين حَجَّةً، أخبرني بذلك أحدُ الحاضرين، وكان مواصلاً للحجّ حتّى العام الذي قبل العام الذي انصرمَ وهو العامُ الثّامنُ عشر بعد الأربعمائة والألف، فيُضافُ إلى الثّمان والعشرين تسعَ عشرة حَجَّةً، فيكونُ عددُ الحَجّات التي حجّها رحمه الله سبعاً وأربعين حَجَّةً.

ومِمَّا وقفتُ عليه مِمَّا يدلّ على عظم عنايته بالعبادة والاشتغال بها أنّه في عام سبعةٍ وتسعين وثلاثمائة وألفٍ في آخر شهر ذي القعدة ذهبتُ من المدينة إلى مكّة لحاجةٍ تتعلّقُ بالعمل إذ كنتُ نائبَه في الجامعة الإسلاميّة، وبتُّ عنده تلك اللّيلة في منزله، وكان في بيته مكان مستطيل، فكان يمشي فيه ذاهباً آيباً ويقرأُ القرآنَ، يريدُ أن يتحرّك ويقرأ القرآنَ الكريم.

وأيضاً أذكرُ أنّه في سنةٍ من السّنوات لمّا كان في الجامعة دخلتُ معه إلى المسجد النّبويّ بعد أذان الظُّهر، وكنتُ بجواره، فصلّى أربعَ ركعاتٍ وأنا صلّيتُ ركعتين، ومعلومٌ أنّه جاءَ أنّ السّننَ الرّاتبةَ عشرٌ وأنّها اثنتا عشرة والأكملُ هو اثنتا عشرة، ولمّا سلّم التفتَ إليَّ وقال: أنتَ ما صلّيتَ إلّا ركعتين، فقلتُ: نعم، فقال: إنّ الاثنتي عشرة هي الأكملُ والأفضلُ.

فكان رحمه الله ملازماً لما هو الأكملُ والأفضلُ، وينبِّهُ ويرشدُ ويلفتُ النّظرَ إلى تحصيل الأكمل والأفضل رحمه الله.

وأذكرُ أيضاً لمّا ذهب إلى القصيم في عام خمسةٍ وثمانين وثلاثمائة وألف ليتزوّج من هناك كنتُ مع المشايخ الذين ذهبُوا معه، ولمّا كنّا في أثناء الطّريق في وادٍ من الأودية فيه شجرٌ، وفي وسط النّهار كسفت الشّمسُ فقام فصلّى بنا صلاةَ الكسوف في ذلك الوادي، رحمه الله.

سابعاً: مؤلّفاته

مؤلّفاتُ الشّيخ رحمه الله كثيرةٌ، وهي رسائلُ مفيدةٌ وعظيمةٌ، وقد بدىء بجمع هذه الرّسائل وكذا الفتاوى، وطُبع منها حتّى الآن اثنا عشر مجلَّداً، تسعةُ مجلّداتٍ تتعلّق بالعقيدة والدّعوة إلى الله في موضوعات مختلفة، ثمّ المجلّدُ العاشرُ والحادي عشر والثّاني عشر بدىء فيها بالفقه بكتاب الطّهارة وإلى نهاية كتاب الجمعة من كتاب الصّلاة.

ومن مؤلّفاته:

- الفوائد الجليّة في المباحث الفَرَضِيّة.

- وكتاب التّحقيق والإيضاح لكثيرٍ من مسائل الحجِّ والعمرة والزّيارة على ضوء الكتاب والسُّنّة، وهو كتابٌ عظيمُ النّفع، كثيرُ الفائدة كما يعلمُ ذلك الخاصُّ والعامُّ. وقد طُبع في حياة الملك عبد العزيز رحمه الله، وتوالت طبعاتُه حتّى بلغت الملايين من النّسخ، كما ترجم وطبع في لغات مختلفة.

- ومنها نقدُ القوميّة العربيّة على ضوء الإسلام والواقع:

وكان ذلك في الزّمن الذي حصلت فيه هذه الفتنةُ، وكثُر الكلامُ فيها في الإذاعات والصّحف، فكان منه رحمه الله أن ألّف كتاباً عظيماً نافعاً في ذلك وطبع طبعته الأُولى عام خمسةٍ وثمانين وثلاثمائة وألف، مع أنّ بعض الشّباب في هذا

العصر يتكلّمُون في كبار العلماء ويقولون عنهم: إنّهم لا يفقهون الواقع، وهذا الكتابُ الذي كتبه اسمُه: « نقدُ القوميّة العربيّة على ضوء الإسلام والواقع »، وكان ذلك قبل أن يُولد كثيرٌ من هؤلاء الذين يقولون: إنّهم يعرفُون الواقع، ومن اطّلع عليه عرفَ ما فيه من الفقه والفهم على ضوء الكتاب والسُّنّة والواقع.

- ومنها ثلاث رسائل في الصّلاة.

- والتّحذير من البدع: يشتمل على التّحذير من أربع بدعٍ، وهي بدعةُ الاحتفال بالمولد النّبويّ، وليلة النّصف من شعبان، وليلة الإسراء والمعراج، والرّدّ على الوصاية المنامية المزعومة من المدعو أحمد خادم الحجرة النّبويّة.

ثامناً: صلتي الخاصّةُ به

عرفتُ الشّيخَ ﷫ في السَّنَةِ التي قدمَ فيها من الخَرْجِ إلى الرّياض؛ لأنّه قدم في أوّل عام اثنين وسبعين وثلاثمائة وألف، وأنا جئتُ من بلدي الزُّلْفِي بعدما أخذتُ الشّهادةَ الابتدائيةَ في عام واحدٍ وسبعين وثلاثمائة وألف، ودخلتُ في معهد الرّياض العلمي، وكان هو بدأ التّدريسَ في تلك السَّنَة، ولكنّه لم يكن يُدرِّسُنا بل يدرّس بعض الأفواج الذين قبلنا، وما ظفرتُ بتدريسه إلّا في السَّنَةِ الأخيرةِ في عام تسعةٍ وسبعين وثلاثمائة وألف، حيثُ كان مدرِّساً لطلاّب السَّنَة النِّهائيّة طلاّب السَّنَة الرّابعة من كليّة الشّريعة، وأوّل رؤيتي إيّاه ولقائي به في عام اثنين وسبعين وثلاثمائة وألف، وكان في ذلك الوقت عددٌ من المشايخ الكبار يقومون بإلقاء الدّروس في مسجد الشّيخ محمّد ابن إبراهيم ﷫ بين المغرب والعِشاء، وهم الشّيخ عبد العزيز بن باز ﷫، والشّيخ محمّد الأمين الشّنقيطي ﷫، والشّيخ عبد الرّحمن الإفريقي

رحمه الله، والشّيخ عبد الرّزّاق عفيفي رحمه الله، وكان المسجدُ يَعُجُّ بطلبة العلم، وأذكر أنّه كان يلقي دروساً في التّفسير في سورة مريم.

ثمّ كان اتّصالي به كثيراً في الفسح بين الدّروس وفي المسجد وأزورهُ في منزله، ولمّا جاء عام واحد وثمانين وثلاثمائة وألف كنتُ بحمد الله من الذين رُشّحُوا للتّدريس في الجامعة الإسلاميّة في آخر عام تسعةٍ وسبعين وثلاثمائة وألف، حيثُ طلبتُ من الشّيخ محمّد بن إبراهيم رحمه الله أن يجعلني في سِلْكِ التّدريس فقال: إنّه يوافقُ على ذلك ولكنّه يريدُ أن أدرّس في الجامعة الإسلاميّة عند افتتاحها، فقلتُ: أنا على أتمِّ الاستعداد، وفي عام ثمانين وثلاثمائة وألف لم تُفتح الجامعةُ الإسلاميّةُ، وكان يُذكرُ بعضُ الأشخاص الذين سيتولّون رئاستَها، ولمَّا جاء افتتاحُها عام واحد وثمانين وثلاثمائة وألف، وعلمتُ أنّ الشّيخ عبد العزيز بن باز هو الذي سيتولّى إدارتَها نائباً عن رئيسها الشّيخ محمّد ابن إبراهيم رحمه الله فرحتُ فرحاً شديداً لما لهذا الرّجُل العظيم من منزلةٍ في نفسي، فصحبتُه خمسةَ عشرَ عاماً من أوّل عام واحدٍ وثمانين وثلاثمائة وألف إلى قرب نهاية عام خمسةٍ وتسعين وثلاثمائة وألف وهو منتصفُ شهر شوّال من ذلك العام، حيث كان هو المسؤولُ في الجامعة في عشر سنواتٍ كان نائباً للرّئيس، ولكنّه هو المباشرُ للتّنفيذ، والقائمُ على إدارتها وتنفيذ أعمالها، وبعد ذلك كان رئيساً للجامعة. وكنتُ في تلك المدّة معه في مجلس الجامعة، وكان رحمه الله قد جعلني في مجلس الجامعة منذ إنشائها، وفي عام ثلاثةٍ وتسعين عيّنتُ نائباً للرّئيس بترشيح منه وموافقة من الملك فيصل رحمهما الله؛ فكنتُ ملازماً له في العمل، وأتّصلُ به باستمرارٍ، وكنتُ آتي إليه في المنزل أحيانا قبل الذّهاب إلى الجامعة وأجلسُ معه قليلاً، وكان معه الشّيخُ إبراهيم الحصيّن رحمه الله، وكان يقرأُ عليه المعاملات من بعد صلاة الفجر إلى بعد ارتفاع الشّمس.

وفي يوم من الأيّام قال لي: رأيتُ البارحةَ رؤيا وهو أنّني رأيتُ كأنّ هناك بَكْرَةٌ جميلةٌ [أي: ناقةٌ] وأنا أقودُها وأنتَ تسُوقُها، وقال: أوّلتُها بالجامعة الإسلاميّة، وقد تحقّق ذلك بحمد الله فكنتُ معه في النّيابة مدّة سنتين ثمّ قمتُ بالعمل بعده رئيساً بالنّيابة أربعةَ أعوامٍ، وحصلَ للجامعة في ذلك خيرٌ كثيرٌ ولله الحمدُ. فكانت صلتي بالشّيخ رحمه الله وثيقةً، وبعد انتقاله إلى رئاسة البحوث العلميّة استمرّت صلتُه بالجامعة حيث كان عضواً في مجلسها الأعلى كما أسلفتُ، وكان يرأسُ المجالسَ نيابةً عن خادم الحرمين الشّريفين إذا غابَ، لأنّ الرّئيسَ الأعلى للجامعة خادمُ الحرمين الشّريفين، وقد أنابَ سماحةَ الشّيخ في حال غيابه نيابةً مطلقةً.

تاسعاً: وفاتُه

توفِّي رحمه الله ـ كما يعلمُ الجميعُ ـ في صبيحة يوم الخميس السّابع والعشرين من شهر المحرّم، قبل أذان الفجر بدقائق، وصُلِّي عليه في المسجد الحرام بعد صلاة الجمعة، ودُفن في مقبرة العَدْلِ في مكّة المكرّمة، وشهدَ جنازتَهُ العددُ الذي لا يحصيه إلَّا اللهُ.

وذلك لما للشّيخ رحمه الله من المنزلة العظيمة والمحبّة في النّفوس، وأرجُو أن يكون ممّن قال اللهُ عزّ وجلّ فيهم: ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا** ﴾، ومن الذين جاء ذِكْرُهُمْ في الحديث: « إنّ الله إذا أحبَّ العبدَ نادى جبريل وقال: إنّي أحبُّ فلاناً فأحبّهُ، ثمّ يُنادى في أهل السّماوات: إنّ الله يحبُّ فلاناً فأحبُّوه، فيحبُّه أهلُ السّماوات، ثمّ يوضع له القَبولُ في الأرض ».

ولو كنتُ أقولُ الشِّعْرَ لقلتُ الشِّعْرَ في رثائه ولكنّني لستُ بشاعرٍ، إنّما

أتمثّلُ بشعر الشّعراء، وعندما كان يُوارى في قبره رحمه الله تذكّرتُ بيتاً هو مطلعُ قصيدةٍ للشّيخ محمّد بن عبد الله بن عثيمين المتوفّى سنة ثلاثٍ وستّين وثلاثمائة وألف، رثى فيها الشّيخ سعد بن عتيق وهو شيخُ الشّيخ عبد العزيز بن باز رحمةُ الله على الجميع، وقد توفّي سنة تسعٍ وأربعين وثلاثمائة وألف، وكان عمرُ الشّيخ لمّا توفّي شيخُه سعد بن عتيق تسعةَ عشر عاماً، وبين وفاتيهما إحدى وسبعون سَنَةً، وهذا البيتُ هو قولُه:

أهكذا البَدْرُ تُخْفي نُورَهُ الحُفَرُ ويُفْقَدُ العلمُ لا عَيْنٌ ولا أَثَرُ

هذا هو مطلعُ القصيدةِ. ولمّا عدتُّ إلى المدينة رجعتُ إلى ديوانه المسمّى بـ: « العقد الثّمين من شعر الشّيخ محمّد بن عثيمين »، واطّلعتُ على القصيدة وهي تبلغُ ثلاثةً وأربعين بيتاً، اخترتُ منها بعضَ الأبيات، وهي تنطبقُ على الشّيخ تماماً:

أهكذا البَدْرُ تُخْفي نورَهُ الحُفَرُ ويُفْقَدُ العلمُ لا عَيْنٌ ولا أَثَرُ
خَبَتْ مصابيحُ كنّا نستضيءُ بها وطوّحَتْ للمغيب الأنجُمُ الزُّهُرُ
واستحكمتْ غُرْبَةُ الإسلام وانكسفتْ شمسُ العلومِ التي يُهدى بها البَشَرُ
تُخُرِّمَ الصّالِحُون المقتدَى بهِمُ وقامَ منهم مقامَ المُبتدا الخَبَرُ
فلستَ تسمعُ إلّا كانَ ثمّ مضى ويلحَقُ الفارطَ الباقي كما غَبَرُوا

وأذكرُ أنّ الحافظَ ابن حجرٍ رحمه الله ذكرَ في « الإصابة » في ترجمة قيس بن عاصمٍ المنقري التّميمي رضي الله عنه من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان سيّداً في قومه، وقد رثاهُ عبدةُ بن الطّيّب في قصيدةٍ منها قولُه:

وما كان قَيْسٌ هُلْكُهُ هُلْكَ واحدٍ ولكنّهُ بنيانُ قومٍ تهدّمَا

وهو ينطبق على الشّيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله.

فهو لم يكن فقيدَ أسرةٍ، ولا فقيدَ قريةٍ أو مدينةٍ، ولا فقيدَ قطرٍ أو إقليمٍ، وإنّما هو فقيدُ العالَمِ الإسلاميّ رحمه الله وغفرَ له.

وقد خلف رحمه الله أربعةً من البنين وستّاً من البنات، وأحدُ البنين وهو أحمد من طلبة العلم، أصلحَ اللهُ بنيه، وبارك فيهم، وغفرَ للشّيخ ولنا جميعاً، ولكنّه خلّفَ الألوفَ من البنين الذين يستفيدون من علمه ويدعون له، وقد قال عليه الصّلاةُ والسّلامُ: « إذا مات ابنُ آدم انقطعَ عملُه إلّا من ثلاثٍ، صدقةٍ جارية، أو علم ينتفعُ به، أو ولد صالح يدعُو له »، فأبناؤُه من نسبه وأبناؤُه في العلم كلُّهم يدعون له، والمسلمُون يدعون له رحمه الله وغفر له.

وخلفَهُ في عمله في الإفتاء في المملكة ورئاسة هيئة كبار العلماء ورئاسة إدارة البحوث العلميّة والإفتاء نائبُه في الإفتاء الشّيخُ عبد العزيز بن عبد الله بن محمّد آل الشّيخ حفظهُ اللهُ وباركَ فيه، وجعلهُ خيرَ خلفٍ لخير سلفٍ، وهو معروفٌ في جدّه بالاشتغال بالعلم وفي خطبه النّافعة المفيدة في جامع الإمام تركي وفي مسجد نمرة بعرفة.

وكان القائم بأعمال رئاسة البحوث العلميّة والإفتاء والدّعوة والإرشاد قبل انتقال سماحة الشّيخ عبد العزيز بن باز من الجامعة الإسلاميّة إليها هو الشّيخ إبراهيم بن محمّد ابن إبراهيم آل الشّيخ.

وإنّا نفرحُ كثيراً إذا رأينا في آل الشّيخ مَنْ هم من أهل العلم.

وأقول: إنّ من محاسن ولاة الأمر في هذه البلاد عنايتَهم بآل الشّيخ، وحرصَهم على تمكينهم من الأعمال المهمّة، وذلك أنّ أصلَ هذه الولاية التي حصلَ النّفعُ فيها على مدى قرنين من الزّمان أو أكثر إنّما كان بالتقاء إمامين عظيمين هما الإمامُ محمّد بن سعود رحمه الله، والإمامُ الشّيخ محمّد بن عبد الوهّاب رحمه الله، وقيامهما بالدّعوة إلى الله عزّ وجلّ، ونصرة دِين الله.

عاشراً: أمنيّات ومقترحات

وأختم هذه الكلمات بأمنيّات ومقترحات هي:

أوّلاً: أنّ الشّيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله كان مرجعاً للعُلماء، إذا جاءت المشكلاتُ رجعُوا إليه في حلِّها ومعرفة حكمها، وقد ذهبَ ورحلَ رحمه الله، والعلمُ الذي في صدره ذهبَ معه، ولكن بقي علمُه الذي في الأوراق والرّسائل والفتاوى، والذي نتمنّاه ونرجُوه ونقترحُه أن يعتني خَلَفُه في إتمام ما بُدىء به من جمع هذه الرّسائل والفتاوى وطبعها ونشرها للاستفادة منها، وقد طبع منها اثنا عشر مجلّداً كما أسلفتُ، وهي تبلغُ المجلّدات الكثيرة، ونسألُ الله عزّ وجلّ أن ييسّر جمعَها وطبعَها وتمكين طلبة العلم من الاستفادة منها.

ثانياً: وصيّةٌ لي ولطلبة العلم عموماً وهي الجِدُّ والاجتهادُ في طلب العلم وبذل الوُسْع في تحصيله، والعناية بأخذه ونشره وبذله؛ كما كانت حالُ الشّيخ رحمه الله تعلّماً وعملاً وتعليماً ودعوةً ونصحاً.

ثالثاً: أوصي بعض ذوي الهمم العالية من طلبة العلم بالاتّجاه إلى إعداد رسائل علميّة وأبحاث تتناول إبراز جوانب مختلفة من جهود الشّيخ العلميّة في العقيدة والتّفسير والحديث والفقه والدّعوة إلى الله وغير ذلك.

رابعاً: من المعلوم أنّ الجامعةَ الإسلاميّةَ بالمدينة المنوّرة عالميّةُ النّفع، والشّيخُ عبدُ العزيز بن باز عالميُّ النّفع، وهو الذي باشر تأسيسها، وتولّى غرسها منذ افتتاحها واستمرّ فيها خمسةَ عشرَ عاماً، وإنّ اسمَ الجامعة الإسلاميّة اسمٌ جميلٌ، ويزدادُ جمالاً إذا أطلق عليها اسمُ: « جامعة الشّيخ عبد العزيز بن باز الإسلاميّة »، وقد بذلتُ لذلك أسباباً ـ نفع اللهُ بها.

هذه بعضُ الأمنيّات والمقترحات التي في ذهني يسّر الله تحقيقها، وأسألُ الله عزّ وجلّ أن يغفر لسماحة الشّيخ، وأن يجزيهُ أحسنَ الجزاء، وأن يبارك في علمه، وأن يثيبهُ على ما قدّم، وعلى ما حصل منه من الصّدقات الجارية، وأن يعظم له الجزاء، وأن يوفّقنا جميعاً لما يرضيه، ولما فيه تحصيل العلم النّافع والعمل به، إنّه سبحانه وتعالى جوادٌ كريمٌ، وصلّى اللهُ وسلّم وبارك على عبده ورسوله نبيّنا محمّدٍ، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

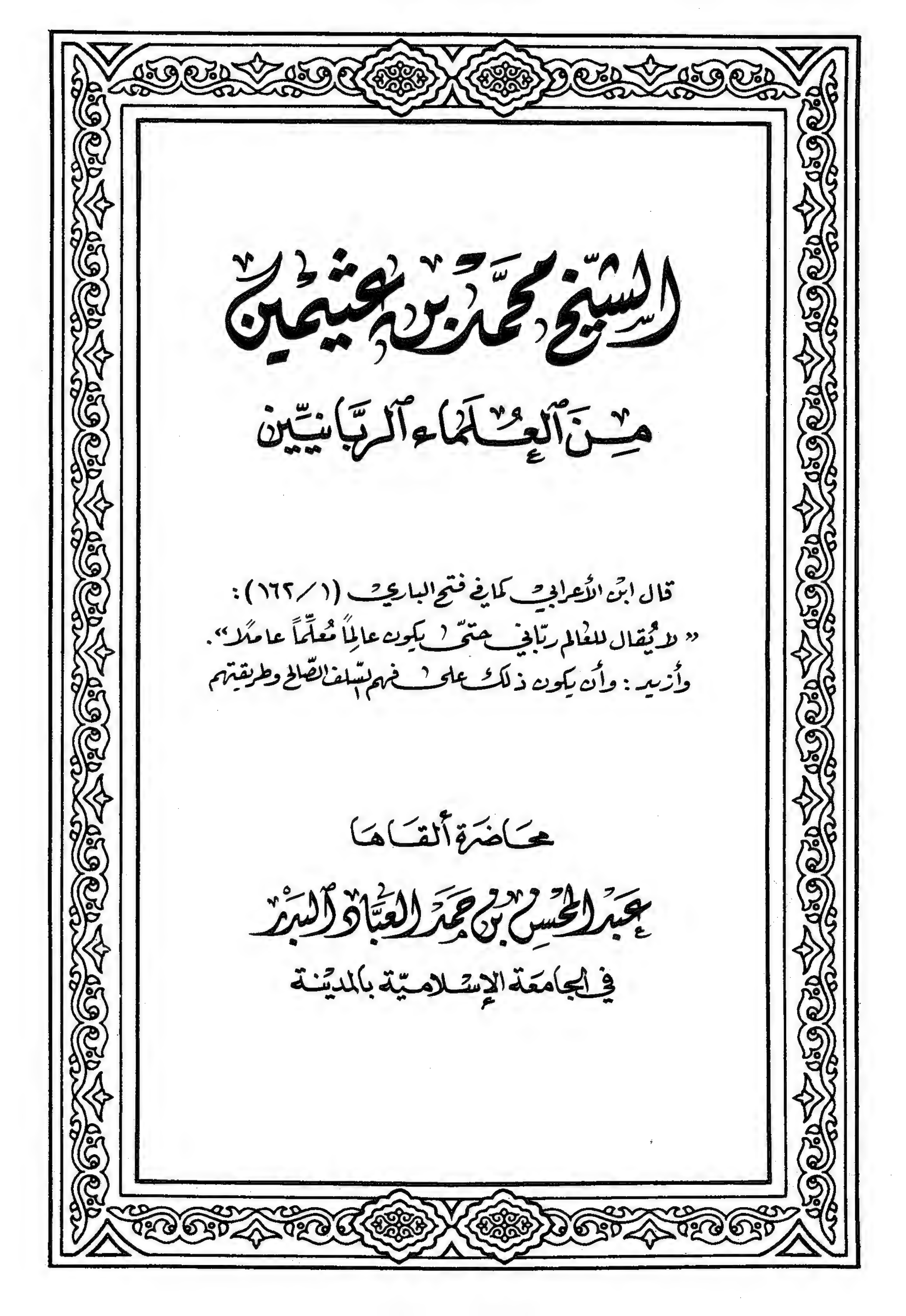




الفهرس

***





الشيخ محمد بن عثيمين

من العلماء الربانيين

قال ابن الأعرابي كما في فتح الباري (١/ ١٦٢):
«لا يُقال للعالم ربّاني حتّى يكون عالمًا مُعلّمًا عاملًا».
وأزيد: وأن يكون ذلك على فهم السلف الصالح وطريقتهم

محاضرة ألقاها

عبد المحسن بن حمد العبّاد البدر

في الجامعة الإسلاميّة بالمدينة



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيِّئات أعمالنا، مَن يهده الله فلا مضلَّ له، ومَن يُضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمداً عبدُه ورسولُه، وخليلُه وخيرتُه مِن خَلْقه، أرسله اللهُ تعالى بين يدي الساعة بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، فدلَّ أمَّتَه على كلِّ خير، وحذَّرها من كلِّ شرٍّ.

اللَّهمَّ صلِّ وسلِّم وبارِك عليه وعلى آله وأصحابه ومَن سلك سبيلَه واهتدى بهديه إلى يوم الدِّين.

أمَّا بعد:

فإنِّي أتحدَّث إليكم أيُّها الإخوة هذه الليلة[1] عن شيخٍ فاضلٍ من شيوخ المملكة العربيَّة السعودية، وعَلَمٍ من أعلامها بل عن عَلَمٍ من أعلام العالَم الإسلامي، له جهودٌ كبيرةٌ في العنايةِ بالعلم ونشرِه وبذلِه، وإفادةِ طلبة العلم، ألا وهو الشيخ العلاَّمة محمد بن صالِح بن عُثيمين رحمه الله وأسكنه فسيح جنَاته.

فأقول: إنَّ أعظمَ مصيبةِ موتٍ حصلت في الإسلام المصيبةُ بوفاة نبيِّنا محمد ﷺ، والمصائبُ العظمى بعد تلك المصيبة إنَّما هي بموت ورثتِه ﷺ، وقد قال ﷺ: «إنَّ العلماءَ ورثةُ الأنبياء، وإنَّ الأنبياءَ لَم يُورِّثوا ديناراً ولا درهماً، وإنَّما ورَّثوا العلمَ، فمَن أخذ به، أخذ بحظٍّ وافر»، رواه أبو داود (٣٦٤١) وغيرُه، وسنده حسن.

والشيخُ ابنُ عُثيمين رحمه الله قد أخذ من العلمِ بحظٍّ وافر، وبَذَل جهوداً

(١) هذه محاضرة أُلقيت في مسجد الجامعة الإسلامية بالمدينة ليلة الجمعة (٢٤/ ١٠/ ١٤٢١هـ).

عظيمةً في نشرِه، وإفادةِ طلاَّب العلم.

وكلامي عن هذا الشيخ الفاضل عن: نسبه، وولادته ونشأته، وشيوخه وتلاميذه، وبذلِه للعلم وقيامِه بالدَّعوة، ومؤلفاتِه، ومكانتِه عند الناس، ووفاتِه وعقِبه، ووصايا ومقترحات.

أولاً: نسبه

هو محمد بن صالح بن محمد بن سليمان بن عبد الرحمن بن عثمان بن عبد الله ابن عبد الرحمن بن أحمد بن مُقبل، من الوهَبة، من بنِي تميم، وجدُّه الرابع عثمان أُطلق عليه عُثيمين، واشتهرت هذه الأسرة بالنسبة إليه بهذا الإطلاق (عُثيمين مأخوذ من عثمان).

أفادنِي بهذا النسب ابنُ عمِّه الدكتور عبد الرحمن ابن سليمان بن عُثيمين.

وانظر كتاب: « علماء نجد خلال ستة قرون » للشيخ عبد الله البسَّام (٢/ ٤٢٢).

ثانياً: ولادته ونشأته

وُلد في ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان سنة ١٣٤٧هـ في مدينة عُنيزة، إحدى مدن القصيم، ونشأ نشأة صالحِة طيِّبة.

تعلَّم القراءةَ والكتابةَ في الكتَّاب، وتعلَّم القرآنَ على جدِّه لأمِّه عبد الرحمن ابن سليمان آل دامغ، فحفظ القرآن وتتلمذ على الشيخ العلاَّمة عبد الرحمن ابن ناصر السَّعدي رحمه الله، ولَمَّا فُتح معهد الرياض العلمي استأذن شيخَه عبد الرحمن ابن سعدي في الالتحاق به، فدرس فيه، وكانت مدَّةُ الدراسة في ذلك الوقت بعد الابتدائي وقبل الكلية أربعَ سنوات، ودخل في السنة الثانية، وكان في ذلك

الوقت نظام القفز، وهو أنَّ مَن يكون عنده استعدادٌ للتقدُّم في الدراسة، فإنَّه تُتاح له الفرصة في العطلة الصيفية أن يدرسَ مقرَّرات السنة التي بعد سنته التي انتهى منها، وإذا جاء الدور الثاني اختبر في مواد تلك السنة، فينتقل منها إلى السنة الأخرى، وكان ـ رحمة الله عليه ـ دَرَسَ في السنة الثانية، وفي الصيف درس مقرَّرات السنة الثالثة، وانتقل منها إلى السنة الرابعة، وبعد انتهائه منها فُتح المعهد العلمي بعُنيزة سنة ١٣٧٤هـ، وصار يدرسُ على شيخه الشيخ عبد الرحمن بن سعدي، ويقوم بالتدريس في معهد عُنيزة العلمي، وكان مع ذلك منتسباً إلى كليَّة الشريعة، يذهب إلى الرياض لأداء الاختبار في نهاية كلِّ سنة دراسية، حتى أنهى الدراسة في الكليَّة.

وبعد افتتاح كليَّة الشريعة وأصول الدِّين بالقصيم انتقل من التدريس في المعهد إليها، واستمرَّ في التدريس فيها إلى أن توفي رحمه الله.

ولَمَّا تُوفِّيَ شيخُه عبد الرحمن بن سعدي سنة ١٣٧٦هـ تولَّى الإمامةَ والخطابةَ والتدريس في المسجد الجامع الكبير بعُنيزة، واستمرَّ على ذلك حتى توفَّاه الله.

ثالثاً: شيوخه وتلاميذه

أبرز شيوخه الذين درس عليهم: الشيخ عبد الرحمن بن سعدي، درس عليه في المسجد الكبير بعُنيزة، والشيخ عبد العزيز بن باز، والشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمهما الله، درس عليهما في معهد الرياض العلمي.

وأمَّا تلاميذه، فهم كثيرون، أخذوا عنه العلمَ في معهد عنيزة العلمي، وكلية الشريعة وأصول الدِّين بالقصيم، وفي المسجد الجامع الكبير بعُنيزة، فتدريسُه في المسجد الجامع الكبير مدَّتُه خمسٌ وأربعون سنة، وتدريسه في المعهد والكليَّة مدَّتُه سبعٌ وأربعون سنة، فتلاميذه في هذه المُدَّة الطويلة كثيرون جدًّا.

وكان عددٌ كبير من الطلبة من داخل المملكة وخارجها يرتحِلون إليه لتلقِّي العلمَ عنه لا سيما في الصيف، حيث يكون له فيه دروسٌ كثيرة، في الصباح وبعد العصر وبعد المغرب، ولا ينقطع عن التدريس بعد المغرب في جميع أيَّام السنة.

وفي المسجد الجامع الكبير بعُنيزة مكتبة أسَّسها الشيخ عبد الرحمن بن سعدي رحمه الله، وبعد وفاته واصل الشيخ محمد بن عُثيمين تزويدها بالكتب، ولَمَّا أعاد الملك خالد رحمه الله بناءَ المسجد الجامع الكبير بعُنيزة، بنى بجواره عمارةً جعلها وقفاً على الطلبة الذين يرتحلون إلى عُنيزة للدراسة على الشيخ ابن عُثيمين رحمه الله، ونُقلت المكتبة إلى تلك العمارة، فكانت هذه العمارة فيها سكن الطلاَّب والمكتبة.

رابعاً: بذلُه العلمَ وقيامُه بالدَّعوة

علمنا مِمَّا تقدَّم أنَّه بدأ بالتدريس في معهد عُنيزة عام ١٣٧٤هـ، وأنَّه بدأ بالخطابة والإمامة والتدريس في المسجد الجامع الكبير عام ١٣٧٦هـ، وأنَّه أخذ العلمَ عنه طلبةٌ كثيرون في معهد عُنيزة العلمي، وفي كليَّة الشريعة وأصول الدِّين بالقصيم، والمسجد الجامع الكبير بعُنيزة، ولَم يقتصر بذلُه للعلمِ وقيامُه بالدَّعوة على بلاده القصيم، بل كان يبذل العلمَ عن طريق التدريس، والمحاضرات في البلاد التي ينتقل إليها داخل المملكة، وكان يذهب إلى مكة في أوقات مختلفة، ويقوم بالتدريس في المسجد الحرام، لا سيما في شهر رمضان، وكان من عادته أن يذهب إليه بعد ما يمضي جزءٌ من رمضان فيُدرِّس في المسجد الحرام، ويلتفُّ حولَه عددٌ كبير من الطلبة الذين يحرصون على تلقِّي دروسِه والأخذ عنه، وكذا إذا حضر إلى المدينة لإلقاء محاضرات أو لغير ذلك،

فإنَّه يُدرِّس في المسجد النبوي، ويسرُّ الطلاَّبُ إذا علموا بقدومه إلى المدينة ليَحضُروا دروسَه، ويستفيدوا من علمه، وكنتُ من المدرِّسين في هذا المسجد، فكان الطلاَّبُ يطلبون منِّي أن أوقف الدرسَ ليَحضُروا دروسَه، فكنتُ أوقفُها ليتمكَّنوا من الاستفادةِ منه، وكنتُ أحضُرُ دروسَه معهم في بعض الأحيان.

ومن مجالات تعليمه ودعوته إلقاؤه المحاضرات في مختلف مدن المملكة، في المساجد والجامعات.

وقد ألقى محاضرات عديدة في الجامعة الإسلامية بالمدينة، في مسجدها، وفي قاعة المحاضرات، وفي أماكن الصلاة في كليَّاتها ومعاهدها.

وأذكر أنَّ من محاضراته التي ألقاها في الجامعة الإسلامية، محاضرة واسعة بعنوان: منهج أهل السنة والجماعة في العقيدة والعمل، وكذا محاضرة بعنوان: آداب طلب العلم.

وكان يُلقي محاضرات عن طريق الهاتف في أوربا وأمريكا وغيرها.

ومن مجالات تعليمه ودعوته مشاركته في المؤتمرات في داخل المملكة، وقد عُقد في الجامعة الإسلامية ثلاثة مؤتمرات، مؤتمران في توجيه الدعوة وإعداد الدعاة، ومؤتمر في مكافحة المسكرات والمخدِّرات، وقد حضر هذه المؤتمرات وأفاد فيها في بحوثه ومناقشته.

ومن مجالات تعليمه ودعوته، مشاركته في توعية الحُجَّاج في مواسم الحج بالفتاوى، وإلقاء الدروس والمحاضرات، وقام بالإشراف على الدعاة لتوعية الحجاج في بعض السنوات لجنةٌ فيهم الشيخ رحمه الله، وكنتُ في هذه اللجنة، وكانت اللجنة تجتمع للنظر في شؤون توعية الحجاج، وكان الشيخ رحمه الله يُفيد اللجنة في رأيه وعلمه، وأذكرُ أنَّه عندما كُتب التقريرُ من اللجنة قيل له: هل

ترغب أخذ نسخة من التقرير؟ فقال: لا آخذ نسخة منه، حتى لا أحتاج إلى إحراقها؛ لأنَّه رَحِمَهُ اللَّهُ كان مشغولاً بالعلم والاحتفاظ بما يتعلّق به.

ومن مجالات دعوته ونفع المسلمين قيامه بالفتاوى على ما يَرِدُ إليه من أسئلة من داخل المملكة وخارجها، سواء بالمراسلة أو المقابلة أو عن طريق الهاتف، وقد خصَّص وقتاً معيَّناً للإفتاء عن طريق الهاتف، وكان يُواظب على الإفتاء في هذا الوقت وهو في بلده عُنيزة، وإذا سافر جعل تسجيلاً على الهاتف يُرشد إلى رقمٍ في البلد الذي ينتقل إليه.

وأذكر أنَّه لَمَّا كان في لجنة توعية الحُجَّاج في مدينة الطائف لكتابة تقرير عن أعمال التوعية عام ١٤٠٩هـ وتخلَّف عن الاجتماع بعض الوقت، ذكر أنَّه تأخَّر للإجابة عن الأسئلة عن طريق الهاتف.

ومن مجالات تعليمه ودعوته مشاركته الكثيرة المفيدة في الإذاعة، فله برامج ثابتة في الإذاعة، هي: برنامج « نور على الدرب »، وبرنامج « سؤال على الهاتف »، وبرنامج « من أحكام القرآن الكريم »، وله أحاديث في الإذاعة غير ثابتة في موضوعات متنوِّعة.

وبرنامج « من أحكام القرآن » مهمٌّ، عظيمُ الفائدة، يُعنى فيه بالتأمُّل في القرآن، واستخراج ما فيه من حِكَم وأحكام، وهو يدلُّ على مدى تَمكُّنه في الفهم والفقه في الدِّين، وقد وصل إلى قرب نهاية الجزء الثالث من القرآن الكريم، وقد قام الأخ الفاضل عبد الكريم بن صالح المقرن المذيع في إذاعة القرآن الكريم باستخراج ما يتعلَّق بالجزء الأول من القرآن من الأشرطة، وطُبع في مجلد، وهو مفيدٌ لا يستغنِي عنه طلبة العلم، وعسى اللهُ أن يُيسِّر استخراج وطباعة ما يتعلَّق بالجزأين الباقيين ليَعُمَّ النفع بهما.

والحاصل أنَّ مجالات تعليمه ودعوته تتلخَّص فيما يلي:

١ ـ التدريس في معهد عُنيزة العلمي، ثمَّ في كليَّة الدعوة وأصول الدِّين في القصيم، ابتداء من عام ١٣٧٤هـ.

٢ ـ التدريس في الجامع الكبير في عنيزة، ابتداءً من عام ١٣٧٦هـ.

٣ ـ الخطابة والإمامة في المسجد الكبير بعنيزة ابتداء من عام ١٣٧٦هـ.

٤ ـ التدريس في المسجد الحرام والمسجد النبوي.

٥ ـ المحاضرات التي يُلقيها في المساجد والجامعات في مدن المملكة، والمحاضرات التي يُلقيها عبر الهاتف في أوربا وأمريكا وغيرها.

٦ ـ مشاركته في بعض المؤتمرات التي عُقدت في المملكة.

٧ ـ الفتاوى عن طريق المقابلة والمراسلة والهاتف.

٨ ـ مشاركته في توعية الحجاج في مواسم الحج.

٩ ـ برامج وأحاديث في الإذاعة.

خامساً: مؤلَّفاته

للشيخ مؤلفاتٌ كثيرة، وغالبها رسائل صغيرة، لكنَّها عظيمةُ النفع، كبيرةُ الفائدة، تنقسم إلى قسمين:

قسمٌ حرَّره بنفسه، وأخرجه بعد تحريره.

وقسمٌ لَم يُحرِّره، ولكن استُخرِج من أشرطة دروسه وطُبع.

ومِمَّا حرَّره:

ـ القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى.

ـ عقيدة أهل السنة والجماعة.

ـ شرح لمعة الاعتقاد الهادي إلى سبيل الرَّشاد.

ـ أحكام الأضحية والذكاة.

ـ فتح ربِّ البَرِيَّة بتلخيص الحموية.

ومِمَّا استُخرج من الأشرطة وطُبع بعضُه:

ـ الشرح الممتع على زاد المستقنع.

وقد بلغت آثاره العلمية التي ذكرها تلميذه الشيخ وليد الحسين في مقاله عن الشيخ المنشور في العدد الثاني من مجلة الحكمة الصادر في ١/ ٩/ ١٤١٤هـ خمسة وخمسين أثراً.

وله رسائل في أصول الفقه والمصطلح والعقيدة مقرَّرة في المعاهد العلمية التابعة لجامعة الإمام محمد ابن سعود الإسلامية.

سادساً: مكانته عند الناس

للشيخ رحمه الله مكانةٌ مرموقةٌ ومنزلةٌ رفيعةٌ، فقد رُزق القبول، وأحبَّه الناسُ، وحرصوا على سماع دروسه وفتاواه، واقتناء آثاره العلمية، وأشرطة دورسه ومحاضراته، وهو عالِمٌ كبيرٌ، وفقيهٌ متمكِّن، وهو محلُّ التوقير والإجلال من الولاة والعلماء وطلبة العلم.

وكان من تقدير الولاة في هذه البلاد له أنَّهم عندما يزورون القصيم يزورونه في منزله، فقد زاره الملك خالد، والملك فهد، والأمير عبد الله، والأمير سلطان، وهو أهل للتوقير والاحترام.

وهو مع ذلك من أشدِّ الناس تواضعاً، ومحبَّةً للخير، ونفعاً للناس، وإشفاقاً على الطلبة، وحرصاً على إفادتهم، وتحصيلهم العلم، وجمعهم بين العلم والعمل.

سابعاً: وفاته وعَقِبه

أُصيب رحمه الله بمرض عُضال، فسافر إلى أمريكا للعلاج أيَّاماً قليلة، وهي سفرتُه الوحيدة خارج المملكة، فاستغلَّ فرصة وجوده فيها في الدعوة إلى الله، وألقى خطبة الجمعة هناك، وعند رجوعه دخل المستشفى التخصُّصي بالرياض، واشتدَّ به المرض، وبعدما مضى جزءٌ من شهر رمضان رغب أن ينتقل إلى مكة للتدريس في المسجد الحرام على عادته في السنوات الماضية، وهُيِّئت له غرفة خاصَّة في المسجد، فكان يُلقي الدروسَ وهو على فراشه بواسطة مكبِّرات الصوت، فيسمع الناسُ صوتَه المتأثر بالمرض ولا يرون شخصَه.

ونُقل بعد انتهاء رمضان إلى مستشفى في جدة، وتوفي هناك مساء يوم الأربعاء، الخامس عشر من شهر شوال عام ١٤٢١هـ، وصُلِّي عليه في المسجد الحرام عِقب صلاة العصر من يوم الخميس، ودُفن في مقبرة العدل بمكة، وشهد الصلاةَ عليه وتشييع جنازته خلقٌ كثير رحمه الله، وكنتُ مِمَّن شهد الصلاةَ عليه وتشييعه، ورأيتُ كثرة الناس في الصلاة عليه وعند المقبرة.

وقد تأثَّر الكثيرون لوفاته، وحزنوا عليه لِما له من المكانة العلمية، ولِما فيه من النفع العظيم للإسلام والمسلمين، وقد قال ﷺ يوم مات ابنُه إبراهيم: «إنَّ العينَ تدمع، والقلبَ يحزن، ولا نقول إلَّا ما يُرضي ربَّنا، وإنَّا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون»، رواه البخاري (١٣٠٣)، واللفظ له، ومسلم (٢٣١٥)، فرحمه الله وغفر له، وإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون.

وكانت وفاته رحمه الله من أعظم المصائب التي حلَّت بالمسلمين في هذا العام، وفي العام الذي قبله ١٤٢٠هـ أُصيب المسلمون بوفاة شيخ الإسلام الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله في صباح يوم الخميس السابع والعشرين من المحرم

سنة ١٤٢٠هـ ووفاة الشيخ محمد ناصر الدين الألباني رحمه الله، مساء السبت الثاني والعشرين من جمادى الآخرة سنة ١٤٢٠هـ ونسأل اللهَ عزَّ وجلَّ أن يغفرَ للجميع، وأن يُوفِّق طلبةَ العلم للاستفادة من علم العلماء المحقِّقين الذين مضوا، ومنهم هؤلاء الثلاثة، والاستفادة من علم العلماء الموجودين، إنَّه سميعٌ مجيب.

وقد جاء آثار عن السلف تدلُّ على مدى عِظم المصيبة بموت العالِم:

ـ فعن سَلمان الفارسي رضي الله عنه قال: « لا يزال الناسُ بخير ما بقي الأول حتى يتعلَّم الآخِر، فإذا هلك الأوَّلُ قبل أن يتعلَّم الآخِر هلك الناس » رواه الدارمي في سننه (٢٥٥).

ـ وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّه لَّما مات زيد بن ثابت قال: « هكذا ذهابُ العلم، لقد دُفن اليوم علمٌ كثير » رواه الحاكم في المستدرك (٣/ ٤٢٨).

ـ وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: « تعلَّموا العلمَ قبل أن يُقبض العلمُ، وقبضُه أن يُذهَب بأصحابه... إلى أن قال: فما لي أراكم شباعاً من الطعام، جِياعاً من العلم » جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (١/ ٦٠٢).

ـ وعن الحسن قال: « موتُ العالِم ثُلمة في الإسلام لا يسدُّها شيء ما طرد الليل والنهار » رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (١/ ٥٩٥).

ـ وعن أيُّوب السّختياني قال: « إنَّه ليبلُغني موتُ الرَّجل من أهل السُّنَّة، فكأنَّما سقط عضوٌ من أعضائي » رواه أبو نعيم في الحلية (٣/ ٩).

ـ وقال ابن القيم في مفتاح دار السعادة (ص:٧٤): «... لَّما كان صلاحُ الوجود بالعلماء، ولولاهم كان الناسُ كالبهائم، بل أسوأ حالاً، كان موتُ العالِم مصيبة لا يجبرها إلَّا خلف غيرِه له، وأيضاً فإنَّ العلماءَ هم الذين

يسوسون العبادَ والبلاد والممالك، فموتُهم فسادٌ لنظام العالَم، ولهذا لا يزال اللهُ يغرسُ في هذا الدِّين منهم خالفاً عن سالف يحفظُ بهم دينَه وكتابَه وعبادَه، وتأمَّل إذا كان في الوجود رجلٌ قد فاق العالَمَ في الغنى والكرم، وحاجتهم إلى ما عنده شديدة، وهو محسنٌ إليهم بكلِّ ممكن ثم مات، وانقطعت عنهم تلك المادة، فموتُ العالِم أعظمُ مصيبة من موت مثل هذا بكثير، ومثل هذا يموت بموته أممٌ وخلائق ».

وقبل ذلك كلِّه ما قاله الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه وبركاته عليه، في الحديث المتفق على صحَّته عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إنّ الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد، ولكن يَقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لَم يُبق عالِماً اتَّخذ الناسُ رؤوساً جُهَّالاً، فسُئلوا فأفتوا بغير علم، فضلُّوا وأَضلُّوا »، وهذا لفظ البخاري (١٠٠).

ولا شكَّ أنَّ وجودَ العالِمِ المحقِّق بين الناس غنيمةٌ عظيمةٌ، يستفيدون من نُصحه، ويستضيئون بنورِ علمِه، فإذا فقدوه شعروا بالفراغ الواسع.

وفي هذا المعنى قال الشاعر محمد بن عبد الله بن عثيمين المتوفى سنة ١٣٦٣هـ في رثاء الشيخ سعد ابن حمد بن عتيق المتوفى سنة ١٣٤٩هـ:

خَبَتْ مصابيحُ كنّا نستضيءُ بها	وطوّحَتْ للمغيب الأنجُمُ الزُّهُرُ
واستحكمتْ غُرْبَةُ الإسلام وانكسفتْ	شمسُ العلومِ التي يُهدى بها البَشَرُ

عقِبه:

وأمَّا عقِبه فله خمسة من البنين، وثلاث من البنات.

وبنوه هم: عبد الله، وعبد الرحمن، وإبراهيم، وعبد العزيز، وعبد الرحيم.

وأذكر أنَّه جرى حديث معه في تسمية الأولاد، فكان مِمَّا قال: إنَّني سَمَّيتُ ثلاثةً من أولادي معبَّدين لأسماء الله التي في البسملة، وهم عبد الله، وعبد الرحمن، وعبد الرحيم.

أسألُ اللهَ عزَّ وجلَّ أن يُصلحَ عَقِبَه، وأن يُصلح أبناءَ المسلمين، وأن يُوفِّقنا جميعاً لِما فيه رضاه.

ثامناً: وصايا ومقترحات

أهمُّ ما أوصي به طلبةَ العلم بهذه المناسبة أن يحرصوا على الاشتغال بالعلم، والاستفادة من أهله الذين هم على قيد الحياة، فيغتنموا فرصة وجودهم بينهم، ويأخذوا عنهم العلمَ، ويرجعوا إليهم في معرفة ما يشكل، وأن يعتنوا باقتناء الكتب النافعة لعلماء أهل السُّنَّة المحقِّقين من المتقدِّمين والمتأخِّرين، وأُوصيهم بالعناية بالمذاكرة بينهم في العلم، وشغل أوقاتهم بالقراءة في الكتب النافعة، والاشتغال بما يعود عليهم نفعه في الدنيا والآخرة.

أمَّا بالنسبة لما خلفه الشيخ رحمه الله من آثار، فأقترح أن يقوم بعضُ طلاَّبه الذين على علمٍ بمؤلفاته والأشرطة التي سُجِّلت فيها دروسه ومحاضراته بكتابة فهرس شامل لتلك المؤلفات والأشرطة؛ ليكون طلبةُ العلم على عِلمٍ بها، فيحرصوا على اقتناء ما أمكنهم اقتناؤه منها، ثم العناية بتفريغ ما لَم يُفرَّغ من تلك الأشرطة، والسعي لدى مَن يقوم بطباعتها، ليكون طلبةُ العلم على إحاطة بما خلفه هذا العالِم الكبير من آثار، فيقتنوها ويستفيدوا منها.

ثمَّ أقول: إنَّ الشيخ رحمه الله من العلماء الذين اجتهدوا وحرصوا على اتِّباع الدَّليل من الكتاب والسُّنَّة، وله عناية في التحقيق في المسائل والاستدلال عليها

بالكتاب والسُّنَّة والإجماع والمعقول، حيث يذكر الأدلَّة إجمالاً ثمَّ يفصِّلها، ويُبيِّن وجهَ الاستدلال، وهو مِمَّن رُزق فقهاً في الدِّين، وعناية في فقه الشريعة أصولاً وفروعاً، وهو كغيره يخطئ ويُصيب، وكلٌّ يؤخذ من قوله ويُردُّ إلَّا رسول الله ﷺ.

وله آراء في مسائل يسيرة، يرى غيرُه أنَّ الصوابَ على خلاف ما قال، وقد يكون هو المصيب، ومن المعلوم أنَّ كلَّ مجتهد للوصول إلى الحقِّ لا يعدم الحصول على أجرٍ أو أجرَين، على أجرين إن أصاب، وأجرٍ واحد إن أخطأ؛ لقوله ﷺ في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم عن عمرو ابن العاص رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إذا حكم الحاكمُ فاجتهدَ ثمَّ أصاب فله أجران، وإذا حكَم فاجتهد ثمَّ أخطأ فله أجرٌ»، وهذا لفظ البخاري (٧٣٥٢).

فقد قسم النَّبِيُّ ﷺ الحكَّام في هذا الحديث إلى قسمين: مصيب ومخطئٌ، فدلَّ على أنَّ الحقَّ يُصيبه من يُصيبه، ويخطئه مَن يخطئه، وأنَّه ليس كلُّ مجتهدٍ في اختلاف التضادِّ مصيباً حقًّا، وإنَّما كلّ مجتهد مصيبٌ أجراً، مع تفاوتِهم في الأجر كما هو واضح من هذا الحديث.

والحاصلُ أنَّ الشيخَ رحمه الله عالمٌ كبيرٌ، وعلمُه غزيرٌ، وصوابُه كثير، ونفعُه عميم، فأوصي بالاهتمام بآثاره والاستفادة منها.

وختاماً فقد ورد في صحيح مسلم (٩٢٠) من حديث أمِّ سلمة رضي الله عنها أنَّ النَّبِيَّ ﷺ دعا لأبي سلمة عند موتِه فقال: «اللَّهمَّ اغفر لأبي سلمة، وارفع درجتَه في المهديِّين، واخلفه في عقِبه في الغابرين، واغفر لنا وله يا ربَّ العالَمين، وافسَح له في قبره، ونوِّر له فيه».

وأنا أقول: اللَّهمَّ اغفر للشيخ محمد بن عُثيمين، وارفع درجتَه في المهديِّين،

واخلفه في عقِبِه في الغابرين، واغفر لنا وله يا ربَّ العالَمِين، وافسَح له في قبره، ونوِّر له فيه.

وأسألُ اللهَ أن يُوفِّقنا جميعاً لتحصيل العلمِ النافع، والعمل الصالِح، إنَّه سميعٌ.

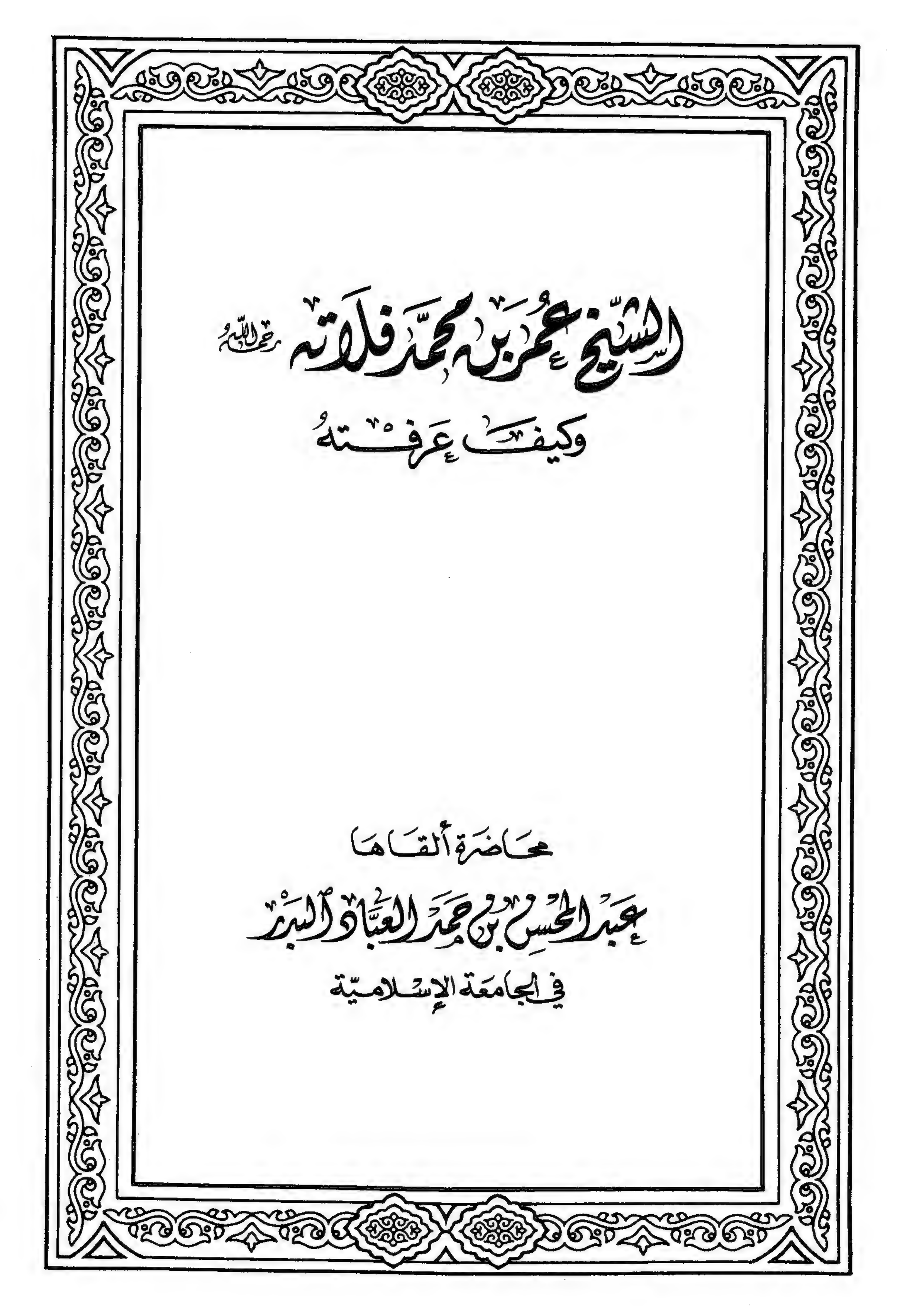
وصلَّى الله وسلَّم وبارك على عبده ورسوله نبيِّنا محمَّدٍ وعلى آله وأصحابه أجمعين.



الفهرس

***





الشيخ عمر بن محمد فلاته رحمه الله

وكيف عرفته

محاضرة ألقاها

عبد المحسن بن حمد العباد البدر

في الجامعة الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله نحمدُه ونستعينُه، ونستغفرُه، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا ومن سيِّئات أعمالنا، من يهدِه اللهُ فلا مُضلَّ له، ومن يُضلل فلا هاديَ له، وأشهدُ أن لا إله إلَّا اللهُ وحده لا شريكَ له، وأشهدُ أنّ محمّداً عبدُه ورسولُه، وخليلُه وخيرتُه من خَلْقِه، أرسلهُ اللهُ بين يدي السّاعة بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، فدلَّ أمّتَهُ على كلِّ خير، وحذّرها من كلِّ شرّ، اللهمّ صلِّ وسلِّم وبارك عليه، وعلى آلهِ وأصحابه، ومن سلكَ سبيلَهُ واهتدى بهديه إلى يوم الدِّين.

أمّا بعدُ:

فإنّ الحديث معكم أيّها الإخوة في هذا اللّقاء[1] عن الشّيخ عمر محمّد فلاته رحمه الله، ولو كان الحديثُ في بلد آخر غير المدينة في أناس لا يعرفون الشّيخ عمر رحمه الله معرفةً تامّةً أمكن أن يكون فيها أقول لهم فائدة، أمّا والكلامُ عنه رحمه الله في المدينة وفي أناسٍ يعرفونه فإنَّ الفائدة قد لا تكونُ كبيرةً جدّاً.

وكلامي عن الشّيخ عمر رحمه الله تعالى يتعلّق في أمور:

أوّلاً: اسمُه، وولادتُه، ونشأتُه.

ثانياً: عقيدتُه، ودعوتُه، ومنهجُه.

ثالثاً: تدريسُه في المسجد النّبويّ.

رابعاً: إدارتُه لدار الحديث في المدينة.

---

(١) محاضرة ألقيت في قاعة المحاضرات في الجامعة الإسلامية في أوائل شهر المحرّم من عام ١٤٢٠ هـ.

خامساً: أعمالُه الأخرى في غير الدّار، بالإضافة إلى إشرافه على الدّار.

سادساً: عددُ حجّاته.

سابعاً: كيف عرفتُ الشّيخ عمر ومدى الصّلة التي بيني وبينه.

ثامناً: صفاتُه والتّشابهُ بينه وبين شيخه وشيخي الشّيخ عبد الرّحمن الإفريقيّ رحمه الله تعالى.

تاسعاً: ذكر أمثلة من دُعابته وطرائفه رحمه الله تعالى.

عاشراً: وفاتُه وعقبُه.

فأقول:

أوّلاً: اسمُه

هو رفيقي وصديقي وحبيبي الشّيخ عمر بن محمّد بكر الفُلاَّنِيُّ الشّهيرُ بفُلاَّته، هكذا أُثبت في نموذج الإجازة التي يمنحها، وأنا أعرف أنّه أحياناً يقول: الفُلاَّني، وأحياناً يقول: فُلاَّته، والفُلاَّني: نسبة إلى قبيلة في إفريقيا.

أمّا ولادتُه: فكانت في عام ١٣٤٥هـ، وكان ذلك على مقربة من مكة، وذلك أنّ أبويه هاجرا من إفريقيا، ومكثا في الطّريق ما يقرب من سنة، وعلى مقربة من مكّة ولد الشّيخ عمر رحمه الله، وكان يقول: شاء الله أن يبدأ أبواه في الرّحلة وهما اثنان، وأن تنتهي وهم ثلاثة، أي: بوجود هذا المولود الذي صار ثالثاً لهما.

أمّا نشأتُه: فقد انتقل مع والديه بعد عام من ولادته إلى المدينة، ونشأ فيها وترعرع وبدأ تعليمه بالكُتّاب عند العريف محمّد بن سالم، ثمّ دخل في دار العلوم الشّرعيّة، ونال شهادتها الابتدائيّة، ثمّ نال الشّهادة الابتدائيّة من مديرية

المعارف العمومية وذلك في عام ١٣٦٣هـ، ثمّ بعد ذلك واصل الدّراسة في ما فوق الابتدائيّة، ودخل دار الحديث وأخذ شهادتها العالية، وكان ذلك في سنة ١٣٦٧هـ، ولازم الشّيخ عبد الرّحمن بن يوسف الإفريقيّ رحمه الله، واستفاد من علمه، وله مشايخ آخرون استفاد منهم ولكن الفائدة الكبيرة والملازمة المستمرّة إنّما هي للشّيخ عبد الرّحمن بن يوسف الإفريقيّ رحمه الله، ودرّس في دار الحديث، ودرّس أيضاً في غيرها، وبعد وفاة الشّيخ عبد الرّحمن الإفريقيّ رحمه الله الذي كان هو النّاظر على دار الحديث تولّى إدارتها الشّيخ عمر رحمه الله.

ثانياً: أمّا عقيدتُه ومنهجُه:

فقد كان رحمه الله على عقيدة السّلف ومنهجهم، ملتزماً بما جاء عن الله وعن رسوله صلى الله عليه وسلم، حريصاً على معرفة الدّليل، واقتفاء آثار السّلف الصّالح، وكان يكرهُ المناهج المخالفة لطريقة السّلف الصّالح رحمهم الله.

وأمّا دعوتُه إلى الله: فكان داعيةً ناجحاً، وذلك في فصاحته وبلاغته وأسلوبه الحسن، وفي نصحه وصدقه وإخلاصه رحمه الله، فكان في دعوته مفيداً ونافعاً لمن يسمعه، وكان رحمه الله عندما يتحدّث في بعض الدّروس وفي بعض الكلمات التي يلقيها في الدّعوة إلى الله عزّ وجلّ ـ وقد سمعتُ جملةً منها في الحجّ ـ فإنّه كان يشدّ انتباه الحاضرين إلى كلامه، وذلك لفصاحته وبلاغته وعلمه ومعرفته وجودة إلقائه وتمكّنه من المادّة التي يتكلّم فيها.

وقد قام رحمه الله بالدّعوة إلى الله عزّ وجلّ عن طريق تدريسه في المسجد النّبويّ، وعن طريق مشاركته في توعية الحجّاج فإنّه منذ أنشأت التّوعية التّابعة لرئاسة البحوث العلميّة والإفتاء والدّعوة والإرشاد في عام ١٣٩٢هـ إلى أن توفّي وهو في التّوعية، فكان يفيد السّامعين ويفيد الحجّاج وغير الحجّاج رحمه الله،

وكذلك ذهب للدّعوة إلى الله عزّ وجلّ منتدباً من الجامعة الإسلاميّة، وأيضاً للتّدريس في الإجازة الصّيفيّة في الدّورات التي تقيمها الجامعة، وكان داعيةً إلى الله عزّ وجلّ في البلاد المختلفة التي ذهب إليها.

ثالثاً: أمّا تدريسُه في المسجد النّبويّ

فقد كان بداية ذلك في عام ١٣٧٠هـ إلى أن توفّي رحمه الله تعالى في أواخر العام الماضي ١٤١٩هـ، أي أنّه درّس في المسجد النّبويّ ما يقارب نصف قرن قضاها في التّدريس في هذا المسجد المبارك مسجد الرّسول ﷺ، وكان مكانُه قريباً من الرّوضة، وكنتُ عندما بدأت بالتّدريس في المسجد النّبويّ حلقتي قريبة من حلقته، وكنّا نسمع صوته الرّخيم الواضح الجهوريّ، وكان صوتُه رحمه الله يرتفع وينخفض، وكنّا نداعبُه عند ذلك في الطّلعات التي تكون في صوته حيث ينزل ثمّ يرتفع ويسمعه من يكون بعيداً منه.

وعلى هذا فقد مكث هذه المدّة الطّويلة التي لم يكن أحدٌ يماثلُه فيها في هذا الزّمان، والذي يقاربُه فيها الشّيخ أبو بكر الجزائريّ حفظه الله فإنّه بدأ بالتّدريس في المسجد النّبويّ في عام ثلاثة وسبعين وثلاثمائة وألف، ولا يزال في التّدريس بارك الله في جهوده وفي دعوته ونفع به المسلمين.

رابعاً: إدارتُه لدار الحديث بالمدينة

بعدما توفّي الشّيخ عبد الرّحمن الإفريقيّ رحمه الله في عام ١٣٧٧هـ وكان هو النّاظر عليها خلفه الشّيخ عمر في إدارتها والنّظارة عليها، وكانت لها منزلة عنده ومكانة رفيعة، وكان يحدب عليها ويحرص عليها وهي شغله الشّاغل رحمه الله تعالى، واستمرّ فيها مديراً لها ومربّياً وموجّهاً لطلاّبها.

وفي عام خمسة وثمانين وثلاثمائة وألف انتقل إلى الجامعة الإسلاميّة في الأعمال المختلفة التي سأشير إليها بعد قليل، ولكنّه مع ذلك محتفظ بإدارة هذه الدّار والإشراف عليها مع أعماله التي أنيطت به في الجامعة الإسلاميّة، واستمرّ على ذلك في الجامعة يقوم بالأعمال التي أنيطت به بالإضافة إلى إشرافه على دار الحديث، ولمّا تقاعد رجع إلى الجلوس فيها وإدارتها حتّى توفّاه الله عزّ وجلّ.

وكان رحمه الله قد اعتنى بهذه الدّار، ولمّا أدخلت المباني القريبة من المسجد النّبويّ في مشروع المسجد النّبويّ، وكانت الدّارُ قريبةً من المسجد، وكانت إمّا داخلة في المسجد أو في السّاحة القريبة منه، وكان قد رُصد لها مبلغ من المال تعويضاً لذلك الوقف للأرض والمنشآت التي عليه، فقيل له: لو أنّك طلبت منهم أن يزيدوا في المقدار الذي خصّص تعويضا لهذه الدّار؟ فقال: لا أفعل لأنّها ـ أي الأرض ـ داخلة في المسجد النّبويّ أو في ساحاته ويكون الأجر والثّواب إن شاء الله لِمَن أسّسها وأوقفها حيث تكون في جملة المسجد أو في ساحات المسجد. ثمّ إنّه بعدما رُصد المبلغ لهذه الدّار اجتهد في البحث عن مكان مناسب وكان أن انتهى إلى شراء تلك الأرض التي بنيت عليها الدّار الآن، وتمّ بناؤُها على وجه حسن وبناء فيه إتقان ومتانة، وتصميمُ هذه الدّار صار له تميّزٌ في هذه المدينة ونال جائزة المدينة في التصميم العمراني.

خامساً: الأعمال التي أنيطت به

في عام خمسة وثمانين وثلاثمائة وألف نُقل إلى الجامعة وكُلّف بعمل الأمين العام المساعد، واستمرّ على ذلك، ثمّ عيّن أمينا عاما، ثمّ بعدما صنّف هيئة التّدريس وتحوّلوا من الوظائف القديمة إلى الوظائف التي هي في كادر

المدرّسين على النّظام الحديث وذلك في عام ١٣٩٦هـ صنّف على أستاذ مساعد.

وكان مع قيامه في العمل الإداري يؤدّي دروساً في كليّة الحديث، ثمّ بعد ذلك صار مسؤولاً عن مركز الدّعوة في الجامعة، ثمّ مسؤولاً عن مركز خدمة السّنّة والسّيرة النّبويّة في الجامعة، وهو الذي تمّ على يديه تأسيسُه والبداءةُ به، وتقاعد وهو يقوم بذلك العمل.

سادساً: عددُ حجّاته

حجّ فرضه في عام ١٣٦٥هـ واستمرّ في الحجّ إلى عام ١٤١٨هـ لم يتخلّف عن الحجّ إلّا سنة واحدة وهي سنة ١٣٦٧ هـ بسبب تمريض مريض كان عنده، وقد بلغت حجّاتُه رحمه الله ثلاثا وخمسين حَجَّةً.

سابعاً: صفاتُه والتّشابهُ بينه وبين شيخه وشيخي الشّيخ عبد الرّحمن الإفريقيّ رحمه الله تعالى

كان من صفاته رحمه الله ـ كما هو معلوم لكلّ من عرفه ـ طلاقةُ الوجه وحسنُ الاستقبال، وكان رحمه الله مع قلّة ماله وضعف حاله غنيّ النّفس سخيّ اليد رحمه الله تعالى، وكان حريصاً على نفع المسلمين، ومدّ يد العون لهم ومساعدتهم، وكان رحمه الله تعالى ذا تواضع جمّ يعرفُه من خالطه ومن رافقه في السّفر، وقد رافقتُه كما رافقه غيري وكلٌّ يعرف منه تواضعه وأنّه مع كونه يكبر من يكون معه في السّنّ إلّا أنّه يبادر إلى أن يسبق إلى الخدمة مع أنّه هو الحقيق بأن يُخدم لفضله ولكبر سنّه رحمه الله تعالى.

وكان بينه وبين شيخه الشّيخ عبد الرّحمن الإفريقيّ شبه واضح بيّن، وأنا درستُ على الشّيخ عبد الرّحمن الإفريقيّ في الرّياض في عام ١٣٧٢هـ وعام

١٣٧٣هـ درستُ عليه في الحديث والمصطلح، وكان مدرّسا ناصحا وعالما كبيرا، وموجّها ومرشدا وقدوة في الخير رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى. والتّشابهُ بينه وبين الشّيخ عمر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قويٌّ فإنّ الصّفات التي ذكرتُها عن الشّيخ عمر موجودة في شيخه الشّيخ عبد الرّحمن الإفريقيّ وكلٌّ منهما له محبّة في النّفوس وقبول عند النّاس. وللشّيخ عمر رَحِمَهُ ٱللَّهُ محاضرة واسعة عن الشّيخ عبد الرّحمن الإفريقيّ ألقاها في قاعة المحاضرات بالجامعة الإسلاميّة في ١٣/ ٤/ ١٣٩٨هـ، وهي مطبوعةٌ في المجلّد الخامس ضمن محاضرات الجامعة الإسلاميّة المطبوعة في ستّة مجلّدات للأعوام: من ١٣٩٤ إلى ١٣٩٩هـ، كلُّ مجلّد منها يشتملُ على خمس عشرة محاضرة، وهي موجودة في مكتبات الجامعة.

ثامناً:

أمّا كيف عرفتُ الشّيخ عمر محمّد فلاّته ومدى الصّلة التي بيني وبينه فأوّل ما عرفتُه عندما قدمتُ إلى المدينة عند افتتاح الجامعة الإسلاميّة في عام ١٣٨١هـ كنتُ أسمع ويتردّد على سمعي الشّيخ عمر مدير دار الحديث، فذهبتُ إليه ودخلتُ مع باب الدّار الذي هو إلى جهة الجنوب، وبعدما يدخل الإنسانُ مع هذا الباب يجد أمامه ساحة واسعة وعلى يساره غرفة هي مكان مدير الدّار وإذا الشّيخ عمر رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في زاوية من زوايا هذه الغرفة على مكتبه، فسلّمتُ عليه ورأيتُ من أوّل وهلةٍ منه السّماحة واللّطف والبُشر والدّعاء ومحبّة الخير للنّاس.

فكان هذا أوّل لقاء حصل لي معه وأوّل تعرّف عليه في تلك الجلسة التي دخل حبُّه في قلبي، وبعد ذلك توطّدت العلاقة بيني وبينه ولاسيّما بعدما انتقل إلى الجامعة الإسلاميّة، فكنتُ لا يمرّ يومٌ غالبا إلّا وألتقي به وأجلس معه

وأستأنس به كثيراً رحمه الله تعالى، ثمّ في عام ١٣٨٩هـ وكذلك في العام الذي يليه ذهبتُ أنا وإيّاه للتّعاقد مع مدرّسين للجامعة الإسلاميّة إلى الأردن وسوريا ولبنان ومصر، وبلغت تلك المدّة التي اصطحبنا فيها ما يقرب من شهرين في كلّ من هاذين العامين، وقد رأيتُ أخلاقه الكريمة وتواضعه الجمّ.

وأذكر أنّه كنّا في فندق من الفنادق، وكنّا نسكن في غرفة وفي داخلها حمّام، وكان في الحمّام يقضي حاجته رحمه الله، فدخل شخص فقال: أين رئيس اللّجنة؟ فقلتُ له: اجلس يأتي الآن، وكان يسمع وهو في داخل الحمّام، ولمّا خرج قال: هذا رئيس اللّجنة يشير إليّ: لستُ أنا رئيس اللّجنة، فقلتُ: لا أبداً لستُ رئيسَ اللّجنة أنت رئيسُها، فصار الأمرُ يدور بيني وبينه كلٌّ يقول للآخر: أنا لستُ الرّئيس وإنّما الرّئيسُ أنتَ، فتعجّب هذا الشّخصُ الذي دخل وكان يسأل عن رئيس اللّجنة، وهذا من لطافته وتواضعه وسماحته رحمه الله تعالى.

ثمّ كانت العلاقة بيني وبينه وطيدةً جدّا بحيث لا ينقطع أحدُنا عن الآخر، وكان يزورني وأزوره، ويتّصل بي وأتّصل به، إذا تأخّر أحدُنا عن الآخر فترة وجيزة اتّصل بالهاتف يسألُ عنّي واتّصلتُ به أيضا أسألُ عنه، وكانت المودّة بيننا قائمة، وكان ذلك كلّه في الله ومن أجل الله، ليس هناك رابطة تربطني به إلّا الحبّ في الله والموالاة في الله عزّ وجلّ، وأرجو أن أكون وإيّاه من السّبعة الذين يظلّهم الله في ظلّه يوم لا ظلّ إلّا ظلُّه الذين ورد ذِكْرُهُمْ في الحديث الصّحيح وفيهم: «ورجلان تحابّا في الله اجتمعا على ذلك وتفرّقا عليه».

وكان رحمه الله مأذوناً لعقد الأنكحة، وهذا من المجال الذي ينفع فيه النّاس ويحسن فيه إلى النّاس رحمه الله تعالى، وكان باذلاً نفسه لهذه المهمّة وذلك في وقت مبكّر.

تاسعاً:

أمّا الأمثلةُ من دعابته وطرائفه فأذكر من لطائفه حول موضوع عقد الأنكحة أنّه جاء إلى موظّف في إدارة في حاجة من الحاجات، وكأنَّ ذلك الموظّفُ تلكّأ وما قام بتيسير أمر الشّيخ عمر، وكان قد عقد لوالد هذا الموظّف على أمّه، فكان منه أن قال: هذا ابنُ فلان؟ هذا الذي عقدتُّ لأبيه على أمّه، أنا الذي أخطأتُ لمّا عقدتُّ لأبيه على أمّه!! فضحك النّاسُ وقام الموظّفُ حالاً بإنهاء حاجته، فهذا من لطافته وظرافته رحمه الله تعالى.

ومن طرائفه أنّا كنّا في سفر إلى مصر وكان في الأزهر طلبة كثيرون جاءوا من الأرياف، وكانوا يتّخذون من أروقة الأزهر سكنا لهم، وللمسجد إمام وكان يدعو للطّلاّب فيقول: اللّهمّ نجّح الطّلاّب، ووفّقهم للحكمة والصّواب. ومن دعابة الشّيخ عمر أنّه كان يُؤَمِّنُ ويقول: نحن من الطّلاّب أي: طلاّب المدرّسين لأنّنا جئنا في طلبهم والتّعاقد معهم.

ومن طرائفه أنّه كان معنا في السّفر نقود هي دولارات أمريكيّة، وكنّا نسمعُ إذاعة لندن، وعندما يأتي في آخر الأخبار بيان أسعار العملة فيذكر انخفاض سعر الدّولار فيظهر التّأثّر مداعبةً لأنّ النّقود التي معنا دولارات.

ومن طرائفه أنّني كنتُ معه في مجلس وفيه أحدُ المشايخ وقد حجّ فرضه بعد ولادتي بسنة، وكنتُ أعرفُ ذلك فسألتُه قائلاً: متى حججتَ فرضَك؟ فقال له الشّيخ عمر: انتبه لا يجرّ لك لسانك، يعني بذلك التّوصّل إلى مقدار عمر ذلك الشّيخ.

ومن الطّرائف العجيبة أنّني أداعب الشّيخ عمر حول سنّه وأنّه كبير، ولا يظهر عليه أثر الكِبَر، وفي سنة من السّنوات كنّا في الحجّ، ودخلنا مخيّم التّوعية في عرفات، وإذا فيه رجل قد ابيضّ منه كلُّ شيء حتّى حاجباه، فقلتُ للشّيخ

عمر: هذا من أمثالك أي: كبار السّنّ، وبعد أن جلسنا قال ذلك الرّجل يخاطبني: أنا تلميذ لك درّستني في مدرسة ليلية ابتدائية في الرّياض ـ وكان ذلك في سنة ١٣٧٤ هـ تقريباً ـ، وكنتُ في زمن دراستي في الرّياض أدرّس مساء متبرّعاً في تلك المدرسة التي غالبُ طلاّبها موظّفون، فوجد ذلك الشّيخ عمر رحمه الله مناسبة ليقلب الموضوع عليّ، فكان يكرّر مخاطباً ذلك الرّجل: أنت تلميذ الشّيخ عبد المحسن؟

عاشراً: وفاته

لقد توفّي رحمه الله في صبيحة يوم الأربعاء الموافق التّاسع والعشرين من شهر ذي القعدة من عام ١٤١٩هـ، وهو آخر يوم في ذلك الشّهر إذ ثبت دخول ذي الحجّة ليلة الخميس، وكان رحمه الله يرقد في مستشفى في الرّياض، وكنتُ عزمتُ على أن أزوره في الرّياض ولكنّه قيل: إنّ الأطبّاء سيأذنون له بالخروج آخر الأسبوع، وعاد إلى المدينة في صبيحة اليوم الثّامن والعشرين، وشاء الله عزّ وجلّ أن تقبض روحه وهو في المدينة من الغد؛ وصل السّاعة الثّامنة والنّصف من يوم الثّلاثاء يوم الثّامن والعشرين وفي الثّامنة والنّصف من يوم الأربعاء التّاسع والعشرين توفّي رحمه الله. وصلّي عليه في المسجد النّبويّ بعد صلاة العصر، ودفن في البقيع، وشهد جنازته خلق كثير من الحجّاج و غيرهم رحمه الله وغفر له.

وقد خلف بعده سبعة من البنين واثنتين من البنات أصلحهم الله جميعا وبارك فيهم.

وفي الختام أسأل الله عزّ وجلّ أن يغفر للشّيخ عمر وأن يعلي درجته، وأن لا يفتننا بعده، وإنّا لله وإنّا إليه راجعون، وصلّى الله وسلّم وبارك على عبده ورسوله نبيّنا محمّد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

الفهرس

❊ ❊ ❊

محتويات المجلد السادس

***